شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - إيران ١٤٠٤ هـ

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 015658006

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2014

Ibn Abī al-Ḥadīd

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

~~2264
.1067
.741
1985
Juz' 5~~

~~2274
.8758
.741
1985
Juz' 5~~

2264
.1067
.741
1985
Juz' 9-10

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٧م)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 015658006

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

[ذكر أطراف مما شجر بين على وعثمان فى أثناء خلافته]

واعلَم أنّ هذا الكتاب يستدعى منّا أن نذكُر أطرافاً مِمّا شجَر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته ؛ إذْ كان هذا الكلام الذى شرحناه من ذلك النَّمَط[1] ؛ والشىء يُذكر بنظيره ؛ وعادتنا فى هذا الشرح أن نذكرَ الشىء مع مايناسبه ويقتضى ذكرَه .

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ فى كتاب "أخبار السقيفة" : حدّثنى محمد بن منصور الرمادىّ ، عن عبد الرزاق ، عن معمَر ، عن زياد بن جَبَل ، عن أبى كعب الحارثىّ[2] — وهو ذو الإداوة[3] ، قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وإنما سمّىَ ذا الإداوة لأنه قال : إنى خرجتُ فى طلب إبلٍ ضوالّ ، فتزوّدتُ لبناً فى إداوة ، ثم قلت فى نفسى : ماأنصفتُ ربّى ! فأين الوضوء ؟ فأرقتُ اللّبن وملأتُها ماء ، فقلت : هذا وضوء وشراب ، وطفِقْت أبغى إبلى ، فلما أردتُ الوضوء اصطببتُ من الإداوة ماء فتوضّأت ، ثم أردتُ الشّرب ، فلمّا اصطببتُها ؛ إذا لبن فشربت ؛ فمكثت بذلك ثلاثا : فقالت

(١) انظر الجزء الثامن ص ٢٥٢ إلى ٢٦٢ فى أخبار أبى ذر الغفارى وإخراجه إلى الربذة وموقف عثمان وعلى منه .
(٢) أبو كعب الحارثى ، أورده ابن حجر فى الإصابة ٤ : ١٦٥ ؛ ونقل خبره ، عن معمر فى جامعه .
(٣) الإداوة ، بالكسر : إناء صغير من جلد .

له أسماء النحرانية : يا أبا كعب ، أحقيناً كان أم حليباً[1] : قال : إنك لبطّالة ! كان يعصم من الجوع ويروى من الظمأ ، أما إنى حدّثت بهذا نفراً من قومى ؛ منهم علىّ بن الحارث سيّد بنى قنان ؛ فلم يصدّقنى ، وقال : ما أظنّ الذى تقول كما قلت ! فقلت : الله أعلم بذلك . ورجعت إلى منزلى ، فبتّ ليلتى تلك ، فإذا به صلاةَ الصبح على بابى ، فخرجت إليه ، فقلت : رحمك الله ! لم تعنّيت ؟ ألا أرسلتَ إلىّ فآتيك ، فإنى لأحقّ بذلك منك قال : مانمت الليلة إلا أتانى آتٍ فقال : أنت الذى تكذّب مَنْ يحدّث بما أنعم الله عليه ! قال أبو كعب : ثم خرجت حتى أتيت المدينة ، فأتيت عثمانَ بن عفّان وهو الخليفة يومئذٍ فسألتُه عن شىء من أمر دينى ، وقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إنى رجلٌ من أهل اليمن من بنى الحارث بن كعب ، وإنى أريدُ أن أسألك فأْمُر حاجبَك ألّا يحجُبَنى ، فقال : يا وثّاب ، إذا جاءك هذا الحارثىّ فأْذَنْ له . قال : فكنت إذا جئت ، فقرعت الباب ، قال : مَنْ ذا ؟ فقلت : الحارثىّ . فيقول : ادخل ، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس ، وحوله نفرٌ سكوت لا يتكلّمون ، كأنّ على رءوسهم الطير ، فسلّمت ثم جلست ، فلم أسأله عن شىء لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله ، فبينا أنا كذلك إذ جاء نفرٌ ، فقالوا : إنه أبَى أن يجىء . قال : فغضب وقال : أبى أن يجىء ! اذهبوا فجيئوا به ؛ فإنْ أبَى فجرّوه جرّاً .

قال : فكثت قليلاً ، فجاءوا ومعهم رجل آدم طُوال أصلع ، فى مقدّم رأسه شعرات ، وفى قفاه شعرات ، فقلت : مَنْ هذا ؟ قالوا : عمّار بن ياسر ، فقال له عثمان : أنتَ الذى تأتيك رسلُنا فتأبَى أن تجىء ! قال : فكلّمه بشىء لم أدرِ ماهو ، ثم خرج . فما زالوا

---

(١) الحقين : اللبن الذى قد حقن فى السقاء لتخرج زبدته . والحليب : اللبن المحلوب الذى لم يتغير طعمه .

ينفضّون من عنده حتى ما بَقِىَ غيرى فقام ، فقلت : والله لا أسألُ عن هـذا الأمر أحـداً أقول حدّثنى فلان حتى أدرِى ما يصنع . فتبعته حتّى دخل المسجد ، فإذا عمّار جالس إلى سارية ، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون ، فقال عثمان : ياوثّاب علىّ بالشُّرَط ، فجاءوا ،فقال : فرّقوا بين هؤلاء ، ففرّقوا بينهم .

ثم أقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان فصلّى بهم ، فلما كَبّرقالت امرأة من حُجُرتها : يأيّها الناس . ثم تـكلّمت ، وذكرت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وما بعثه الله به ،ثم قالت: تركتم أمر الله ، وخالفتم عهده . . . ونحو هـذا ، ثم صمَتَتْ وتـكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك ، فإذا هما عائشة وحفصة .

قال : فسلّم عثمان ، ثم أقبل على الناس ، وقال : إنّ هاتين لَفتّانتان، يحلّ لى سبّهما ، وأنا بأصلهما عالم .

فقال له سعد بن أبى وقّاص : أتقولُ هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال: وفِيمَ أنت ! وما هاهنا ، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربَه ، فانسلّ سعد .

فخرج من المسجد ، فاتّبعه عثمان ، فلقِىَ علياً عليه السلام بباب المسجد ، فقال له عليه السلام : أين تريد؟ قال : أريد هذا الّذى كذا وكذا ــ يعنى سعدا يشتِمه ــ فقال له علىّ عليه السلام : أيّها الرجل ، دعْ عنك هذا .قال : فلم يَزلْ بينهما كلام ، حتى غضبا،فقال عثمان : ألستَ الّذى خلّفك رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم تَبُوكَ !فقال علىّ : ألستَ الفارّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد !

قال : ثم حَجَزَ النّاس بينهما . قال : ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الـكوفة، فوجدت أهلها أيضا وقع بينهم شرّ ، ونشبوا فى الفتنة ، وردّوا سعيدَ بن العاص فلم يَدَعُوه يدخل إليهم . فلمّا رأيتُ ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومى .

* * *

وروى الزُّبير بن بَـكّار فى كتاب "الموفقيات"، عن عمّه، عن عيسى بن دواد، عن رجاله، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما بنى عثمان دارَه بالمدينة، أكثرَ النّاس عليه فى ذلك فبلغه، فخطبَنا فى يوم جمعة؛ ثم صلّى بنا، ثم عاد إلى المِنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى عَلَى رسوله، ثم قال: أمّا بعدُ؛ فإنّ النعمة إذا حدَثَتْ حدث لها حُسّاد حَسْبَها، وأعداء قَدْرَها؛ وإنّ الله لم يحدِثْ لنا نعما ليَحْدُثَ لها حسّاد عليها، ومنافسون فيها، ولـكنّه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه، وضمّ القاصية إليه، فأتانا عن أناس منكم أنّهم يقولون: أخذ فَيْئَنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون خَمَرا(1)، وينطقون سِرّا؛ كأنّا غُيَب عنهم، وكأنهم يهابون مواجَهتنا؛ معرفةً منهم بدُحوض حجّتهم؛ فإذ غابوا عنّا يرُوح بعضهم إلى بعض بذكرنا. وقد وجدوا عَلَى ذلك أعوانا من نظرائهم، ومؤازرين من شبابهم، فبعدا بعداً! ورغما رغما. ثم أنشد بيتين كأنه يومى فيهما إلى علىّ عليه السلام:

توقّد بنارٍ أينما كُنتَ واشتعِلْ ... فلستَ تَرَى مما تعالج شافيـــا

تشُطّ فيقضى الأمرَ دونَكَ أهلُه ... وشيكاً، ولا تُدعَى إذا كنتَ نائيا

مالِى ولفيئِـكم وأخذ مالـكم. ألستُ من أكثر قريش مالًا، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام وبعده. وهبُونى بنيتُ منزلًا من بيت المال؛ أليس هو لى ولـكم. ألم أقِمْ أمورَكم، وأنى من وراء حاجاتـكم! فما تفقدون من حقوقـكم شيئا، فلم لا أصنع فى الفضل ما أحببت؛ فلمَ كنتُ إماماً إذاً. ألا وإنّ من أعجب العجَب، أنّه بلغنى عنـكم أنـكم تقولون: لنفعلنّ به ولنفعلنّ. فبِمَنْ تفعلون، لله آباؤكم. أبنقد البقاع، أم بفقع القاع! ألست أحراكم إن دعا أن يُجاب؛ وأقمنَـكم إن أمَرَ أنْ يُطاع.

---

(١) فى المثل: «هو يدب له الضراء، ويمشى له الخمر»، يقال لمن ختل صاحبه.

لهفى عَلَى بقائى فيكم بعد أصحابى ، وحياتى فيكم بعد أترابى ! يا ليتنى تقدّمت قبل هذا، لكنّى لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لى عزّ وجلّ ؛ إذا شئتم فإنّ الصادق المصدّق محمدا صلى الله عليه وسلم قد حدّثنى بما هو كائن من أمرى وأمركم ، وهذا بدء ذلك وأوّله ، فكيف المهرب مما حتم وقدّر ! أما إنّه عليه السلام قد بشّرنى فى آخر حديثه بالجنّة دونكم، إذا شئتُم فلا أفلح من نَدِم !

قال : ثمّ همّ بالنزول فبصُر بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعَه عمّار بن ياسر رضى الله عنه ، وناسٌ من أهل هواه يتناجونَ؛ فقال : إيهاً إيهاً ! أسراراً لا جهاراً ! أما والّذى نفسى بيده ما أحنِق عَلَى جِرّة ، ولا أوتَى من ضعف مِرّة ؛ ولولا النّظر لى ولكم والرّفق بى وبكم ، لعاجلتكم ؛ فقد اغتررتم ، وأفلتم من أنفسكم .

ثم رفع يديه يدعو ويقول : اللهمّ قد تعلم حُبّى للعافية فألبسْنِيها ، وإيثارى للسلامة فآتِنيها .

قال : فتفرّق القوم عن علىّ عليه السلام ، وقام عدىّ بن الخيار ؛ فقال: أتمّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين النعمة، وزادك فى الكرامة ، والله لأنْ تُحسَد أفضلُ من أن تَحْسُد ؛ ولأن تُنافَس أجلّ من أنْ تنافِس! أنت والله فى حَسَبِنا الصميم ، ومنصبنا الكريم ؛ إن دَعوتَ أجِبْت ؛ وإن أمرت أُطِعت ، فقل نفعل ، وادعُ نُجِبْ ؛ جُعِلت الخِيَرة والشّورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختارُوا لهم ولغيرهم ، وإنهم ليرونَ مكانك ، ويعرفون مكان غيرك ؛ فاختاروك منيبين طائعين ، غير مكرهين ولا مجبَرين ، ما غيّرت ولا فارقت ، ولا بدّلت ولا خالفت ؛ فعلَامَ يقدمون عليك وهذا رأيهم فيك ! أنت والله كما قال الأول :

إذهب ، إليك فما للحسو ... دِ إلّا طلابُك تحت العثارِ

حكمتَ فما جُرْتَ فى خَلَّةٍ فحكمُك بالحقّ بادى المنار
فإن يسبَعوك فسِرًّا وقَدْ جَهَرْتَ بسيفك كلَّ الجهارِ [1]

* * *

قال : ونزل عثمان فأتى منزله ، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس ، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل علَى ابن عباس ، فقال : مالى ولكم يابن عباس ! ما أغراكم بى ، وأولعكم بتعقب أمرى ! أتنقِمون علىّ أمرَ العامة ؛ أتيتُ من وراء حقوقهم ، أم أمركم ؟ فقد جعلتُهم يتمنّوْن منزلتكم ! لا والله لكن الحسدوالبغى وتثوير الشرّ وإحياء الفتن! والله لقدألقى النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ ذلك ، وأخبرنى به عن أهله واحداًواحداً ، والله ما كذَبت ولا أنا بمكذوب .

فقال ابن عباس: على رسْلِك ياأمير المؤمنين ، فوالله ما عهدتك جَهراً بسِرّك ،ولامظهراً مافى نفسك، فماالذىهيّجك وثوّرك إنّالم يولعنَا بك أمر،ولم نتعقبْ أمرَك بشىء،أُتيتَ بالكذب، وتُسُوِّق عليك بالباطل. والله مانقمناعليك لناولا للعامة،قدأوتيتَ من وراء حقوقنا وحقوقهم ، وقضيتَ ما يلزمك لنا ولهم ، فأما الحسد والبغى وتثوير الفتن ، وإحياء الشرّ فمتى رضيتْ به عِتْرة النبىّ وأهل بيته ! وكيف وهم منه وإليه! على دين الله يثوّرون الشرّ، أم على الله يحيون الفتن ، كلاّ ليس البغى ولا الحسد من طباعهم . فاتّئِدْ ياأميرَ المؤمنين وأبصِرْ أمرك ، وأمسك عليك؛ فإن حالتك الأولَى خير من حالتك الأخرى ! لعمرى أن كنتَ لأثيراً عندرسول الله، وأن كان ليفضى إليك بسره مايطويه عن غيرك،ولا كذبت ولاأنت بمكذوب؛ اخسأ [2] الشيطان عنك ولا يركبْك ، واغلب غضبَك ولا يغلبك،فما دعاك إلى هذا الأمر الذى كان منك !

قال : دعانى إليه ابنُ عمّك علىّ بن أبى طالب ، فقال ابن عباس : وعسى أن يكذبَ مبلّغُك ! قال عثمان : إنه ثقة ، قال ابن عباس : إنه ليس بثقةٍ مَنْ بلّغ وأغرى . قال عثمان : يا بن عباس ، آلله إنك ما تعلم من علىّ ما شكوتُ منه ؟ قال : اللهم لا ، إلا أن يقول كما يقول الناس ، وينقِم كما ينقمون ؛ فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم ! فقال عثمان : إنما آفتى من أعظم الداء الذى ينصب نفسه لرأس الأمر ، وهو علىٌّ ابن عمك ، وهذا والله كلّه من نكده وشؤمه . قال ابن عباس : مهلاً ، استثْن يا أمير المؤمنين ، قلْ : إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله . ثم قال : إنى أنشدك يابن عباس الإسلام والرَّحِم فقد والله غلِبت وابتليت بكم ، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دونى فحملتموه عنى ، وكنت أحدَ أعوانِكم عليه ، إذاً والله لوجدتمونى لكم خيراً مما وجدتكم لى ، ولقد علمتُ أنّ الأمر لكم ، ولكنّ قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم ، فو الله ما أدرى أدَفعوه عنكم أم دفعوكم عنه !

قال ابن عباس : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنا ننشدك الله والإسلامَ والرَّحِم ، مثل ما نشدتنا ، أن تطمع فينا وفيك عدوًّا ، وتُشمِت بنا وبك حسوداً ! إنّ أمرَك إليك ما كان قولاً ؛ فإذا صار فعلاً فليس إليك ولافى يديك . وإنّا والله لنخالفنّ إن خولفنا ، ولننازعنّ إن نوزعنا ؛ وما تمنّيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ، ويعيب كما عابوا ! فأمّا صرف قومنا عنّا الأمر فمن حسدٍ قد والله عرفته ، وبغيٍ قد والله علمته ، فاللهَ بيننا وبين قومنا ! وأما قولك : إنك لا تدرى أدفعوه عنّا أم دفعونا عنه ! فلعمرى إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلا إلى فضلنا ، ولا قدْراً إلى قدرنا ، وإنا لأهلُ الفضل وأهل القدر ، وما فَضَل فاضلٌ إلا بفضلنا ، ولا سبَق سابق إلا بسبقنا ؛ ولولا هدينا ما اهتدى أحد ، ولا أبصرُوا من عمًى ، ولا قصدوا من جَوْر .

فقال عثمان : حتى متى يابن عباس ، يأتينى عنكم ما يأتينى ! هبونى كنتُ بعيداً ، أما كان لى من الحقّ عليكم أنْ أراقب وأن أناظر ! بلَى وربّ الكعبة ، ولكنّ الفرقة

مهّلت لكم القول فيّ ، وتقدّمت بكم إلى الإسراع إلىّ . والله المستعان .

قال ابنُ عباس : مهلا ، حتى ألقى عليًا ثم أحمِل إليك على قدْر مارأى . قال عثمان : افعل فقد فعلت ، وطالما طلبت فلا أُطلَب[1] ، ولا أُجاب ولا أعتب .

قال ابن عباس : فخرجت فلقيتُ عليًا ، وإذا به من الغضب والتلظّى أضعاف ما بعثمان ، فأردتُ تسكينَه فامتنع ، فأتيتُ منزلى وأغلقت بابى ، واعتزلتهما .

فبلغ ذلك عثمان ، فأرسل إلىّ ، فأتيته وقد هدأ غضبُه ، فنظر إلىّ ثم ضحك ، وقال : يابن عباس ، ما أبطأ بكَ عنّا ! إنّ تركك العوْد إلينا لدليلٌ على مارأيت عند صاحبك ، وعرفت من حاله ، فالله بيننا وبينه ! خُذْ بنا فى غير ذلك .

قال ابن عباس : فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن علىّ شىء ، فأردتُ التكذيب عنه يقول : ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنّا وتركتَ العوْد إلينا ! فلا أدرِى كيف أردّ عليه .

* * *

وروى الزُّبيرُ بن بكار أيضا فى « الموفّقيات » ، عن ابن عباس رحمه الله ، قال : خرجتُ من منزلى سَحَراً أسابِق إلى المسجد ، وأطلب الفضيلة ، فسمعت خَلْفى حِسًّا وكلاما ، فتسمّعتهُ فإذا حسُّ عثمان وهو يدعو ولا يرَى أن أحداً يسمعه ، ويقول : اللهمّ قد تعلم نيّتى فأعِنّى عليهم ، وتعلمُ الذين ابتليتُ بهم من ذَوِى رَحمى وقرابتى ، فأصلحْنِى لهم ، وأصلحهم لى .

قال : فقصّرْت من خطوتى وأسرع فى مشيته ، فالتقينا فسلّم ، فرددت عليه ، فقال : إنى خرجت ليلتَنا هذه أطلب الفضْل والمسابقة إلى المسجد ، فقلت : إنه أخرجنى ما أخرجك ، فقال : والله لئن سابقتَ إلى الخير ، إنّك لمنْ سابقين مباركين ، وإنى لأحبُّكم وأتقرب إلى الله بحبّكم ، فقلت : يرحَمك الله يا أميرَ المؤمنين ! إنّا لنحبُّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك . قال : يابن عباس ، فما لى ولابن عمّك وابن خالى ! قلت : أىّ بنى عمومتى وبنى أخوالك ؟ قال : اللهم اغفر ! أتسأل مسألة الجاهل !

---

(١) أطلب فلان فلانا ، أجابه إلى طلبه .

قلت: إن بنى عمومتى من بنى خؤولتك كثير؛ فأيهم تعنى؟ قال: أعنى عليًا لاغيره، فقلت: لا والله ياأمير المؤمنين، ماأعلم منه إلا خيراً، ولا أعرف له إلا حسنا. قال: والله بالحرَى أن يستر دونك مايظهره لغيرك، ويقبض عنك ماينبسط به إلى سواك.

قال: ورُمِينا بعمّار بن ياسر، فسلّم، فرددت عليه سلامه، ثم قال: مَنْ معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعمْ، وسلّم بكنيته، ولم يسلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه، ثم قال عمّار: ماالذى كنتم فيه، فقد سمعت ذَرْواً[1] منه؟ قلت: هو ماسمعتَ، فقال عمّار: رُبَّ مظلومٍ غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنّك من شُنَّائِنا وأتباعهم، وايمُ الله، إنّ اليدَ عليك لمنبسِطة، وإنّ السبيل إليك لَسهْلة، ولولا إيثار العافية؛ ولمّ الشَّعْث لزجرتُك زجرةً تكفى مامضى، وتمنع مابقِىَ.

فقال عمّار: والله ما أعتذِر من حبّى عليا، وما اليدُ بمنبسطة، ولا السبيلُ بسهلة؛ إنى لازم حجّة، ومقيم على سنّة؛ وأمّا إيثارك العافيةَ ولَمّ الشعث، فلازم ذلك. وأما زجْرِى فأمسِكْ عنه، فقد كفاك معلّمى تعليمى. فقال عثمان: أمَا والله إنك ماعلمتُ من أعوان الشّرّ الحاضّين عليه، الخذَلَة عند الخير، والمثبّطين عنه. فقال عمّار: مهلا ياعثمان، فقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يصِفنى بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلتُ عليه منصرَفَه عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد ألقى ثيابه، وقعد فى فُضُله[2]، فقبّلتُ صدرَه ونحرَه وجبهته، فقال: «ياعمّار، إنّك لتحبّنا وإنّا لنحبّك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبّطين عن الشرّ»، فقال عثمان: أجلْ ولكنّك غيّرت وبدّلت، قال: فرفع عمّار يده يدعو، وقال: أمّنْ يابنَ عباس، اللهمّ مَنْ غيّر فغيّر به! ثلاث مرات.

قال: ودخلنا المسجدَ، فأهوى عمّار إلى مصلاّه، ومضيتُ مع عثمان إلى القِبْلة،

(١) الذرو: الطرف من القول.
(٢) الفضل: الثوب يلبسه الرجل فى بيته.

فدخل المحراب ، وقال : تابَتْ علىّ إذا انصرفنا ، فلما رآنى عمار وحدى أتانى ، فقال : أمَا رأيتَ مابلغ بى آنفا ؟ قلت : أما والله لقد أصعبْتَ به وأُصْعِب بك ، وإن له لسنّه وفضلَه وقرابته ، قال : إنّ له لذلك ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه . وانصرف .

وصلّى عثمان ، وانصرفت معه يتوكّأ علىّ ، فقال : هل سمعتَ ماقال عمار ؟ قلت : نعم ، فسرّنى ذلك وساءنى ، أمّا مساءته إيّاى فما بلغ بك ، وأما مسرّته لى فحلمك واحتمالُك . فقال : إن عليًّا فارقَنى منذ أيام على المقاربة ، وإن عمارا آتيه فقائل له وقائل ؛ فابدُره إليه ، فإنك أوثق عنده منه وأصدق قولًا ، فألق الأمرَ إليه على وجهه ، فقلت : نعم .

وانصرفت أريد عليًّا عليه السلام فى المسجد ، فإذا هو خارج منه ، فلمّا رآنى تفجّع لى من فَوْت الصَّلاة ، وقال : ما أدركتَها ! قلت : بلى ؛ ولكنّى خرجت مع أمير المؤمنين ، ثم اقتصصْتُ عليه القصّة ، فقال : أمَا والله يابنَ عباس ، إنه ليقرف قَرْحةً ، ليحورَنّ عليه ألمها(١) . فقلت : إن له سنَّه وسابقتَه ، وقرابتَه وصهره ، قال : إنّ ذلك له ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه .

قال : ثم رهقَنا(٢) عمّار ، فبشّ به علىّ ، وتبسّم فى وجهه ، وسأله ، فقال عمّار : يابن عباس ، هل ألقيتَ إليه ما كنّا فيه ؟ قلت : نعم ؛ قال : أما والله إذاً لقد قلتَ بلسان عثمان ، ونطقتَ بهواه ! قلتُ : ماعدوتُ الحقّ جَهْدى ؛ ولا ذلك من فعلى ؛ وإنك لتعلم أىّ الحظّين أحبّ إلىّ ، وأىّ الحقّين أوجبُ علىّ !

قال : فظنّ علىّ أنّ عند عمار غيرَ ما ألقيتُ إليه ، فأخذ بيده وترك يدى ، فعلمت أنه يكره مكانى ، فتخلّفت عنهما ، وانشعب بنا الطريق ، فسلكاه ولم يدعُنى ، فانطلقتُ إلى منزلى ، فإذا رسول عثمان يدعونى ، فأتيته ، فأجد ببابه مَرْوان وسعيد بن العاص ،

---

(١) يقال : قرف القرحة ، أى قشرها بعد يبسها ؛ وليحورن : ليرجعن .

(٢) رهقنا : غشينا .

فى رجالٍ من بنى أميّة ، فأذِن لِى وألطفنى ، وقرّبنى وأدْنَى مجلسى ، ثم قال : ماصنعت؟ فأخبرته بالخبر عَلَى وجهه وماقال الرجل ، وقلت له ـ وكتمته قوله : « إنه ليقرِف قرْحةً ليحورنّ عليه ألمُها » ـ إبقاء عليه ، وإجلالًا له ؛ وذكرتُ مجىء عمار ، وبَشّ علىّ له ، وظنّ علىّ أن قِبَله غيرَ ما ألقيت عليه ، وسلوكهما حيث سلكا . قال : وفعلا ؟ قلت : نعم. فاستقبلَ القبلة ، ثم قال : اللهمّ ربّ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ؛أصلِح لى عليًا ، وأصلحنى له ! أمّنْ يابنَ عباس ، فأمّنت. ثم تحدّثنا طويلا، وفارقته وأتيت منزلى .

***

وروى الزّبير بن بكّار أيضا فى الكتاب المذكور ، عن عبد الله بن عباس ، قال : ماسمعتُ من أبى شيئًا قطّ فى أمر عثمان يلومُه فيه ولا يعذِرُه ، ولا سألته عن شىء من ذلك مخافَةَ أن أهجُم منه على مالا يوافقه ؛ فإنّا عنده ليلةً ونحن نتعشّى ، إذْ قيل : هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشِه، وأصاب من العشاء معه ، فلما رُفِع قام مَنْ كان هناك ، وثبتّ أنا . فحمِد عثمان الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ياخالُ ، فإنّى قد جئتُك أستعذِرك من ابن أخيك علىّ ؛ سبّنى ، وشهرَ أمرى ، وقطع رحِمى ، وطعن فى دينى ؛ وإنى أعوذ بالله منكم يابنى عبد المطّلب ! إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه ، فقد تركتموه فى يدىْ ، مَنْ فعلَ ذلك بكم ، وأنا أقربُ إليكم رحِما منه ! وما لمت منكم أحدا إلا عليًا ، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه ، فتركته لله والرّحِم ، وأنا أخاف ألّا يتركنى فلا أتركه .

قال ابن عباس : فحمِد أبى الله وأثنَى عليه ، ثم قال : أما بعد يابن أختى، فإن كنتَ لا تحمَد عليًا لنفسِك فإنّى لا أحمدك لعلّى ، وما علىٌّ وحده قال فيك ، بل غيره ؛ فلو أنك

اتّهمت نفسك للناس، اتّهم الناس أنفسهم لك؛ ولو أنك نزلتَ مما رُقيت وارتقوا مما نزلوا، فأخذتَ منهم وأخذوا منك ، ما كان بذلك بأس . قال عثمان : فذلك إليك ياخال ، وأنت بينى وبينهم . قال : أفأذكر لهم ذلك عنك ؟ قال : نعم ، وانصرف ؛ فما لَبِثْنَا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب ، قال أبى : ائذنوا له ، فدخل فقام قائما ، ولم يجلس ، وقال : لا تعجل ياخالِ حتى أوذنَك ، فنظرنا فإذا مرْوان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذى ثناه عن رأيه الأول ، فأقبل علىّ أبى ، وقال : يابنىّ ، ما إلى هذا من أمره شىء ، ثم قال : يابنىّ ، املك عليك لسانَك حتى ترى مالابدّ منه ؛ ثم رفع يديه، فقال : اللهمّ اسبِق بى مالا خير لى فى إدراكه . فما مرّت جمعة حتى مات رحمه الله .

***

وروى أبو العباس المبرد فى ''الكامل'' عن قنبر مولى علىّ عليه السلام قال: دخلت مع علىّ على عثمان ، فأحبا الخلوة، فأومأ إلىّ علىّ عليه السلام بالتنحى ، فتنحّيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتبه وعلىّ مطرِق، فأقبل عليه عثمان ، وقال : مالك لاتقول ! قال : إن قلتُ لم أقل إلا ماتكره ، وليس لك عندى إلا ماتحبّ .

قال أبو العباس : تأويلُ ذلك : إن قلتُ اعتددت عليك بمثل ما اعتددتَ به علىّ ، فلذَعك عتابى ، وعقدى ألّا أفعل – وإن كنت عاتبا – إلا ماتحبّ (1) .

وعندى فيه تأويل آخر ؛ وهو: أنّى إن قلت واعتذرت فأىّ شىء حسّنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدّقا ، ولم يكن إلا مكروها غير مقبول ؛ والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندى فى باطنى وما أطوى عليه جوانحى إلّا ماتحبّ، وإن كنتَ لاتقبل المعاذير التى أذكرها ، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها .

***

(1) الكامل ١ : ١٣

وروى الواقدى فى كتاب "الشورى" عن ابن عباس رحمه الله، قال: شهدت عِتَاب عثمان لعلىّ عليه السلام يوماً، فقال له فى بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً! فلعهدى بك وأنت تطيع عتيقا وابن الخطاب طاعتَك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولستَ بدون واحد منهما، وأنا أمسّ بك رَحِماً، وأقرب إليك صهرا، فإن كنتَ تزعم أنّ هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، فقد رأيناك حين تُوفّى نازعتَ ثم أقررت، فإن كانا لم يركبا من الأمر جَدَداً، فكيف أذعنت لهما بالبَيْعة، وبَخَعْتَ بالطاعة! وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصّر عنهما فى دينى وحسبى وقرابتى، فكن لى كما كنت لهما.

فقال علىّ عليه السلام: أما الفرقة، فمعاذ الله أن أفتح لها بابا، وأسهل إليها سبيلا، ولكنى أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لى، فأنت أعلم بذلك والمسلمون، ومالى ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين! فأمّا ألا يكون حقّى بل المسلمون فيه شرعٌ فقد أصاب السهم الثُّغْرة[1]، وأمّا أن يكون حقى دونهم فقد تركتُه لهم، طبت به نفسا، ونفضت يدى عنه استصلاحا. وأما التّسوية بينك وبينهما، فلستَ كأحدهما، إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا[2] أنفسهما وأهلهما عنه، وعُمتَ فيه وقومك عَوْم السابح فى اللّجة، فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقى من عُمرك إلا كظِمْءِ الحمار[3]! فحتى متى وإلى متى! ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم! والله لو ظَلَمَ عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبَى، وأفعل وأعزلْ من عمّالى كلّ مَنْ تكرهه

---

(١) الثغرة: نقرة النحر بين الترقوتين. (٢) ظلفا أنفسهما، أى كفا.

(٣) يقال: ما بقى منه من ظمء الحمار؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير؛ لأنه ليس شىء أقصر ظمأ من الحمار، والكلام على المثل.

ويكرهه المسلمون ؛ ثم افترقا . فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك ، وقال : يجترئ عليك الناس ، فلا تعزل أحدا منهم !

***

وروى الزبير بن بكار أيضاً فى كتابه ، عن رجال أسندَ بعضهم عن بعض ، عن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال : أرسلَ إلىّ عثمان فى الهاجرة[١] ، فتقنّعت بثوبى ، وأتيته ، فدخلت عليه وهو على سريره ، وفى يده قضيب ، وبين يديه مال دَثِر[٢] : صُبْرتان من ورِقٍ وذهب ، فقال : دونك خُذْ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتَنى . فقلت : وصلتْك رَحِم ! إن كان هذا المال ورثتَه ، أو أعطاكه معطٍ ، أو اكتسبته من تجارة ؛ كنتُ أحدَ رجلين : إما آخذ وأشكر ، أو أوفرَ وأُجْهَد ، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل ، فو الله مالك أن تعطينيه ولا لى أن آخذه . فقال : أبيتُ والله إلا ما أبيتَ . ثم قام إلىّ بالقضيب فضربنى ، والله ما أردّيده ، حتى قضى حاجته ، فتقنّعت بثوبى ، ورجعت إلى منزلى ، وقلت : الله بينى وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيت عن منكر !

***

وروى الزبير بن بكّار ، عن الزهرى ، قال : لما أُتِى عمرُ بجوهر كسرى ، وضع فى المسجد ، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر ، فقال لخازن بيت المال : وَيحك ! أرِحْنِى من هذا ، واقسِمه بين المسلمين ، فإن نفسى تحدّثنى أنه سيكون فى هذا بلاء وفتنة بين الناس ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ قسّمته بين المسلمين لم يسعهم ، وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم ، ولكن ندعه إلى قابل، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمالٍ فيشتريه منهم من يشتريه . قال : ارفعه فأدخله بيتَ المال .

وقتِل عمر وهو بحاله ، فأخذه عثمان لما ولِّى الخلافة فحلّى به بناته .

(١) الهاجرة : نصف النهار فى القيظ . (٢) الدثر : المال الكثير .

قال الزبير : فقال الزهريّ : كلٌّ قد أحسن؛ عمر حين حَرَم نفسه وأقاربه ، وعثمان حين وصل أقاربَه .

* * *

قال الزّبير . وحدّثنا محمد بن حرب ، قال : حدّثنا سفيان بن عُيَينة ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، قال : جاء رجل إلى علىّ عليه السلام يستشفع به إلى عثمان ، فقال : حمّال الخطايا ! لا والله لا أعود إليه أبدا . فآيسه منه .

* * *

وروى الزبير أيضا ، عن شداد بن عثمان ، قال : سمعت عَوْف بن مالك فى أيام عُمر ، يقول : ياطاعون خذنى ، فقلنا له : لم تقول هذا ؛ وقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ المؤمن لايزيدُه طول العمر إلا خيراً » ! قال : إنى أخاف ستًّا : خلافةَ بنى أمية ، وإمارة السّفهاء من أحداثهم ، والرّشوة فى الحكم ، وسفك الدم الحرام ، وكثرة الشُّرَط ، ونَشْأً ينشأ ، يتّخذون القرآن مزامير .

* * *

وروى الزّبير عن أبى غسّان ، عن عمر بن زياد ، عن الأسود بن قيس ، عن عبيد بن حارثة ، قال : سمعت عثمان وهو يخطب ، فأكبّ الناس حوله ، فقال : اجلِسوا يا أعداء الله ! فصاح به طلحة : إنهم ليسوا بأعداء الله ؛ لكنهم عبادُه ؛ وقد قرءوا كتابه .

* * *

وروى الزّبير ، عن سفيان بن عيينة ، عن إسرائيل عن الحسن ، قال : شهدتُ المسجد يوم جمعة ، فخرج عثمان ، فقام رجل ، فقال : أنشد كتاب الله ! فقال عثمان : اجلس : أما لِكتاب الله ناشدٌ غيرك ! فجلس ، ثم قام آخر فقال مثل مقالته ، فقال : اجلس ، فأبى

أن يجلس ، فبعث إلى الشُّرَط ليُجلِسوه ، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه ، قال : ثم تراموْا بالبطحاء ؛ حتى يقول القائل : ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء .

فنزل عثمان ، فدخل داره ولم يصلّ الجمعة .

***

[فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام بحضرة عليّ]

وروى الزّبير أيضا فى " الموفقيات " عن ابن عباس رحمه الله ، قال : صلّيت العصر يوماً ، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان فى أيّام خلافته فى بعض أزقّة المدينة وحده ، فأتيته إجلالا وتوقيراً لمكانه ، فقال لى : هل رأيتَ عليا ؟ قلت : خلّفته فى المسجد ، فإن لم يكن الآن فيه فهو فى منزله ؛ قال : أما منزله فليس فيه فابغه[1] لنا فى المسجد . فتوجّهنا إلى المسجد ، وإذا علىٌّ عليه السلام يخرج منه ؛ قال ابن عباس : وقد كنت أمس ذلك اليوم عند علىّ ، فذكر عثمان وتجرّمه عليه ، وقال : أما والله يا بنَ عباس ، إن من دوائه لقطع كلامه ، وترك لقائه . فقلت له : يرحمك الله ! كيف لك بهذا ! فإن تركتَه ثم أرسل إليك فما أنت صانع ؟ قال : أعتلّ ؛ وأعتلّ ؛ فمن يَقْسِرنى[2] ! قال : لا أحد .

قال ابن عباس : فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد ، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان ، فنظر إلىّ عثمان ، وقال : يابن عباس ، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنا ! فقلت : ولِمَ وحقّك ألزم ، وهو بالفضل أعلم ! فلما تقاربا رماه عثمان بالسّلام ، فردّ عليه ، فقال عثمان . إنْ تدخلْ فإيّاك أردنا ، وإن تمض فإيّاك طلبنا . فقال علىّ : أىّ ذلك أحببتَ ؟ قال : تدخل ، فدخلا وأخذ عثمان بيده ، فأهوى به إلى القِبلة ، فقصّر عنها ، وجلس قُبالَتها ، فجلس عثمان إلى جانبه ، فنكصتُ عنهما ، فدعَوانى جميعاً ، فأتيتهما ، فحمِد عثمان اللهَ ، وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد يا بنىْ خالىَ وابنىْ

---

(١) ابغه : اطلبه .

(٢) كذا فى د ، وفى ب : « يضرنى » .

عمّىَ ؛ فإذ جمعتكما فى النداء فـأجمعـكما فى الشـكاية ،عن رضاىَ على أحد كما، ووجْدى على الآخر. إنى أستعذِركما من أنفسكما ، وأسألـكما فيئتَكُـما، وأستوهبكما رَجْعتَكما؛ فوالله لو غالبنى الناس ماانتصرت إلا بكما ، ولو تهضَّمونى ماتعزّزت إلّا بعزّكما . ولقدطال هذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفت أن يجوزَ قدرَه ، ويعظُم الخطر فيه ؛ ولقد هاجَنى العدوّ عليكما، وأغرانى بكما ؛ فمنعنى اللهُ والرحِم مما أراد ، وقد خلوْنا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى جانب قبره ؛ وقد أحببتُ أنْ تظهِرَا لى رأيَكما فىّ ، وما تنطويان لى عليه وتصدُقا؛ فإنّ الصدق أنجَى وأسلم ؛ وأستغفر الله لى ولكما .

قال ابن عباس : فأطرق علىّ عليه السلام ، وأطرقت معه طويلا ؛ أمّا أنا فأجللته أنْ أتكلّم قبله ، وأمّا هو فأراد أن أجيب عنّى وعنه . ثم قلت له : أتتكلم أم أتكلم عنك ؟ قال : بل تكلم عنّى وعنك . فحمِدت الله وأثنيت عليه ، وصلَّيت على رسوله، ثم قلت : أمّا بعد يا ابنَ عمّنا وعمّتنا ، فقد سمعنا كلامك لنا ، وخلطَك فى الشكاية بيننا على رِضاك ـ زعمتَ ـ عن أحدنا ووجْدك على الآخر ، وسنفعل فى ذلك، فنذمّك ونحمَدك، اقتداء منك بفعلك فينا ؛ فإنّا نذمّ مثلَ تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلاظنًّا ؛ ونحمَد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتك، ثم نستعذرك من نفسك استعذارَك إيانا من أنفسنا ، ونستوهبك فيئتَك ،استيهابك إيانا فيئتنا ونسألك رجْعتك مسألتك إيانا رجعتنا؛ فإنا معاً أيّما حمِدت وذممت منا ، كمثلك فى أمر نفسك ؛ ليس بيننا فرق ولا اختلاف ؛ بل كلانا شريك صاحبه فى رأيه وقوله ؛ فوالله ماتعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك ، ولا تعرفنا غيرَ قانتين عليك ، ولا تجدُنا غيرَ راجعين إليك ؛ فنحنُ نسألك من نفسك مثل ماسألتنا من أنفسنا . وأمّا قولك :لو غالبتْنى الناسُ ما انتصرتُ إلا بكما ،أوتهضّمونى ماتعزّزت إلّا بعزكما ، فأين بنا وبك عن ذلك ، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة :

بدا مُحْتَرٌ مارام نال ، وإن يرمْ يَخُضْ دونه غمراً من الغرّ رائمه
لنا ولهم منّا ومنهم على العِدَا مراتب عزّ مصعِدات سلالمه

وأما قولك فى هَيْج العدوّ وإياك علينا ، وإغرائه لك بنا ، فوالله ماأتاك العدوّ من ذلك شيئا إلا وقد أتانا بأعظمَ منه ؛ فمنعنا مما أرادَ مامنعكَ من مراقبة الله والرحِم ، وما أبقيت أنت ونحن إلاّ على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا ؛ ولقد لعَمْرِى طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوّفنا منه على أنفسنا ، وراقبنا منه ماراقبت .

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك ، وما ننطوى عليه لك ، فإنا نخبرك أنّ ذلك إلى ماتحبّ ؛ لا يعلم واحدٌ منامن صاحبه إلاذلك ، ولا يقبل منه غيرَه ، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك وكفيلٌ به ، وقد برّأتَ أحدَنا وزكّيته ، وأنطقتَ الآخر وأسكتّه ، وليس السقيمُ مِنّا مما كرهت بأنطقَ من البرىء فيما ذكرت ، ولا البرىءُ منا مما سخِطْتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت ؛ فإمّا جمعتَنا فى الرضا ، وإمّا جمعتَنا فى السخط ؛ لنجازِيَك بمثل ماتفعل بنا فى ذلك ؛ مكايلة الصاع بالصاع ؛ فقد أعلمناك رأينا ، وأظهرنا لك ذاتَ أنفسنا ، وصدَقْناك ؛ والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم ، فأجِبْ إلى مادعوتَ إليه ، وأجْلِلْ عن النقضِ والغدْرِ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ، واصدق تنجُ وتسلم ، ونستغفر الله لنا ولك .

قال ابنُ عباس : فنظر إلى علىّ عليه السلام نظرَ هيْبة ، وقال : دعْهُ حتى يبلغ رضاه فيما هو فيه ، فوالله لو ظهرت له قلوبُنا ؛ وبدت له سرائرنا ، حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ عنها بأذنه ، مازال متجرّما منتقما ، والله ماأنا ملقًى على وَضَمة[1] ، وإنى لمانع ماوراء ظهرى ؛ وإن هذا الكلام لمخالفةٌ منه وسوء عشرة .

فقال عثمان : مهلا أبا حسن ؛ فوالله إنك لتعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفنى

---

(١) الوضم فى الأصل : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ؛ وفى المثل : « تركهم لحما على وضم » ، أى أوقع بهم فأوجعهم .

بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده : « إنّ من أصحابِي لقوماً سالمين لهم،وإن عثمان لمنهم؛إنه لأحسنُهم بهم ظنّا ، وأنصحُهم لهم حبًّا » . فقال عليٌّ عليه السلام : فتصدّقْ قوله صلى الله عليه وسلم بفعلك ، وخالفْ ماأنت الآن عليه؛فقد قيل لك ماسمعتَ،وهو كافٍ إن قبلتَ.

قال عثمان: فتثِق ياأبا الحسن؟ قال:نعم أثق ولا أظنّك إلّا فاعلا ، قال عثمان:قدوثِقت وأنت ممن لا يَخفِرُ صاحبه ، ولا يكذِب لقيلِه .

قال ابن عباس : فأخذتُ بأيديهما ؛ حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا،ونهضت عنهما؛ فتشاوروا وتآمروا وتذاكروا؛ثم افترقا؛فوالله مامرّت ثالثة حتى لقيَني كلّ واحدٍ منهما،يذكر من صاحبه مالا تبركُ عليه الإبل . فعلمتُ أن لا سبيل إلى صلحهما بعدها .

* * *

وروى أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب ''أخبار السقيفة'' عن محمد بن قيس الأسديّ،عن المعروف بن سويد؛قال : كنت بالمدينة أيام بويع عثمان،فرأيت رجلاً في المسجد جالسا ، وهو يَصفِق[1] بإحدى يديه على الأخرى،والناس حوله،ويقول : واعجباً من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت،معدن الفضل، ونجوم الأرض ، ونور البلاد! والله إنّ فيهم لرجلاً مارأيت رجلا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أولَى منه بالحقّ ، ولا أقضَى بالعدل،ولا آمرَ بالمعروف،ولاأنهى عن المنكر،فسألت عنه فقيل:هذا المقداد؛ فتقدّمت إليه ، وقلت:أصلحك الله ! مَن الرجل الذى تذكر؟فقال : ابن عمّ نبيك رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليّ بن أبي طالب !

قال: فلبثتُ ماشاءالله ثم إنّي لقيت أباذرّ رحمه الله،فحدّثته ماقال المقداد،فقال : صدق؛ قلتُ : فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم ! قال:أبَى ذلك قومهم ، قلت : فما يمنعكم أن تُعينُوهم ! قال : مه لا تقلْ هذا ، إياكم والفرقة والاختلاف !

---

(١) يصفق : يضرب .

قال : فسكتَ عنه ، ثمّ كان من الأمر بعدُ ما كان .

* * *

وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان، أنّ عليًّا اشتكى ، فعاده عثمان من شكايته ؛ فقال عليّ عليه السلام :

وعائدةٍ تعودُ لغيرِ وُدٍّ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

فقال عثمان : والله ما أدرِي أحياتُك أحبّ إليّ أم موتك ! إن مِتّ هاضني فقدُك ، وإن حييت فتنتْني حياتك ، لا أعدِم ما بقيتَ طاعنا يتّخذك رديئة يلجأ إليها .

فقال عليٌّ عليه السلام : ما الذي جعلني رديئةً للطاعنين العائبين ! إنّما سوء ظنّك بي أحلّني من قلبك هذا المحلّ، فإنْ كنتَ تخاف جانبي فلك عليّ عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك منّي، ما بلّ بحرٌ صوفةً [1] ، وإني لك لراعٍ ، وإني عنك لحامٍ ؛ ولكن لا ينفعني ذلك عندك . وأما قولك : « إن فقدي يَهيضُك » ، فكلاّ أن تُهاض لفقدي، ما بقيَ لك الوليد ومروان .

فقام عثمان فخرج .

وقد روي أنّ عثمان هو الذي أنشدَ هذا البيت؛ وقد كان اشتكى، فعاده عليّ عليه السلام فقال عثمان :

وعائدةٍ تعودُ بغير نُصْحٍ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

* * *

وروى أبو سعد الآبيّ [2] في كتابه عن ابن عباس ، قال : وقع بين عثمان وعليّ

---

(١) من قولهم في المثل : لا آتيك ما بل بحر صوفة .

(٢) هو أبو سعد زين الكفاة منصور بن الحسين الآبي ؛ وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة ابن بويه ، صاحب كتاب نثر الدرر في المحاضرات .

عليه السلام كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إنْ كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بَدْرٍ سبعين، كأنَّ وجوههم شُنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!

وروى المذكور أيضا أن عثمان لما نقم الناس عليه ما نقموا، قام متوكِّئا على مَرْوان فخطب الناس؛ فقال: إنَّ لكل أمّة آفة، ولكلّ نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النعمة، قوم عَيّابون طعّانون، يظهِرُون لكم ما تحبُّون، ويسرّون ما تكرهون؛ طَغَام مثل النّعام، يتْبَعُون أوّل ناعق، ولقد نقَموا عليّ ما نقَموا علَى عمر مثله، فقمعهم ووقمهم[1] وإنّى لأقربُ ناصرا، وأعزّ نفرا، فمالى لا أفعلُ فى فضول[2] الأموال ما أشاء!

وروى المذكور أيضا أنّ عليا عليه السلام اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت إلا ثقيلا! قال: أجلْ، قال: والله ما أدرى أموتُك أحبّ إلىّ أم حياتُك! إنّى لأحبُّ موتَك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئتَ جعلتَ لنا من نفسك مخرجا، إمّا صديقًا مسالما وإما عدوًّا مغالبا، وإنك لكما قال أخو إياد[3]:

جَرَتْ لما بيننا حبلُ الشّموسِ فلا ... يأسا مبينا نرى منها ولا طَمعا

فقال علىّ عليه السلام: ليس لك عندى ما تخافه، وإن أجبتك لم أُجِبك إلّا بما تكرهه.

***

وكتب عثمان إلَى علىّ عليه السلام حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوزَ الماء الزُّبى، وبلغ الحِزام الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر فىّ قدْرَه، فطمِع فىّ من لا يدفعُ عن نفسه.

---

(١) وقمهم: أذلهم.

(٢) فضول الأموال: الزائدة عن الحاجة.

(٣) هو لقيط بن يعمر الإيادى. من قصيدة ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم؛ وأولها:

يَادَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الْجَرَعَا ... هَاجَتْ لِىَ الْهَمَّ وَالْأَحْزَانَ وَالْوَجَعَا

فى مختارات ابن الشجرى ١ — ٦.

فإنْ كُنتُ مأكولًا فكن خير آكلٍ وإلّا فأدركني ولمّا أُمزَّقِ (١)

* * *

وروى الزّبير خبر العيادة على وجه آخر قال : مرض عليّ عليه السلام ، فعاده عثمان ومعه مَرْوان بن الحكم ، فجعل عثمان يسأل عليًا عن حاله ، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه ، فقال عثمان : لقد أصبحتَ يا أبا الحسن منّي بمنزلة الولد العاقّ لأبيه ! إن عاش عقّه ، وإن مات فجعه ؛ فلو جعلتَ لنا من أمرك فرَجًا ، إما عدوًّا أو صديقا ؛ ولم تجعلنا بين السماء والماء ! أما والله لأنا خيرٌ لك من فلان وفلان ؛ وإن قتِلتُ لا تجد مثلي ، فقال مروان : أما والله لا يُرام ما وراءنا حتى تَتَواصَلَ سيوفُنا ، وتقطع أرحامنا .

فالتفت إليه عثمان ، وقال : اسكتْ لاسكتّ ! وما يُدخلك فيما بيننا !

* * *

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ ، عن زيد بن أرقم ؛ قال : سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام : أنكرتَ عَلَيَّ استعمالَ معاوية ، وأنت تعلم أن عُمَرَ استعمله ! قال عليٌّ عليه السلام : نشدتُك الله ! ألا تعلم أنّ معاويةَ كان أطوعَ لعمر من يرفأ غلامه ! إنّ عمرَ كان إذا استعمل عاملا وطىء على صِماخِه ؛ وإنّ القومَ ركبوك وغلبوك ، واستبدّوا بالأمر دونك .

فسكت عثمان .

* * *

[أسباب المنافسة بين عليّ وعثمان]

قلت : حدثني جعفر بن مكي الحاجبُ رحمه الله ، قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجّاب — وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لي به معرفة غير مستحكمة ، وكان ظريفاً

---

(١) البيت للممزق العبدي ، والخبر في الكامل ١ : ١٧

أديبا ، وقد اشتغل بالرياضيّات من الفلسفة ، ولم يكن يتعصّب لمذهب بعينه ــ قال جعفر :
سألتُ عمّا عنده فى أمر علىّ وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النَّسب بين عبد شمس وبين
بنى هاشم ، وقد كان حرب بن أميّة نافرَ عبدَ المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسُد محمداً
صلى الله عليه وآله وحارَبه ، ولم تزل الشِّنْئتان متباغضتين وإن جمعتْهما المنافية . ثم إنّ رسول
الله صلى الله عليه وآله زوّج عليا بابنته ، وزوّج عثمان بابنته الأخرى ؛ وكان اختصاصُ رسول
الله صلى الله عليه وآله لفاطمة أكثرَ من اختصاصه للبنت الأخرى ، وللثّانية التى تزوّجها
عثمان بعد وفاة الأولى ، واختصاصه أيضا لعلىّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه
إيّاه لنفسه ، أكثرَ وأعظمَ من اختصاصه لعثمان . فنفَس عثمان ذلك عليه ، فتباعدَ ما بين قلبيهما ،
وزاد فى التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مُباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقَلُ من إحداهما
إلى الأخرى ، فيتكدّر قلبها على أختها ، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين
البعلين أيضا ، كما نشاهده فى عصرنا وفى غيره من الأعصار ؛ وقد قيل : ماقطَع من الأخوَيْن
كالزّوجتين . ثم اتفق أن علياًّ عليه السلام قَتَلَ جماعةً كثيرة من بنى عبد شمس فى حروب
رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتأكّد الشنآن ، وإذا استوحشَ الإنسانُ من صاحبه
استوحش صاحبُه منه . ثم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصبا إلى علىّ جماعة يسيرة لم
يكن عثمان منهم ، ولا حضر فى دار فاطمة مع مَنْ حضر من المخلّفين عن البيعة ، وكانت فى
نفس علىّ عليه السلام أمورٌ من الخلافة لم يمكنه إظهارُها فى أيام أبى بكر وعمر ، لقوّة
عمر وشدته ، وانبساط يده ولسانه ؛ فلما قتِل عمر وجَعَل الأمر شورى بين الستّة ، وعدل
عبد الرحمن بها عن علىّ إلى عثمان ، لم يملكْ علىٌّ نفسه ، فأظهر ما كان كامناً ،
وأبدى ما كان مستورا ؛ ولم يزل الأمر يتزايد بينهما ، حتى شرف وتفاقم ؛ ومع ذلك فلم
يكن علىّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكَرا ، ولا ينهاه إلا كما تقتضى الشريعة نهيه
عنه ؛ وكان عثمان مستضعفا فى نفسه ، رِخواً قليل الحزم ، واهىَ العقدة ، وسلّم عنانه إلى

مروان يصرّفه كيف شاء ؛ الخلافة له فى المعنى ولعثمان فى الاسم . فلما انتقض على عثمان أمرُه ، استصرخ علياً وَلاَذَ به ، وألقى زمام أمرِه إليه ، فدافع عنه حيث لا ينفع الدّفاع ، وذبَّ عنه حينَ لا يغنِى الذّبّ ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرْجَى صلاحه .

قال جعفر : فقلت له : أتقول إنّ علياً وجَد من خلافة عثمان أعظم مما وَجَده من خلافة أبى بكر وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك ؛ وهو فرع لهما ، ولولا هما لم يصل إلى الخلافة ، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ، ولا يخطر له ببال ! ولكن ها هنا أمر يقتضى فى عثمان زيادَة المنافسة ، وهو اجتماعهما فى النسب ، وكونُهما من بنى عبد مناف ، والإنسانُ ينافِس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد ، ويهوّن عليه من الأبعد ما لا يهوّن عليه من الأقرب .

قال جعفر : فقلت له : أفتقول : لو أنّ عثمان خُلِع ولم يقتَل ؛ أكان الأمرُ يستقيم لعلىّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه ؟ فقال : لا ، وكيف يتوهّم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حىّ مخلوع أكثرَ من انتقاضها عليه بعد قتله ؛ لأنّه موجود يُرجَى ويُتوقّع عَوْده ، فإن كان محبوساً عَظُمَ البلاء والخطْب ، وهتف الناس باسمه فى كلّ يوم ، بل فى كلّ ساعة ، وإن كان مُخَلَّى سِرْبُهُ ، وممكنا من نفسه ، وغير محولٍ بينه وبين اختياله ، لجأ إلى بعض الأطراف ، وذكر أنه مظلوم غُصِبت خلافتُه ، وقهِر على خلع نفسه ، فكان اجتماع الناس عليه أعظمَ ، والفتنة به أشدّ أغلظ .

قال جعفر : فقلت له : فما تقول فى هذا الاختلاف الواقع فى أمر الإمامة من مبدأ الحال ، وما الذى تظنّه أصله ومنبعه ؟ فقال : لا أعلم لهذا أصلا إلا أمرين : أحدُهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمَل أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحدٍ بعينه ، وإنما كان هناك رَمْزٌ وإيماء ، وكناية وتعريض ، لو أراد صاحبُه أن يحتجّ به وقت الاختلاف وحالَ المنازعة

لم يَقُم منه صورة حجة تُغنى ، ولا دلالة تحسب وتكفى ؛ ولذلك لم يحتجّ علىٌّ عليه السلام يوم السقيفة بما وردفيه ، لأنه لم يكن نصًّا جاليا يقطع العذر ،ويوجب الحجة ؛ وعادة الملوك إذا تمهد مُلْكُهم ، وأرادوا العَقْد لولد من أولادهم ، أو ثقة من ثقاتهم ، أن يصرّحوا بذكره ، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر ، وبين فواصل الخطب ، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم ، والأقطار النائية منهم ؛ ومَنْ كان منهم ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ، ضرب اسمه عَلَى صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك ؛ بحيث تزول الشبْهة فى أمره ، ويسقُط الارتياب بحاله ؛ فليس أمرُ الخلافة بهيّن ولا صغير ليترَكَ حتى يصير فى مظنّة الاشتباه واللّبس ؛ ولعلّه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك عذرٌ لا نعلمه نحن ؛ إمّا خشيةً من فساد الأمر، أو إرجاف المنافقين ، وقولهم : إنها ليس بنبوّة وإنما هى مُلْك به أوْصَى لذريته وسلالته ؛ ولمّا لم يكن أحدٌ من تلك الذرّية فى تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصِغر السنّ ، جعله لأبيهم ؛ ليكون فى الحقيقة لزوجته التى هى ابنته ولأولادِه منها من بعده .

وأمّا ماتقوله المعتزلة وغيرُهم من أهل العدْل: إنّ الله تعالى علم أنّ المكلّفين يكونون عَلَى ترك الأمر مهملّا غير معيّن أقرب إلى فعل الواجب وتجنّب القبيح. قال : ولعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم فى مرضِه أنّه يموت فى ذلك المرض ، وكان يرجو البقاء فيمهّد للإمامة قاعدة واضحَةً . ومما يدلّ عَلَى ذلك أنّه لما نوزع فى إحضار الدواة والكتِف ليكتب لهم مالا يضلّون بعده ، غضِب وقال : اخرجوا عنّى ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرّفهم رشدَهم ، ويهديهم إلى مصالحهم ، بل أرجأ الأمر إرجاء مَنْ يرتقب الإفاقة ، وينتظر العافية .

قال : فبتلك الأقوال المجمجة ، والكنايات المحتملة ، والرموز المشتبهة، مثل حديث

خَصْف النعل ، ومنزلة هارون من موسى ، ومَنْ كنت مولاه ، وهذا يعسوب الدين ، ولا فتى إلّا علىّ ، وأحبّ خلقك إليك ... وماجرى هذا المجرى ، مما لايفصِل الأمر ، ويقطع العذر ويُسكِت الخصم ، ويفحم المنازع ؛ وَثَبت الأنصار فادّعتها ، ووَثَب بنوهاشم فادّعَوْها ، وقال أبو بكر : بايعوا عمرَ أو أبا عبيدة ، وقال العبّاس لعلىّ : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رَعَف به الدّهر فيما بعد ؛ ولم يكن موجودا حينئذ : إنّ الأمر كان للعباس لأنه العمّ الوارث ، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه ؛ فهذا أحدها .

وأما السبب الثانى للاختلاف ، فهو جَعْل عمرَ الأمر شورى فى الستّة ، ولم ينص عَلَى واحد بعينه ؛ إمّا منهم أو من غيرهم ؛ فبقِىَ فى نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشّح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة ؛ فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم ، مرتَسِما فى خيالاتهم ، منازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونُهم ؛ حتى كان من الشّقاق بين على وعثمان ما كان ، وحتى أفضى الأمرُ إلى قتل عثمان . وكان أعظم الأسباب فى قتله طلحة ؛ وكان لايشكّ أنّ الأمر له من بعده لوجوه ؛ منها سابقته ، ومنها أنه ابن عمّ لأبى بكر ، وكان لأبى بكر فى نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة ، أعظم منها الآن . ومنها أنه كان سَمْحاً جوادا ، وقد كان نازع عمر فى حياة أبى بكر ، وأحبّ أن يفوّض أبو بكر الأمرَ إليه من بعده ؛ فما زال يفتِل فى الذّروة والغارب فى أمر عثمان ، وينكّر له القلوب ، ويكدّر عليه النفوس ، ويغرِى أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به . وساعده الزُّبير ؛ وكان أيضا يرجو الأمرَ لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما الأمرَ بدون رجاء علىّ ، بل رجاؤهما كان أقوى ؛ لأنّ عليا دحضَه الأوّلان ، وأسقطاه ، وكسرا ناموسه بين الناس ؛ فصار نسياً منسيًّا ، ومات الأكثر ممّن يعرف خصائصه التى كانت فى أيام النبوّة وفضله ، ونشأ قوم لايعرفونه ولايرونه إلا رجلا من عُرْض المسلمين ؛ ولم يبق له مما يمتّ به إلّا أنه ابن عمّ الرسول ، وزوْج ابنته ، وأبو سِبْطَيه ، ونُسِىَ ماوراء ذلك كله ؛ واتفق له من بُغْض

قريش وانحرافها مالم يتفق لأحد ؛ وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير، لأن الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودة فيهما ، وكانا يتألفان قريشا فى أواخر أيام عثمان ؛ ويمدانهم بالعطاء والإفضال ؛ وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة لا بالفعل ؛ لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة ، وعمر متبع القول ومرضى الفعال ، موفق مؤيد مطاع ، نافذ الحكم فى حياته وبعد وفاته ؛ فلما قتل عثمان ، أرادها طلحة ، وحرص عليها ، فلولا الأشتر وقوم معه من شجعان العرب جعلوها فى على لم تصل إليه أبدا، فلما فاتت طلحة والزبير، فتقا ذلك الفتق العظيم على على ،وأخرجا أم المؤمنين معهما، وقصدا العراق ، وأثارا الفتنة ؛ وكان من حرب الجمل ماقد علم وعرف ، ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيدا لحرب صفين ؛ فإن معاوية لم يكن ليفعل مافعل ، لولا طمعه بماجرى فى البصرة ، ثم أوهم أهل الشام أن عليا قد فسق بمحاربة أم المؤمنين ، ومحاربة المسلمين ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وهما من أهل الجنة ، ومن يقتل مؤمنا من أهل الجنة فهو من أهل النار ، فهل كان الفساد المتولد فى صفين إلا فرعا للفساد الكائن يوم الجمل ! ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ماجرى من الفساد والقبيح فى أيام بنى أمية، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعا من فروع يوم الدار ، لأن عبد الله كان يقول : إن عثمان لما أيقن بالقتل نص على بالخلافة ؛ولى بذلك شهود، ومنهم مروان بن الحكم. أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعا على أصل ، وغصنا من شجرة ، وجذوة من ضرام ! هكذا يدور بعضه على بعض ، وكله من الشورى فى الستة .

قال : وأعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له : إنك استعملت يزيد بن أبى سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلانا وفلانا من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء ، وتركت أن تستعمل عليا والعباس والزبير وطلحة ! فقال : أما على فأنبه من ذلك ، وأما هؤلاء النفر

من قريش ، فإنى أخاف أن ينتشروا فى البلاد ، فيُكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا فى الملك ، ويدّعيه كلّ واحدا منهم لنفسه ، كيف لم يَخَفْ من جعلهم ستة متساوين فى الشورى ، مرشّحين للخلافة ! وهل شىء أقربُ إلى الفساد من هذا! وقد روى أنّ الرشيد رأى يوماً محمدا وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان ؛ فسرّ بذلك ، فلما غابا عن عينه بكى ، فقال له الفضل بن الربيع : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، وهذا مقامُ جَذل لا مقام حُزْن ؟ فقال: أما رأيتَ لعبهما ومودّة بينهما؟ أما والله ليتبدلَنّ ذلك بغضاً وشنَفاً(١) وليختلسنّ كلّ واحد منهما نَفْس صاحبه عن قريب ، فإن الملك عقيم . وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما علَى ترتيب ، هذا بعد هذا ؛ فكيف مَنْ لم يرتّبوا فى الخلافة ، بل جعلوا فيها كأسنان المشط !

فقلت أنا لجعفر : هذا كلّه تحكيه عن محمد بن سليمان ، فما تقول أنت ؟ فقال :

إذَا قَالَتْ حـــذام فَصدِّقُوهَا فإنَّ القَولَ مَاقَالَتْ حذامِ (٢)

---

(١) الشنف : الكره .

(٢) قبله :

فَلَوْلاَ الْمُزْعِجاتُ مِنَ اللَّيَالِى لَمَا تَرَكَ الْقَطَا طِيبَ الْمَنَـــامِ

نسبهما صاحب اللسان (فى رقش) للجيم بن صعب .

(١٣٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً ، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ وَايْمُ اللَّهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً .

***

الشَّرحُ :

الفَلْتة : الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة ؛ وفى الكلام تعريض ببيعة أبى بكر ؛ وقد تقدّم لنا فى معنى قول عمر : «كانت بيعة أبى بكر فَلْتة وقى الله شرّها» كلام .

والخِزامة : حلقه من شعر تُجعَلُ فى أنف البعير ، ويُجعل الزمام فيها .

وأعينُونى على أنفسكم : خذوها بالعدل ، واقمعوها عن اتّباع الهوى ، واردَعُوها بعقولكم عن المسالك التى تُرْدِيها وتوبقها ، فإنكم إذا فعلتم ذلك أعنتمونى عليها ؛ لأنّى أعظكم وآمركم بالمعروف ، وأنهاكم عن المنكر ؛ فإذا كبحتُم أنفسكم بلجام العقل الداعى إلى ما أدعو إليه ؛ فقد أعنتمونى عليها .

فإن قلت : ما معنى قوله : «أريدكم لله وتريدوننى لأنفسكم» ؟

قلت : لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه ؛ ولا يريدهم لحظّ نفسه ، وأمّا هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب ، والأسباب الموصّلة إلى منافع الدنيا .

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه ؛ فأمّا الخواصّ منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الذى يريدهم له من إقامة شرائع الدين وإحياء معالمه .

(١٣٧)

الأصْلُ

ومن كلام له عليه السلام فى شأن طلحة والزبير :

وَاللهِ ما أنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكراً، وَلا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً؛ وَإنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ؛ فَإنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إلَّا قِبَلَهُمْ. وَإنَّ أوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أنْفُسِهِمْ؛ وَإنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مالَبَسْتُ وَلا لُبِسَ [١] عَلَيَّ.

وَإنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ. وَإنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أنا مَاتِحُهُ؛ لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حِسْيٍ.

***

الشَّرْحُ :

النِّصْفُ : الإنصاف، قال الفرزدق :

ولكنَّ نِصفاً لو سببتُ وسَبَّنِي ... بنُو عبدِ شمسٍ مِنْ قُرَيشٍ وَهاشِمِ [٢]

وهو على حذف المضاف؛ أى ذا نِصْفٍ، أى حكَما منصفا عادلا يحكم بينى وبينهم.

والطَّلِبة : بكسر اللام : ما طلبتَه من شىء. ولبَست على فلان الأمر، ولُبِس عليه الأمر، كلاهما بالتخفيف.

---

(١) مخطوطة النهج بتشديد الباء.
(٢) اللسان ١١ : ٢٤٦.

والحَمَأ : الطين الأسود ، قال سبحانه : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [1] .

وحُمَة العقرب : سمّها ، أى فى هذه الفئة الباغية الضلالُ والفساد والضرر ؛ وإذا أرادت العربُ أن تعبّر عن الضلال والفساد قالت : الحَمْء ، مثله الحَمْأة بالتاء ؛ ومن أمثالهم : « ثَأطَةٌ مُدّت بماء » [2] ؛ يُضرب للرجل يشتدّ مُوقه وجهله ؛ والثَّأْطة : الحَمْأة ، وإذا أصابها الماء ازدادت فسادا ورطوبة .

ويروَى فيها : « الحما » بألف مقصورة . وهو كناية عن الزّبير ، لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء ؛ واحدهم « حما » مثل قفا وأقفاء ، وما كان بسبب المرأة فهم الأخْتان ؛ فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعا . وكان الزُّبير ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا بأنّ فئة من المسلمين تبغى عليه أيّام خلافته ، فيها بعضُ زوجاته وبعض أحمائه ، فكنَى علىّ عليه السلام عن الزَّوْجة بالحُمَة وهى سمّ العقرب ، ويروى : « والحَمْء » يضرَب مثلا لغير الطيِّب ولغير الصافى ؛ وظهر أنّ الحَمْء الذى أخبر النبى صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابنُ عمته . وفى الحما أربع لغات : حَماً مثل قفا ، وحَمْء مثل كَمْء ، وحَمُو مثل « أبو » ، وحم مثل أبٍ .

قوله عليه السلام : «والشبهة المغدَفة» أى الخفيّة ، وأصله المرأة تُغْدِف وجهها بقناعها ، أى تستره . وروى : « المُغدِفة » [3] بكسر الدال ، من أغدف الليل ، أى أظلم .

وزاح الباطل ، أى بَعُد وذهب ، وأزاحه غيره .

وعن نصابه : عن مركزه ومقرّه ، ومنه قول بعض المحدَثين :

قد رجع الحقُّ إلى نصابِهِ وأنت من دون الورى أولَى بِهِ

والشَّغْب ، بالتسكين : تهييج الشرّ ، شَغَب الحقد بالفتح شَغْبا ، وقد جاء بالتحريك فى لغة ضعيفة ، وماضيها شغِب ، بالكسر .

---

(١) سورة الحجر ٢٦ .
(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٥٣ .
(٣) من رواية مخطوطة النهج .

ولَأُفرِطنّ لهم حوضاً ، أى لأملأنّ ، يقال : أفرطتُ المزادة أى ملأتُها ، وغدير مفرَط ، أى ملآن .

والماتح ، بنقطتين من فوق : المستقِى من فوقُ ، وبالياء : مالئُ الدلاء من تحت .

والعَبّ : الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابّة : وفى الحديث : « الكُبَادُ من العَبّ »(١) .

والحِسْى : ماء كامنٌ فى رمل يحفَر عنه فيستخرَج ، وجمعه أحساء .

***

يقول عليه السلام : والله ما أنكروا علىّ أمراً هو منكَر فى الحقيقة ، وإنّما أنكروا ما الحجّة عليهم فيه لا لهم ؛ وحملَهم على ذلك الحسد وحبّ الاستئثار بالدنيا والتفضيل فى العطاء ؛ وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستجيزه فى الدين . قال : ولا جعلوا بينى وبينهم نِصْفا ، يعنى وسيطا يحكم ويُنصف ، بل خرجوا عن الطاعة بغتة؛ وإنهم ليطلبون حقا تركوه ، أى يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة .

قال : ودماً هم سفكوه ؛ يعنى دم عثمان ؛ وكان طلحة من أشدّ الناس تحريضاً عليه ، وكان الزّبير دونه فى ذلك .

روى أنّ عثمان قال : ويلى على ابن الحضْرميّة ـ يعنى طلحة ـ أعطيتُه كذا وكذا بُهاراً(٢) ذهبا ؛ وهو يروم دمى يحرّض على نفسى ؛ اللّهم لا تمتّعه به ولَقِّه عواقب بغيه(٣) .

وروَى الناس الذين صنّفوا فى واقعة الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهام . ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين

---

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ٣ . والكُباد : وجع الكبد .

(٢) البهار : الحمل ، قيل : هو ثلاثمائة رطل بالقبطية .

(٣) انظر النهاية ١ : ١٠١ .

حَصَرُوه الدخول من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دارٍ لبعض الأنصار ، فأصعدهم إلى سطحها ، وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه .

ورووا أيضاً أنّ الزبير كان يقول : اقتلوه فقد بدّل دينكم . فقالوا : إن ابنك يحامِي عنه بالباب ، فقال : ما أكره أن يقتَل عثمان ولو بُدِئ بابنى ؛ إن عثمان لجيفةٌ على الصراط غداً .

وقال مرْوان بن الحكم يوم الجمل : والله لا أترك ثأرى وأنا أراه ، ولأقتلنّ طلحة بعثمان ؛ فإنه قتله . ثم رماه بسهم فأصاب مأْبِضَه(١) ، فنزف الدم حتى مات .

ثم قال عليه السلام : إن كنت شريكَهم فى دم عثمان ؛ فإن لهم نصيبَهم منه ، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه ، وإن كانوا وَلُوه دونى ، فهم المطلوبون إذَنْ به لا غيرهم .

وإنما لم يذكر القسم الثالث ؛ وهو أن يكون هو عليه السلام وليَه دونهم ؛ لأنه لم يقل به قائل ، فإنّ النّاس كانوا على قولين فى ذلك : أحدهما أنّ عليًّا وطلحة والزبير مَسّهم لَطْخٌ من عثمان ؛ لا بمعنى أنهم باشروا قتْله ؛ بل بمعنى الإغراء والتحريض ؛ وثانيهما أنّ عليًّا عليه السلام برىء من ذلك ، وأنّ طلحة والزبير غير بريئيْن منه .

ثم قال : وإنّ أوّل عدلهم لَلحُكم على أنفسهم ؛ يقول : إنّ هؤلاء خرجوا ونقضوا البيْعة ، وقالوا : إنّما خرجنا للأمر بالمعروف والنهى عْن المنكر ، وإظهار العدل وإحياء الحقّ وإماتة الباطل ، وأوّل العدل أن يحكُموا على أنفسهم ؛ فإنّه يجب على الإنسان أن يقضىَ على نفسه ثم على غيره ، وإذا كان دم عثمان قبلهم ، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم .

---

(١) المأبض : مايثبت عليه الفخذ .

قال : وإن معى لبصيرتى ، أى عقلى ؛ مالبَسْتُ على الناس أمرهم ولا لُبِس الأمر علىّ ، أى لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بل أوضحه لى وعرّفنيه .

ثم قال : وإنها للفئة الباغية ؛ لام التعريف فى « الفئة » تشعر بأنّ نصًّا قد كان عنده: أنه ستخرج عليه فئة باغية ، ولم يعيّن له وقتها ولا كلّ صفاتها ، بل بعض علاماتها ، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلاماتِ موجودة فيهم ؛ قال : وإنّها للفئة الباغية ، أى وإنّ هذه الفئة ، أى الفئة التى وُعِدت بخروجها علىّ ، ولولا هذا لقال : « وإنها لفئة باغية » ، على التنكير .

ثم ذكر بعض العلامات ، فقال : إنّ الأمر لواضح ، كلّ هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أنّ هذه الجماعة هى تلك الفئة الموعود بخروجها ، وقد ذهب الباطلُ وزاحَ[1] ، وخرِس لسانه بعد شَغْبه .

ثم أقسم ليملأنّ لهم حوضا هو ماتحه ، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك. لا يصدرون عنه برىّ ، أى ليس كهذه الحياض الحقيقية التى إذا وَرَدَها الظمآن صَدَر عن رِىّ ونقع غليله ، بل لا يصدُرون عنه إلا وهم جَزَر السّيوف ، ولا يعبّون بعده فى حِسْى لأنهم هلكوا ، فلا يشربون بعده البارد العذب .

وكان عمرو بن الليث الصفّار أمير خراسان أنفذ جيشا لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانىّ ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث ، فغضب ولَقِىَ القوّاد بكلام غليظ ، فقال له بعضهم : أيها الأمير ، إنه قد طُبِخَ لك مِرْجَلٌ عظيم ، وإنما نلنا منه لُهمة[2] يسيرة والباقى مذخور لك ، فعلام تتركه ! اذهب إليهم فكُلْه . فسكت عمرو ابن الليث عنه ولم يجب .

---

(١) زاح الأمر : ذهب .
(٢) اللهمة : الجزء اليسير .

ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكنايتين .

***

الأَصْلُ :

منه :

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا ، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا .

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ . فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا ، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا ، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ وَرَدَّا الْعَافِيَةَ .

***

الشَّرْحُ :

العُوذ : النوق الحديثات النتاج ، الواحدة عائذ ، مثل حائل وحُول ، وقد يقال ذلك للخيل والظباء ، ويجمع أيضاً على « عُوذان » مثل راعٍ ورُعيان ، وهذه عائذة بيّنة العُؤود ، وذلك إذا ولدت عن قريب ، وهى فى عياذها ، أى بحِدْثان نتاجها[1] .

والمطافيل : جمع مُطْفِل ، وهى التى زال عنها اسمُ العياذ ومعها طِفْلها ، وقد تسمّى المطافيل عُوذا إلى أن يبعد العهد بالنتاج مجازا ؛ وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين : « إقبال العوذ المطافيل » ، وإلا فالاسمان معاً لا يجتمعان حقيقةً ، وإذا زال الأول ثبت الثانى .

قوله : « وألّبا الناس علىّ » أى حرّضا ، يقال : حسود مؤلّب .

---

(١) فى اللسان : « ويقال : هى عائذة بينة العؤوذ ، إذا ولدت عشرة أيام أو خمسة عشر ، ثم هى مطفل » .

واستثبتُهما ، بالثاء المعجمة بثلاث : طلبت منهما أن يَثُوبا أى يرجعا ، وسمّى المنزل مَثَابة لأن أهله ينصرفون فى أمورهم ثم يثوبون إليه ، ويروى : « ولقد استَتَبْتُهما » ، أى طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما فى نقض البيعة .

واستأنيت بهما ، من الأناةِ والانتظار .

والوِقاع ، بكسر الواو : مصدر واقعتهم فى الحرب وِقاعا ، مثل نازلتهم نِزالا ، وقاتلتهم قِتالا .

وغمَط فلان النعمة ، إذا حقَرها وأزرى بها غمْطا ، ويجوز « غمِط » النعمة بالكسر والمصدر غيرُ محرّك ويقال : إن الكسر أفصح من الفتح .

يقول عليه السلام : إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النُّوق إلى أولادها ، تسألوننى البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتكم . ثم دعا علىّ على طلحة والزبير بعد أنْ وصفهما بالقطيعة والنكث والتأليب عليه ، بأن يَحُلَّ الله تعالى ما عقدا ، وألاّ يحكِم لهما ما أبرما ، وأن يريهما المساءة فيما أمّلا وعملا .

فأما الوصف لهما بما وصفهما به ، فقد صدق عليه السلام فيه ، وأمّا دعاؤه فاستجيب له ، والمساءة التى دعابها هى مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة ، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان رسوله بالجنّة ، وإنما استوجباها بالتّوبة التى ينقلها أصحابنا رحمهم الله فى كتبهم عنهما ، ولولاها لكانا من الهالكين .

(١٣٨)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام يومئ فيها إلى ذكر الملاحم :

يَعْطِفُ ٱلْهَوَى عَلَى ٱلْهُدَى ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَى ٱلْهَوَى ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى ٱلْقُرْآنِ ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذ إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ، وهو الموعود به فى الأخبار والآثار ، ومعنى « يعطف الهوى » يقهره ويَثنيه عن جانب الإيثار والإرادة ، عاملا عمل الهدى ، فيجعل الهدى قاهراً له ، وظاهرا عليه .

وكذلك قوله : « ويعطف الرأى على القرآن » ، أى يقهر حكم الرأى والقياس والعمل بغَلَبة الظنّ عاملا عمل القرآن .

وقوله : « إذا عطفوا الهدى » و « إذا عطفوا القرآن » إشارة إلى الفِرَق المخالفين لهذا الإمام ، المشاقّين له ، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى ، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأى .

* * *

الأصل :

منها :

حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ ؛ بَادِياً نَوَاجِذُهَا ، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا ، حُلْواً رَضَاعُهَا ، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا .

أَلَا وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

***

الشرح :

الساق : الشدّة، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾(١) .

والنواجذ : أقصى الأضراس ، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتَها ، كما أنّ غاية الضحك أن تبدُو النواجذ .

قوله : « مملوءةً أخلافها » ، والأخلاف للناقة حلمات الضرع ، واحدها خِلْف .

وكذلك وقوله : « حلوا رضاعها ، علقما عاقبتها » قد أخذه الشاعر ، فقال :

الحرْبُ أوّلَ ماتكون فتيّةً ... تسعى بزينتها لكلّ جهولِ(٢)

حتى إذا اشتعلتْ وشبّ ضِرَامُها ... عادتْ عجوزاً غير ذات حليلِ

شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت ... مكروهـةً للشمّ والتقبيل

(١) سوره القلم ٤٢ .

(٢) تنسب إلى امرئ القيس ، وهي في ديوانه ٣٥٣ ، من زيادات نسخة ابن النحاس .

(٣) الديوان : « حتى إذا استعرت » .

وهو الرَّضاع بالفتح، والماضى رضِع بالكسر، مثل سمِع سماعا، وأهل نجد يقولون: «رَضَع» بالفتح «يرضِع» بالكسر رَضْعا، مثل ضرب يضرِب ضربا، وأنشدوا:

وَذَمُّوا لنا الدّنيا وهم يرْضِعُونها أفاويقَ حتى مايدرّ لها ثُعْلُ[1]

بكسر الضاد.

[فصل فى الاعتراض وإيراد مُثُل منه]

وقوله: «ألا وفى غدٍ» تمامه «يأخذ الوالى» وبين الكلام جملة اعتراضية، وهى قوله: «وسيأتى غدٌ بما لا تعرفون» والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه؛ ومثل ذلك فى القرآن كثير، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[2]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجواب المتلقَّى به قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، وقد اعترض بينهما قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، واعترض بين هذا الاعتراض قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، لأنك لو حذفته لبقِى الكلام على إفادته، وهو قوله: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ»، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله فى النفوس؛ ولا سيما بقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[3]، فقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ اعتراض، والمراد التنزيه. وكذلك قوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾، فـ«لَقَدْ عَلِمْتُمْ» اعتراض؛ والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة. وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

---

(١) اللسان ٩: ٤٨٤، ونسبه إلى ابن همام السلولى.

(٢) سورة الواقعة ٧٥ ـ ٧٧.

(٣) سورة النحل ٥٧.

مُفْتَرٍ ﴾[1] فاعترض بين « إذا » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم ؛ فجعل الجواب اعتراضا .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ـ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ـ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[2] فاعترض بقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ بين ﴿ وصينا ﴾ وبين الموصَى به ؛ وفائدة ذلك إذكارُ الولَد بما كابدته أمه من المشقة فى حمله وفصاله .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[3] فقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، والمراد أن يقرّر فى أنفس السامعين أنّه لا ينفع البشرَ كتمانُهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره .

ومن الاعتراض فى الشعر قول جَرير :

وَلَقَدْ أراني ـ والجديدُ إلى بِلًى ـ فى موكِبٍ بيضِ الوجوه كرامِ[4]

فقوله : « والجديد إلى بلًى » اعتراض ، والمراد تعزيته نفسه عمّا مضى من تلك اللذات .

وكذلك قول كُثَيِّر :

لو أنّ الباخلين ـ وأنتِ منهم ـ رأوكِ تعلّموا منكِ المِطالا[5]

فقوله : « وأنتِ منهم » اعتراض ؛ وفائدته ألاّ نظن أنها ليست باخلة .

---

(١) سورة النحل ١٠١ .

(٢) سورة لقمان ١٤ .

(٣) سورة البقرة ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) ديوانه ٥٥١ ، والرواية فيه : « فى فتية طرف الحديث كرام » .

(٥) ديوانه ١ : ١٥١ .

ومن ذلك قول الشاعر[١] :

فلو سألتْ سَرَاةَ الحيِّ سلمى على أنْ قد تلوّن بى زمانى[٢]
لخبّرها ذوُو أحساب قومى وأعدائى فكلٌّ قد بلانى
بِذَبِّ الذم عن حسبى ومالى وزَبُّونات أشْوَسَ تَيِّحانِ[٣]
وإنى لاأزالُ أخا حُروبٍ إذا لم أجنِ كنتُ مِجَنَّ جانى

فقوله :

* على أنْ قد تلوّن بى زمانى *

اعتراض، وفائدته الإخبار عن أنّ السنّ قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافُه.

ومن ذلك قول أبى تمام :

رَدَدْتَ رَوْنقَ وجهى فى صحيفته ردّ الصقالِ بهاءَ الصّارِمِ الخذِمِ[٤]
وما أبالِى ـ وخَيْرُ القول أصدقُه ـ حقنتَ لى ماء وجهى أم حقنت دمى

فقوله : «وخَيْرُ القولِ أصْدَقُه» اعتراض، وفائدته إثبات صدقه فى دعواه أنه لايبالى أيّهما حقن .

فأما قول أبى تمام أيضا :

وإنّ الغِنَى لى إنْ لحظتَ مطالبى من الشّعر ـ إلا فى مديحك ـ أطوعُ[٥]

فإنّ الاعتراض فيه هو قوله : «إلا فى مديحك» وليس قوله : «إنْ لحظتَ مطالبى» اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصلىّ[٦]، لأنّ فائدة البيت معلّقة عليه، لأنه لايريد أنّ الغنى

---

(١) لسوار بن المضرب السعدى . ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ١ : ١٣٠ .
(٢) سراة القوم : خيارهم .
(٣) زبونات ، من الزبن ، وهو الدفع . والتيحان : العريض المقدام .
(٤) ديوانه ٣ : ٢١٨ . والخذم : السريع القطع .
(٥) ديوانه ٢ : ٣٢٣ .
(٦) المثل السائر ٢ : ١٨٨ .

لى على كل حال أطوع من الشِّعْر ، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختلّ ! بل مراده أنّ الغنى لى بشرط أن تلحظ مطالبى من الشعر أطوعُ لى ؛ إلاّ فى مديحك ، فإنّ الشعر فى مديحك أطوع لى منه ، وإذا كانت الفائدة معلّقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضا .
وكذلك وَهِم ابن الأثير[١] أيضا فى قول امرئ القيس :

فلو أنّ ما أسْعَى لأدنى معيشةٍ ... كفانى ولم أطْلبْ قليلٌ من المالِ[٢]
ولكنّما أسْعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

فقال : إن قوله : « ولم أطلبْ » اعتراض ؛ وليس بصحيح ، لأنّ فائدة البيت مرتبطة به : وتقديره : لو سعيتُ لأن آكلَ وأشرب لكفانى القليل ، ولم أطلب الملك ؛ فكيف يكون قوله : ولم أطلب الملك اعتراضا ، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلةً تردُ لتحسين وتكملة ، وليست فائدته أصلية !

وقد يأتى الاعتراض ولا فائدة فيه ؛ وهو غير مستحسَن ، نحو قول النابغة :

يقولُ رجالٌ يجهلونَ خليقَتِى ... لعلّ زياداً – لا أبالكَ – غافلُ[٣]

فقوله : « لا أبالك » ، اعتراض لا معنى تحته ها هنا ، ومثله قول زهير :

سئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يعشْ ... ثمانينَ حَوْلاً – لا أبا لكَ – يسأمِ[٤]

فإن جاءت « لا أبالك » تعطى معنى يليق بالموضع فهى اعتراض جيد ، نحو قول أبى تمام :

* عِتَابَكِ عَنى – لا أبَالكِ – وَاقصِدِى *

فإنه أراد زجرها وذمّها لما أسرفت فى عتابه .

---

(١) المثل السائر ٢ : ١٨٦ .
(٢) ديوانه ٣٩ .
(٣) ديوانه ٦١ .
(٤) ديوانه ٢٩ .

وقد يأتي الاعتراض على غاية من القبح والاستهجان ، وهو على سبيل التقديم والتأخير ، نحو قول الشاعر :

فَقَدْ والشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءٌ بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ فَصِيحُ[1]

تقديره : : فقد بَيّن لى صُرَدٌ بصيح بوشْك فراقهم ، والشك عناء ، فلأجْل قوله : « والشك عناء » بين « قد » والفعل الماضى ؛ وهو « بَيّن » عدّ اعتراضا مستهجَنا .

وأمثال هذا للعرب كثير .

قوله عليه السلام : « يأخذ الوالِي من غيرها عُمالها على مساوئ أعمالها » كلام منقطع عما قبله ، وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمْرَة ، فذكر عليه السلام أنّ الوالىَ ـ يعنى الإمام الذى يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ـ يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم . وعلى ها هنا متعلقة بـ « يأخذ » التى هى بمعنى « يؤاخذ » من قولك : أخذته بذنبه ، وآخذته ، والهمز أفصح .

والأفاليذ : جمع أفلاذ ، وأفلاذ جمع فَلْذ ، وهى القطعة من الكبد ، وهذا كناية عن الكنوز التى تظهر للقائم بالأمر ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى خبر مرفوع فى لفظة : « وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها » ، وقد فسر قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[2] بذلك فى بعض التفاسير .

والمقاليد : المفاتيح .

***

الأصلُ

منها :

كأنّى بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ ، وَفَرَشَ الأَرْضَ بِالرُّءُوسِ . قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ .

(١) المثل السائر ٢ : ١٩١ . (٢) سورة الزلزلة ٢ .

وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا .

فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ .

***

الشرح :

هذا إخبار عن عبد الملك بن مَرْوان وظهوره بالشام ومُلْكه بعد ذلك العراق ، وماقتَل من العرب فيها أيّامَ عبدالرحمان بن الأشعث ، وقتلِه أيام مصعب بن الزبير .

ونعق الرعى بغنمه ، بالعين المهملة ، ونَغَق الغراب بالغين المعجمة . وفحص براياته هاهنا : مفعول محذوف تقديره : وفحص الناسَ براياته ، أى نحّاهم وقلّبهم يمينا وشمالا .

وكوفان : اسم الكوفة . وضواحيها : ماقرب منها من القرى . والضَّروس : الناقة السيئة الخلُق تعضّ حالبها ، قال بشر بن أبى خازم :

عَطَفْنَا لهمْ عَطْفَ الضَّروسِ مِن الملاَ ... بشهباء لا يمشى الضَّراءَ رقيبُها (١)

وقوله : « وفرش الأرض بالرءوس » : غطّاها بها كما يغطّى المكان بالفراش .

وفغرت فاغرتُه ؛ كأنه يقول : فتح فاه؛ والكلام استعارة، وفغَر « فعَل » يتعدّى ولا يتعدّى . وثقُلتْ فى الأرض وطأته ، كناية عن الجوْر والظلْم .

بعيد الجولة : استعارة أيضا؛ والمعنى أنّ تطواف خيوله وجيوشه فى البلاد، أو جوَلان رجاله فى الحرب على الأقران طويل جدًّا لا يتعقّبه السكون إلا نادرا .

وبعيد منصوب على الحال ، وإضافته غير محْضة .

---

(١) اللسان ٩ : ٤٢٤ ، ديوانه ١٥

وعوازب أحلامها : ماذهب من عقولها ، عزَبَ عنه الرأى ، أى بعُد .

ويسنّى لكم طرقَه ، أى يسهل . والعقِب ، بكسر القاف : مؤخّر القدم ، وهى مؤنثة .

فإن قلت:فإنّ قوله : «حتى تؤوب» يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها ، وعبدالملك مات فى ملكه ولم يزُل الملك عنه بأوْبَةِ أحلام العرب إليها فإنّ فائدة « حتى » إلى ؛ وهى موضوعة للغاية .

قلت : إن مُلكَ أولاده مُلكه أيضا،ومازال الملك عن بنى مرْوان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، والعرب هاهنا : بنو العباس ومن اتّبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائىّ وابنيه: حُميد والحسن،وكبنِى رزنى ، بتقديم الراء المهملة،الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبىّ، وعِدادهم فى خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بنى العباس . وقد قيل : إنّ أبا مسلم أيضا عربىّ أصله ، وكلّ هؤلاء وآبائهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين فى دولة بنى أمية،لم ينهض منهم ناهض،ولا وثب إلى الملك واثب ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عَزَب عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جَوْر بنى مروان وظلمهم،وقاموا بالأمر،وأزالوا تلك الدولة التى كرهها الله تعالى ، وأذِنَ فى انتقالها .

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتابَ والسنة ، والعهد القريب الذى عليه باقى النبوّة-يعنى عهده وأيامه عليه السلام .وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنقضى إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، كالأمر لهم باتباع ولاة الدولة الجديدة فى كلّ ماتفعله،فاستظهرَ عليهم بهذه الوصية،وقال لهم: إذا ابتذلت الدولة ، فالزموا الكتاب والسنّة ، والعهد الذى فارقتُكم عليه .

(١٣٩)

الأصلُ

ومن كلام له عليه السلام فى وقت الشورى :

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ ؛ فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي . عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ ؛ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .

***

الشرح :

هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر .

[من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان]

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدّم مافيه كفاية ؛ ونحن نذكر هاهنا مالم نذكره هناك ، وهو من رواية عوانة ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبيّ فى كتاب '' الشورى '' ، و '' مقتل عثمان '' ، وقد رواه أيضا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ فى زيادات كتاب ''السقيفة'' ، قال :

لما طُعِن عمرُ جَعَل الأمرَ شورى بين ستّة نفر : علىّ بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن مالك ؛ وكان

طلحة يومئذ بالشام ، وقال عمر : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض وهو عن هؤلاء راضٍ ؛ فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم ، وأوصى صُهَيب بن سنان ، مولى عبد الله بن جُدْعان – ويقال : إنّ أصلَه من حيّ من ربيعة بن نزار ، يقال لهم عَنَزَة – فأمره أن يصلّيَ بالناس حتى يرضَى هؤلاء القومُ رجلاً منهم ، وكان عمر لا يشكّ أنّ هذا الأمر صائر إلى أحد الرّجلين : عليّ وعثمان ، وقال : إنْ قدِم طلحة فهو معهم ، وإلّا فلْتختَرِ الخمسةُ واحداً منها . وروى أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى ، وقال : الأمر فى هؤلاء الأربعة ، ودعُوا سعداً عَلَى حاله أميراً بين يدَيِ الإمام . ثم قال : ولو كان أبو عبيدة ابن الجرّاح حيًّا لما تخالجتْنِى فيه الشكوك ، فإن اجتمع ثلاثة على واحد ، فكونوا مع الثلاثة ، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذى فيه عبد الرحمن .

وقال لأبى طلحة الأنصاريّ : ياأبا طلحة ؛ فو الله لطالما أعزّ الله بكم الدين ، ونصر بكم الإسلام ؛ اختر من المسلمين خمسين رجلا ، فائت بهم هؤلاء القوم فى كلّ يوم مرّة ، فاستحِثُّوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمّة رجلاً منهم .

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار – فأعلمهم ما أوصَى به ، وكتب فى وصيّته أن يولّيَ الإمام سعدَ بن مالك الكوفة ، وأباموسى الأشعريّ ، لأنه كان عزل سعداً عن سَخْطَةٍ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَنْ يقوم بالأمْر من بعده استرضاء لسعد .

قال الشعبيّ : فحدثنى من لا أتّهمه من الأنصار – وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ : هو سهل بن سعد الأنصاريّ – قال : مشيت وراء عليّ بن أبى طالب حيثُ انصرف من عند عمر ، والعباس بن عبد المطلب يمشى فى جانبه ، فسمعتهُ يقول للعباس : ذهبتْ منّا والله! فقال : كيف علمت ؟ قال : ألا تسمعه يقول : كونوا فى الجانب الذى فيه عبد الرحمن ، لأنّه ابنُ عمّه ، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره ، فإذاً اجتمع هؤلاء ! فلوأنّ الرجلين

الباقيين كانا معى لم يغنيا عنّى شيئا ، مع أنّى لست أرجو إلا أحدهما ، ومع ذلك فقد أحبّ عمر أن يعلمنا أنّ لعبد الرحمن عنـده فضلا علينا . لعمرُ الله ماجعل الله ذلك لهم علينا ، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرته ما أتى إلينا قديما، ولأعلمته سوء رأيه فينا ، وما أتى إلينا حديثا ؛ ولئن ماتَ ـ وليموتَنَّ ـ ليجتمعنّ هؤلاء القوم على أن يصرِفوا هذا الأمر عنّا؛ ولئن فعلوها ـ وليفعلُنّ ـ ليرونني حيث يكرهون؛ والله مابى رغبة فى السلطان ، ولا حبّ الدنيا ؛ ولـكن لإظهار العدل ، والقيام بالـكتاب والسنّة .

قال : ثمّ التفتّ فرآنى وراءه ، فعرفت أنه قد ساءه ذلك ، فقلت : لا تُرَعْ أباحسن! لا والله لا يستمع أحدٌ الذى سمعتُ منك فى الدنيا ما اصطحبنا فيها ؛ فوالله ماسمعه منّى مخلوق حتى قبض الله عليًا إلى رحمته .

قال عوانة : فحدثنا إسماعيل ، قال : حدّثنى الشعبىّ ، قال : فلما مات عمر ، وأدرِج فى أكفانه ، ثم وضِـع ليصلَّى عليه ، تقدّم علىّ بن أبى طالب ، فقام عند رأسه ، وتقدّم عثمان فقام عنـد رجليه ، فقال علىّ عليه السلام : هكذا ينبغى أن تـكون الصلاة ، فقال عثمان : بل هكذا ، فقال عبد الرحمن : ما أسرع ما اختلفتم ! ياصُهَيْب ، صلّ عَلَى عمر كما رضِىَ أن تصلّىَ بهم المـكتوبة ، فتقدّم صُهيب فصلّى عَلَى عمر .

قال الشعبىّ : وأُدخِل أهل الشورى دارا، فأقبلوا يتجادلون عليها ، وكلّهم بها ضنين، وعليها حريص ؛ إمّا لدنيا وإمّا لآخرة ، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن : مَنْ رجلٌ منكم يخرِجُ نفسَه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأمّة رجلا منكم، فإنّى طيّبةٌ نفسِى أن أخرُجَ منها، وأختار لـكم ؟ قالوا : قد رضينا ؛ إلّا علىّ بن أبى طالب فإنّه اتّهمَه وقال : أنظر وَأرَى . فأقبل أبو طلحة عليه ، وقال : ياأبا الحسن ، ارضَ برأى عبد الرحمن ، كانَ الأمر لك أو لغيرك ، فقال علىّ : أعطِنى ياعبدَالرحمن موثِقاً من الله لتؤثِرنّ الحقّ ، ولا تتّبع الهوى،

ولا تمِلْ إلى صِهرٍ ولا ذى قَرابة ، ولا تعملْ إلا لله ، ولا تألو هذه الأمّةَ أن تختارَ لها خيرَها .

قال : فحلفَ له عبدالرحمن بالله الذى لا إله إلا هو، لأجتهدنّ لنفسِى ولكم وللأمة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صهر ولا ذِى قرابة .

قال : فخرج عبدُالرحمن ، فمكث ثلاثة أيام يشاوِر الناس ، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا عَلَى الباب لا يشكّون أنه يبايع علىّ بن أبى طالب ، وكان هَوَى قريش كافّة ماعدا بنى هاشم فى عثمان ، وهَوَى طائفة من الأنصار مع علىّ وهوى طائفة أخرى مع عثمان ؛ وهى أقلّ الطائفتين ، وطائفة لا يبالُون : أيّهما بُويع .

قال : فأقبل المقداد بن عمرو ؛ والناس مجتمعون، فقال : أيّها الناسُ ؛ اسمعوا ماأقول، أنا المقداد بن عمرو ؛ إنّكم إن بايعتم عليا سمعنا وأطعنا ، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا ؛ فقام عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومىّ ، فنادى : أيّها الناس ، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليًّا سمعنا وعصينا. فقال له المقداد : ياعدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه ، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون ! فقال له عبد الله : يابنَ الحليف العسيف (١) ، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول فى أمرِ قريش !

فقال عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح : أيّها الملأ؛ إن أردتم ألّا تختلف قريش فيما بينها، فبايعوا عثمان ؛ فقال عمّار بن ياسر: إن أردتم ألّا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليا؛ ثم أقبل عَلَى عبدالله بن سعد بن أبى سرح، فقال: يافاسق يابن الفاسق ، أأنت ممّن يستنصحه المسلمون ، أو يستشيرونه فى أمورهم ! وارتفعت الأصوات، ونادى منادٍ لايُدْرَى مَن هو! — فقريش تزعم أنه رجل من بنى مخزوم، والأنصار تزعم أنه رجل طُوال آدم مشرف عَلَى الناس — لا يعرفه أحد منهم : ياعبد الرحمن ، افرُغ من أمرك ، وامضِ عَلَى مافى نفسك فإنه الصواب .

(١) العسيف : المستهان به .

قال الشعبيّ : فأقبل عبد الرحمن عَلَى علىّ بن أبى طالب ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه ، وأشدّ ما أخذ الله على النبيِّين من عهد وميثاق : إن بايعتك لتعملَنّ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وسيرة أبى بكر وعمر ! فقال علىّ عليه السلام : طاقتى ومبلغ على وجهد رأيى ؛ والناس يسمعون .

فأقبل عَلَى عثمان ، فقال له مثل ذلك ، فقال : نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئاً منه .
ثم أقبل عَلَى علىّ فقال له ذلك ثلاث مرات ، ولعثمان ثلاث مرات ، فى كلّ ذلك يجيب علىّ مثل ما كان أجاب به ، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به .

فقال : ابسُط يدك ياعثمان ، فبسط يده فبايعه ، وقام القوم فخرجوا ؛ وقد بايعوا إلّا علىّ بن أبى طالب ، فإنّه لم يبايع .

قال : فخرج عثمان عَلَى النّاس ووجهه متهلّل ، وخرج علىّ وهو كاسف البال مظلِم ؛ وهو يقول : يابنَ عوف ؛ ليس هذا بأوّل يوم تظاهرتم علينا ، مِن دفعِنا عن حقّنا والاستئثار علينا ! وإنها لسنّة علينا ، وطريقة تركتموها .

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان : أما والله لو بُويع غيرك لما بايعناه ؛ فقال عبدالرحمن بن عوف : كذبتَ ؛ والله لو بويع غيره لبايعتَه ؛ وما أنت وذاك يابن الدبّاغة ! والله لو وليَها غيره لقلتَ له مثل ماقلت الآن ، تقرّبا إليه وطمعا فى الدنيا ، فاذهب لا أبا لك ! .

فقال المغيرة : لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ماتكره . ومضيا .

قال الشعبىّ ، فلما دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار ، ثم أغلقوها عليهم ، فقال أبو سفيان بن حَرْب : أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : يابنى أميّة ، تلقفوها تلقّف الكرة ؛ فوالّذى يحلِف به أبو سفيان مامن عذاب ولاحساب ، ولا جنّة ولا نار ، ولا بعث ولا قيامة !

قال : فانتهره عثمان ، وساءه بما قال ، وأمر بإخراجه .

قال الشعبيّ : فدخل عبدُ الرحمن بن عوف على عُثْمان ، فقال له : ماصنعت ! فوالله ماوفّقت حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر ، فتحمَد الله وتثنِي عليه، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعِدُ النّاس خيراً .

قال : فخرج عثمان ، فصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا مقام لم نكن نقومه ، ولم نعدّ له من الكلام الذى يقام به فى مثله ، وسأهيّئ ذلك إن شاء الله ، ولن آلو أمّةَ محمد خيرا ، والله المستعان .

ثم نزل .

* * *

قال عوانة : فحدّثنى يزيد بن جرير ، عن الشعبيّ، عن شقيق بن مسلمة ، أنّ عليّ بنَ أبى طالب ، لما انصرف إلى رحْله، قال لبنى أبيه : يابنى عبدالمطّلب ، إنّ قومَكم عادوْكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ فى حياته ، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمَّروا أبدا ؛ ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلا بالسيف .

قال : وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، داخلٌ إليهم ، قد سمع الكلام كلَّه فدخل ، وقال : ياأبا الحسن ، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض! فقال : اسكت ويحك ! فوالله لولا أبوك وما ركب منّى قديما وحديثا ، ما نازعنى ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف . فقام عبد الله فخرج .

قال : وأكثر النّاس فى أمرِ الهُرْمزان وعبيدالله بن عمر، وقتله إياه ، وبلغ ماقال فيه علىّ بن أبى طالب . فقام عثمان فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيّها الناس، إنه كان من قضاء الله أنّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان ، وهو رجل من

المسلمين ، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون ؛ وأنا إمامكم وقد عفوْت ، أفتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس ؟ قالوا : نعم ، فعفاعنه ، فلما بلغ ذلك عليًّا تضاحك ، وقال: سبحان الله! لقد بدأ بها عثمان ! أيعفُو عن حقّ امرىءٍ ليس بواليه! تالله إنّ هذا لهو العجَب! قالوا : فكان ذلك أوّل مابدا من عثمان مما نقِم عليه .

قال الشعبيّ : وخرج المِقْداد من الغدِ، فلقِيَ عبدالرحمن بن عوف، فأخذ بيده، وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله ، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فأكثر الله مالك . فقال عبد الرحمن : اسمعْ ، رحمك الله ، اسمع ! قال: لاأسمع والله ؛ وجذب يده من يده ، ومضى حتى دخل على عليّ عليه السلام ، فقال : قم فقاتل حتى نقاتلَ معك ، قال عليّ : فبِمن أقاتل رحمك الله ! وأقبلَ عمّار بن ياسر ينادى:

يا ناعيَ الإسلام قم فانْعَهُ   قد مات عرفٌ وبدا نُكْرُ

أما والله لوأنّ لى أعوانًا لقاتلتهُم ، والله لئن قاتلهم واحدٌ لأكونَنّ له ثانيا. فقال عليّ : يأبا اليقظان ؛ والله لاأجِدُ عليهم أعوانًا ، ولاأحبّ أن أعرِّضكم لما لا تطيقون . وبقى عليه السلام فى داره ، وعنده نفر من أهل بيته ؛ وليس يدخل إليه أحد مخافة عثمان .

قال الشعبيّ : واجتمع أهلُ الشورى عَلى أن تكونَ كلمتهم واحدة على مَنْ لم يبايع، فقاموا إلى عليّ ، فقالوا : قم فبايع عثمان ، قال: فإنْ لم أفعل، قالوا : نجاهدُك، قال : فمشى إلى عثمان حتى بايعَه ؛ وهو يقول : صدق الله ورسوله . فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف ، فاعتذَر إليه ؛ وقال : إن عثمان أعطانا يده ويمينه ، ولم تفعل أنت ، فأحببتُ أن أتوثق للمسلمين ، فجعلتُها فيه ، فقال : إيهاً عنك ! إنما آثرتَه بها لتنالها بعده ، دقّ الله بينكما عطرَ مَنْشِم (١) .

---

(١) منشم : امرأة عطارة من خزاعة ؛ فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ؛ فضرب ذلك مثلا لشدة الأمر .

قال الشعبيّ : وقدم طلحة من الشام بعد ما بويع عثمان ، فقيل له : رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك ؛ فقال : والله لو بايعتم شرَّكم لرضيتُ ، فكيف وقد بايعتم خيرَكم ! قال : ثم عَدَا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه ، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه .

قال الشعبيّ : فأمّا ما يذكره الناس من المناشدة، وقول عليّ عليه السلام لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم كذا ؛ فإنه لم يكن يوم البيعة ، وإنما كان بعد ذلك بقليل ؛ دخل عليٌّ عليه السلام على عثمان وعنده جماعة من الناس ، منهم أهلُ الشورى ، وقد كان بلغه عنهم هَنَاتٌ وقوارصُ ، فقال لهم : أفيكم أفيكم ! كلّ ذلك يقولون لا، قال : لكنّي أخبركم عن أنفسكم ؛ أمّا أنت يا عثمان ففررت يوم حُنَين، وتولّيت يوم التقى الجمعان ، وأمّا أنت يا طلحة فقلت : إنْ مات محمد لنركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا ، وأمّا أنتَ يا عبد الرحمن ، فصاحب قراريط ، وأما أنت يا سعد فتدقّ عن أن تذكر .

قال : ثم خرج فقال عثمان : أما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه ! قالوا ؛ وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين ! وتفرّقوا .

***

قال عوانة : قال إسماعيل : قال الشعبيّ : فحدثني عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزديّ ، قال: كنت جالسا بالمدينة حيث بويع عثمان ، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو ؛ فسمعته يقول : والله ما رأيت مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت ! وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً ، فقال : وما أنت وذاك يا مقداد ! قال المقداد: إنّي والله أحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنى لأعجب من قريش وتطاولهم على النّاس بفضل رسول الله ، ثمّ انتزاعهم سلطانه من أهله . قال عبد الرحمن : أمّا والله لقد أجهدتُ نفسي

لـكم . قال للمقداد : أما والله لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمُرون بالحق وبه يعدلون ! أما والله لو أنّ لى على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالى إياهم ببدر وأُحُد . فقال عبد الرحمن : ثكلتْك أمّك ؛ لا يسمعنّ هذا الكلامَ الناس ، فإنى أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة .

قال المقداد : إنّ مَنْ دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة ؛ ولكنْ مَنْ أقحم الناس فى الباطل ، وآثر الهوى على الحق ، فذلك صاحب الفتنة والفرُقة .

قال : فتربّد وجهُ عبد الرحمن ، ثم قال : لو أعلم أنك إياىَ تعنى لـكان لى ولك شأن .

قال المقداد : إياى تهدّد يابنَ أمّ عبد الرحمن ! ثم قام عن عبد الرحمن ، فانصرف .

قال جندب بن عبد الله : فاتّبعتهُ ، وقلت له : يا عبد الله ، أنا مِنْ أعوانِك ، فقال : رحمك الله ! إنّ هذا الأمر لا يغنى فيه الرجلان ولا الثلاثة ؛ قال : فدخلت من فورى ذلك عَلَى علىّ عليه السلام ، فلما جلست إليه ، قلت : يا أبا الحسن ، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك ، فقال : صَبْرٌ جميل والله المستعان .

فقلت : والله إنك لصبور ! قال : فإنْ لم أصبِرْ فماذا أصنع ؟ قلت : إنى جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف ، فقالا كذا وكذا ، ثم قام المقداد فاتّبعته ، فقلت له كذا ، فقال لى كذا . فقال علىّ عليه السلام : لقد صدَق المقداد ، فما أصنع ؟ فقلت : تقومُ فى الناس فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرهم أنك أولى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتسألهم النصر على هؤلاء المظاهرين عليك ، فإن أجابك عشرة من مائة شَدَدْتَ بهم على الباقين ، فإن دانوا لك فذاك ، وإلّا قاتلتهم وكنت أوْلَى بالعذر ؛ قُتِلتَ أو بقيت ، وكنت أعْلَى عند الله حجّة .

فقال : أترجو يا جندب أن يبايعَنى من كلّ عشرة واحد ؟ قلت أرجو ذلك ، قال : لـكنى لا أرجو ذلك ، لا والله ولا من المائة واحد ، وسأخبرك ؛ إنّ الناس إنما ينظرون

إلى قريش فيقولون : هم قوم محمد وقبيله . وأما قريش بينها فتقول : إنّ آل محمد يرون لهم على الناس بنبوّته فضلا ، ويرون أنهم أولياء هذا الأمر دون قريش ، ودون غيرهم من الناس ، وهم إن وَلُوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبدا ؛ ومتى كان فى غيرهم تداولته قريش بينها ؛ لا والله لا يدفعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبدا !

فقلت : جعلت فداك يا بن عمّ رسول الله ! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول ، أفلا أرْجع إلى المصر ، فأوذِنُ الناس بمقالتك ، وأدعو النّاس إليك ؟ فقال : يا جندب ليس هذا زمان ذاك .

قال : فانصرفتُ إلى العراق ، فكنت أذكر فضل علىّ على الناس فلا أعدم رجلا يقول لى ما أكره ، وأحسن ما أسمعه قول مَنْ يقول : دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك ؛ فأقول : إنّ هذا مما ينفعنى وينفعك ، فيقوم عَنى ويدَعنى .

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى : حتى رُفِع ذلك من قولى إلى الوليد ابن عُقبة ، أيام ولينا فبعث إلىّ فحبسنى حتى كُلِّمَ فىّ ، فخلّى سبيلى .

وروى الجوهرىّ ، قال : نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم : يا معشرَ المسلمين ، إنا قد كُنّا ، ما كنّا نستطيع الكلام ، قلّة وذلة ، فأعزّنا الله بدينه ، وأكرمنا برسوله ، فالحمد لله ربّ العالمين . يا معشرَ قريش ، إلى مَتَى تصرفون هذا الأمْرَ عن أهل بيت نبيكم ! تحوّلونه ها هنا مرّة ، وها هنا مرّة ! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله !

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة : يابن سميّة ، لقد عَدَوْتَ طوْرك وماعرفتَ قدرك ؛ ما أنت وما رأت قريش لأنفسها ! إنك لستَ فى شيء من أمرها وإمارتها ، فتنحّ عنها .

وتكلّمت قريش بأجمعها ، فصاحوا بعمار وانتهروه ؛ فقال : الحمد لله رب العالمين ؛ ما زال أعوانُ الحقّ أذلاء ! ثم قام فانصرف .

(١٤٠)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى النهى عن غيبة الناس :

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ . أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ ؛ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ .

وَايْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ ، لَجُرْأَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ .

يَا عَبْدَ اللهِ ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ . فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ غَيْرُهُ بِهِ .

***

الشَّرْحُ :

ليس فى هذا الفصل من غريب اللغة ماتشرح .

[أقوال مأثورة فى ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين]

ونحن نذكر مما وردَ فى الغيبة لُمَعاً نافعة عَلَى عادتنا فى ذِكْر الشىء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه .

وقد ورد فى الكتاب العزيز ذمّ الغيبة . قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والغيبة ، فإن الغيبة أشدّ من الزّنا ، إنّ الرجلَ يَزنى فيتوبُ الله عليه ، وإنّ صاحبَ الغيبة لا يُغْفَرُ له حتى يغفر له صاحبه » .

وروى أنس عنه صلى الله عليه وآله : « مررت ليلةَ أُسرِىَ بى ، فرأيت قوما يخمِشون وجوهَهم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس » .

وفى حديث سَلْمان ، قلت : يا رسول الله ، علّمنِى خيراً ينفعنى الله به ، قال : « لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تُفرغ من دلوك فى إناء المستقِى ، والْقَ أخاك ببشرٍ حسَن ، ولا تغتابنه إذا أدبر » .

وفى حديث البَرَاء بن عازب : خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمعَ العواتِقَ فى بيوتهنّ ، فقال : « ألا لا تغتابُوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتِهم ، فإنّه مَنْ يتتبع عورَةَ أخيه تتبَّع الله عورته ، ومَنْ يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

---

(١) سورة الحجرات ١٢ .

وفى حديث أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فى يوم صوم : « إنّ فلانة وفلانة كانتا تأكلان اليوم شحمَ امرأةٍ مسلمة – يعنى الغيبة – فمرْهما فليتقيّآ ، فقاءت كلّ واحدة منهما عَلَقة دم » [1] .

وفى الصّحاح المجمع عليها أنه عليه السلام مرّ بقبرين جديدين ،فقال : إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان بكبير ؛ أمّا أحدُهما ؛ فكان يغتاب الناس ، وأمّا الآخر فكان لايتنزّه من البوْل » ؛ ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين – أو قال : دعا بجريدتين – ثم غرسهما فى القبرين – وقال : « أما إنه سيُهون من عذابهما مادامتَا رطبتيْن » .

وفى حديث ابن عباس أنّ راجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً ، وهو يمشى عليه السلام ، وهما يمشيان معه ، فمرّ على جيفةٍ ، فقال : « انهشا منها » ، فقالا : يارسول الله ، أو ننهش الجيفة ! فقال : « ماأصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه » .

وفى حديث أبى هريرة : « مَنْ أكل لحمَ أخيه حيًا قُرِّب إليه لحمه فى الآخرة ،فقيل له : كلْه ميتا كما أكلتَه حيًّا ، فيأكله ويضجّ ويكلح » .

وروى أن رَجُلين كانا عند باب المسجد ، فمرّ بهما رجل كان مخنثا ، فتركا ذلك ، فقالا : لقد بقِيَ عنده منه شىء ، فأقيمت الصلاة ، فصلّيا مع الناس ، وذلك يجول فى أنفسهما فأتيا عطاء بن أبى رباح ، فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم .

وعن مجاهد : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، الْهُمَزَة : الطعّان فى الناس ، واللُّمَزة : النمّام .

وعن الحسن : والله لَلغيبة أسرعُ فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد .

---

(١) العلقة : القطعة من الدم .

بعضهم : أدركنا السَّلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكفّ عن أعراض الناس .

ابن عباس : إذا أردتَ أن تذكُرَ عيوب صاحبك ، فاذكُر عيوبك . وهذا مشتقّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

أبو هريرة : يبصر أحدُهما القَذَى فى عين أخيه ، ولا يبصِرُ الجذْع فى عين نفسه ! وهذا كالأول .

الحسن : يابن آدم ، إنّك إن قضيتَ حقيقة الإيمان فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك ؛ فإذا فعلتَ ذلك كان شغلك فى خاصّة نفسك . وأحبّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا .

ويروى أنّ المسيح عليه السلام مرّ على جيفة كلْب ، فقال بعضُ التلامذة : ما أشدّ نتنه ! فقال المسيح : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم إلى أنه لا ينبغى أن يُذكر من كلّ شىء إلا أحسنُهُ .

وسمع علىّ بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إنّ لكلّ شىء إداماً ، وإدام كلاب الناس الغِيبة .

وفى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس ، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . إنّ الله حرّم الغِيبة كما حرّم المال والدم » .

عمر : مايمنعكم إذا رأيتم مَنْ يخرِق أعراض الناس أن تعرّبوا عليه ، أىْ تقبّحُوا ! قالوا : نخاف سفهه وشرّه ، قال : ذلك أدنى ألّا تكونوا شهداء .

أنس يرفعه : « مَنْ مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرقّة عيناه ، ينادى بالويل والندامة ، يعرف أهله ولا يعرفونه » .

وقال هشام بن عبد الملك فى بعض ولد الوليد بن عُقْبة :

أبلغْ أبا وهبٍ إذا مالقيتَـه ... بأنك شرّ الناسِ غَيْباً لصاحبِ

فتبدى له بِشْراً إذا مالقيتَـه ... وتلسعه بالغيْب لسْعَ العقارب

مَرّ الشعبىّ بقومٍ يغتابونه فى المسجد ، وفيهم بعض أصدقائه ، فأخذ بعُضادَتىِ الباب ، وقال :

هنيئاً مريئاً غير داء مُخامرٍ ... لعزّةَ مِن أعراضِنا مااستحلّتِ (١)

ومن كلام بعض الحكماء : أبصر الناس بالعَوار المِعوار ؛ هذا مثل قول الشاعر :

وأجْرَأُ مَن رأيتُ بظهرِ غيبٍ ... عَلَى عيبِ الرجال ذَوُو العيوب

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال : مابال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصك ! قال : لأنه شقيقى فى النسب ، وجارى فى البلد ، وشريكى فى الصنعة .

دخل أبو العيناء على المتوكل ، وعنده جلساؤه ، فقال له :يامحمّد كلّهم كانوا فى غيبتك منذ اليوم، ولم يبق أحد لم يذمّك غيرى ، فقال :

إذا رضيتْ عَنى كرامُ عشيرتِى ... فلا زالَ غَضْبَاناً عَلَىّ لئامُها

قال بعضهم : بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين ، فلما كان وقت السَّحَر ، حرّكهم واحد ، فقال : إلى كمْ هذا النوم عن أعراض الناس !

وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء ، وأنعم عليه : ماصنع بك فلان ؟ قال : ما وفَتْ نعمتُه بإساءته ؛ منعنى لذة الثّلب ، وحلاوة الشكوى .

أعرابىّ : مَنْ عاب سَفِلَةً فقد رفعه ، ومن عاب شريفا فقد وضع نفسه .

---

(١) لكثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٨

نظر بعضُ السَّلف إلى رجل يغتاب رجلا ، وقال : ياهـذا ، إنك تملى على حافظيكَ كتابا ، فانظر ماذا تقول !

ابن عباس : ما الأسد الضارِى على فريسة بأسرعَ من الدنىء فى عِرْض السَّرِىّ .

بعضهم :

ومطروفة عيناه عن عَيْب نفسه فإنْ لاح عيبٌ من أخيـه تبصّرا

وقالت رابعة العَدوِيّة : إذانصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوىء عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوىء خلقه .

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير لابنه : يا بنىّ ، عليك بالدّين ، فإنّ الدنيا ما بنتْ شيئا إلا هدَمَـه الدين ، وإذا بَنى الدّين شيئا لم تستطع الدنيا هدمَـه ؛ ألا ترى علىّ بن أبى طالب وما يقول فيه خطباء بنى أمية من ذَمّهِ وعيبه وغيبته ! والله لـكأنما يأخذون بناصيته إلى السماء ! ألا تراهم كيف يندُبون موتاهم ، ويرثيهم شعراؤهم ؛ والله لـكأنما يندبون جِيفَ الحُمُر !

ومن كلام بعض الصالحين : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذهب والفضة ، لأنّك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجُد بك نفسُك لخيانيه فيه ؛ وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه ، ولا تبالى .

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه ، كلما اغتاب أحداً أن يتصدّق بدينار ، وكان إذا مدح أحدا قال : هو كما يشاء الله ، وإذا ذمّه قال : هو كما يعلم الله .

الأحنف : فىّ خَلّتان : لا أغتاب جليسى إذا قام عَنّى ، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلونى فيه .

قيل لرجل من العرب : مَن السيّد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هِبْناه ، وإذا أدبر اغتبْناه .

قيل للربيع بن خُثَيْم : ما نراك تعيب أحدا ! فقال : لست راضياً على نفسى ؛ فأتفرّغ لذكر عيوب الناس ! ثم قال :

لنفسىَ أبكِى لستُ أبكِى لغيرها ... لنفسىَ فى نفسِى عن النّاس شاغل

عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان : ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة ! ما سمعته يغتاب عدوًّا ، قال : هو والله أعقل من أن يسلّط على حسناته ما يذهبُ بها .

سئل فُضَيل عن غِيبة الفاسق ، فقال : لا تشتغِلْ بذكره ، ولا تعوّد لسانك الغِيبة ، اشغَل لسانك بذكر الله ، وإياك ذكر الناس ؛ فإنّ ذكر الناس داء ، وذكر الله دواء .

بعض الشعراء :

ولستُ بذى نيربٍ فى الصديقِ ... خؤونَ العشيرة سبّابَها[1]

ولا مَنْ إذا كان فى مجلسٍ ... أضاع القبيلَة واغتابَها

ولكن أُبجِّلُ ساداتِها ... ولا أتعلّمُ ألقابَها

وكان يقال : الغيبة فاكهة القرّاء .

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة : أى اللّحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ؛ هى والله أطيَب من لحوم الدجاج والدّراج[2] — يعنى الغيبة .

ابن المغيرة : لا تذكر الميّت بسوء ؛ فتكون الأرض أكتَم عليه منك .

وكان عبد الملك بن صالح الهاشمىّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوء ، يقول : كُفّوا عن أسارى الثَّرى .

وفى الأثر : سامعُ الغِيبة أحد المغتابَيْن .

---

(١) النيرب : العداوة .

(٢) الدراج : طائر على خلقة القطا .

أبو نواس :

ماحطّك الواشونَ من رُتْبَةٍ   عندى وما ضرّك مغتابُ
كأنهم أثنوْا ولم يعلمُوا   عليك عندِى بالّذى عابوا

الحسن : ذمُّ الرجل فى السرّ ، مدحٌ له فى العلانية .

علىّ عليه السلام : الغِيبة جَهْد العاجز ؛ أخذه المتنبى فقال :

وأ كبِر نفسى عن جزاء بغيبــةٍ   وكلّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ ماله جُهْدُ(١)

بلغ الحسن أنّ رجلا اغتابه ، فأهدى إليه طبقا من رُطَب ، فجاءه الرجل معتذرا ، وقال : أصلحك الله ! اغتبتُك فأهديت لى ! قال : إنّك أهديت إلىّ حسناتِك ، فأردت أن أ كافئك .

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله ، فقال له : إن الأسوارىّ لم يزلْ أمس يذ كرك ويقول: عمرو الضّال ، فقال له : ياهذا ؛ والله مارعيتَ حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا رعيتَ حقّى حين بلّغتَ عن أخى ما أ كرهه . أعلِمه أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ؛ والله يحكم بيننا .

***

[حكم الغيبة فى الدين]

واعلم أنّ العلماء ذ كروا فى حدّ الغِيبة : أنْ تذ كُرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذ كرت نقصانا فى بدنه ؛ مثل أن تقول : الأفرع ، أو الأعور ؛ أو فى نَسبه نحو أن تقول : ابن النّبَطىّ وابن الإسكاف أو الزّبال أو الحائك أو خُلُقه ، نحو سيء الخلُق أو بخيل

---

(١) ١ : ٣٧٦ .

أو متكبِّر ؛ أو فى أفعاله الدنيئة نحو قولك : كذّاب وظالم ومتهاون بالصلاة ؛ أو الدنيوية نحو قولك : قليل الأدب متهاون بالنّاس ، كثير الكلام ، كثير الأكل ؛ أو فى ثوبه كقولك : وسِخ الثياب ، كبير العمامة ، طويل الأذيال .

وقد قال قوم : لا غِيبةَ فى أمور الدين ، لأنّ المغتاب إنما ذمّ ماذمّهُ الله تعالى ؛ واحتجّوا بما روى أنه ذُكِر لرسول الله صلى الله عليه وآله امرأةٌ وكثرة صومها وصلاتها ، ولكنها تؤذى جارتَها ، فقال : « هى فى النار » ؛ ولم ينكِر عليهم غيبتَهم إياها .

ورُوِى أنّ امرأةً ذُكِرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة ، فقال : « فما خيرها إذن » !

وأكثر العلماء على أنّ الغيبة فى أمور الدين محرّمة أيضا ، وادّعوا الإجماع على أنّ من ذَكَر غيره بما يكرهه فهو مغتاب ؛ سواء أكان فى الدّين أو فى غيره . قالوا : والمخالف مسبوق بهذا الإجماع ، وقالوا : وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « هل تدرون ما الغيبة » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذكرُك أخاك بما يكرهه » ، فقائل قال : أرأيت يارسول الله ، إن كان ذلك فى أخِى ؟ قال : « إن كان فيه فقد اغتبتَه ، وإن لم يكن فقد بهتَّه »[1] .

قالوا : وَرَوى مُعاذ بن جبل أنّ رجلا ذُكِر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال قوم : ماأعجزَه ! فقال عليه السلام : « اغتبتم صاحبَكم » ، فقالوا : قلنا مافيه ، فقال : « إن قلتم ماليس فيه فقد بهتّموه » .

قالوا : وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة فى الدّين ؛ ليس بحجّة ، لأن الصحابة إنما ذكرتْ ذلك فى مجلِس رسول الله صلى الله عليه وآله لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال ؛ ولم يكن غرضُها التنقُّص .

واعلم أنّ الغيبة ليست مقصورة على اللّسان فقطْ ، بل كلّ ماعرّفت به صاحبَك

---

(١) بهته ، أى قذفته بالباطل .

نقصَ أخيك فهو غيبة ؛ فقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وبالمحاكاة ، نحو أنْ تمشى خلف الأعرج متعارجا ؛ وبالكتاب ؛ فإنّ القلم أحدُ اللسانين .

وإذا ذكر المصنّف شخصا فى تصنيفه ، وهجّن كلامه ، فهو غيبة . فأما قوله : « قال قوم كذا » ، فليس بغيبة ؛ لأنه لم يعيّن شخصا بعينه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مابالُ أقوام يقولون كذا ! » ، فكان لا يعيّن ، ويكون مقصودُه واحداً بعينه .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين ؛ وذلك نحو أن يُذْكر عندهم إنسان ، فيقول قائلهم : الحمد لله الذى لم يبلنا بدخول أبواب السلطان ، والتبذّل فى طلب الحُطام ؛ وقصده أن يفهم الغير عيبَ ذلك الشخص ؛ فتخرج الغيبة فى مخرج الحمد والشكر لله تعالى ، فيحصل من ذلك غيبة المسلم ، ويحصل منه الرياء ، وإظهار التعفّف عن الغيبة وهو واقع فيها ؛ وكذلك يقول : لقد ساءنى مايذكر به فلان ؛ نسأل الله أن يعصمَه ؛ ويكون كاذبا فى دعوى أنه ساءه ، وفى إظهار الدعاء له ؛ بل لو قصد الدّعاء له لأخفاه فى خلوة عقِب صلواته ، ولو كان قد ساءه لساءه أيضا إظهار مايكرهه ذلك الإنسان .

* * *

واعلم أنّ الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجّب كالغيبة ؛ بل أشدّ ، لأنه إنما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة ، فيندفع فيها حكاية ؛ يستخرج الغيبة منه بذلك ، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب ، فما ظنّك بالمجتهد فى حصول الغيبة ، والباعث على الاستزادة منها ! وقد روى أن أبا بكر وعمر ذكرا إنساناً عند رسول الله ، فقال أحدهما : إنه لنؤوم ؛ ثم أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله خبزاً قَفاراً ، فطلبا منه أُدْما[1] ، فقال : قد ائتدمتما ، قالا : مانعلمه ، قال : « بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما » ، فجمعهما فى الإثم ، وقد

(١) الخبز القفار : ما كان بغير أدم ، والأدم : ما يؤتدم به .

كان أحدهما قائلا والآخر مستمعا ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك ، فإن قال بلسانه : اسكت وهو مريد للغيبة بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرجه عن الإثم إلا أن يكرهه بقلبه ، ولا يكفى أن يشير باليد ، أى اكفف ، أو بالحاجب والعين ، فإن ذلك استحقار المذكور ، بل ينبغى أن يذب عنه صريحاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أُذِلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره ، أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

* * *

[فصل فى الأسباب الباعثه على الغيبة]

واعلم أن الأسباب الباعثة على الغيبة على أمور :

منها شفاء الغيظ ، وذلك أن يجرى من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر ، فإذا هاج غضبه تشفى بذكر مساوئه ، وسبق إليها لسانه بالطبع إن لم يكن هناك دين وازع ، وقد يمنع تشفى الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب فى الباطن ، فيصير حقداً ثابتاً ، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوئ .

ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا اجتمعوا ربما أخذوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه ، ونفروا عنه فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه من أمر فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهاراً للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوئ .

ومنها أن يستشعر من إنسان أنّه سيذمّه ويطول لسانه فيه ، ويقبّح حاله عند بعض الرؤساء ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح حاله ، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه . وقد يبتدئ بذكر بعض ما فيه صادقا ليكذب عليه بعد ذلك ، فيروج كذبه بالصدق الأول .

ومنها أن ينسب إلى أمرٍ فيريد التبرّؤ منه ، فيذكر الذى فعله ، وكان من حقّه أن يبرّئ نفسَه ، ولا يذكر الذى فعله ، لكنّه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه ، وكيلا يكونَ تبرّؤا مبتورا ، وربما يعتذر بأن يقول : فلان فعله ، وكنت شريكا فى بعض الأمر ليبرّئ نفسه بعض البراءة .

ومنها المباهاة وحبّ الرياسة ، مثل أن يقول : كلامُ فلان ركيك ، ومعرفته بالفنّ الفلانىّ ناقصة ، وغرضه إظهار فضله عليه .

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قَدْر مَنْ يمدحه الناس بذكر مساوئه ، لأنه يشقّ عليه ثناء النّاس عليه ، ولا يجدُ سبيلا إلى سدّ باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه .

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضّحِك والسخرية ، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة .

***

واعلم أن الذى يقوّى فى نفسى أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلا إذا كانت على سبيل القصْد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره ، فأمّا إذا خرجت مخرجاً آخر ، فليست بحرام ، كمن يظلمه القاضى ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه ، فإن له أن يذكر حالَه للسلطان متظلّما من حَيْف الحاكم عليه ، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك ، فقد قال صلى الله عليه وآله : « مطْل الغنىّ ظلم » ، وقال : « لىّ[1] الواجد يحلّ عقوبته وعِرْضه » .

(١) يقال : لى عن الأمر ؛ إذا تثاقل .

وكذلك النهى عن المنكر واجب ، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغيرة على تغييره وردّ القاضى إلى منهج الصلاح فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكب المنكر ، ومَنْ ذكر الإنسان بلقب مشهور فعرف عن عيبه ، كالأعرج والأعمش المحدّثين ، لم يكن مغتابا إذا لم يقصد الغضّ والنقص .

والصحيح أنّ المجاهر بالفسق لا غيبة له ، كصاحب الماخور والمخنّث : ومن يدعو الناس إلى نفسه ابنة ، وكالعشّار والمستخرج بالضرب ، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به ، وربما تفاخروا بذلك ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، فلا غيبة له » ، وقال عمر : ليس لفاجر حرمة ، وأراد المجاهرَ بالفسق ، دون المستتر .

وقال الصّلت بن طريف : قلت للحسن رحمه الله : الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب ، هل ذِكْرِى له بما فيه غيبة ؟ فقال : لا ، ولا كرامة له !

***

[طريق التوبة من الغيبة]

واعلم أنّ التوبة من الغِيبة تكفّر عقابها ، والتوبة منها هى الندم عليها ، والعزم على ألّا يعود ، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، فلا حاجة إلى الاستحلال منه ، بل لا يجوز إعلامه بذلك ، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله ، لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثمَ ذلك الإيلام ، وفى إعلامه تضييق صَدْرِه ، وإدخال مشقّة عليه ، وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، وجَب عليه أن يستحلّه ويستوهبَه ، فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالبارىء سبحانه من ذلك الوقت ، وبقى ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتى يؤخذ العِوض له من المذنب يوم القصاص .

الأصل

ومن كلام له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ . أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي ، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ ، وَيُحِيلُ الْكَلَامُ ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ .

أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ .

* * *

فسُئِل عليه السلام عن معنى قوله هذا ، فَجَمَعَ أصابعه ووضعها بَيْنَ أُذُنه وعينه ثم قال :

الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ : سَمِعْتُ ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ : رَأَيْتُ .

* * *

الشرح :

هذا الكلام هو نَهْيٌ عن التسرّع إلى التصديق بما يقال من العيب والقدْح فى حقّ الإنسان المستور الظاهر ، المشتهَر بالصلاح والخير ، وهو خلاصة قوله سبحانه: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1] . ثم ضرب عليه السلام لذلك مثلا ، فقال : قد يرمى الرامى فلا يصيب الغرض ، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً ، وربّما كان لغرض فاسدٍ أو سمعه ممّن له غرض

---

(١) سورة الحجرات ٦ .

فاسدا ، كالعدوّ والحسود ، وقد يشتبه الأمر فيُظنّ المعروف منكَراً ، فيعجّل الإنسان بقول لا يتحقّقه ، كمن يرى غلام زيد يحمل فى إناء مستورٍ مغطًى خلًّا ، فيظنه خمراً .

قال عليه السلام : « ويُحِيلُ الكلام » ، أى يكون باطلا ، أحال الرجلُ ، فى منطقه ، إذا تكلّم الذى لا حقيقة له ، ومن الناس من يرويه : « ويحيك الكلام » بالكاف ، من قولك : ما حاك فيه السيف ، ويجوز «أحاك» بالهمزة ، أى ما أثّر ، يعنى أنّ القول يؤثّر فى العِرْض وإن كان باطلا ، والرواية الأولى أشهر وأظهر .

ويبور : يفسد . وقوله : « وباطل ذلك يبور » ، مثل قولهم : للباطل جولة ، وللحق دولة ، وهذا من قوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [1] .

والإصبع مؤنثة ، ولذلك ، قال : « أربع أصابع » لحذف الهاء .

فإن قلت : كيف يقول عليه السلام : الباطل ما يُسمع والحق ما يُرى ، وأكثر المعلومات إنما هى من طريق السماع ، كعلمنا الآن بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التى لم نرها ، وإنما سمعناها !

قلت : ليس كلامه فى المتواتر من الأخبار ، وإنما كلامه فى الأقوال الشاذّة الواردة من طريق الآحاد ، التى تتضمّن القَدْح فيمن قد غلَبت نزاهته ، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بالمشكوك .

---

(١) سورة الإسراء ٨١ .

(١٤٢)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام

ولَيْسَ لِوَاضِعِ المَعْرُوفِ فى غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الحظِّ فِيما أَتَى إلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئامِ ، وَثَنَاءُ الأشْرَارِ ، وَمَقَالَةُ الجُهَّالِ ، مادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ : ما أجْوَدَ يَدَهُ ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ .

فَمَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فَلْيَصِلْ بِهِ القَرَابَةَ ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأسِيرَ وَالعَانِيَ ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الفَقِيرَ وَالغَارِمَ ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ ، فَإنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنيا ، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ ؛ إنْ شاءَ اللهُ .

***

الشرح :

هذا الكلام يتضمّن ذمّ من يُخرِج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء ، ونحوهم ، ويبتغى به المدحَ والسمعة ، ويعدل عن إخراجه فى وجوه البر وابتغاء الثواب ، قال عليه السلام : ليس له من الحظّ إلا محمَدة اللئام وثناء الأشرار ، وقولهم : ما أجود يده ! أى ما أسمحه ! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله — يعنى الصدقات وما يجرى مجراها من صلة الرّحم والضيافة وفكّ الأسير والعانى ، وهو الأسير بعينه ، و إنما اختلف اللفظ .

والفارم: مَنْ عليه الديون. ويقال: صَبَرَ فلان نفسه على كذا مخففاً، أى حبسها، قال تعالى:
﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾[1] .

وقال عنترة يذكر حرباً :

فصـــبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ترسُو إذا نفس الجبان تَطَلّعُ[2]

وفى الحديث النبوىّ فى رجل أمسك رجلا ، وقتله آخر فقال عليه السلام : « اقتلُوا القاتل واصبِرُوا الصابر » ؛ أى احبسُوا الذى حبسه للقتل إلى أن يموت .

وقوله : « فإن فَوْزاً » : أفصح من أن يقول : « فإنّ الفوز » أو فإنّ فى الفوز كما قال الشاعر :

إنّ شِواءً ونشوةً وخَبَبَ البازل الأمونِ[3]
من لذّةِ العَيْش ، والفتى للدّهر ، والدّهرُ ذو شؤون[4]

ولم يقل : « إن الشواء والنّشوة »، والسرّ فى هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصا من جملة أشخاص ، داخلة تحت نوع واحد ؛ ويقول : إنّ واحدا منها أيّها كان فهو من لذّة العيش ؛ وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع ، ومراده تقرير فضيلة هـذه الخصال فى النفوس ، أى متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها ؛ فقد حصل له الشرف ، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة « الفوز » بالألف واللام إذا قصـد بهـا الجنسية إلّا أنه قد يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية ، فأتى بلفظةٍ لاتوهِم الاستغراق؛ وهى اللفظة المنكرة ؛ وهذا دقيق ، وهو من لباب علم البيان .

---

(١) سورة الكهف ٢٨ .
(٢) اللسان ٦ : ١٠٧ ، يقول : حبست نفساً صابرة .
(٣) لسلم بن ربيعة ، ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١١٣٧ . النشوة : السكر . والخبب : ضرب من السير . والبازل : التى استكمل لها تسع سنين . والأمون : الموثقة الخلق .
(٤) الحماسة : « ذو فنون » .

(١٤٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام فى الاستسقاء :

أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِى تَحْمِلُكُمْ ، وَالسَّمَاءَ الَّتِى تُظِلُّكُمْ ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا ، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا .

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِى عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ ، رَاغِبِينَ فِى رَحْمَتِكَ ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

---

(١) سورة نوح ١٠ - ١٢ .

اَللّٰهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

اَللّٰهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَالَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعَبَةُ .

اَللّٰهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا ؛ وَلَا تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا .

اَللّٰهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ ؛ وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً ، تُنْبِتُ بِهَا مَاقَدْ فَاتَ ، وَتُحْيِي بِهَا مَاقَدْ مَاتَ ، نَافِعَةَ الْحَيَا ؛ كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى ؛ تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ ؛ وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ ؛ إِنَّكَ عَلَى مَاتَشَاءُ قَدِيرٌ .

***

الشرح :

تظلكم : تملو عليكم ، وقد أظلّتنى الشجرة واستظلت بها . والزُّلفة : القربة ، يقول إنّ السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم ـ أمّا السماء فبالمطر ، وأمّا الأرض فبالنبات ـ فإنهما لم تأتيا بذلك تقرُّبا إليكم ، ولا رحمةً لكم ، ولكنهما أمِرتا بنفعكم فامتثلتا الأمر ؛ لأنه أمرُ مَنْ تجب طاعته ، ولو أُمِرتا بغير ذلك لفعلتاه . والكلام مجاز واستعارة ، لأنّ الجماد لايؤمر ؛ والمعنى أنّ الكل مسخّر تحت القدرة الإلهية ، ومرادُه تمهيدُ قاعدةِ الاستسقاء ، كأنه يقول : إذا كانت السماء والأرض أيام الخصب والمطر والنبات لم يكن ما كان منهما محبّة لكم ، ولا رجاء منفعةٍ منكم ؛ بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرهما له ،

فكذلك السماء والأرض أيام الجذب وانقطاع المطر وعدم الكلأ ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم ، ولا استدفاعَ ضررٍ يُخاف منكم ، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له ، وإذا كان كذلك فبالحرى ألّا نأمل السماء ولا الأرض ، وأن نجعل آمالنا معلّقة بالملك الحقّ المدبّر لهما ، وأن نسترحِمَه وندعوَه ونستغفرَه ، لا كما كانت العرب فى الجاهلية يقولون : مُطِرنا بنوء كذا ، وقد سَخِط النَّوء الفلانىّ على بنى فلان فأمحلوا .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى يبتلى عبادَه عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم ، وحبس مطر السماء عنهم؛ وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية ،لأنّ أصحابنا يذهبون إلى أنّ الغلاء قد يكون عقوبة على ذنب ، وقد يكون لطفا للمكلّفين فى الواجبات العقليّة وهو معنى قوله : « ليتوب تائب ... » ، إلى آخر الكلمات . ويُقلع : يكفّ ويمسك .

ثم ذكر أنّ الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً فى دُرور الرزق ، واستدلّ عليه بالآية التى أمر نوح عليه السلام فيها قومه بالاستغفار ؛ يعنى التوبة عن الذنوب ، وقدم إليهم الموعِد بما هو واقع فى نفوسهم ، وأحبّ إليهم من الأمور الآجلة ، فمنّاهم الفوائد العاجلة، ترغيباً فى الإيمان وبركاته ،والطاعة ونتائجها، كما قال سبحانه للمسلمين : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[1] ، فوعدهم بمحبوب الأنفس الذى يرونه فى العاجل عيانا ونقداً لا جزاء ونسيئة . وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[3]

---

(١) سورة الصف ١٣ .
(٢) سورة الأعراف ٩٦ .
(٣) سورة المائدة ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾[١].

***

[الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب]

وكلّ مافى التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدّنيا ومضارّها ، أما منافعها فمثل أنْ يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثّرت من أولادكم وأطلْتُ أعماركم ، وأوسعت أرزاقكم ، واستبقيتُ اتّصال نسلكم ، ونصرتكم على أعدائكم ، وإن عصيتم وخالفتم اخترمْتُكم ونقصتُ من آجالكم ، وشتّتُّ شملكم ، ورميتكم بالجوع والمحْلِ ، وأذللت أولادكم ، وأشمتّ بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم ، وشرّدتكم فى البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذلّ ، ونحو ذلك .

ولم يأت فى التوراةِ وعد ووعيد بأمرٍ يتعلّق بما بعد الموت. وأمّا المسيح عليه السلام ، فإنّه صرح بالقيامة وبعث الأبدان ؛ ولكن جعل العقاب روحانيًّا ؛ وكذلك الثواب ؛ أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيّل الظلمة وخبث النّفس وكدرها وخوف شديد ، وأمّا الثواب فما زاد على أن قال : إنهم يكونون كالملائكة ؛ وربما قال : يصعدون إلى ملكوت السماء ، وربما قال أصحابه وعلماء ملّته : الضوءُ واللّذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم . هذا هو قول المحقّقين منهم ؛ وقد أثبت بعضُهم ناراً حقيقيّة ، لأنّ لفظة « النار » وردت فى الإنجيل ، فقال محققوهم : نار قلبيّة ، أى نفسيّة روحانية ، وقال الأقلّون : نار كهذه النار . ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدنىّ ، فقال : الرّعدة وصريرِ الأسنان ؛ فأمّا الجنّة بمعنى الأكل والشرب والجماع ؛ فإنه لم يقل منهم قائل به أصلًا ، والإنجيل صرّح بانتفاء ذلك فى القيامة تصريحا لا يبقى بعده ريب لمرتاب ؛ وجاء خاتم الأنبياء محمد

---

(١) سورة الجن ١٦ .

صلى الله عليه وسلم فأثبت المعادَ على وجه محقق كامل ؛ أكمل مما ذكره الأوّلان ، فقال : إنّ البدن والنفس معاً مبعوثان ؛ ولكلٍّ منهما حظّ فى الثواب والعقاب .

وقد شرح الرئيس أبو علىّ الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع فى رسالة له فى المعاد ، تعرف " بالرسالة الأضحوية " شرحا جيّدا،فقال : إنّ الشريعة المحمّدية أثبتت فى القيامة ردّ النفس إلى البدن ، وجعلت المثاب والمعاقَب ثواباً وعقابا بحسب البدن والنفس جميعا ؛ فكان المثاب الذّات بدنيّة من حور عين وولدان مخلّدين وفاكهة مما يشتهون ، وكأس لايصدّعون عنها ولا ينزِفون،وجنّات تجرى من تحتها الأنهار؛من لبنٍ وعسلٍ وخمر وماء زلال ، وسرُر وأرائك وخيام وقِباب ، فَرْشُها من سُندس وإستبرق؛وماجرى مجرى ذلك . ولذّات نفسانيّة من السرور ومشاهدة المَلَكوت والأمنِ من العذاب والعلم اليقينىّ بدوام ماهم فيه ، وأنّه لايتعقّبه عدم ولا زَوال، والخلوّ عن الأحزان والمخاوف والمعاقَب عقاب بدنىّ ؛ وهو المقامع من الحديد ، والسلاسل ، والحريق والجحيم والغِسْلين والصُّراخ والجلود التى كلّما نضِجت بدّلوا جلودا غيرها ، وعقاب نفسانىّ من اللعن والخِزْى والخجل والندم والخوف الدائم واليأس من الفَرَج ، والعلم اليقينى بدوام الأحوال السيّئة التى هم عليها .

قال : فوفّت الشريعة الحكمَة حقّها من الوعد الكامل ، والوعيد الكامل؛وبهما ينتظم الأمر ، وتقوم الملّة ؛ فأمّا النصارى وماذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوّها فى الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح ، فهو أركُّ ماذهب إليه أرباب الشرائع وأسخفه ، وذلك أنّه إن كان السبب فى البعث ، هو أنّ الإنسان هو البدن ،أو أنّ البدن شريك النفس فى الأعمال الحسنة والسيئة ، فوجب أن يبعث ، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك ، فإنه يوجب أن يثاب البدن،ويعاقب بالثواب والعقاب البدنىّ المفهوم عند العالم ، وإن كان الثواب والعقاب روحانيا ؛ فما الغرض فى بعث الجسد ؟ ثم ما ذلك

الثواب والعقاب الروحانيان ! وكيف تصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا ! كلّا بل لم تصورْ لهم الشريعة النّصرانية من ذلك شيئاً ، غير أنّهم يكونون فى الآخرة كالملائكة ، وهذا لا يفى بالترّغيب التام ، ولا ماذكروه من العقاب الروحانىّ - وهو الظلمة وخبث النفس - كافٍ فى الترهيب . والذى جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه .

انقضى كلام هذا الحكيم .

***

فأمّا كون الاستغفار سبباً لنزول القطْر ودرور الرزق ، فإنّ الآية بصريحها ناطقة به ، لأنّها أمرٌ وجوابه ، قال : ﴿استغفروا ربّكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ ، كما تقول : قم أكرمْك ، أى إن قمت أكرمتك . وعن عمر أنّه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح[1] السماء التى يُستنزل بها المطر .

وعن الحسن أنّ رجلا شكا إليه الجدْب ، فقال : استغفر الله ، فشكا آخرُ إليه الفقر ، وآخر قلّة النسل ، وآخر قلّة رَيْع أرضه ، فأمرهم كلّهم بالاستغفار ، فقال له الربيع ابن صبيح : رجال أتوك يشكون أبواباً ، ويشكون أنواعا فأمرتهم كلّهم بالاستغفار ، فتلا له الآية .

قوله : « استقبل توبته » أى استأنفها وجدّدها . واستقال خطيئته : طلب الإقالة منها والرحمة . وبادر منيّته : سابق الموت قبل أن يدهمه .

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٦ . قال : « المجاديح ، واحدها مجدح ، والياء زائدة للإشباع ، والقياس أن يكون واحدها « مجداح » ؛ فأما « مجدح » فجمعه مجادح ، والمجدح : نجم من النجوم ؛ قيل : هو الدبران ، وقيل : هو ثلاثة كواكب كالأثافى تشبيها بالمجدح الذى له ثلاث شعب ؛ وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون ، لا قولا بالأنواء ، وجاء بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد الأنواء جميعها التى يزعمون أن من شأنها المطر » .

قوله عليه السلام : « لا تُهلِكْنا بالسنين » جمع : سَنَة ، وهى الجدْب والمحْل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾[1] ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله يدعو على المشركين : « اللهمّ اجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف » ، والسّنة لفظ محذوف منه حرف ، قيل إنه الهاء ، وقيل الواو ، فمن قال : المحذوف هاء ، قال : أصله « سَنْهة » مثل جَبْهة ، لأنهم قالوا : نخلة سَنْهاء ، أى تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى ، وقال بعض الأنصار :

فليست بسنهاء ولا رُجَّبِيَّةٍ ولكنْ عرايا فى السنين الجوائح[2]

ومن قال أصلها الواو ، احتجّ بقولهم : أسنَى القومُ يُسنون إسناء ، إذا لبثوا فى المواضع سَنَة ، فأمّا التصغير فلا يدلّ على أحد المذهبين بعينه ، لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيْهة ، والأكثر فى جمعها بالواو والنون « سِنون » بكسر السين كما فى هذه الخطبة ، وبعضهم يقول : « سُنُون » بالضم .

والمضايق الوَعْرة ، بالتسكين ، ولا يجوز التحريك ، وقد وَعُر هذا الشىء بالضم وُعورة ، وكذلك توعّر ، أى صار وَعْرا ، واستوعرتُ الشىء : استصعبته .

وأجاءتنا : ألجأتنا ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[3] .

والمقاحط المجدبة : السّنون الممحلة ، جمع مَقْحَطة .

وتلاحمت : اتصلت .

والواجم : الذى قد اشتدّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام ، والماضى « وَجَم » بالفتح يجِم وُجُوما .

قوله : « ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقايسنا بأعمالنا » ، أى لا تجعل جوابَ دعائنا لك ما تقتضيه ذنوبنا ؛ كأنه يجعله كالمخاطِب لهم ، والمجيب عمّا سألوه إياه ، كما يفاوض الواحدُ

(١) سورة الأعراف ١٣٠ .
(٢) اللسان (سنه) ، ونسبه إلى سويد بن الصامت الأنصارى .
(٣) سورة مريم ٢٣ .

منّا صاحبَه ويستعطفه ، فقد يجيبه ويخاطبه بمايقتضيه ذنبُه إذا اشتدّت موجدته عليه ونحوه .

ولا تقايسنا بأعمالنا ، قِسْتُ الشيء بالشيء إذا حذوته ومثّلته به ، أى لا تجعل ماتجيدنا به مقايساً ومماثلًا لأعمالنا السيّئة .

قوله : « سُقْياً ناقعة » هى « فُعْلَى » مؤنثة غير مصروفة .

والحيا : المطر . وناقعة مروية : مسكّنة للعطش ، نَقَع الماء العطش نَقْعاً ونُقوعاً سكّنه ، وفى المثل : « الرّشف أنقع » أى أنّ الشراب الذى يُرْشَف قليلًا قليلًا أنجع وأقطع للعطش ، وإن كان فيه بطء .

وكثيرة المجتنى ، أى كثيرة الكلأ ، والكلأ : الذى يجتنى ويرعى . والقِيعان : جمع قاع ، وهو الفَلَاة .

والبُطنان : جمع بَطْن ، وهو الغامض من الأرض ، مثل ظَهْر وظُهْران وعَبْد وعُبدان .

(١٤٤)

الأصل

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ؛ لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ .

أَلَا إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ؛ لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ : أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً ، وَالْعِقَابُ بَوَاءً .

أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا ؛ أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ ؛ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى .

إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

***

الشرح :

أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٦٥ .

(٢) سورة الإسراء ١٥ .

فإن قلت : فهذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة فى قولهم بالواجبات عقلا ، ولو لم تبعث الرسل !

قلت : صحّة مذهبهم تقتضى أن تُحمل عمومُ الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص ، فيكون التأويل : لئلا يكون للناس على الله حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه ، كالشرعيّات ، وكذلك : «وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولا» على مالم يكن العقل دليلًا عليه حتى نبعثَ رسولا .

الإعذار : تقديم العذر . ثم قال : إن الله تعالى كشف الخلق بما تعبّدهم به من الشرعيّات على ألسنة الأنبياء ، ولم يكن أمرُهم خافيا عنه ، فيحتاج إلى أن يكشفَهم بذلك ، ولكنّه أراد ابتلاءهم واختبارهم ، ليعلم أيُّهم أحسن عملا ، فيعاقب المسىء ، ويثيب المحسن .

فإن قلت : الإشكال قائم ، لأنّه إذا كان يعلم أيُّهم يحسن ، وأيُّهم يسىء ، فما فائدة الابتلاء ؟ وهل هو إلا محض العبث !

قلت : فائدة الابتلاء إيصال نفع إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء ، وهو مايقوله أصحابنا : إنّ الابتلاء بالثّواب قبيح ، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح .

قوله : « وللعقاب بَوَاء » أى مكافأة ، قالت ليلى الأخيليّة :

فإن تكنِ القتلى بَواءً فإنّكم فتًى ماقتلتم آل عوف بن عامر (١)

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضا ، إذا قتلته به ، وقد باء الرجل بصاحبه ، أى قُتل به

(١) ش. مقتل توبة بن الحمير ، اللسان ١ : ٢٩ .

وفى المثل : « باءت عَرَارِ بكَحْلَ »[1] وهما بقرتان ؛ قتِلت إحداهما بالأخرى . وقال مهلهل لبُجير لما قتل : « بُؤْ بشِسْعِ نعل كليب » .

قوله عليه السلام « أين الذين زعموا » ، هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل ؛ فنهم مَنْ كان يدّعى له أنه أفرَض ، ومنهم من كان يدعى له أنه أقرأ ، ومنهم كان يدّعى له أنه أعلم بالحلال والحرام . هذا مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أقضى الأمة ، وأنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هذه الفضائل ، وكلّ واحدة منها لا تحتاج إلى غيرها ، فهو إذنْ أجمع للفقه وأكثرهم احتواء عليه ، إلّا أنه عليه السلام لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذى قيل : « أفرَضكم فلان » إلى آخره فقال : إنّه كذب وافتراء حمل قوما على وضعه الحسدُ والبغى والمنافسة لهذا الحىّ من بنى هاشم ؛ أن رفعهم الله على غيرهم ، واختصّهم دون مَنْ سواهم .

وأنْ هاهنا للتعليل ، أى « لأنْ » فحذف اللام التى هى أداة التعليل على الحقيقة ، قال سبحانه : ﴿ بِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] : وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة لِلفقه إلى النحو : ماتقول لرجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ فقال : لا يقع إلّا بالدخول ، فقال : فإن فتح الهمزة ؟ قال : كذلك ، فعرّفه أنّ العربيّة نافعة فى الفقه ، وأنّ الطلاق منجّز لا معلّق ، إن كان مرادُه تعليل الطلاق بوقوع الدخول لاشتراطه به .

ثم قال : « بنا يُستعطى الهُدَى ، أى يطلب أن يعطَى ، وكذلك « يستجلى » أى يطلَبُ جِلاؤه .

ثم قال : إنّ الأئمة من قريش ... إلى آخر الفصل .

* * *

---

(١) المثل فى اللسان ١٤ : ١٠٣ ، قال : ومن أمثالهم : « باءت عرار بكحل » ؛ إذا قتل القاتل بمقتوله ؛ يقال : كانتا بقرتين فى بنى إسرائيل ، قتلت إحداهما بالأخرى . ونقل عن ابن برى : كحل بمنزلة « دعد » يصرف ولا ينصرف .

(٢) سورة المائدة ٨٠ .

[اختلاف الفرق الإسلامية فى كون الأئمة من قريش]

وقد[١] اختلف الناس فى اشتراط النسب فى الإمامة ، فقال قوم من قدماء أصحابنا : إنّ النسب ليس بشرط فيها أصلاً ، وإنها تصلح فى القرشىّ وغير القرشىّ إذا كان فاضلا مستجمعاً للشرائط المعتبرة ، واجتمعت الكلمة عليه ، وهو قول الخوارج .

وقال أكثرُ أصحابنا وأكثرُ الناس : إنّ النسب شرط فيها ، وأنّها لا تصلح إلا فى العرب خاصّة ؛ ومن العرب فى قريش خاصة . وقال أكثرُ أصحابنا : معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » إنّ القرشيّة شرط إذا وُجِد فى قريش من يصلح للإمامة ؛ فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح ، فليست القرشية شرطاً فيها .

وقال بعضُ أصحابنا : معنى الخبر أنه لا تخلو قريش أبداً ممّن يصلح للإمامة ، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلُح من قريش لها فى كلّ عصر وزمان .

وقال معظم الزّيدية : إنها فى الفاطميّين خاصة من الطالبيّين ، لا تصلُح فى غير البطنَيْن ، ولا تَصحّ إلاّ بشرط أن يقومَ بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس . وبعض الزيديّة يجيز الإمامة فى غير الفاطميّين من ولد علىّ عليه السلام ؛ وهو من أقوالهم الشاذّة .

وأما الراونديّة فإنّهم خَصّصُوها بالعبّاس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها ؛ وهذا القول هو الّذِى ظهر فى أيام المنصور والمهدىّ ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها ساريةً فى ولد الحسين عليه السلام فى أشخاص مخصوصين ، ولا تصلح عندهم لغيرهم .

وجعلها الكيْسانية فى محمد بن الحنفيّة وولده ، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره .

فإن قلت : إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم ، فما قولك فى هذا

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « قد » .

الـكلام وهو تصريح بأنّ الإمامة لا تصلح من قريش إلا فى بنى هاشم خاصّة ، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة ؛ لا متقدّميهم ولا متأخّريهم !

قلت : هذا الموضع مشكل ، ولى فيه نظر ؛ وإن صحّ أن عليا عليه السلام قاله ، قلتُ كما قال ، لأنه ثبت عندى أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « إنه مع الحق ، وإنّ الحق يدور معه حيثما دار » ، ويمـكن أن يتأوّل ويطبّق على مذهب المعتزلة ، فيحمل على أن المراد به كمالُ الإمامة كما حمِل قوله صلى الله عليه وآله : « لا صلاة لجارِ المسجد إلا فى المسجد » ، على نفى الـكمال ، لا على نفى الصّحة .

***

الأصْـلُ :

منها :

آثَرُوا عاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ، وَتَرَكُوا صافِياً ، وَشَرِبُوا آجِناً ؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شابَتْ عَلَيْهِ مَفارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبالِي مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ .

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصابِيحِ الْهُدَى ، وَالْأَبْصارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنازِلِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ لِلَّهِ ،وَعُوقِدَتْ عَلَى طاعَةِ اللَّهِ ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطامِ ،وَتَشاحُّوا عَلَى الْحَرامِ ،وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ ،وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمالِهِمْ ؛ وَدَعاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعاهُمُ الشَّيْطانُ فَاسْتَجابُوا وَأَقْبَلُوا !

* * *

الشَّرْحُ :

آثروا : اختاروا . وأخّروا : تركوا الآجن : الماء المتغيّر . أجَن الماء يأجُن ويأجِن. وَبِىءَ به : ألفه، وناقة بَسُوء: ألِفت الحالب ولا[1] تمنعه . وشابت عليه مفارقه: طال عهده به مُذ زَمن الصّبا حتى صار شيخا . وصبِغت به خلائقه ماصارت طبعاً لأنّ العادة طبيعة ثانية .

مُزْبداً ، أى ذو زَبَدٍ ، وهو مايخرج من الفم كالرّغوة ؛ يضرب مثلا للرجل الصائل المقتحم .

والتيّار : معظم اللجّة ، والمراد به هاهنا السّيل . والهشيم : دقاق الحطَب .

ولا يحفَل ، بفتح حرف المضارعة ؛ لأن الماضى ثلاثى ، أى لا يبالى.

والأبصار اللامحة : الناظرة . وتشاحُّوا : تضايقوا ، كلٌّ منهم يريد ألّا يفوته ذلك، وأصله الشحّ وهو البخل .

فإن قلت : هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدّم ذكرهم فى أوّل الخطبة !

قلت : لا ؛ وإن زعم قوم أنّه عناهم ؛ بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتى من الخلَف بعد السلَف ، ألا تراه قال : كأنّى أنظرُ إلى فاسقهم قدصحب المنكر فألفه ؛ وهذا اللفظ إنما يقال فى حقّ من لم يوجَد بعد ، كما قال فى حقّ الأتراك : « كأنّى أنظر إليهم قوماً كأنّ وجوهَهم المجانّ » ، وكما قال فى حقّ صاحب الزنج : « كأنّى به يا أحنف قد سار فى الجيش » ، وكما قال فى الخطبة التى ذكرناها آنفا : « كأنى به قد نَعَق بالشام » يعنى به عبد الملك . وحوشى عليه السلام أن يعنى بهذا الكلام الصحابة، لأنهم ما آثروا العاجل، ولا أخّروا الآجل، ولا صحبوا المنكر ، ولا أقبلوا كالتيّار ؛ لايبالى ماغرّق ، ولا كالنار لاتبالى ما أحرقتْ، ولا ازدحموا على الحُطام، ولا تشاحُّوا عَلَى الحرام، ولا صَرَفوا عن الجنّة وجوههم، ولا أقبلوا

---

(١) ح : « بلا تمنعه » .

إلى النار بأعمالهم ، ولا دعاهم الرحمن فولّوا ، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا . وقد علم كلّ أحدٍ حُسْنَ سيرتهم ، وسَدَاد طريقتهم وإعراضَهم عن الدنيا وقد ملكوها ، وزهدَهم فيها وقد تمكّنوا منها ، ولولا قوله : « كأنّى أنظر إلى فاسقهم » لم أبعد أن يعنىَ بذلك قوماً ممن عليه اسم الصحابة وهو ردىء الطريقة ، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ، ومَرْوان بن الحكم ، ومعاوية ، وجماعة معدودة أحبّوا الدنيا واستغواهمُ الشّيطان ؛ وهم معدودون فى كتب أصحابنا . ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم .

(١٤٥)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أيُّهَا النَّاسُ ، إنَّمَا أنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ المَنَايَا ؛ مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ؛ وَفِي كُلِّ أكْلَةٍ غَصَصٌ ؛ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أجَلِهِ ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أكْلِهِ ، إلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ؛ وَلَا يَحْيَا لَهُ أثَرٌ ، إلَّا مَاتَ لَهُ أثَرٌ ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ ، إلَّا بَعْدَ أنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ، إلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أصْلِهِ !

***

الشَّرْحُ :

الغَرَض : ما يُنصَب ليُرمَى ، وهو الهدف وتنتضِل فيه المنايا : تترامى فيه للسَّبْق ، ومنه الانتضال بالكلام و بالشِّعر [1] ، كأنه يجعل المنايا أشخاصاً تتناضل بالسهام ؛ من الناس مَنْ يموت قتلًا ، ومنهم مَنْ يموت غرقا ، أو يتردّى فى بئر ، أو تَسقط عليه حائط ، أو يموت على فراشه .

ثم قال : « مع كل جَرْعة شَرَق ، وفى كلّ أَكلة غَصص » : بفتح العين ، مصدر قولك : غَصِصْتَ يافلان بالطعام ، وروى : « غُصَص » جمع غُصّة ، وهى الشجا ، وهذا مثل قول بعضهم : المنحة فيها مقرونة بالمحنة ، والنعمة مشفوعة بالنقمة .

(١) فى ا ، ب : « الشعر » ، وما أثبته من د ، ج .

وقد بالغ بعض الشعراء فى الشكوى ، فأتى بهذه الألفاظ ، لكنه أسرف ، فقال :

حَظِّى من العيشِ أكْلٌ كلُّه غَصَصٌ   مرّ المذاق ، وشربٌ كلّه شَرَقُ

ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نعيم الدنيا لا يدوم ، فإذا أحسنتْ أساءت ، وإذا أنعمت أنقمت .

ثم قال : « لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أُخرى » ، هذا معنى لطيف ، وذلك أنّ الإنسان لا يتهيّأ له أن يجمع بين الملاذّ الجسمانية كلّها فى وقت ، فحال مايكون آكلا لا يكون مجامعاً ، وحال مايشرب لا يأكل ، وحال مايركب للقَنَص والرّياضة ، لا يكون جالساً على فراش وثير ممهد ؛ وعلى هذا القياس لا يأخذ فى ضَرْب من ضُروب الملاذّ إلّا وهو تارك لغيره منها .

ثم قال : « ولا يعمّر معمّر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله » ، وهذا أيضا لطيف ، لأنّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقطَعه ، ويوم السبت من أيام عُمُره ، فإذاً قد هدم من عمره يوما ، فيكون قد قرب إلى الموت ، لأنه قد قطع من المسافة جزءاً .

ثم قال : « ولا تجدّد له زيادة فى أكله إلا بنفاذ ماقبلها من رزقه » ، وهذا صحيح فإنّ فسّرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين ، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التى قبلها ، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة فى أكله إلا بنفاد ماقبلها من رزقه .

ثم قال : « ولا يحيا له أثر ، إلا مات له أثر » ، وذلك أنّ الإنسان فى الأعمّ الأغلب لا ينتشر صيتُه ويشيع فضلُه إلا عند الشيخوخة ، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم فى الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه ، فإذاً ما حيي له أثر إلا بعد أن مات له أثر ، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته ، ومثله قوله : « ولا يتجدّد له جديد ، إلا بعد أن يخلَق له جديد » .

ثم قال : « ولا تقوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة » ؛ هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم فى الأعمّ الأغلب ، ولهذا قال : « وقد مضت أصولٌ نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله » ؛ وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى ، فقالوا فيه وأكثروا ؛ نحو قول الشاعر :

فإنْ أنتَ لم تصدُقْكَ نفسك فانتسبْ ... لعلّكَ تهديكَ القُرونُ الأوائلُ(١)

فإنْ لم تجِدْ من دونِ عدْنانَ والداً ... ودون معدٍّ فلْتَزَعْكَ العواذِلُ

وقال الشاعر :

فعددتُ آبائى إلى عِرْقِ الثرى ... فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

لابدّ من تلفٍ مصيب فانتظرْ ... أبأرضِ قومِكَ أم بأخرى تُصرَعُ!

وقد صرّح أبو العتاهية بالمعنى ؛ فقال :

كلّ حياة إلى مماتِ ... وكلّ ذى جِدّةٍ يحولُ

كيف بقاء الفروع يوماً ... وقد ذوَتْ قبلها الأصولُ !

***

الأصْلُ :

منها :

وَمَا أُحْدِثَتْ بِدعَةٌ إِلاّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ؛ فَاتَّقُوا الْبِدَعَ ، وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الأُمُورِ أَفْضَلُهَا ، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا .

***

(١) لبيد ، ديوانه ٢ : ٢٧ ، ٢٨ .

الشرح :

البِدْعة : كل ما أحدِث مما لم يكنْ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنها الحسَن كصلاة التراويح ، ومنها القبيح كالمنكرات التى ظهرت فى أواخر الخلافة العثمانية ؛ وإن كانت قد(١) تكلّفت الأعذار عنها .

ومعنى قوله عليه السلام : « ما أحدِثتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنّة » ؛ أنّ من السنّة ألّا تحدث البدعة ، فوجود البدعة عدمٌ للسنّة لا محالة .

والمهيَع : الطريق الواضح ، من قولهم : أرض هيعة ، أى مبسوطة واسعة ؛ والميم مفتوحة وهى زائدة .

وعوازم الأمور : ما تقادم منها ، من قولهم : عجوزٌ عوزم أى مسنّة ، قال الراجز :

لقد غـــدوتُ خلَقَ الثياب ... أحمِلُ عِدْلين من التراب(٢)

لعَوْزَمٍ وصِبْيَةٍ سِغَابِ ... فآكلٌ ولاحسٌ وآبى

ويجمع « فوعل » على فواعل ، كدورق ، وهَوْجل ، ويجوز أن يكون « عوازم » جمع عازمة ، ويكون فاعل بمعنى مفعول ، أى معزوم عليها ، أى مقطوع معلوم بيقين صحتها ، ومجىء « فاعلة » بمعنى « مفعولة » كثير ، كقولهم : عيشة راضية بمعنى مرضيّة ، والأوّل أظهر عندى ، لأنّ فى مقابلته قوله : « وإنّ محدَثاتها شرارها » ، والمحدَث فى مقابلة القديم .

---

(٢) ساقط من ا .

(٢) اللسان ١٥ : ٢٩٥ (عن الفراء) .

(١٤٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه :

إنَّ هَذَا ٱلْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِى أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِى أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُمَا[١] طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ ٱللهِ، وَٱللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ؛ وَمَكَانُ ٱلْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ ٱلنِّظَامِ مِنَ ٱلْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلنِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالِاجْتِمَاعِ؛ فَكُنْ قُطْباً وَٱسْتَدِرِ ٱلرَّحَى بِالْعَرَبِ؛ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا : هَذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ؛ فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ؛ وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَٱلْمَعُونَةِ.

***

(١) مخطوطة النهج : « حيث ».

الشرح :

نظام العِقْد : الخيط الجامع له ، وتقول : أخذته كلّه بحذافيره ، أى بأصله ؛ وأصل الحذافير أعالى الشىء ونواحيه ؛ الواحد حِذْفار .

وأصْلِهم نار الحرب : اجعلهم صالين لها ، يقال : صليتُ اللحم وغيره أصْليه صَلْياً ، مثل رميته أرميه رَمْياً ، إذا شويته ، وفى الحديث أنه صلى الله عليه وآله أُتِىَ بشاة مَصْليّة[1] ، أى مشويّة . ويقال أيضاً : صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلتَ : أصليته بالألف ، وصلّيته تصلية ، وقرِئَ ﴿ ويُصَلَّى سَعِيرا ﴾[2] ومن خفّف فهو من قولهم : صَلِىَ فلان بالنار – بالكسر – يَصْلَى صِلِيّاً احترق ، قال الله تعالى : ﴿ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً ﴾[3] ويقال أيضاً : صَلِىَ فلانٌ بالأمر ؛ إذا قاسى حرّه وشدّته ، قال الطُّهَوِىّ :

وَلَا تَبْلَى بسالتهم وإنْ هُمْ صَلُوا بالحرب حيناً بعد حينِ[4]

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو مجاز من الإحراق ، والشىء الموضوع لها هذا اللفظ حقيقة .

والعورات : الأحوال التى يخاف انتقاضها فى ثغر أو حرب ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾[5] . والكَلَب : الشرّ والأذى .

* * *

[يوم القادسية]

واعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف فى الحال التى قاله فيها لعمر ، فقيل : قاله له فى

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٧٣ .
(٢) سورة الانشقاق ١٢ ، وهى قراءة الحرمين وابن عامر والكسائى . تفسير القرطبى ١٩ : ٢٧٠ .
(٣) سورة مريم ٧٠ .
(٤) لأبى الغول الطهوى ، ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقى ١ : ٤١ .
(٥) سورة الأحزاب ١٣ .

غَزَاة القادسيّة ، وقيل فى غَزَاة نهاوَنْد . وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبرى فى " التاريخ الكبير " . وإلى القول الأول ذهب المدائنىّ فى كتاب " الفتوح " ؛ ونحن نشير إلى ماجرى فى هاتين الوقعتين إشارة خفيفةً على مذهبنا فى ذكر السِّيَر والأيام .

فأما وقعة القادسيّة فكانت فى سنة أربعَ عشرة للهجْرة ؛ استشار عمر المسلمين فى أمر القادسيّة ، فأشار عليه علىّ بن أبى طالب –فى رواية أبى الحسن علىّ بن محمد بن سيف المدائنىّ– ألّا يخرج بنفسه ، وقال : إنّك إن تخرُجْ لا يكنْ للعجم همّة إلا استئصالك ، لعلمهم أنّك قطبُ رحا العرب ، فلا يكون للإسلام بعدها دوْلة . وأشار عليه غيره من الناس أن يخرُج بنفسه ، فأخذ برأى علىّ عليه السلام .

وروى غيرُ المدائنىّ أنّ هذا الرأى أشارَ به عبد الرحمن بن عوف ؛ قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرىّ : لما بدا لعمر فى المقام بعد أنْ كان عزم على الشخوص بنفسه ، أمّر سعد ابن أبى وقّاص على المسلمين ، وبعث يزْدَجِرْد رستمَ الأرمنىَّ أميرا على الفرس ، فأرسل سعدٌ النّعمانَ بن مقرّن رسولا إلى يزدَجِرد ، فدخل عليه ، وكلّمه بكلام غليظ ، فقال يزْدَجِرد : لولا أنّ الرُّسل لا تقتَل لقتلتُك ، ثم حمّله وَقراً من تراب على رأسه ، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن ، وقال : ارجع إلى صاحبك ، فقد كتبتُ إلى رستم أن يَدفنه وجنده من العرب فى خندق القادسيّة ؛ ثم لأشغلنّ العرب بعدها بأنفسهم ، ولأصيبنّهم بأشدّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف . فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره ، فقال : لا تخفْ ، فإنّ الله قد ملّكنا أرضهم تفاؤلا بالتراب .

قال أبو جعفر : وتثبّط رستم عن القتال وكرهه ، وآثر المسالمة ، واستعجله يزدَجِرْد مرارا ، واستحثه على الحرب ، وهو يدافع بها ، ويرى المطاولة . وكان عسكره مائة وعشرين ألفا

وكان عسكر سعد بضعا وثلاثين ألفا ، وأقام رستمُ بريدا من الرجال ، الواحد منهم إلى جانب الآخر ؛ من القادسية إلى المدائن ، كلّما تكلّم رستم كلمة أدّاها بعضُهم إلى بعض، حتى تصل إلى سمع يزدَجِرْد فى وقتها ، وشهد وقعة القادسيّة مع المسلمين طُلَيحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب ، والشمّاخ بن ضرار ، وعَبَدة بن الطبيب الشاعر، وأوس بن معن الشاعر ، وقاموا فى النّاس يُنشدونهم الشّعر ويُحرّضونهم ، وقرن أهلُ فارس أنفسهم بالسلاسل لئلا يهربوا ، فكان المقرّنون منهم نحو ثلاثين ألفا ، والتحم الفريقان فى اليوم الأوّل ، فحملت الفِيَلة التى مع رستم على الخيل فطحنتها ، وثبت لها جمع من الرّجالة ، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلا ، منها فيل الملك ، وكان أبيضَ عظيما ، فضربت الرجال خراطيم الفيَلة بالسيوف فقطعتها ، وارتفع عُواؤها، وأصيبَ فى هذا اليوم — وهو اليوم الأول — خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس . ووصل فى الثانى أبو عبيدة بن الجراح من الشّام فى عساكر من المسلمين ؛ فكان مدداً لسعد ؛ وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأوّل ، فقتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف . وأصبحوا فى اليوم الثالث على القتال ، وكان عظيماً على العرب والعجم معاً ، وصبر الفريقان ، وقامت الحرب ذلك اليوم : وتلك الليلة جمعاء لا ينطِقون ، كلامُهم الهرير ، فسمّيت ليلة الهرير .

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم ، وانقطع سعد إلى الصلاة والدّعاء والبكاء ، وأصبح النّاس حَسْرَى لم يغمضوا ليلتَهم كلّها ، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر ، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفا فى اليوم الرابع ، أمالت الغبار والنقع على العجم ، فانكسروا ، ووصلت العرب إلى سرير رستم ، وقد قام عنه ليركب جملا ، وعلى رأسه العلم ، فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الذى رُستم فوقه ، فقطع حباله ، ووقع على هلال أحد المداين ، فأزال فقار ظهره ، ومضى رستم نحو العتيق ، فرمى نفسه فيه ، واقتحم هلال عليه ، فأخذ

برجله ، وخرج به يجرّه حتى ألقاه تحت أرجُل الخيل ، وقد قتله وصعد السرير ، فنادى : أنا هلال ، أنا قاتل رستَم ،فانهزمت الفرس ، وتهافتوا[١] فى العقيق،فقتِل منهم نحو ثلاثين ألفا ، ونهبت أموالُهم وأسلابهم ؛ وكانت عظيمة جدًّا ، وأخذتِ العربُ منهم كافوراً كثيرا ، فلم يعبئوا به،لأنهم لم يعرفوه ، وباعوه من قوم بملح ، كيلاً بكيل،وسرُّوا بذلك وقالوا : أخذْنا منهم ملحا طيّبا ، ودفعنا إليهم ملحا غير طيّب ، وأصابوا من الجامات من الذهب والفضة مالا يقع عليه العدّ لكثرته ؛ فكان الرجل منهم يعرِض جامَيْن من ذهب على صاحبه ، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول : من يأخذ صَفْراويْن ببيضاء !

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر ، فكتب إلى سعد : لا تتبع الفُرْس ، وقِفْ مكانك واتخذه منزلًا . فنزل موضعَ الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها ، وبنى فيها الخِطَط للعرب[٢] .

***

[يوم نهاوند]

فأمّا وقعة نَهاوند ، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبرىّ ذكر فى كتاب التاريخ[٣]: أنّ عمر لما أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهى مجتمعة بنهاوَنْد ، استشار الصحابة ، فقام عثمان فتشهّد ، فقال : أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم،وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يمَنهم،ثم تسيرأنت بأهل هذين الحرَمَيْن إلى المصريْن : البصرة والكوفة ، فتلقَى جمعَ المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرتَ

---

(١) تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤) .

(٢) تهافت على الشئ : تساقط وتتابع ؛ وأكثر استعماله فى الشر .

(٣) تاريخه (حوادث سنة ٢١)

بمن معك ومَنْ عندك ، قلّ فى نفسك ماتكاثر من عدد القوم ، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر ؛ إنك لا تستبقِى من نفسك بعد اليوم[1] باقية ، ولا تمتّعُ من الدنيا بعزيز ، ولا تكون منها فى حرز حريز . إنّ هذا اليوم له مابعده ، فاشهد بنفسك ورأيك وأعوانك ، ولا تغِبْ عنه .

قال أبو جعفر : وقام طلحة ، فقال : أمّا بعد ياأمير المؤمنين ؛ فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، وحنّكتك[2] التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو فى يديك ، ولا نَنكلُ أمرَنا إلا إليك ، فأْمرْنا نُجِبْ ، وادعنا نُطِعْ ، واحملنا نركبْ، وقُدْنا ننقَدْ ، فإنك ولىّ هذا الأمر ، وقد بلوتَ وجرّبت واختبرت ، فلم ينكشفْ شىء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

فقال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : أمّا بعد ، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرةٍ ولا قلّة، إنما هو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعزّه وأمدّه بالملائكة ، حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعودٍ من الله ، والله منجِزٌ وعدَه ، وناصر جنده ، وإنّ مكانك منهم مكانُ النظام من الخرَز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرّق مافيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا ؛ والعرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فإنهم كثيرٌ عزيز بالإسلام ؛ أقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، فإنّهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم ، وليشخص منهم الثلثان ، وليقم الثلث ، واكتُبْ إلى أهل البصرة أن يمدّوهم ببعض مَنْ عندهم ، ولا تُشخص الشام ولا اليمن ، إنّك إن أشخصت أهل الشام مِنْ شامهم ،سارت الروم إلى ذراريّهم ، وإن أشخَصت أهلَ اليمن من يمنِهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم ، ومتى شخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون ماتدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العوْرات والعيالات . إنّ الأعاجم إن ينظروا

(١) الطبرى : «العرب» .
(٢) الطبرى : « واحتنكتك » .

إليك غداً قالوا : هذا أميرُ العرب وأصلهم ؛ فكان ذلك أشدَّ لَكَلَبِهم عليك . وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم ، فإنّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ؛ وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنّا نقاتل بالصبر والنصر .

فقال عمر : أجلْ ! هذا الرأى ، وقد كنت أحبّ أن أتابع عليه ، فأشيروا علىّ برجل أولّيه ذلك الثّغر . قالوا : أنت أفضل رأيا ، فقال: أشيرو علىّ به ، واجعلوه عراقيًّا قالوا : أنت أعلم بأهلِ العراق ، وقد وَفَدُوا عليك ، فرأيتَهم وكلّمتهم . قال : أما والله لأولّينّ أمرَهم رجلاً يكون غداً لأوّل الأسِنّة ، قيل : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : النعمان بن مقرّن ، قالوا : هو لها .

وكان النّعمان يومئذ بالبصرة ، فكتب إليه عمر ، فولّاه أمرَ الجيش .

قال أبو جعفر : كتب إليه عمر : سِرْ إلى نهاوَنْد ، فقد ولّيتُك حربَ الفيروزان — وكان المقدّم على جيوش كسرى — فإن حَدَثَ بك حدثٌ فعلى النّاس حُذيفة بن اليمان ، فإن حدث به حدث فعلى الناس نعيم بن مقرّن ، فإن فتح الله عليكم فاقسِمْ على الناس ما أفاء الله عليهم ، ولا ترفع إلىّ منه شيئا ، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك ؛ وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد ، وعَمرو بن معد يكرب ، لعلمهما بالحرب ، فاستشرهما ولا تولّهما شيئا .

قال أبو جعفر : فسارَ النّعمان بالعرب حتى وافى نَهاوند ، وذلك فى السنة السابعة من خلافة عمر ، وتراءى الجمعان ، ونشب القتال ، وحَجَزهم المسلمون فى خنادقهم ، واعتصموا بالحصون والمدُن ، وشقّ على المسلمين ذلك ، فأشار طليحة عليه ، فقال : أرى أنْ تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمّشهم[1] ، فإذا استحمشوا خرج بعضهم ، واختلطوا بكم

(١) تحمشهم : تهيجهم .

فاستطرِدوا لهم ، فإنّهم يطمعون بذلك ، ثم تعطف عليهم حتى يَقْضِيَ الله بيننا وبينهم بما يحبّ .

ففعل النعمان ذلك ، فكان كما ظنّ طليحة ، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع ؛ فلما أمعنوا فى الانكشاف للمسلمين حَمَل النّعمان بالناس ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون مثله ، وزلَق بالنعمان فرسه فصرِع وأصيب ، وتناول الراية نعيم أخوه ، فأتى حذيفة لها فدفعها إليه ، وكتَمَ المسلمون مُصابَ أميرهم ، واقتتلوا حتى أظلم الليل ، ورجعوا والمسلمون وراءهم ، فعمِيَ عليهم قصدُهم فتركوه ، وغشيَهم المسلمون بالسيوف ؛ فقتلوا منهم ما لا يحصى ، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هارب ، وقد انتهى إلى ثَنِيّة مشحونة (١) ببغال موقَرة عسلا ، فحبسته على أجَلِهِ ، فقتل ، فقال المسلمون : إن لله جنوداً من عسل .

ودخل المسلمون نهاوند فاحتوَوْا على ما فيها ، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة ، فحمِلت إلى عمر ، فلما رآها بكى ، فقال له المسلمون : إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل ، فما بكاؤك ؟ قال : ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى (٢) هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر إلا لخيرٍ أراده بهما ، ولا أراه فتحه علىّ إلا لشرّ أُريدَ بى ، إنّ هذا المال لا يلبث أن يفتِن الناس .

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول : اللهمّ اعصمْنى ولا تكِلْنى إلى نفسى ؛ يقولها مرارا ؛ ثم قسمه بين المسلمين عن آخره .

---

(١) يقال : شحن المدينة بالخيل أو البغال ؛ إذا ملأها .

(١٤٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام .

فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ ؛ لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأوْثَانِ إلَى عِبَادَتِهِ ؛ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إلَى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إذْ أَنْكَرُوهُ ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاتِ ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ !

***

الشّرْحُ :

الأوثان : جمع وَثَن ؛ وهو الصَّنَم ، ويجمع أيضا على وُثْن ، مثل أَسَد وآساد وأُسْد ؛ وسمى وَثَناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة ، من قولك : وَثِنَ فلان بالمكان ؛ فهو واثن ؛ وهو الثابت الدائم .

قوله : « فتجلّى سبحانه لهم » ، أى ظهر من غير أن يُرَى بالبصر ، بل بما نبّههم عليه فى القرآن من قِصص الأولين ، وما حلّ بهم من النقمة عند مخالفة الرسل .

والمَثُلات ، بضم الثاء : العقوبات .

فإن قلت : ظاهر هذا الكلام أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الناس ليقرّوا بالصانع ويثبتوه ؛ وهذا خلاف قول المعتزلة ، لأنّ فائدة الرسالة عندهم هى إلطاف

المكلّفين بالأحكام الشرعيّة المقرّبة إلى الواجبات العقلية ، والمبعّدة من المقبّحات العقلية ، ولا مدخلَ للرسول فى معرفة البارئ سبحانه ، لأنّ العقل يُوجبها ، وإن لم يبعث الرسل!

قلت : إنّ كثيرا من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل ؛ إذا كان فى حثّهم المكلّفين على مافى العقول فائدة ؛ وهو مذهب شيخنا أبى علىّ رحمه الله ، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد صلى الله عليه وآله إلى العرب وغيرهم ،لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إيام-على ماهو واجب فى عقولهم من المعرفة-أقربُ إلى حصول المعرفة ؛ فحينئذ يكون بعثه لطفا،ويستقيم كلام أمير المؤمنين .

***

الأصْلُ :

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِى زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ،وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ؛وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِىَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ،وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا فِي الْبِلَادِ شَىْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ،فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ،وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ ؛فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ،وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنِ اجْتَمَعَا .

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ؛ كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ ؛ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ ، وَمِنْ قَبْلُ مَامَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً ،وَجَعَلُوا

فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ ؛ وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ .

***

الشرح :

أخبر عليه السلام أنه سيأتى على الناس زمان من صفته كذا وكذا ؛ وقد رأيناه ورآه مَن كان قبلنا أيضا ؛ قال شُعبة إمام المحدّثين : تسعة أعشار الحديث كذب . وقال الدارقطنى : ما الحديث الصحيح فى الحديث إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود . وأمّا غلبة الباطل على الحقّ حتى يخفى الحق عنده ، فظاهرة .

وأبور : أفسد ، من بار الشىء ، أى هلك . والسلعة : المتاع ، ونبذ الكتاب : ألقاه ولا يؤويهما : لا يضمّهما إليه ، وينزلهما عنده .

والزَّبْر : مصدر زبرت أزبُر بالضم ، أى كتبت ، وجاء يزبِر بالكسر ، والزِّبْر بالكسر : الكتاب وجمعه زبور ؛ مثل قِدْر وقدور ، وقرأ بعضهم : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾[1] ، أى كتبا . والزَّبور ، بفتح الزّاى : الكتاب المزبور ، فَعُول بمعنى مفعول ؛ وقال الأصمعىّ : سمعت أعرابيا يقول : أنا أعرف بِزِبْرَتى[2] أى خطى وكتابتى .

ومَثّلوا بالصالحين ، بالتخفيف : نَكَّلُوا بهم ، مَثَلت بفلان أمثُل بالضمّ مَثْلاً بالفتح وسكون الثاء ، والاسم المُثْلة بالضم ؛ ومن روى « مَثّلوا » بالتشديد ؛ أراد جدّعوهم بعد قتلهم .

« وعلى » فى قوله : « وسمّوا صدقهم على الله فرية » ، ليست متعلّقة بصدقهم ، بل بفرية ،

---

(١) سورة الإسراء ٥٥ .

(٢) الصحاح ٢ : ٦٦٧ .

أى وسمّوا صدقهم قربة على الله ؛ فإن امتنع أنْ يتعلق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه ، وهو مصدر، فليكن متعلقا بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر . وروى : « وجعلوا فى الحسنة العقوبة السيئة » والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن .

والموعود هاهنا : الموت . والقارعة : المصيبة تقرع ، أى تلق بشدّة وقوة .

***

الأصْلُ :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، إِنَّهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللهَ وُفِّقَ ؛ وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِىَ لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ، فَإِنَّ جَارَ ٱللهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ .

وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِى لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ ، وَسَلَامَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ .

فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَجْرَبِ ، وَٱلْبَارِئِ مِنْ ذِى ٱلسَّقَمِ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا ٱلرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى نَبَذَهُ .

فَٱلْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ : هُمُ ٱلَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ؛ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ؛ لَا يُخَالِفُونَ ٱلدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .

***

الشَّرْحُ :

من استنصح الله : من أطاع أوامره وعلم أنّه يهديه إلى مصالحه ، ويردّه عن مفاسده ويرشده إلى ما فيه نجاته ، ويصرفه عمّا فيه عطبُه .

والتي هي أقوم : يعنى الحالة والخلّة التى اتباعها أقوم ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية،قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾(١) . والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده ووعدِه .

ثم نهى عليه السّلام عن التكبّر والتعظّم وقال : إنّ رفعةَ القومِ الذينَ يعرفون عظمة الله أن يتواضَعُوا له . وما هاهنا ،بمعنى أىّ شىء ، ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد فى ذم التعظّم والتكبّر ما يطول استقصاؤه ؛ وهو مذموم على العباد،فكيف بمنْ يتعظّم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين ! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا افتخر : « أنا سيّد ولدِ آدم » ، ثم قال : « ولا فَخْر » ، فجهر بلفظة الافتخار،ثم أسقط استطالة الكبر ؛ وإنما جهر بما جهر به ؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدّث بها ، وفى الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله قد أذهبَ عنكم حَمِيَّة الجاهلية وفخرَها بالآباء ؛الناس بنو آدم، وآدم من تراب ؛ مؤمن تقىّ ، وفاجر شقىّ. لينتهِيَنّ أقوام يفخرون برجال ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنّ أهون على الله من جُعلان تدفع النّتن بأنفها ».

قوله : « واعلَمُوا أنكم لن تعرفوا الرّشد حتى تعرفوا الذى ترَكه»، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال؛ وهو قول أصحابنا جميعهم ، فإنهم بين مكفّر لمن خالف أصول التوحيد والعدل ــ وهم الأكثرون ــ أو مفسّق ، وهم الأقلون ؛وليس أحدٌ منهم معذورا عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر ، كما لا نعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر .

ثم قال عليه السلام : « فالتمسوا ذلك عند أهله » ، هذا كناية عنه عليه السلام ؛ وكثيرا ما يسلك هذا المسلك ، ويعرّض هذا التعريض ؛ وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهية .

---

(١) سورة الإسراء ٩ .

ثم ذكر أنّ هؤلاء الذين أُمِرَ باتّباعهم ينبىء حكمهم عن علمهم ، وذلك لأنّ الامتحان يظهر خبيئة الإنسان .

ثم قال : « وصمتهم عن نطقهم » ، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره ؛ ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتا .

ثم ذكر أنّهم لا يخالفون الدّين لأنهم قُوّامه وأربابه ؛ ولا يختلفون فيه ، لأنّ الحقّ في التوحيد والعدل واحد ، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه ؛ كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق .

وصامت ناطق ؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم ؛ فهو صامت في الصورة ، وهو في المعنى أنطق الناطقين ؛ لأن الأوامر ومنواهيَ والآداب كلّها مبنيّة عليه ، ومتفرّعة عليه .

(١٤٨)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر أهل البصرة:

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ؛ وَعَمَّا قَلِيلٍ يَكْشِفُ قِنَاعَهُ بِهِ.
وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِى يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا؛ وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا.

قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ؛ وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ؛ وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَاللهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ؛ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ.

***

الشرح:

ضمير التثنية راجع إلى طلحة والزبير رضى الله عنهما. ويمتّان: يتوسلان؛ الماضى ثلاثى؛ متّ يمتّ بالضم. والضبّ: الحقد. والمحتسبون: طالبو الحِسْبة؛ وهى الأجر. ومستمع اللّدم كناية عن الضبع؛ تسمع وقع الحجر بباب جحرها من يد الصائد فتنخذل وتكف

جوارحَها إليها حتى يدخل عليها فير بطها ؛ يقول : لا أكون مقرًّا بالضيم راغناً[١] ؛ أسمع النّاعى المخبِرَ عن قتل عسكر الجمل لحكيم بن جبلة وأتباعه ، فلا يكون عندى من التغيير والإنكار لذلك ؛ إلا أن أسمعه وأحضر البا كين على قتلاهم .

وقوله : « لكل ضلّة علّة ، ولكل نا كث شُبهة » هو جواب سؤال مقدّر ، كأنه يقول : إن قيل : لأىّ سبب خرج هؤلاء ؟ فإنّه لا بدّ أن يكون لهم تأويل فى خروجهم ؛ وقد قيل : إنهم يطالبون بدم عثمان ؛ فهو عليه السلام قال : كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علة اقتضتها ، وكلّ نا كثٍ فلا بدّ له من شبهة يستنِد إليها .

وقوله : « لينتزعَنّ هـذا نفس هـذا » قول صحيح لا ريبَ فيه ، لأنّ الرياسة لا يمكن أنْ يدبّرها اثنان معا ، فلو صحّ لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله ؛ فإن الملك عقيم ؛ وقد ذكرَ أربابُ السّيرة أنّ الرجلين اختلفا من قِبَلِ وقوع الحرب ، فإنهما اختلفا فى الصلاة ، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ؛ يصلى هذا يوما ، وهذا يوما ، إلى أن تنقضىَ الحرب .

ثم إنّ عبد الله بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار ، واحتجّ فى ذلك بأنه استخلفه على الصلاة ، واحتجّ تارة أخرى بنصٍّ صريح زعمه وادّعاه ، وطلب طلحة من عائشة أن يسلِّم الناسُ عليه بالإمْرة ، وأدلَى إليها بالتيميّة ، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها ، فأمَرت الناس أنْ يسلّموا عليهما معا بالإمْرَة .

واختلفا فى تولّى القتال ، فطلبه كلّ منهما أولا ، ثم نكَلَ كلٌّ منهما عنه وتفادَى[٢] منه .

وقد ذكرنا فى الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل .

---

(١) يقال : رغن إليه ، إذا أصغى . (٢) تفادى منه : تحاماه .

[من أخبار يوم الجمل]

وروى أبو مخنف، قال: لما تزاحفَ الناس يومَ الجمل والتقوْا، قال علىّ عليه السلام لأصحابه: لا يرمِينّ رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمحٍ، حتى أحدث إليكم؛ وحتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل. فرمى أصحاب الجمل عسكر علىّ عليه السلام بالنّبل رمياً شديداً متتابعا، فضجّ إليه أصحابه، وقالوا: عقرتْنا سهامهم يا أمير المؤمنين. وجىء برجل إليه، وإنه لفى فُسْطاطٍ له صغير، فقيل له: هذا فلان قد قُتِل. فقال: اللهمّ اشهد، ثم قال: أعْذِروا إلى القوم، فأُتىَ برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل: فقال: اللهمّ اشهد، أعْذِروا إلى القوم، ثم أقبل عبد الله بنُ بدَيْل بن ورقاء الُخزاعىّ وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بُدَيْل، قد أصابه سهم فقتله، فوضعه بين يدى علىّ عليه السلام، وقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا أخى قد قتِل؛ فعند ذلك استرجع علىّ عليه السلام، ودعا بدِرْعِ رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفُضُول فلبسها، فتدلّت بطنه فرفعها بيده، وقال لبعض أهله، فحزم وسطه بعمامة، وتقلّد ذا الفقَار، ودفع إلى ابنه محمد رايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء، وتعرف بالعُقاب، وقال لحسن وحسين عليهما السلام: إنما دفعت الراية إلى أخيكما. وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

***

قال أبو مخنف: وطاف علىّ عليه السلام عَلَى أصحابه، وهو يقرأ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة ٢١٤.

ثم قال : أفرِغَ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزّ لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلّ أمر . ثم رفع مصحفا بيده ، فقال : مَنْ يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم إلى مافيه ، وله الجنة ؟ فقام غلام شابّ اسمه مسلم ، عليه قَباء أبيض ، فقال : أنا آخذُه ، فنظر إليه علىّ وقال : يا فتَى ، إن أخذته ، فإنّ يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال : لا صبر لى على ذلك ، فنادى علىّ ثانية ، فقام الغلام ، وأعاد عليه القول ، وأعاد الغلام القول مراراً ؛ حتّى قال الغلام : أنا آخذه ؛ وهذا الذى ذكرتَ فى الله قليل ، فأخذه وانطلق ، فلما خالطهم ناداهم : هذا كتابُ الله بيننا وبينكم . فضربه رجلٌ فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى ، فاحتضنه فضربوه بأسيافهم ، حتى قتل فقالت أم ذريح العبديّة فى ذلك[1] :

يارب إنّ مسلما أتاهمُ[2] بمصحفٍ أرسله مولاهمُ

للعدل والإيمان قد دعاهمُ يتلو كتابَ الله لا يخشاهمُ

فخضبوا من دمه ظُباهمُ[3] وأمهم واقفةٌ تَراهمُ[4]

* تأمرُهم بالغىّ لا تنهاهمُ[5] *

قال أبو مخنف : فعند ذلك أمر على عليه السلام ولده محمدا أن يحمل الراية ، فحمل وحمل معه النّاس ، واستحرّ القتلُ فى الفريقين وقامت الحرب على ساق .

* * *

(١) الأبيات والخبر فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٣٦) مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

(٢) والطبرى : «لاهم إن مسلما دعاهم» .

(٣) الطبرى : «قد خضبت من علق لحاهم» .

(٤) الطبرى : «وأمهم قائمة» .

(٥) الطبرى : «يأمرون الغى» .

[مقتل طلحة والزبير]

قال : فأما طلحة ، فإنّ أهلَ الجمل لما تضعضعوا قال مروان : لا أطلُب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم ! فانتحى له بسهم فأصاب ساقه ، فقطع أكحَله[١] ، فجعل الدم يَبِض[٢] ، فاستدعى مِنْ مولًى له بغلة ، فركبها وأدبر ، وقال لمولاه : ويحك ! أما من مكانٍ أقدِر فيه على النزول ، فقد قتلني الدم ! فيقول له مولاه : انجُ ، وإلّا لحقك القوم ، فقال : بالله[٣] مارأيت مصرَع شيخ أضيعَ من مصرعي هذا ! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة ، فنزلها ومات بها .

وقد رُوِي أنه رُمِي قبل أنْ يرميَه مروان ، وجرح في غير موضع من جسده .

وروى أبو الحسن المدائنيّ أنّ عليا عليه السلام مرّ بطلحة ، وهو يكيدُ[٤] بنفسه ، فوقف عليه وقال : أما والله إن كنتُ لأبغض أنْ أراكم مصرّعين في البلاد ، ولكن ماحتِم واقع ، ثم تمثّل :

وماتدرى إذا أزْمَعت أمراً ... بأىّ الأرض يدركك المَقِيلُ[٥]

وما يدرى الفقير مَتَى غِناهُ ... ولا يدرى الغنىّ متى يَعِيلُ![٦]

---

(١) الأكحل : عرق في الذراع .

(٢) يبض : يسيل قليلا قليلا .

(٣) ا ، ج د : « تالله » .

(٤) يقال : هو يكيد بنفسه ، أى يجود بها ؛ وفى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على سعد ابن معاذ ، وهو يكيد بنفسه ، فقال : « جزاك الله من سيد قوم ، فقد صدقت الله ماوعدته ، وهو صادقك ما وعدك » .

(٥) من أبيات فى اللسان (عيل) ونسبها إلى أحيحة ؛ والبيت الأول فى الأغانى ٢١ : ١٠٦ (من غير نسبة) .

(٦) يعيل : يفتقر .

وما تدرى إذا ألقحت شَوْلًا[١] أتُنْتَجُ بعـد ذلك أم تَحِيلُ[٢]

* * *

وأما الزُّبير فقتله ابن جُرموز غيلةً بوادى السباع، وهو منصرف عن الحرب ، نادم على مافرَط منه ؛ وتقدّم ذكر كيفية قتله فيما سبق .

وروى الكلبيّ ، قال: كان العِرْق الذى أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال ، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمرُ الله قَدَرًا مقدورا؛ مارأيت كاليوم دم قرشيّ أُضيع !

قال : وكان الحسن البصرىّ إذا سمع هذا وحُكِى له ، يقول : ذُقْ عَقْعَق[٣] !

وروى أبو مخنف ، عن عبد الله بن عون ، عن نافع ، قال : سمعت مَرْوان بن الحكم يقول : أنا قتلتُ طلحة .

وقال أبو مخنف : وقد قال عبد الملك بن مروان : لولا أن أبى أخبرنى أنه رمَى طلحة فقتله ، ماتركت تيميًّا إلا قتلته بعثمان قال : يعنى أنّ محمد بن أبى بكر وطلحة قتلاه، وكانا تيْميَّيْن .

قال أبو مخنف : وحدّثنا عبد الرحمن بن جُنـدَب ، عن أبيه جندب بن عبد الله ، قال : مررت بطلحة ، وإنّ معه عصابة يقاتل بهم ، وقد فَشَتْ فيهم الجراح ، وكَثَرَهُمُ الناس ، فرأيتُه جريحًا، والسيف فى يده ، وأصحابه يتصدّعون[٤] عنه رجلا فرجُلا ، واثنين فاثنين ؛ وأنا أسمعه، وهو يقول : عبادَ الله ، الصبرَ الصبرَ ؛ فإنّ بعد الصبر النّصر والأجر؛

(١) الشول من النوق : التى خف لبنها وارتفع ضرعها ، وأتى عليها سبعة أشهر من يوم نتاجها ، فلم يبق فى ضروعها إلا شوال من اللبن أو بقية .
(٢) تحيل : لم تلقح .
(٣) العقعق ، كثعلب : طائر على قدر الحمامة ، على شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، والعرب تضرب به المثل فيما لا يحمد .
(٤) يتصدعون : يتفرقون ، وفى د « ينصدعون » .

فقلت له : النّجاء النجاء ! ثـكلتك أمّك ! فوالله ما أجِرت ولا نُصِرت ؛ ولـكنك وُزِرْتَ وخسرت ؛ ثم صِحْتُ بأصحابه ، فانذعروا عنه ، ولو شئتُ أن أطْعنه لطعنته ، فقلت له : أما والله لو شئت لجدّلتك فى هذا الصعيد[1] ، فقال : والله لهلـكت هلاك الدنيا والآخرة إذَنْ ! فقلت له : والله لقد أمسيتَ وإنّ دمك لحلال ، وإنّك لمن النادمين . فانصرف ومعه ثلاثة نفَر ، وما أدرى كيف كان أمره إلّا أنّى أعلم أنّه قد هلك .

وروى أنّ طلحة قال ذلك اليوم : ما كنت أظنّ أنّ هذه الآية نزلت فينا : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2] .

وروى المدائنىّ ، قال : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكانا ينزله[3] ، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب علىّ عليه السلام : أنا طلحة ، من يجيرنى ! يكررها . قال : فكان الحسن البصرىّ إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان فى جوار عريض .

---

(١) الصعيد : التراب .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

(٣) ب : « يرتاد منزله »

(١٤٩)

الأجَلُ

ومن كلام له عليه السلام قبل موته:

أيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مايَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ.

كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ.

أَمَّا وَصِيَّتِي، فَاللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَالَمْ تَشْرُدُوا. حَمَلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ.

أَنَا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ! إِنْ ثَبَتَتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ، فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَبِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ. اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي الأَرْضِ مَخَطُّهَا.

وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَسُكُونُ أَطْرَافِي؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ، وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ.

وَدَاعِى لَــكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مرْصَدٍ لِلتَّلَاقِى ! غداً تَرَوْنَ أَيَّامِى ، ويُــكْشَفُ لَــكُمْ عَنْ سَرَائِرِى ، وتَعْرِفُونَنِى بَعْدَ خُلُوِّ مَــكَانِى ، وقِيامِ غَيْرِى مَقامِى .

***

الشَّرْحُ :

أطردتُ الرجل ، إذا أمرتَ بإخراجه وطردِه ، وطردتُه إذا نفيتَه وأخرجتَه ؛ فالإطراد أدَلّ على العزّ والقهر من الطرد ، وكأنه عليه السلام جعل الأيام أشخاصا يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه ، أى مازلتُ أبحث عن كيفيّة قتلى ، وأىّ وقت يكون بعينه ، وفى أىّ أرض يكون ، يوما يوما ، فإذا لم أجده فى اليوم أطردته واستقبلت غده ؛ فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم ، فأبعده وأطرده ، وأستأنف يوما آخر ، هكذا حتى وقع المقدور . وهذا الكلام يدلّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصّلة من جميع الوجوه ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علما مجملا ؛ لأنّه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له : « ستضرَب على هذه ـ وأشار إلى هامته ـ فتخضَب منها هذه ـ وأشار إلى لحيته » ، وثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له : « أتعلم مَنْ أشقى الأولين » ؟ قال : نعم ، عاقر الناقة ، فقال له : « أتعلم مَنْ أشقى الآخِرين » ؟ قال : لا ، قال : « من يضرب بك هاهنا ، فيخضب هذه » .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته ، ألا تراه يقول : إن ثبتت الوطأة فى هذه المزلّة فذاك ، وإن تدحَض فإنّما كنّا فى أفياء أغصان ، ومهابّ رياح ، أى إن سلمتُ فذاك الذى تطلبونه ، يخاطب أهلَه وأولاده ، ولا ينبغى أن يقال : « فذاك ما أطلبه » ، لأنه عليه السلام كان يطلب الآخرة ،

أكثر من الدنيا . وفي كلامه المنقول عنه مايؤكد ماقلناه ؛ وهو قوله : «إن عشتُ فأنا ولىّ دمى ، وإن مِتّ فضربة بضربة » .

وليس قوله عليه السلام : « وأنا اليوم عِبْرة لكم ، وغداً مفارقكم » وما يجرى مجراه من ألفاظ الفصل بناقض(١) لما قلناه ؛ وذلك لأنّه لا يعنى غداً بعينه ، بل مايستقبل من الزمان ، كما يقول الإنسان الصحيح : أنا غدا ميّت ، فمالى أحرص على الدنيا ! ولأنّ الإنسان قد يقول فى مرضه الشديد لأهله وولده : ودّعتُكم وأنا مفارقكم ، وسوف يخلو منزلى منّى ، وتتأسّفون عَلَى فراق ، وتعرفون موضعى بعدى ؛ كله على غَلَبة الظنّ ؛ وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى ، وردعهم عن الهوى وحبّ الدنيا .

فإن قلت : فما تصنع بقوله عليه السلام لابن ملجَم :

أرِيدُ حِبَاءهُ وَيُرِيدُ قَتْلِى عَذِيرَكَ مِن خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ(٢)

وقول المخلّص من شيعته : فهلّا تقتله ! فقال : فكيف أقتل قاتلى ! وتارة قال : إنّه لم يقتلنى ، فكيف(٣) أقتل من لم يقتل ! وكيف قال فى البطّ الصائح خَلْفه فى المسجد ليلة ضرَبه ابن ملجم : دعوهنّ ، فإنهنّ نوائح . وكيف قال تلك الليلة : إنّى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فشكوتُ إليه ، وقلت : مالقيتُ من أمتك من الأود واللّدد ! فقال: ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدِلهم بى شرًّا منى ! وكيف قال : إنى لا أُقتَلُ محاربا ، وإنما أُقتَل فَتْكاً وغيلة ، يقتلنى رجلٌ خامل الذكر . وقد جاء عنه عليه السلام من هذا الباب آثار كثيرة .

قلت : كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصّلا من جميع الوجوه ، ألا ترى أنه

---

(١) د : « بناقض » .
(٢) من أبيات فى اللآلى ٦٣ ، نسبها إلى عمرو بن معديكرب ؛ وروايته فيها : « أريد حياته » .

ليس فى الأخبار والآثار مايدلّ على الوقت الذى يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذى يقتل فيه بعينه! وأما ابنُ ملجم، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذى يقتله، ولم يعلم علماً محققا أنّ هذه الضربة تزهَق نفسه الشريفة منها، بل قد كان يجوز أن يُبِلّ ويُفيق منها؛ ثم يكون قتله فيما بعد عَلَى يد ابن ملجم، وإن طال الأمد. وليس هذا بمستحيل، وقد وقع مثله، فإنّ عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق فى أيام معاوية على منافرةٍ كانت بينهما فعفا عمرو عنه، ثم كان من القَضاء والقدر أنّ عبد الملك قتل عمراً أيضا بيده ذبحا، كما تذبح الشاة.

وأما قوله فى البط: «دعوهنّ فإنهن نوائح» فلعلّه علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح؛ وإن لم يعلم أنّه يموت منه، والنوائح قد ينحنَ على المقتول وقد ينحن على المجروح، والمنام والدّعاء لا يدلّ على العلم بالوقت بعينه، ولا يدلّ على أن إجابة دعائه تكون على الفور لامحالة.

***

ثم نعود إلى الشرح.

أمّا قوله: «كلّ امرئ لاقٍ مايفرّ منه فى فراره»، أى إذا كان مقدورا، وإلّا فقد رأينا مَنْ يفرّ من الشىء ويسلم، لأنه لم يقدّر؛ وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1]، وقوله: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[2] ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[3]، وفى القرآن العزيز مثل هذا كثير.

قوله: «والأجل مَسَاق النفس» أى الأمر الذى تساق إليه، وتنتهى عنده، وتقف إذا بلغته فلا يبقى له حينئذ أكلة فى الدنيا.

---

(١) سورة النساء ٧٨ .
(٢) سورة آل عمران ١٥٤
(٣) سورة الجمعة ٨ .

قوله : « والهرب منه موافاته »، هذا كلام خارج مخرج المبالغة فى عدم النّجاة، وكون الفرار غيرَ مغنٍ ولا عاصم من الموت ، يقول : الهرب بعينه من الموت موافاة للموت، أى إتيان إليه ، كأنه لم يرتض بأن يقول : الهارب لابدّ أن ينتهىَ إلى الموت ، بل جعل نفس الهرب هو ملاقاة الموت .

قوله : « أبحثها » أى أكشفها ، وأكثر مايستعمل « بحث » مُعَدًّى بحرف الجر ، وقد عدّاه هاهنا إلى « الأيام » بنفسه وإلى « مكنون الأمر » بحرف الجرّ ، وقد جاء : بحثت الدّجاجة التراب ، أى نبشته .

قوله : « فأبى الله إلا إخفاءه ، هيهات علم مخزون » ! تقديره : هيهات ذلك ! مبتدأ وخبره، هيهات اسم للفعل، معناها بعد، أى علْم هذا الغيب علم مخزون مصون، لم أطلّع عليه.

فإن قلت : مامعنى قوله : « كم اطردت الأيام أبحثها » ؟ وهل عِلم الإنسان بموته كيف يكون ، وفى أىّ وقت يكون ، وفى أىّ أرض يكون ؛ مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث ؟

قلت : مراده عليه السلام أنى كنت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أسأله كثيرا عن هذا الغيب ؛ فما أنبأنى منه إلّا بأمور إجمالية غير مفصّلة، ولم يأذن الله تعالى فى إطلاعى على تفاصيل ذلك.

قوله : « فاللهَ لاتشركوا به شيئا » الرواية المشهورة « فاللهَ » بالنصب ؛ وكذلك « محمدا » بتقدير فعل ، لأنّ الوصية تستدعى الفعل بعدها ، أى وحّدُوا الله ، وقد روى بالرفع ؛ وهو جائز على المبتدأ والخبر .

قوله : « أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخَلاَكم ذمّ مالم تشرُدوا » ، كلام داخلٌ فى باب الاستعارة ، شبّه الكتاب والسنّة بعمودَىِ الخيمة ، وبمصباحَيْن

يُستضاء بهما. وخَلَا كم ذمٌّ: كلمة جارية مجرى المثل، معناها: ولا ذمّ عليكم، فقد أعذرتمُ. وذمّ، مرفوع بالفاعلية، معناه: عَدَا كم وسقَط عنكم.

فإن قلت: إذا لم يشركوا بالله ولم يضيّعوا سنة محمد صلى الله عليه وآله فقد قاموا بكلّ مايجب، وانتهوا عن كلّ مايقبّح، فأىّ حاجة له إلى أن يستثنىَ ويقول: «مالم تشردوا»، وإنما كانَ يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال: وصيّتى إليكم أن توحّدوا الله، وتؤمنوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، كان حينئذ يحتاج إلى قوله: «مالم تشردوا» ويكون مرادُه بها فعلَ الواجبات، وتجنّب المقبحات، لأنّه ليس فى الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصِىَ بالاعتقاد والعمل، كما قال عمر لأبى بكر فى واقعة أهل الرِّدّة: كيف تقاتلهم وهم مقرّون بالشهادتين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله «أمرت بأن أقاتلَ النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فقال أبو بكر: إنه قال تتمة هذا: «فإذا هم قالوها عَصموا منى دماءهم وأموالهم إلّا بحقها» وأداء الزكاة من حقها!

قلت: مراده بقوله: «مالم تشردوا» مالم ترجعوا عن ذلك فكأنه قال: خلاكم ذمّ إن وحّدتم الله واتبعتم سنة رسوله، ودمتم على ذلك. ولا شبهة أنّ هذا الكلام منتظم، وأنّ اللفظتين الأوليين ليستا بمغنيتين عن اللفظة الثالثة (١) وبتقدير أن يغنيا عنه، فإنّ فى ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لو لم يذكر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢)، وليس لقائل أن يقول: مَن لا يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول، وأىّ حاجة به إلى ذكر ماقد أغنى اللفظُ الأول عنه!

قوله: «حُمِّل كلّ امرئٍ مجهوده، وخُفِّفَ عن الجهلة»، هذا كلام متّصل بما قبله،

---

(١) ب: «اللفظ الثالث».
(٢) سورة النور ٥٢.

لأنّه لما قال : « مالم تشردُوا » أنبأ عَنْ تكليفهم كلّ ماوردت به السّنة النبوية : وأن يدوموا عليه ؛ وهذا فى الظاهر تكاليفُ أمورٍ شاقة ، فاستدرك بكلامٍ يدلّ على التخفيف ، فقال : إن التكاليف على قَدْرِ المكلّفين ، فالعلماء تكليفهم غير تكاليف العامة ، وأرباب الجهل والمبادئ كالنساء وأهل البادية وطوائف من النّاس ، الغالبُ عليهم البلادة وقلّة الفهم ، كأقاصى الحبشة والتّرك ونحوهم ، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلّفين ، إلا بحمل التوحيد والعدل ، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصّلة وحلّ المشكلات الغامضة . وقد روى « حَمَلَ » على صيغة الماضى ، و « مجهودَه » بالنصب ، و « خَفَّفَ » على صيغة الماضى أيضا ، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدّم ذكره ، والرواية الأولى أكثر وأليق .

ثم قال : « ربّ رحيم » أى ربّكم رب رحيم . ودين قويم ، أى مستقيم . وإمام عليم ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن الناس من يجعل « ربّ رحيم » فاعل « خفّف » على رواية من رواها فعلا ماضيا وليس بمستحسن لأنّ عطف « الدين » عليه يقتضى أن يكون الدين أيضا مخففا ، وهذا لا يصحّ .

ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران .

ثم قسّم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمةً حسنة ، فقال : « أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عِبرة لكم ، وغدا مفارقكم » إنما كان عبرةً لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعاً بعد أن صرَعَ الأبطال ، وقتل الأقران ، فهو كما قال الشاعر :

أكَلَّ أشلاءَ الفوارِس بالقَنَا أضحى بهنّ وشِلْوه مأكول

ويقال : دَحَضت قدمُ فلان ، أى زلّت وزَلَقت .

ثم شبّه وجوده فى الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام ، لأنّ ذلك كله سريع الانقضاء لاثبات له .

قوله : « اضمحلّ فى الجوّ متلفقُها ، وعَفَا فى الأرض مَخَطُّها » ، اضمحلّ ذهب ، والميم زائدة ، ومنه الضَّحْل وهو الماء القليل ، واضمحلّ السحاب : تقشّع وذهب ، وفى لغة الكلابيين امضحلّ الشىء بتقديم الميم . ومتلفقّها : مجتمعها ، أى ما اجتمع من الغيوم فى الجو ؛ والتلفيق : الجمع : وعَفَا : دَرَس ، ومخطّها : أثرها ؛ كالخطة .

قوله : « وإنما كنتُ جاراً جاوركم بَدَنِى أياما » ، فى هذا الكلام إشعار بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النفس ، وأنّ هويّة الإنسان شىء غير هذا البدَن .

وقوله : « ستعقَبون مِنّى » أى إنما تجدون عَقيب فقدى جُثّة ؛ يعنى بدناً خلاء ، أى لا رُوح فيه ؛ بل قد أقفر من تلك المعانى التى كنتم تعرفونها وهى العقل والنطق والقوّة وغير ذلك . ثم وَصف تلك الجُثّة فقال : « ساكنة بعد حرَاك » بالفتح ، أى بعد حركة « وصامتة بعد نطق » . وهذا الكلام أيضا يُشعِر[1] بما قلناه من أمر النفْس ، بل يصرّح بذلك ، ألا تراه قال : « ستعقبون منى جثّة » ، أى تستبدلون بى جثة صفتها كذا ؛ وتلك الجثّة جثته عليه السلام ، ومحال أن يكون العِوَض والمعوّض عنه واحدا ، فدلّ على أنّ هويته عليه السلام التى أعقبِنا منها الجثة غير الجُثّة .

قوله : « ليعظكم هدوّى » ، أى سكونى ، وَخفوت إطراقى ، مثله خَفَت خُفوتا سكن ، وَخفت خُفاتا مات فجأة . وإطراقه : إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض ، لضعفه عن رفع جفنه ، وسكون أطرافه : يداه ورجلاه ورأسه عليه السلام .

قال : « فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ ، والقول المسموع » ؛ وصدق عليه السلام ! فإن خَطْباً أخرس ذلك اللسان ، وَهدّ تلك القوَى لخطبٌ جليل ، ويجب أن يتّعظ العقلاء به . وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال ، بل بالإضافة إلى من سمعها ، وأفكر فيها ، فضلاً عن مشاهدتها عِيانا ! وَفى هذا الكلام شَبَهٌ من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوتَ الإسكندر فقال أحدهم : حرّكنا بسكونه .

---

(١) ب : « مشعر » .

وقال الآخر : قد كان سيفك لا يجفّ ، وكانت مراقيك لا ترام ، وكانت نِقماتك لاتؤمَن ، وكانت عطاياك يُفرَح بها ، وكان ضياؤك لاينكشف ، فأصبح ضوءك قد خَمَد ، وأصبحت نقماتك لا تخشى ، وَعطاياك لا تُرجى ، وَمَراقيك لا تُمنَعُ ، وسيفك لا يَقطع .

وقال الآخر : انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى ، وإلى ظِلّ الغمام كيف انسلى !

وقال آخر : ما كان أحوجَه إلى هذا الحلم ، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته !

وقال آخر : القدرة العظيمة التى ملأت الدنيا العريضة الطويلة ؛ طُوِيَتْ فى ذراعين .

وقال الآخر : أصبح آمرُ الأمراء أسيرا ، وقاهر الملوك مقهورا . كان بالأمس مالكا ، فصار اليوم هالكا .

ثم قال عليه السلام : « وَدّعتكم وَداع امرئٍ مرصَدا للتلاقى » ، أرصدته لكذا ، أى أعددته له ، وفى الحديث : « إلّا أن أرصدَه لدينٍ عَلَىّ » . والتلاقِى ها هنا : لقاء الله . ويروى : «ودَاعِيكم» أى وداعى إياكم ، والوَداع مفتوح الواو .

ثم قال : « غدا ترون أيامى ، ويكشف لكم عن سرائرى ، وتعرفوننى بعدُ خلوّ مكانى ، وقيام غيرى مقامى » ؛ هذا معنًى قد تداوله الناس قديما وحديثا ، قال أبو تمام :

رَاحَتْ وُفُودُ الأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ فارغةَ الأيدى مِلَاءَ القُلُوبْ
قد علمت ما رزئت إنما يُعرف قدرُ الشمس بعد الغروبْ

وقال أبو الطيب :

وَنَذِيمُهمْ وَبِهِمْ عَرَفْنا فضلَهُ وبضدّها تتبيّن الأشياء[1]

---

(١) ديوانه ١ : ٢١ ، وروايته : « ونذيمهم » .

ومن أمثالهم :

* الضد يظهر حسنه الضد *

ومنها أيضا : لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية .

وإنما قال عليه السلام : « ويكشف لكم عن سرائري » ؛ لأنهم بعد فقده وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده ، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى ، وألّا يظهر المنكر فى الأرض ، وإن ظنّ قوم فى حياته أنّه كان يريد الملك والدنيا .

(١٥٠)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام ويومئ فيها إلى الملاحم :

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمالاً ظَعْناً فِي مَسالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ؛ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَاهُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ ، وَلاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ ؛ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ . وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ !

يَاقَوْمِ، هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَالاَ تَعْرِفُونَ . أَلاَ وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً ، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً ، وَيَصْدَعَ شَعْباً ، وَيَشْعَبَ صَدْعاً ؛ فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ ؛ لاَ يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ ؛ ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ، وَيُرْمَى بِالتفسير فِي مَسَامِعِهِمْ ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ .

***

الشرحُ :

يذكر عليه السلام قوماً من فرق الضلال أخذوا يمينا وشمالا ، أى ضلّوا عن الطريق الوسطى التى هى منهاج الكتاب والسنّة؛ وذلك لأنّ كلّ فضيلة وحقّ فهو محبوس بطرفين خارجين عن العدالة ، وهما جانبا الإفراط والتفريط ؛ كالفطانة التى هى محبوسة

بالجربزة والغباوة، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجبن، والجود المحبوس بالتبذير والشحّ؛ فمن لم يقعْ على الطريق الوسطى وأخذ يمينا وشمالا فقد ضلّ.

ثم فسّر قوله: «أخذ يمينا وشمالا»، فقال: «ظعنوا ظعنا في مسالك الغيّ، وتركوا مذاهب الرشد تركاً». ونصب «تركا» و«ظعنا» على المصدرية، والعامل فيهما من غير لفظهما [١]؛ وهو قوله: «أخذوا».

ثم نهاهم عن استعجال ماهو معدّ، ولابدّ من كونه ووجوده، وإنما سماه كائنا لقرب كونه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [٢]، ونهاهم أن يستبطئوا مايجيء في الغد لقرب وقوعه، كما قال:

* وإن غدا للناظرين قريب *

وقال الآخر:

* غدٌ ماغد ما أقرب اليوم من غد *

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [٣].

ثم قال: كم من مستعجلٍ أمراً ويحرص عليه، فإذا حصل وَدّ أنه لم يحصل!

قال أبو العتاهية:

مَنْ عاش لاقى مايسو ... ء من الأمور وما يسرْ [٤]
ولرب حتْفٍ فوقَه ... ذهبٌ وياقوت ودُرْ

وقال آخر:

فلا تتمنَّيَنْ الدهر شيئا ... فكم أمنيّةٍ جلبت مَنِيّهْ

---

(١) ب: «لفظها».
(٢) سورة الزمر ٣٠.
(٣) سورة هود ٨١.
(٤) ديوانه ٩٩.

وقال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وتباشير الصبح : أوائله .

ثم قال : ياقومُ قد دنا وَقت القيامة ، وَظهور الفتن التى تظهر أمامها .

وإبّان الشىء ، بالكسر وَالتشديد : وَقته وَزمانه ، وَكنى عن تلك الأهوال بقوله : « وَدُنوٍّ من طلعة مالا تعرفون » ؛ لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلُها ، نحو دابة الأرض ، والدجّال وَفتنته ، وَما يظهر على يده من المخاريق وَالأمور الموهِمة ، وَواقعة السُّفيانىّ وَما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصَى عددهم .

ثم ذكر أن مهدىّ آل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو الذى عنى بقوله : « وإنّ مَنْ أدركَها منّا يسرى فى ظلمات هذه الفتن بسراج منير » ؛ وهو المهدىّ ، وأتباع الكتاب والسنة .

ويحذُو فيها : يقتفى ويتّبع مثال الصالحين ، ليحلّ فى هذه الفتن . ورِبقاً : أى حبلا معقودا .

ويعتقُ رِقًا ، أى يستفِكّ أسْرَى ، وينقذ مظلومين من أيدى ظالمين .

ويصدَع شَعباً ، أى يفرّق جماعة من جماعات الضلال . ويشعَبُ صَدْعا : يجمع ماتفرّق من كلمة أهل الهدى والإيمان .

قوله عليه السلام : « فى سترة عن الناس » ، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه ، وليس ذلك بنافع للإمامية فى مذهبهم ، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم ؛ وذلك لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ، ويكون مستترا مدة ، وله دعاة يدعُون إليه ، ويقرّرون أمره ، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ؛ ويملك الممالك ؛

---

(١) سورة البقره ٢١٦

ويقهر الدّول ؛ ويمهّد الأرض ؛ كما ورد فى قوله : « لا يبصر القائف » ، أى هو فى استتار شديد لا يدركه القائف ، وهو الذى يعرف الآثار ، والجمع « قافة » ، ولا يعرف أثره ولو استقصى فى الطلب ؛ وتابع النظر والتأمل .

ويقال : شَحَذْتُ السّكين أشحَذُه شَحْذاً ، أى حدّدته ، يريد: لَيُحرّضنّ فى هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال ، ولتُشحَذنّ عزائمهم كما يشحَذ الصَّيْقل السيف ، ويرقّق حدّه .

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوذى العزائم ؛ فقال : تجْلَى بصائرُهم بالتنزيل ، أى يكشف الرَّين والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويله ومعرفة أسراره .

ثم صرّح بذلك فقال : « ويرمى بالتفسير فى مسامعهم » ، أى يكشف لهم الغطاء ، وتخلّق المعارف فى قلوبهم ، ويلهمون فَهْمَ الغوامض والأسرار الباطنة ، ويغبَقون كأسَ الحكم بعد الصَّبوح ، أى لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحا ومساء ؛ فالغَبوق كناية عن الفيض الحاصل لهم فى الآصال ، والصَّبوح كناية عمّا يحصل لهم منه فى الغَدَوات ، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة ؛ وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لولىّ الله الذى يجتبيه ، ويخلقه فى آخر أوقات الدنيا ، فيكون خاتمة أوليائه ، والذى يلقى عصا التكليف عنده .

* * *

الأَصْلُ :

منها :

وطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْىَ ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ ، حتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ

الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَاشْتَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ؛ لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

***

الشرح :

هذا الكلام يتصل بكلام قبله، لم يذكره الرضيّ رحمه الله، وهو وصف فئة ضالة قد استولت ومَلَكت، وأملى لها الله سبحانه. قال عليه السلام : وطال الأمدُ بهم ليستكملوا الخزى، ويستوجبوا الغِيَر، أى النعم[1] التى يغيّرها بهم من نعم الله سبحانه، كما قال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[2]، وكما قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

حتى إذا اخلولَق الأجل، أى قارب أمرُهم الانقضاء، من قولك : اخلولق السّحاب، أى استوى، وصار خليقاً بأن يمطر، واخلولق الرسمُ : استوى مع الأرض.

واستراح قوم إلى الفتن، أى صبا قومٌ من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفئة، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها، واتبعوها.

واشتالوا عن لَقاح حرْبهم، أى رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبّوا الحرب بينهم وبين هذه الفئة، مهادَنةً لها وسلما وكراهية للقتال، يقال: شال فلان كذا، أى رفعه، واشتال « افتعل » هو فى نفسه، كقولك : حَجَم زيد عمراً، واحتجم هو نفسُه. ولَقاح حربهم : هو بفتح اللام، مصدر من لَقحت الناقة.

قوله : « لم يمنُّوا »، هذا جواب قوله : « حتى إذا »، والضمير فى « يمنُّوا » راجع إلى

---

(١) كذا فى د، وفى ا، ب : « والنعم ».
(٢) سورة الإسراء ١٦.
(٣) سورة الأعراف ١٨٢.

العارفين الذين تقدّم ذكرهم فى الفصل السابق ذكره ، يقول : حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال ، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم فى ضلالتهم وفتنتهم ، إمّا تقيّة[١] منهم ، أو لشبهة دخلت عليهم ، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الذّين خصّهم بحكمته ، وأطلعهم على أسرار ملكوته فنهضوا ، ولم يمنّوا على الله تعالى بصبرهم ، ولم يستعظموا أن يبذلوا فى الحقّ نفوسَهم ؛ قال : حتى إذا وافق قضاء الله تعالى وقَدَره كى ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره فى انقضاء مدة تلك الفئة ، وارتفاع ما كان شَمِل الخلق من البلاء بملكها وإمْرتها ، حَمل هؤلاء العارفون بصائرَهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف ، يعنى أنّهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس ، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها ، مع تجريد السيوف من أجفانها ، فكأنها شئ محمول على السيوف يبصره مَنْ يبصر السيوف ، ولا ريبَ أنّ السيوف المجرّدة من أجلى الأجسام للأبصار ، فكذلك مايكون محمولا عليها ، ومِن النّاس مَنْ فسّر هذا الكلام ، فقال : أراد بالبصائر جمع بصيرة ، وهو الدم ، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التى سفكتها هذه الفئة ، وكأنّ تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التى جرّدوها للحرب ، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه :

رَاحُوا بصائرَهُم عَلَى أكْتافِهِمْ ... وبَصِيرَتِى يَعْدُو بها عَتَدٌ وأى[٢]

وفسّره أبو عمرو بن العلاء ، فقال : يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خَلْفَهم ، أى لم يثأروا به ، وأنا طلبت ثأرى. وكان أبو عبيدة معمَر بن المثنّى يقول فى هذا البيت : البصيرة : التّرس أو الدّرع ، ويرويه : « حملوا بصائرهم ».

***

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « بقية » ، وفى د : « بفئة »
(٢) البيت فى الصحاح ٢ : ٥٩٢ ، ونسبه إلى الأسعر الجعفى ، وهو أيضا فى اللسان ٥ : ١٣٣

الأصل :

حَتّى إذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابِ ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الوَلائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا البِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ . قَدْ مَارُوا فِي الحَيْرَةِ ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ ؛ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ؛ مِنْ مُنْقَطِعٍ إلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ .

* * *

الشرح :

رجعوا على الأعقاب : تركوا ما كانوا عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ﴾[1] .

وغالتهم السُّبُل : أهلكهم اختلاف الآراء والأهواء ، غاله كذا ، أى أهلكه ، والسُّبُل : الطرق .

والولائج : جمع وَلِيجة ، وهى البطانة يتخذها الإنسان لنفسه ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا المُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[2] .

ووصلوا غير الرَّحِم ، أى غير رحم الرسول الله صلى الله عليه وآله ، فذكرها عليه السلام

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٢) سورة التوبة ١٦ .

ذِكْراً مطلقا غير مضاف لِلعلم بها ، كما يقول القائل : «أهل البيت» ، فيعلم السامع أنه أراد أهلَ بيت الرسول .

وهَجَرُوا السبب ، يعني أهلَ البيت أيضا ؛ وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « خَلَّفْتُ فيكم الثَّقَلَيْن : كتاب الله وعِترتي أهل بيتي ؛ حبْلان ممدودان من السماء إلى الأرض ، لا يفترقان حتى يرِدَا عليَّ الحوض » ، فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ « السبب » لمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قال : « حَبْلان » ، والسبب في اللغة : الحبل .

عَنَى بقوله : « أُمِرُوا بمودّته » قولَ الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[1] .

قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه » ؛ الرّصّ مصدر رَصَصْتُ الشيء أرصّه ، أي ألصقت بعضه ببعض ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[2] ، وتَراصّ القوم في الصف ، أي تلاصقوا . فبنوْه في غير موضعه ! ونقلوا[3] الأمر عن أهله إلى غير أهله .

ثم ذمّهم عليه السلام ، وقال : « إنّهم معادن كلّ خطيئة ، وأبواب كل ضاربٍ في غَمْرة » ، الغمرة : الضلال والجهل . والضّارب فيها : الداخل المعتقد لها .

قد ماروا في الحيرة ، مارَ يمُور إذا ذهب وجاء ، فكأنّهم يسبحون في الحيرة كما يَسْبَح الإنسان في الماء .

وذَهَل فلان ، بالفتح ، يذْهَل . على سنّة من آل فرعون ، أي على طريقة ، وآل فرعون : أتباعه ، قال تعالى : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[4] .

---

(١) سورة الشورى ٢٣ .
(٢) سورة الصف ٥ .
(٣) ب : « ونقلوا » ، وما أثبته من د .
(٤) سورة غافر ٤٦ .

من منقطِـع إلى الدنيا : لا همّ له غـيرها . راكن : مخلِد إليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[1] . أو مفارق للدين مباين[2] : مزايل .

فإن قلت : أيّ فرق بين الرجلين؟ وهل يكون المنقطِـع إلى الدنيا إلّا مفارقا للدين؟

قلت : قد يكون فى أهل الضلال مَنْ هو مفارق للدين مباين؛ وليس براكنٍ إلى الدنيا ولا منقطِـع إليها ؛ كما نرى كثيراً من أحبَار النصارى ورهبانهم .

فإن قلت : أليس هذا[3] الفصل صريحاً فى تحقيق مذهب الإمامية ؟

قلت : لا ، بل نحمله على أنه عَنَى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب ، فى أيام صِفّين ، وهم الذين نقلوا البناء ، وهجروا السبب ، ووصلُوا غير الرّحِم ، واتّـكلوا على الولائج ، وغالتهم السبُل ، ورجعوا على الأعقاب ؛ كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومَرْوان بن الحـكم ، والوليد بن عُقْبة ، وحبيب بن مسلَمة ، وبُسْر بن أرطاة ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وحوشب ، وذِى الكَلاع ، وشُرَحْبيل ابن السّمط[4] ، وأبى الأعور السلمىّ ؛ وغيرهم ممن تقدّم ذكرُنا له فى الفصول المتعلّقة بصِفّين وأخبارها ، فإنّ هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية ، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه .

فإن قلت . لفظ الفصل يشهدُ بخلاف ما تأوّلته ، لأنه قال عليه السلام : حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب ، فجعل رجوعَهم على الأعقاب عَقِيب قَبْض الرسول صلى الله عليه وآله ، وما ذكرتَه أنتَ كان بعد قَبْض الرسول بنيّف وعشرين سنة !

قلت : ليس يمتنع أن يكونَ هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب ، لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأضْمَرُوا فى أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين وأذاه ، وقد كان فيهم مَنْ

---

(١) سورة هود ١١٣ .
(٢) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « ومباين » .
(٣) ساقطة من د
(٤) ب : « الصمت » .

يتحكّك به فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان، ويتمرّض له؛ ولم يكن أحدٌ منهم ولا من غيرهم يُقدِم على ذلك فى حياة رسول الله . ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلّيّة ، فإنّ كثيرا من أصحابنا يطعنون فى إيمان بعض مَنْ ذكرناه ويعدّونهم من المنافقين ، وقد كان سيفُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقمَعُهم ويردَعُهم عن إظهار مافى أنفسهم من النّفاق ، فأظهر قومٌ منهم بعده ما كانوا يضمِرُونه من ذلك ؛ خصوصا فيما يتعلّق بأمير المؤمنين ، الذى وَرَد فى حقّه : « ما كنّا نعرفُ المنافِقِين عَلَى عَهْدِ رسول الله إلّا ببغض علىّ بن أبى طالب » ، وهو خَبَرٌ محقّق مذكور فى الصّحاح .

فإن قلت : يمنعك من هذا التأويل قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه ، فجعلوه فى غير موضعه »، وذلك لأنّ « إذا» ظرف ؛ والعامل فيها قوله : «رجع قومٌ على الأعقاب» وقد عطف عليه قوله : «ونقلوا البناء» ؛ فإذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعاً فى الظرف المذكور ، وهو وقت قبض الرسول، وجَب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً فى ذلك الوقت أيضاً ، لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر ، ولم ينقلْ أحدٌ وقتَ قبض الرسول صلى الله عليه وآله البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وإنّما نُقِل عنه إلى شخص آخر ، وفى إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الإماميّة صريحا !

قلت : إذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً وقت قبض النبى صلى الله عليه وآله فقد قمنا بما يجبُ من وجود عامل فى الظرف ، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً فى تلك الحال أيضاً ، بل يجوز أن يكون واقعاً فى زمان آخر؛ إمّا بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون للعطف فى مطلق الحدث لافى وقوع الحدث فى عين ذلك الزّمان المخصوص ، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾(١)؛ فالعامل فى الظرف «استطعما» ويجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة . ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً؛ ألا ترى أنّ من جملتها «فأقامه» ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما ؛ اللهم إلا أن يقول قائل: أشار بيده إلى الجدار فقام ، أو قال له : قم ، فقام ، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلّا على هذا الوجه؛ وهذا لم يكن ، ولا قاله مفسر. ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾؛ لأنّ الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة : وإنما يكون فيه مشقّة إذا بناه بيده ، وباشره بجوارحه وأعضائه .

واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدُده الجليل ، ومنصبه العظيم ، ودينه القويم ، من الإغضاء عمّا سلف ممّن سلف ؛ فقد كان صاحَبَهم بالمعروف بُرْهةً من الدهر ، فإمّا أنْ يكون ما كانوا فيه حقّهم أو حقه ، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة ، أو لما رآه من المصلحة ؛ وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطبّق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها ؛ فإنّ بُعْد تأويل ما يتأوّله من كلامه ، ليس بأبعد من تأوِيل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة فى القرآن ، ولم يمنع بعدها من الخوض فى تأويلها محافظةً على الأصول المقررة ؛ فكذلك هاهنا .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ .

(١٥١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ، وَالِاعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ ؛ لَا يُؤَازَى فَضْلُهُ ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ ؛ أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ ؛ يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ .

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ ؛ فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا ، وَظُهُورِ كَمِينِهَا ، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا ، وَمَدَارِ رَحَاهَا ؛ تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ ؛ شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلَامِ ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ ؛ يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ ؛ وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ .

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا .

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ . قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ؛ وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا ؛ يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ .

يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ . مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ ، تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ؛ بَرِيئُهَا سَقِيمٌ ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ .

* * *

الشرح :

مداحر الشيطان : الأمور التي يُدحَرُ بها ، أي يطرد ويبعد ، دحرته أدحَرُه دُحورا ، قال تعالى : ﴿ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾(١) ، وقال سبحانه : ﴿ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً ﴾(٢) ، أي مقصًى .

ومزاجره : الأمور يزجربها ؛ جمع مَزْجر : ومَزْجرة ، وكثيرا مايبنى عليه السلام من الأفعال « مَفْعلا » و « مَفْعَلة » ويجمعه ؛ وإذا تأملت كلامه عرفت ذلك .

وحبائل الشيطان : مكائده وأشراكه التي يُضِلّ بها البشر . ومخاتله : الأمور التي يختِل بها ، بالكسر ، أي يخدع .

لا يُوازى فضله : لا يساوَى ، واللفظة مهموزة ، آزيت فلانا : حاذيته ، ولا يجوز « وازيته » .

(١) سورة الصافات ٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨

ولا يجبر فقدُه : لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده . والجفوة الجافية : غِلَظ الطّبع وبلادة الفهم .

ويستذِلّون الحكيم : يستضيمون العقلاء ، واللام هاهنا للجنس ، كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (١) .

يحيوْن على فَتْرة : على انقطاع الوحى مابين نبوّتين .

ويموتون على كَفْرة ، بالفتح ، واحد الكَفَرات ، كالضربة واحدة الضّربات .

ويروى : « ثم إنكم معشر الناس » . والأغراض : الأهداف . وسكرات النعمة : ماتحدثه النّعم عند أربابها من الغَفْلة المشابهة للسُّكر ، قال الشاعر :

خمس سكْرات إذا مُنِيَ المرْ ء بهـا صارَ عُرْضةً للزّمانِ

سَكْرَةُ المال والحداثة والعِشْـ ق وسكْر الشّراب والسّلطانِ

ومن كلام الحكماء : للوالى سَكْرة لا يُفيق منها إلّا بالعزْل . والبوائق : الدّواهى ، جمع بائقة ؛ يقال : باقتْهُم الدّاهية بَوْقاً ، أى أصابَتْهم ، وكذلك : باقتهم بؤوق على « فعول » ، وابتاقت عليهم بائقة شرّ ، مثل انباحت ، أى انفتقت ، وانباقَ عليهم الدّهر : هجم بالداهية ، كما يخرُج الصوت من البُوق ، وفى الحديث : « لا يدخل الجَنّة من لا يأمن جارُه بوائقَه » ، أى غوائله وشرّه .

والقَتَام ، بفتح القاف : الغبار . والأقتم : الذى يعلوه قَتَمة ؛ وهو لونٌ فيه غبرة وحُمْرة .

والعِشْوة ، بكسر العين : ركوب الأمر على غير بيان ووضوح . ويروى : « وتبيّنوا فى قَتَام العِشْوة » كما قرئ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٢) و ﴿ فتثبتوا ﴾ .

---

(١) سورة الفجر ٢٢ .

(٢) سورة الحجرات ٦ .

واعوجاج الفتنة : أخذها في غَيْرِ القَصْد ، وعدولها عن المنهج .

ثم كَنَى عن ظهور المستور المخفىّ منها بقوله : «عند طلوع جنينها ، وظهور كمينِها»،
والجنين : الولد مادام في البطن ، والجمع أجِنّة، ويجوز ألا يكون الكلام كناية بل صريحاً؛
أى عند طلوع ماالستحن منها ؛ أى استتر وظهور ما كمن ، أى مابطن .

وكَنَى عن استحكام أمر الفتنة بقوله : « وانتصاب قطبها ، ومدار رحاها » .

ثم قال : إنّها تبدو يسيرة ، ثم تصير كثيرة .

والفظاعة . مصدر فظُع بالضم ، فهو فظيع أى شديد شنيع تجاوز المقدار ، وكذلك
أفظَع الرجل فهو مُفظِع ، وأُفظِع الرجل على مالم يسمّ فاعله : نزل به أمر عظيم ، وأفظعت
الشيء : وجدته فظيعا ، ومثله استفظعته ، وهذا المعنى كما قال الشاعر :

وَلَرُبَّما هاجَ الكَبِيـ ... ـرَ من الأمور لك الصغير

وفى المثل : « والشر تبدؤه صغاره » ، وقال الشاعر :

فإنّ النّارَ بالعُودَيْن تُذْكَى ... وإنّ الحَرْبَ أوّلُها كَلَامُ[(1)]

وقال أبو تمام :

ربّ قليل جَدَا كثيراً ... كم مطرٍ بَدْؤهُ مَطيرُ

وقال أيضا :

لا تذيلنْ صغير همّك وانظرْ ... كم بذى الأثلِ دوحة من قَضِيبِ[(2)]

قوله : « شِبابها كشِباب الغلام » بالكسر ، مصدر شبّ الفرس والغلام يشِبّ
ويشَبّ شبابا وشبيبا ، إذا قمص ولعب ، وأشببته أنا ، أى هيّجته .

---

(١) لنصر بن سيار ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ١١٠

(٢) ديوانه ١ : ١٢٧ . والأثل : شجر معروف بعظمه ، والدوحة : الشجرة العظيمة .

والسِّلام: الحجارة جمع، واحده سَلِمة بكسر اللام؛ يذكر الفتنة، ويقول: أنها تبدو في أوّل الأمر وأربابها يَمرحون ويشبّون كما يشِبّ الغلام ويمرح، ثم تئول إلى ان تعقب فيهم آثارا، كآثار الحجارة في الأبدان، قال الشاعر:

والحب مثل الحرب أوّلها التخيّل والنّشاطُ
وختامها أم الرّبيق النّكز والضّربُ القطاطُ[1]

ثم ذكر أنّ هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم، وكلّهم ظالم، أولهم يقود آخرهم؛ كما يقود الإنسان القطارَ من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه. وآخرهم يقتدي بأوّلهم، أي يفعل فعلَه، ويحذو حذوَه.

وجيفة مريحة: منتنة، أراحت: ظهر ريحُها. ويجوز أن تكون من أراحَ البعير، أي مات، وقد جاء في «أراح» بمعنى أنتن «راح» بلا همز.

ثم ذكر تبرّؤ التابع من المتبوع، يعني يوم القيامة

فإن قلت: إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2]، وهاهنا قد عكس ذلك، فقال: إنّ التابع يتبرّأ من المتبوع!

قلت: إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك، في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3]. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾[4]، فقولهم: ﴿لَمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ هو التبرؤ، وهو قوله حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[3]﴾، وهذا هو التبرّؤ.

---

(١) أم الربيق كناية عن الحرب.
(٢) سورة البقرة ١٦٦.
(٣) سورة الأنعام ٢٢، ٢٣.
(٤) سورة غافر ٧٤

ثم ذكر عليه السلام أنّ القائد يتبرّأ من المقود ، أى يتبرّأ المتبوع من التابع فيكون كلٌّ من الفريقين تبرّأ من صاحبه ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (١) .

ويتزايلون : يتفرّقون .

قوله : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » . طالعها : مقدّماتها وأوائلها؛ وسمّاها « رَجوفا » ، لشدّة الاضطراب فيها .

فإن قلت : ألم تكن قلتَ : إنّ قوله : « عن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع » يعنى به يوم القيامة ، فكيف يقول : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة » وهذا إنّما يكون قبل القيامة!

قلت : إنّه لمّا ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهى الدنيا ، أراد أن يقول بعده بلا فصل : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » ، لكنه لما تعجّب من تزاحم الناس وتكالُبهم على تلك الجيفة ، أراد أن يؤكّد ذلك التعجّب ، فأتى بجملة معترضة بين الكلامين . تؤكد معنى تعجّبه منهم ، فقال : إنّهم على ماقد ذكرنا من تكالُبهم عليها؛ عن قليل يتبرّأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضُهم بعضا ،وذلك أدعى لهم – لو كانوا يعقلون – إلى أن يتركوا التكالُب والتهارُش على هذه الجيفةِ الخسيسةِ . ثم عاد إلى نظام الكلام، فقال : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » ، ومثلُ هذا الاعتراض فى الكلام كثير ، وخصوصا فى القرآن ، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم طرفا .

قوله : « والقاصمة الزَّحُوف » القاصمة : الكاسرة ، وسماها زَحُوفاً تشبيهاً لمشيها قُدُماً بمشى الدّبى الذى يهلك الزروع ويبيدها ، والزحف : السير على تُؤَدة كسيرِ الجيوش بعضها إلى بعض .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٥ .

قوله : « وتزيغ قلوب » أى تميل ، وهذه اللفظة والتى بعدها دالّتان على خلاف ماتذهب إليه الإماميّة من أنّ المؤمن لا يكفر ، وناصرتان لمذهب أصحابنا .

ونجومُها : مصدر نَجَمَ الشرّ إذا ظهر .

مَنْ أشرف لها : مَنْ صادَمها وقابلها . ومَنْ سعى فيها ، أى فى تسكينها وإطفائها ، وهذا كلّه إشارة إلى الملحمة الكائنة فى آخر الزمان .

والتكادُم : التعاضّ بأدنى الفم ، كما يكدِم الحمار ، ويقال : كَدَمَ يكدِم ، والمكدَم : المعضّ .

والعانة : القطيع من حُمر الوحش ، والجمع عُون .

تغيض فيها الحكمة : تنقُص .

فإن قلت : ليس قوله : « وتنطِق فيها الظلمة » واقعاً فى نقيض قوله : « تغيض فيها الحكمة » ، فأين هذا مِن الخطابة التى هو فيها نسيجُ وحده !

قلت : بل المناقضة ظاهرة ؛ لأنّ الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بدّ من نطقٍ ما ، فإذا لم تنطق الحكماء وجبَ أن يكون النطق لمن ليس من الحكماء ؛ فهو من الظَّلَمة ، فقد ثبت التناقض .

والمِسْحَل : المبرد . يقول : تنحت أهلَ البدْو وتسحتُهم كما يُسحَتُ الحديدُ أو الخشب بالمبرد . وأهل البدْو : أهلُ البادية ، ويجوز أن يريد بالمسْحَل الحلْقة التى فى طرَف شكيم اللّجام المعترضة بإزاء حَلْقة أخرى فى الطرف الآخر ، وتدخل إحداهما فى الأخرى ؛ بمعنى أنّ هذه الفتنة تصدم أهل البدْو بمقدمة جيشها كما يصدِمُ الفارسُ الراجل أمامه بمسْحَل لجام فرسه .

والكَلْكَل : الصدر . وترضّهم : تدقُّهم دقّاً جريشا .

قوله : «تضيع في غبارها الوُحْدان» ، جمع واحد ، مثل شابّ وشبّان ، وراعٍ ورُعيان ، ويجوز « الأُحدان » بالهمز ، أى مَنْ كان يسير وحده فإنه يهلك بالكلية في غبارها ، وأما إذا كانوا جماعة ركبانا فإنهم يضلّون ، وهو أقربُ من الهلاك ، ويجوز أن يكونَ الوُحدان جمع أوحد ؛ يقال : فلان أوحد الدّهر ، وهؤلاء الوُحدان أو الأحدان ، مثل أسود وسُودان ، أى يضلّ في هذه الفتنة ، وضلالها الذى كنّى عنه بالغبار فضلاء عصرِها وعلماء عهدها ؛ لغموض الشّبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها . ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أنّ الراكب الذى هو بمظنّة النّجاة لا ينجُو . والركْبان : جمع راكب ، ولا يكون إلا ذا بعير .

قوله : تَرِدُ بمُرّ القضاء ، أى بالبوار والهلاك والاستئصال .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة : إنها من القضاء ؟

قلت : نعم ، لا بمعنى الخلق بل بمعنى الإعلام ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ ﴾[1] أى أعلمناهم ، أى ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء إعلامه من المكلّفين أنها أمّ اللّهيم[2] التى لا تبقى ولا تذَر ، فذلك الإعلام هو المرّ الذى لا يبلغ الوصفُ مرارته ، لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذى لا مدفع عنه ولا محيص منه ، مرٌّ جدا .

قوله : « وتحلُب عَبيط الدماء » ، أى هذه الفتنة يحلُبها الحالب دما عبيطا ، وهذه كناية عن الحرب ، وقد قال عليه السلام في موضع آخر : « أما والله ليحلبنّها دما ، وليتبعنّها ندما » والعبيط . الدم الطريّ الخالص .

وثَلَمت الإناء ، أثلِمه بالكسر .

والأكياس : العقلاء .

---

(١) سورة الإسراء ٤ .

(٢) أم اللهيم : الداهية .

والأرجاس : جمع رِجْس ، وهو القَذَر والنّجس ، والمراد هاهنا الفاسقون ، فإمّا أن يكون على حذف المضاف ؛ أى ويدبّرها ذوو الأرجاس ، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسها ،⁽¹ لمّا كانوا قد أسرفوا فى الفسق ، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها¹⁾ كما يقال: رجل عَدْل ، ورجل رضا .

قوله : « مِرْعادٌ مبراقٍ » ، أى ذات وعيد وتهدّد ، ويجوز أن يعنى بالرّعد صوتَ السلاح وقعقعته ، وبالبرق لونَه وضوءه .

وكاشفة عن ساقٍ : عن شدّة ومشقة .

قوله : « بريئها سقيم » ؛ يمكن أن يعنى بها أنها لشدّتها لا يكاد الذى يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة ، بل لابدّ أن يستثنىَ شيئاً من الفسق والضلال ، أى لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلّفين حينئذ .

ويمكن أن يعنى به أنّ الهارب منها غير ناجٍ ، بل لابدّ أن يصيبه بعض معرّتها ومضرّتها .

وظاعنها مقيم ، أى ما يفارق الإنسان من أذاها وشرّها ؛ فكأنه غير مفارق له ، لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقابيل من شرورها وغوائلها .

***

الأصل

منها :

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ ، وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ .

(١ ـ ١) ساقط من ب .

وَالْزَمُوا ماعُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ . وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ ، وَلَا تُدْخِلوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ .

***

الشّرْحُ :

يقال : طُلَّ دم فلان فهو مطلول ، أى مُهدَر لا يُطْلَب به ، ويجوز أُطِلَّ دمُه ، وطلّه الله وأطلّه : أهدره ، ولا يقال : طَلَّ دم فلان بالفتح ، وأبو عبيدة والكسائىّ يقولانه .

ويختِلون : يخدعون بالأيمان التى يعقِدونها ويقسِمون بها ، وبالإيمان الذى يظهرونه ويقرّون به .

ثم قال : « فلا تكونوا أنصار الفِتَن ، وأعلام البدع » ، أى لا تكونوا ممن يشارُ إليكم فى البدعِ كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة ، وجاء فى الخبر المرفوع : « كُنْ فى الفتنة كابنِ اللَّبُون ، لا ظهرَ فيركب ، ولا ضرعٍ فيحلب » ، وهذه اللفظة يرويها كثير من النّاس لأمير المؤمنين عليه السلام .

قوله : « واقدَموا على الله مظلومين » ، جاء فى الخبر : « كُنْ عبدَ الله المقتول » .

ومدارج الشيطان : جمع مَدْرَجة ، وهى السبيل التى يدرج فيها . ومهابط العدوان : محالُّه التى يهبط فيها .

ولُعَق الحرام : جمع لُعقةٍ ، بالضمّ ، وهى اسم لما تأخذه الملعقة ، واللَّعقة ، بالفتح : المرّة الواحدة .

قوله : « فإنكم بعين من حَرّم » ، يقال : أنت بعين فلان ، أى أنت بمرأى منه ، وقد قال عليه السلام فى موضع آخر بصِفّين : « فإنّكم بعين الله ، ومع ابن عمّ رسول الله » ، وهذا من باب الاستعارة ، قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (١) ، وقال : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة طه ٣٩ .

(٢) سورة القمر ١٤ .

(١٥٢)

الأصْلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ ؛ لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ ، وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ .

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا ، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ . مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « كَيْفَ » فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « أَيْنَ » ، فَقَدْ حَيَّزَهُ ، عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ .

***

الشَّرْحُ :

[أبحاث كلامية]

فى هذا الفصل أبحاث :

أوّلها فى وجوده تعالى ، وإثبات أنّ للعالم صانعاً ؛ وهاتان طريقتان فى الدّلالة على وجوده الأول سبحانه :

إحداها : الطريقة المذكورة فى هذا الفصل ، وهى طريقة المتكلّمين ، وهى إثبات أنّ الأجسام محدَثة ، ولا بدّ للمحدَث من محدِث .

والثانية : إثبات وجوده تعالى من النظر فى نفس الوجود .

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين : واجب وممكن ، وكلّ ممكن لا بدّ أن ينتهىَ إلى الواجب ، لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه فى قوامه ؛ فلا بدّ من واجب يستند إليه ؛ وذلك الواجب الوجود الضرورىّ الذى لا بدّ منه ، هو الله تعالى .

وثانيها : إثبات أزليّته ؛ وبيانه ما ذكره فى هذا الفصل ؛ وهو أن العالَمَ مخلوق له سبحانه حادثٌ من جهته ، والمحدَث لا بدّ له من محدِث ، فإن كان ذلك المحدِث محدَثا ، عاد القول فيه كالقول فى الأول ، ويتسلسل ، فلا بدّ من محدِث قديم ؛ وذلك هو الله تعالى .

وثالثها : أنه لا شبيهَ له ، أى ليس بجسم كهذه الأجسام ، وبيانه ما ذكر أيضاً أنّ مخلوقاته متشابهة ، يعنى بذلك ما يريده المتكلّمون من قولهم : الأجسام متماثلة فى الجسمية ، وأنّ نوع الجسمية واحد ، أى لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته ، وإذا كانت [متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صحّ على الآخر ، فلو كان [له] سبحانه شبيهٌ منها ــ أى لو كان جسماً مثلها ــ لوجب أن يكون محدَثا كمثلها ، أو تكون قديمة مثله ؛ وكلاَ الأمرين محال .

ورابعها : أنّ المشاعر لا تستلمه ، وروى «لا تلمسه» ؛ والمشاعر الحواسّ ، وبيانه أنه تعالى ليس بجسم لما سبق ؛ وما ليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسةً له ؛ لأنّ إدراك المشاعر مدرَكاتِه مقصور على الأجسام وهيئاتها . والاستلام فى اللغة : لمس الحجر باليد وتقبيله ؛ ولا يهمز ، لأن أصله من السِّلام وهى (1) الحجارة ؛ كما يقال : استنوَق الجملُ ، وبعضهم يهمزه .

---

(1) ساقطة من د .

وخامسها : أنّ السواتر لا تحجبه ؛ وبيانه أنّ السواتر والحجب ؛ إنّما تحجب ما كان في جهة ؛ وذلك لأنها ذوات أين ووضع فلا نسبة لها ، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع .

ثم قال عليه السلام : «لافتراق الصانع والمصنوع» ، إشارة إلى أنّ المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك ؛ برىء عن الموادّ ، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة .

وسادسها : معنى قولنا : إنه أحد ، « أنّه ليس بمعنى العدد كما يقوله الناس: أوّل العدد أحد وواحد ، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزّؤ ؛ وباعتبار آخر كونه لا ثانيَ له في الربوبية .

وسابعها : أنّه خالق ، لا بمعنى الحركة والنَّصَب ، وهو التعب ؛ وذلك لأنّ الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساما تفعل بالآلات ، والبارئ سبحانه ليس بجسم ، ولا يفعل بالآلة ، بل كونه قادرا إنّما هو لذاته المقدّسة ، لا لأمرٍ زائد عليها ، فلم يكن فاعلا بالحركة .

وثامنها : أنّه سميع ، لا بأداة ؛ وذلك لأنّ حاجتنا إلى الحواسّ ، إنما كانت لأمرٍ يخصّنا ؛ وهو كوننا أحياء بحياة حالّة في أبعاضنا ، والبارئ تعالى حيّ لذاته ؛ فلم يحتج في كونه مدركا إلى الأداة والجارحة .

وتاسعها : أنه بصير لا بتفريق آلة ، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذى باعتباره يكون الواحد منّا مبصرا ، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون : إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هى الأشعّة ؛ وتكون آلة للحىّ في إبصار المبصَرات ، فيتفرّق عليها ، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصَرا ، والبارئ تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك ، ويتفرّق على المرئيات

فيدركها به ؛ وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته ؛ لا بمعنًى ، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدرَكات .

وعاشرها : أنّه الشاهد لا بمماسّة ؛ وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود ؛ ألا ترى أنّ مَنْ فى الصين لا يكون شاهدا مَنْ فى المغرب ؛ لأنّ الحضور الجسمانىّ يفتقر إلى القرب ، والقرب من لوازم الجسمية ، فما ليس بجسم ـ وهو عالم بكلّ شىء ـ يكون شاهدا من غير قرب ولا مماسّة ، ولا أين مطلوب .

وحادى عشرها : أنّه البائن لا بتراخى مسافة ببينونة المفارق عن المادّة بينونة ليست أينيّة ، لأنه لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخر بالجهة ؛ فلا جرَم كان البارئ تعالى مباينا عن العالم ، لا بمسافة بين الذاتين .

وثانى عشرها : أنّه الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ؛ وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئيا بالبصر ، والباطن منها ما كان لطيفا جدا ؛ إما لصغره أو لشفافيّته ، والبارئ تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار ، باطن ؛ أى غير مدرك بالحواسّ لأن ذاته لا تقبل المدركيّة إلّا من حيث كان لَطيف الحجم أو شفّاف الجرم .

وثالث عشرها : أنّه قال : بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه[1] بالخضوع له ، والرجوع إليه ؛ هذا هو معنى قول المتكلّمين والحكماء ، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنه واجب الوجود لذاته ، والأشياء كلّها ممكنة الوجود[2] بذواتها ، فكلّها محتاجة إليه ، لأنها لا وجود لها إلّا به ؛ وهذا هو معنى خضوعها له ، ورجوعها إليه . وهو سبحانه غنىّ عن كلّ شىء ؛ ومؤثّر فى كلّ شىء ؛ إمّا بنفسه ، أو بأن يكون مؤثّرا فيما هو مؤثّر فى ذلك الشىء ، كأفعالنا ، فإنه يؤثر فينا ؛ ونحن نؤثر فيها ، فإذا هو قاهر لكلّ شىء ، وقادر على كلّ شىء . فهذه هى البينونة بينه وبين الأشياء كلّها .

(١) ج : « عنه » .
(٢) ساقطة من د .

ورابع عشرها : أنه لا صفة له زائدة على ذاته ؛ ونعنى بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته ؛ وذلك لأنّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدّه ، ومن حَدّه فقد عدّه ، ومن عَدّه فقد أبطل أزله ، وهذا كلام غامض ، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علما قديما أو قدرة قديمةً ، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلوماتٍ محدودة ، أى محصورة ، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدُودة ؛ وهذه المقدّمة فى كُتُب أصحابنا المتكلّمين مما يذكرونه فى تقرير أنّ العلم الواحد لا يتعلّق بمعلومَين ، وأنّ القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلّق فى الوقت الواحد من الجنس الواحد فى المحلّ الواحد إلاّ بجزء واحد ؛ وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدَثين ، فإنّ هذا الحكم لازم لهما ، فقد ثبت أنّ مَنْ أثبت المعانى القديمة فقد أثبت البارئ تعالى محدود العالمية والقادريّة ، ومن قال بذلك فقد عدّه ، أى جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات ، ومَنْ قال بذلك ؛ فقد أبطل أزله ، لأن كلّ ذات مماثلة لهذه الذوات المحدَثة ؛ فإنها محدثة مثلها ، والمحدث لا يكون أزليا .

وخامس عشرها : أنّ من قال : « كيف » ، فقد استوصَفه ، أى مَنْ قال لزيد : كيف الله ؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفيّة من الكيفيات ، والبارئ تعالى لا تجوز الكيفيّات عليه ، والكيفيّات هى الألوان والطعوم ونحوها ، والأشكال والمعانى وما يجرى مَجْرَى ذلك ؛ وكلّ هذا لا يجوز إلا على الأجسام .

فإن قلت : ينبغى أن يقول : « فقد وصفه » ، ولا يقال : « فقد استوصفه » ؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله ؛ وإنما استوصف صاحبه الذى سأله عن كيفيّةِ الله .

قلت : « استوصف » ها هنا بمعنى « وصف » ؛ كقولك : استغنى زيد عن عمرو ، أى غَنِيَ عنه ، واستعلى عليه ، أى علا ، ومثله كثير .

وسادس عشرها : أنّ من قال : « أين » فقد حيّزه ، لأنّ « أين » سؤال عن المكان ، وليس الله تعالى فى مكان ، ويأتى أنه فى كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة .

وسابع عشرها : أنه عالم إذ لا معلوم ، ورب إذ لا مربوب ، وقادر إذ لا مقدور ، وكل هذا صحيح ومدلول عليه ، لأنه عالم فيما لم يزل وليس شىء من الأشياء بموجود ، وهو رب كل شىء قبل أن يخلقه ، كما تقول إنه سميع بصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصرات ، أى قبل أن يخلقها ، وقادر على الأشياء قبل كونها ، لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة ، لاستحالة إيجاد الموجود .

وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية فى كتبنا المصنفة فى علم الكلام .

***

الأصْلُ

منها :

قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لَامِعٌ ؛ وَلَاحَ لَائِحٌ ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً ، وَبِيَوْمٍ يَوْماً ؛ وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ ، انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ .

وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ ، اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ وَبَيَّنَ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ ، وَبَاطِنِ حُكْمٍ ؛ لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ .

فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلا بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَفِي ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي .

***

الشرح :

هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه .

قد طلع طالع ، يعنى عَوْد الخلافة إليه ، وكذلك قوله : « ولمع لامع ، ولاح لائح » ؛ كلّ هذا يراد به معنًى واحد .

واعتدل مائل ، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج فى أواخر أيام عثمان ، واستبدل الله بعثمان وشيعته عليًّا وشيعتَه ، وبأيام ذاك أيام هذا .

ثم قال : « وانتظرنا الغِيَر انتظار المجدب المطر » ؛ وهذا الكلام يدلّ على أنّه قد كان يتربّص بعثمان الدوائر ، ويرتقب حلول الخطوب بساحتهِ ، لِيَلِيَ الخلافة .

فإن قلت : أليس هو الذى طلّق الدنيا ، فأين هذا القول من طلاقها ؟

قلت : إنه طلّق الدنيا أن يقبل[1] منها حظا دنيويًّا ، ولم يطلقها ، أن ينهى فيها عن المنكرات التى أمره الله تعالى بالنهى عنها ، ويقيم فيها الدين الذى أمره الله بإقامته ، ولا سبيل له إلى النّهى عن المنكَر والأمر بالمعروف إلّا بولاية الخلافة .

* * *

[عقيدة علىّ فى عثمان ورأى المعتزلة فى ذلك]

فإن قلت : أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال : إنه عليه السلام كان ينتظر قتلَ عثمان ، انتظار المجدِب المطر ، وهل هذا إلّا محض مذهب الشيعة !

قلت : إنه عليه السلام لم يقل : « وانتظرنا قتله » وإنما انتظر الغيَر ، فيجوز أن يكون أراد انتظار خلعه وعزله عن الخلافة ، فإنّ عليا عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه ، ولم يستحقّ القتل ، وهذا الكلام إذا حُمِل على انتظار الخلع كان موافقا لمذهب أصحابنا .

(١) د : « ينال » .

فإن قلت : أتقول المعتزلة إنّ عليا كان يذهب إلى فسق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟

قلت : كلّا ! حاش لله أن تقولَ المعتزلة ذلك ! وإنما تقول إنّ عليا كان يرى أنّ عثمان يضعف عن تدبير الخلافة ، وأنّ أهله غلبُوا عليه ، واستبدّوا بالأمر دونه ، واستعجزه المسلمون ، واستسقطوا رأيه ، فصار حكمه حكم الإمام إذا عَمِيَ ، أو أسره العدوّ ، فإنه ينخلِع من الإمامة .

***

ثم قال عليه السلام : « الأئمة قوّام الله على خلقه » ، أى يقومون بمصالحهم ، وقيّم المنزل : هو المدّبر له .

قال : « وعرفاؤه على عباده » : جمع عريف ، وهو النقيب والرئيس ، يقال : عرُف فلان بالضمّ عرافةً بالفتح ، مثل خَطُب خطابة أى صار عريفا ، وإذا أردت أنه عمِل ذلك قلت : عرَف فلان علينا سنين ، يعرُف عِرافة بالكسر ، مثل كَتبَ يكتبُ كِتابة .

قال : « ولا يدخل الجنةَ إلا مَنْ عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النّارَ إلا مَنْ أنكرهم وأنكروه » ، هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ندْعُو كلّ أُنَاسٍ بإمامِهِمْ ﴾[1] ، قال المفسّرون : ينادى فى الموقف : يا أتباعَ فلان ، ويا أصحاب فلان ، فينادَى كلّ قوم باسم إمامهم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : لا يدخل الجنةَ يومئذٍ إلا مَنْ كان فى الدّنيا عارفا بإمامه ، ومَنْ يعرفه إمامه فى الآخرة ، فإنّ الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة ، وإن لم يكونوا رأوْهم فى الدنيا ، كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يشهد[2] للمسلمين وعليهم ، وإن لم يكنْ رأى أكثرَهم ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمةٍ بشهيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاء شَهيداً ﴾[3] وجاء فى الخبر

---

(١) سورة الإسراء ٧١ .
(٢) ب : « شهد » .
(٣) سورة النساء ٤١ .

المرفوع : « مَنْ مات بغير إمام مات مِيتة جاهلية » ، وأصحابنا كافّة قائلون بصحّة هذه القضيّة ؛ وهى أنه لا يدخل الجنّة إلا من عرَف الأئمة ؛ ألا تَرَى أنهم يقولون : الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلان وفلان ، ويعدّونهم واحدا واحدا ، فلو أنّ إنسانا لا يقول بذلك ؛ لكان عندهم فاسقا ، والفاسق لا يدخل الجنّة عندهم أبدا ، أعنى مَنْ مات على فسقه . فقد ثبت أنّ هذه القضية ، وهى قوله : عليه السلام : « لا يدخل الجنّة إلّا مَنْ عرفهم » قضيّة صحيحة على مذهب المعتزلة ، وليس قوله : « وعرفوه » بمنكَر عند أصحابنا ؛ إذا فسرنا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات ، وهو ما ذكرناه .

وبقيت القضيّة الثانية ففيها الأشكال ، وهى قوله عليه السلام : « ولا يدخل النّار إلّا مَنْ أنكرهم وأنكروه » ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم ؛ مثل أن يكون إنسان يعتقد صحّة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة ، ثم يزنى أو يشربُ الخمر من غير توبة ، فإنه يدخل النار ؛ وليس بمنكر للأئمة ؛ فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال !

فالجواب أن الواو فى قوله « وأنكروه » بمعنى « أو » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[١] فالإنسان المفروض فى السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلّا أنّهم ينكرونه ، أى يسخطون يوم القيامة أفعاله ، يقال : أنكرت فعل فلان أى كرهته ؛ فهذا هو تأويل الكلام على مذهبنا ، فأمّا الإمامية فإنّهم يحملون ذلك على تأويل آخر ، ويفسرون قوله : « ولا يدخل النار » ، فيقولون : أراد ولا يدخل النار دخولا مؤبدا إلا من ينكرهم وينكرونه .

---

(١) سورة النساء ٣ .

ثم ذكر عليه السلام شرفَ الإسلام ، وقال : إنه مشتقّ من السّلامة ، وإنه جامع للكرامة ، وإنّ الله قد بين حججه ، أى الأدلة على صحّته .

ثم بين ما هذه الأدلة ، فقال : « من ظاهر علم ، وباطن حكم » أى حكمه ، فـ « مِن » ها هنا للتبيين والتفسير ؛ كما تقول : دفعت إليه سلاحا من سيف ورمح وسهم ؛ ويعنى بظاهر عِلم وباطن حكم ، والقرآن ، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن ؛ من قوله : « لا تفنى عزائمه » أى آياته المحكمة . و « براهينه العازمة » أى القاطعة ولا تنقضى عجائبه ؛ لأنّه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفر غرائبَ عجائب لم تكن عنده من قبل .

« فيه مرابيع النّعم » ؛المرابيع الأمطار التى تجىء فى أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلأ ، وكذلك تدبّر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها .

قوله : « قد أحمى حماه ، وأرعى مرعاه » ، الضمير فى «أحمى» يرجع إلى الله تعالى ، أى قد أحمى الله حماه ، أى عرّضه لأن يحمَى ، كما تقول : أقتلت الرجل ، أى عرّضته لأن يقتل. وأضربته ، أى عرّضته لأن يضرب ؛ أى قد عرّض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكّن منها ، وعرّض مَرْاعاه لأن يُرْعى ، أى مكّن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربى مبين ، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه فى أكثره على أدلة العقل .

(١٥٣)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ ، بِلاَ سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ .

***

الشَّـرْحُ :

يصف إنسانا من أهل الضلال غير معيّن ؛ بل كما تقول: رحم الله أمرأ اتقى ربه وخاف ذنبه ، وبئس الرجل رجل قلّ حياؤه ، وعدم وفاؤه ؛ ولست تعنى رجلا بعينه .

ويهوى : يسقط . والسبيل القاصد : الطريق المؤدية إلى المطلوب .

والإمام : إمّا الخليفة، وإما الأستاذ؛ أو الدين، أو الكتاب؛ على كلّ من هؤلاء تطلق هذه اللفظة .

***

الأصْـلُ :

منها :

حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلا ؛ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ .

وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي ، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي ، وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ .

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ؛ وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ . وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ ؛ وَاذْكُرْ قَبْرَكَ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ ؛ وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ ؛ وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً ؛ فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ . فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ ! ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1] .

***

الشرح :

فاعل « كشف » هو الله تعالى ، وقد كان سبق ذكره فى الكلام ، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب ؛ فقد ورد فى الخبر الصحيح أنه : « لا يموت ميّت حتى يرى مقرّه من جنّة أو نار » .

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا ؛ سمّى ذلك عليه السلام استخراجا لهم من جلابيب غفلتهم ، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول فى لباسٍ نُزِع عنهم .

قال : « استقبلوا مدبراً » ، أى استقبلوا أمراً كان فى ظنّهم واعتقادهم مدبراً عنهم ؛ وهو الشقاء والعذاب . « واستدبروا مقبلا » تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خُوِّلوه من الأولاد والأموال والنّعم ، وفى قوة هذا الكلام أن يقول : عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه :

---

(1) سورة الفاطر ١٤ .

وروى : « أحذّركم ونفسى هذه المزلّة » مفعلة ، من الزّلل ، وفى قوله : « ونفسى » لطافة رشيقة ؛ وذلك لأنه طَيّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم فى هـذا التحذير ، ليـكونوا إلى الانقياد له أقربَ ، وعن الإباء والنُّفرة أبعد ؛ بطريق جَدَدٍ لاحب .

والمهاوى : جمع مَهْواة ؛ وهى الهوّة يتردّى فيها .

والمغاوى : جمع مَغْواة ، وهى الشبهة التى يغوَى بها النّاس ، أى يضلّون .

يصف الأمور التى يُمِين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه ، وهى أن يتعسّف فى حقّ يقوله ، أو يأمرُ به ، فإنّ الرفق أنجح ، وأن يحرّف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيرا ، وأن يتخوف من الصدق فى ذات الله ، قال سبحانه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [1] ، فذمّ من لا يصدق ويجاهد فى الحقّ .

قوله : « واختصِرْ من عجلتك » ، أى لا تـكن عَجَلتك كثيرة ، بل إذا كانت لا بدّ عجلة فلتـكن شيئا يسيرا .

وتقول : أنعمت النظر فى كذا ، أى دقّقتُه ، من قولك : أنعمت سَحْق الحجر ، وقيل : إنه مقلوب « أمعن » .

والنبى الأُمّىّ : إمّا الذى لا يحسن الـكتابة ، أو المنسوب إلى أمّ القرى ؛ وهى مكّة .

ولا محيص عنـه : لا مفرّ ولا مهرب ، حاص ؛ أى تخلّص من أمر كان نشب فيه .

قوله : « فإن عليه ممرّك » أى ليس القبر بدار مقـام ، وإنمـا هو ممرّ وطريق إلى الآخرة .

---

(١) سورة النساء ٧٧ .

و كما تدين تدان ، أى كما تجازى غيرك تجازَى بفعلك وبحسب ماعملت ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ (١) أى مجزيُّون ؛ ومنه الديّان فى صفة الله تعالى .

قوله : « وكما تزرع تحصد » معنى قد قاله النّاس بعده كثيرا ، قال الشاعر :

إذا أنتَ لم تَزرَعْ وأدركْتَ حاصِداً ندمت على التقصير فى زمن البذر

ومن أمثالهم : « من زرع شرا حصد ندما » .

فامهد لنفسك : أى سوّ ووَطِّئ .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢) من القرآن العزيز ، أى ولا يخبرك بالأمور أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها .

***

الأَصْلُ :

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ ؛ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْداً — وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ — أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ ؛ أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ؛ أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ، أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ . اعْقِلْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ .

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا .

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

***

(١) سورة الصافات ٥٣ .

(٢) سورة فاطر ١٤ .

الشرح:

عزائم الله، هى موجباته والأمر المقطوع عليه، الذى لا ريبَ فيه ولا شبهة ، قال عليه السلام : إنّ من الأمور التى نصّ الله تعالى عليها نصًّا لا يحتمل التأويل – وهى من العزائم التى يقطع بها، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها – أنّ مَنْ مات وهو على ذنبٍ من هذه الذنوب[1] المذكورة – ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله : « لم يتب » إلاّ أنه ذكر ذلك تأكيدا وزيادة فى الإيضاح[2] – فإنّه لا ينفعه فعل شىء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة؛ ولا تفيدُه العبادة؛ ولو أجهد نفسه فيها؛ بل يكون من أهل النار.

والذنوب المذكورة هى أنْ يتّخذ مع الله إلها آخر فيشرِكه فى العبادة ، أو يقتل إنسانا بغير حقّ، بل ليشفى غيظه، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو.

عرّه بكذا يعرّه عرًّا، أى عابه ولطّخه ، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة فى الدين ؛ كما يفعل أكثرُ النّاس فى زماننا ، أو يكون ذا وَجْهين ؛ وهو أيضا قوله : « أو يمشى فيهم بلسانين » ؛ وإنما أعاده تأكيدا.

* * *

لمـا نصب معاويه ابنَه يزيد لوِلاية العهد ، أقعده فى قبّة حمراء ، وأدخل النّاس يسلّمون على معاوية، ثم يميلون إلى قُبّة يزيد ، فيسلّمون عليه بولاية العهد ؛ حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إنك لولم تولّ هذا أمورَ المسلمينَ لأضعتَها؛ وكان الأحنف جالساً ، فلما خَفّ الناس ، قال معاوية : ما بالُك لا تقول يا أبا بحر ! قال : أخافُ الله إن كذبتُك ، وأخافك إنْ صدقتك ؛ فماذا أقول ! فقال : جَزاك الله عن الطّاعة خيرا ، وأمر له بصِلَةٍ جزيلة . فلما خرَج لقيَه ذلك الرّجل بالباب ، فقال : يا أبا بَحْر ، إنّى لأعلمُ أنّ شرّ مَنْ خلَق اللهُ هذا الرّجل ؛ ولكنّ هؤلاء

(١) ساقطة من ب.
(٢) ا ، ج : « زيادة الإيضاح ».

قد استوثقُوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعتَ

فقال : يا هذا أمسِكْ عليك ؛ فإنّ ذَا الوجهين خليق ألّا يكون وجيهاً عند الله غدا .

***

ثم أمرَ عليه السلام بأن يعقَل ما قاله ، ويعلَمَ باطن خطابه ؛ وإنما رمَزَ بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل ، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين ، وعَزَوْه[1] عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحصْرُه ، واستنجحوا حاجتهم إلى أهلِ البصرة بإظهار البدعة والفتنة ، ولقُوا الناس بوجهين ولسانين ؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به ، ثم دَبّوا له الخمَرَ[2] ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشِّرك بالله سبحانه ؛ فى أنها لا تُغفَرَ إلا بالتوبة ، وهذا هو معنى قوله : « اعقل ذلك » فإنّ المِثلَ دليل على شبهه . ورُوِى « فإنّ المَثل » واحد الأمثال ، أى هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عامّ ؛ والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه .

فإن قلتَ : فهذا تصريحٌ بمذهب الإمامية فى طلحة والزبير وعائشة .

قلت : كلاّ ، فإنّ هذه الخطبة خَطب بها وهو سائر إلى البصرة ، ولم تقع الحرب إلّا بعد تعدّد الكبائر ، ورَمز فيها إلى المذكورين ، وقال : « إن لم يتوبوا » ؛ وقد ثبت أنهم تابوا ، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة .

ثم أراد عليه السلام أن يومئ إلى ذكر النّساء للحال التى كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بامرأة ؛ فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان ، تمهيداً لقاعدة ذِكر النساء ، فقال : إنّ البهائم همّها بطونها ، كالحمر والبقر والإبل الغنم ، وإنّ السّباع همّها العدوان

(١) عزوه : سبوه .

(٢) أخمر القوم ؛ إذا تواروا بالخمر ؛ ويقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر .

عَلَى غيرها ؛ كالأسود الضارية والنمور والفهود والبُزاة والصقور . ثم قال : وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

نظر حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة عَلَى شَجرة ، فقال : ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثمرة .

ومرّت امرأة بسُقراط وهو يتشرّق فى الشمس ، فقالت : ما أقبحك أيها الشيخ ! فقال : لو أنكنّ من المرائى الصدئة لغمّنى ما بان من قبح صورتى فيكنّ .

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة ، فقال : سهم يسقَى سمًّا ليرمى به يوما ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمِل نارا ، فقال : نار عَلَى نار ؛ والحامل شرٌّ من المحمول .

وقيل لسقراط : أىّ السباع أحسن ؟ قال : المرأة .

وتزوّج بعضهم امرأة نحيفة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

ورأى بعضُ الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السَّيل ، فقال : زادتِ الكَدَر كَدَرا ، والشرّ بالشر يهلك .

***

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن ، فقال : إنّ المؤمنين مستكينون ؛ استكان الرجلُ ، أى خَضَع وذلّ .

إنّ المؤمنين مشفقون ، التقوى رأس الإيمان كما ورد فى الخبر .

ثم قال : « إن المؤمنين خائفون » ؛ هو الأول وإنما أكّده ، والتأكيد مطلوب فى باب الخطابة .

(١٥٤)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ .

دَاعٍ دَعَا ، وَرَاعٍ رَعَى ؛ فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ .

* * *

الشَّرحُ :

يقول : إنّ قلب اللبيب له عين يبصر بها غايتَه التى يجرى إليها ، ويعرف من أحواله المستقبَلة ما كان مرتفعا أو منخفضا ساقطا . والنَّجْد:المرتفع من الأرض ، ومنه قولهم للعالم بالأمور : « طَلَّاع أنجُد » .

ثم قال : « داعٍ دعا » ؛ موضع « داعٍ » رفع ، لأنه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره: « فى الوجود داعٍ دعا ، وراعٍ رعى » ؛ ويعنى بالدّاعى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبالراعى نفسَه عليه السلام .

* * *

الأصلُ :

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ؛ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ .

نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا .

الشرح :

هذا كلام متّصل بكلام لم يحكِه الرضيّ رحمه الله ؛ وهو ذكر قوم من أهل الضّلال قد كان أخذ فى ذمّهم ، ونَعَى عليهم عيوبهم .

وأرزَ المؤمنون : أى انقبضوا ؛ والمضارع «يأرِز» بالكسر أرْزا وأروزا ، ورجل أرُوَز أى منقبض ، وفى الحديث : « إنّ الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيّة إلى جُحْرها » (١) ؛ أى ينضمّ إليها ويجتمع .

ثم قال : « نحن الشّعار والأصحاب » ؛ يشير إلى نفسه ، وهو أبدا يأتى بلفظ الجمع ومراده الواحد .

والشّعار : ما يلى الجسد من الثيابِ ، فهو أقرب من سائرها إليه ؛ ومراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وآله .

والخَزَنَةُ والأبواب ؛ يمكن أن يعنى به خزَنة العلم وأبواب العلم ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها ، فمن أرادَ الحكمة فليأتِ الباب » . وقوله فيه : « خازن علمى » وقال تارة أخرى : « عَيْبة عِلْمى » . ويمكن أن يريد خزنة الجنّة وأبواب الجنة ، أى لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافَى بولايتنا ؛ فقد جاء فى حقه الخبر الشائع المستفيض : إنه قَسِيم النار والجنة ، وذكر أبو عبيد الهروىّ فى " الجمع بين الغريبين " ، أنّ قوماً من أئمة العربية فسّرُوه فقالوا : لأنه لما كان مُحِبُّهُ من أهل الجنة ، ومبغِضهُ من أهل النّار ؛ كأنّه بهذا الاعتبار قسيمُ النار والجنة . قال أبو عبيد : وقال غير هؤلاء : بلْ هو قسيمها بنفسه فى الحقيقة ؛ يدخِل قوما إلى الجنة ، وقوما إلى النار ؛ وهذا الذى ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه ، يقول للنار : هذا لى فدعيه ، وهذا لك فخذيه .

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتَى إلّا من أبوابها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٤ .

الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (١) .

ثم قال : مَنْ أتاها من غير أبوابها سُمّى سارقا ، وهذا حقّ ظاهرا وباطنا ؛ أمّا الظاهر فلأنّ مَنْ يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق ، وأمّا الباطن فلأنّ مَنْ طلَب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأتِه من بابه ؛ فهو أشبه شىء بالسارق .

* * *

[ذكر الأحاديث والأخبار الواردة فى فضائل علىّ]

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخرَ بنفسه ، وبالغ فى تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته؛ التى آتاه الله تعالى إياها ، واختصّه بها، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة ؛ لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه فى أمره ؛ ولستُ أعنى بذلك الأخبارَ العامّة الشائعة التى يحتجّ بها الإماميّة على إمامته ، كخبر الغدير ، والمنزلة ، وقصّة براءة ، وخبر المناجاة ، وقصّة خيبر ، وخبر الدار بمكة فى ابتداء الدعوة ؛ ونحو ذلك ؛ بل الأخبار الخاصّة التى رواها فيه أئمة الحديث ، التى لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره ؛ وأنا أذكر من ذلك شيئا يسيرا مما رواه علماء الحديث الذين لا يُتّهمون فيه ، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه ، فروايتهم فضائلَه توجب من سكونِ النفس مالا يوجبه رواية غيرهم .

* * *

الخبر الأول : « ياعلىّ ، إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها ، هى زينة الأبرار عند الله تعالى ، الزّهد فى الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً (٢) ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ؛ ووهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ؛ ويرضون بك إماما » .

---

(١) سورة البقرة ١٧٧

(٢) ترزأ : تأخذ .

رواه أبو نعيم الحافظ فى كتابه المعروف بـ " حلية الأولياء " وزاد فيه أبو عبدالله أحمد بن حنبل فى " المسند " : « فطوبى َ لمن أحبّك وصدق فيك ، وويلٌ لمن أبغضك وكذّب فيك ! » .

***

الخبر الثانى: قال لوفد ثَقيف : « لتُسْلِمُنَّ ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا منّى — أوقال: عديل نفسى — فليضربنّ أعناقكم ، وليَسبِينّ ذراريّكم ، وليأخذنّ أموالكم » . قال عمر: فما تمنّيت الإمارة إلّا يومئذ ، وجعلتُ أنصِب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا . فالتفت فأخذ بيد علىّ وقال : « هو هذا ! » ، مرتين .

رواه أحمد فى " المسند " ؛ ورواه فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام ، أنّه قال: « لتنتهُنّ يابنى وليعة[1] ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا كنفسى ، يُمضِى فيكم أمرى . يقتل المقاتلة ، ويسبى الذّرّيّة » . قال أبو ذرّ : فما راعنى إلّا برْد كفّ عمر فى حُجْزتى[2] من خلْفى ، يقول : مَنْ تراه يعنى ؟ فقلت : إنه لا يَعنيك ، وإنّما يعنى خاصفَ النعل ، وإنه قال : « هو هذا » .

***

الخبر الثالث : « إنّ الله عَهِد إلىّ فى علىّ عهداً ، فقلت: يارب بيّنه لى ، قال: اسمع ، إنّ عليّاً رايةُ الهدى ، وإمامُ أوليائى ، ونورُ من أطاعنى ، وهو الكلمة التى ألزمتُها المتقين ؛ مَنْ أحبّه فقد أحبّنى ، ومن أطاعه فقد أطاعنى ؛ فبشّره بذلك . فقلت : قد بشرته يارب . فقال : أنا عبد الله وفى قبضته ؛ فإن يعذّبنى فبذنوبى لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لى ماوعدنى فهو أولى ؛ وقد دعوت له فقلت : اللهمّ اجْلُ قلبَه ، واجعلْ ربيعَه الإيمان بك . قال : قد فعلت ذلك ، غيرأنى مختصّه بشىء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائى ، فقلت : ربّ ، أخى وصاحبى ! قال : إنّه سبق فى علمى : إنّه لمبتلٍ ومبتلًى » .

---

(١) بنو وليعة : حى فى كندة .

(٢) الحجزة : موضع الإزار .

ذكره أبو نعيم الحافظ فى "حلية الأولياء" عن أبى برزة الأسلمى، ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك: «إن رب العالمين عهد فى على إلى عهداً؛ إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائى، ونور جميع من أطاعنى. إن علياً أمينى غداً فى القيامة، وصاحب رايتى، بيد على مفاتيح خزائن رحمة ربى».

* * *

الخبر الرابع: «من أراد أن ينظر إلى نوح فى عزمه، وإلى آدم فى علمه، وإلى إبراهيم فى حلمه، وإلى موسى فى فطنته، وإلى عيسى فى زهده، فلينظر إلى على بن أبى طالب».

رواه أحمد بن حنبل فى "المسند"، ورواه أحمد البيهقى فى صحيحه.

* * *

الخبر الخامس: «من سره أن يحيا حياتى، ويموت ميتتى؛ ويتمسك بالقضيب من الياقوتة التى خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كونى فكانت؛ فليتمسك بولاء على بن أبى طالب».

ذكره أبو نعيم الحافظ فى كتاب "حلية الأولياء" ورواه أبو عبد الله بن حنبل فى "المسند"، فى كتاب فضائل على بن أبى طالب، وحكاية لفظ أحمد رضى الله عنه: «من أحب أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذى غرسه الله فى جنة عدن بيمينه، فليتمسك بحب على بن أبى طالب».

الخبر السادس: «والذى نفسى بيده، لولا أن تقول طوائف من أمتى فيك ما قالت النصارى فى ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالا: لا تمر بملأ من المسلمين إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة.

ذكره أبو عبدالله أحمد بن حنبل فى "المسند".

* * *

الخبر السابع: خرج صلى الله عليه وآله على الحجيج عشية عرفة، فقال لهم: إن الله قد

باهَى بكم الملائــكةَ عامّة ، وغفر لــكم عامّة ، وباهَى بعلىّ خاصة ، وغفر له خاصة . إنى قائل لــكم قولًا غير محابٍ فيه لقرابتى ؛ إن السعيد كلّ السّعيد حقّ السعيد مَنْ أحبّ عليًا فى حياته وبعد موته » .

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبــل فى كتــاب فضائل على عليــه السلام ، وفى " المسند " أيضاً .

***

الخبر الثامن : رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى الــكتابين المذكورين : « أنا أوّل مَنْ يُدعى به يوم القيامة ؛ فأقوم عن يمين العرش فى ظلّه ، ثم أكسى حلّة ، ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض ؛ فيقومون عن يمين العرش ويــكسَوْن حُللًا ، ثم يدعى بعلىّ ابن أبى طالب لقرابته منّى ومنزلته عندى ، ويدفع إليه لوائى لواء الحمد ، آدم ومَنْ دونه تحت ذلك اللواء » . ثم قال لعلىّ : « فتسير به حتى تقف بينى وبين إبراهيم الخليل ، ثم تــكسى حلّة ، وينادِى منادٍ من العرش : نعم العبدُ أبوك إبراهيم ، ونعم الأخ أخوك على ! أبشر فإنك تُدْعَى إذا دعيت ، وتُــكْسَى إذا كسيت ، وتحيًّا إذا حيِّيت » .

***

الخبر التاسع : « يا أنس ، اسكب لى وضوءًا » ، ثم قام فصلّى ركعتين ، ثم قال : « أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين ، وسيّد المسلمين ، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين » . قال أنس : فقلت : اللهمّ اجعله رجلًا من الأنصار ، وكتبت دعوتى ، فجاء علىّ ، فقال : صلى الله عليــه وسلّم : « مَنْ جاء يا أنس » ؟ فقلت : علىّ ؛ فقام إليه مستبشرا ، فاعتنقه ، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه . فقال علىّ : يارسول الله ، صلّى الله عليك وآلك ؛ لقد رأيت منك اليوم تصنع بى شيئًا ما صنعته بى قبل ! قال : « وما يمنعنى وأنت تؤدّى عنى ، وتسمعُهم صوتى ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى ! » .

رواه أبو نعيم الحافظ فى " حلية الأولياء " .

***

الخبر العاشر : « ادعُوا لى سيّدَ العرب عليًّا » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب؟ فقال: « أنا سيّد ولد آدم،وعلىّ سيّد العرب »؛فلما جاءأرسل إلى الأنصار،فأتوه،فقال لهم: «يامعشرَ الأنصار،ألا أدلكم على ما إن تمسّكتم بهلن تضلّوا أبدا» قالوا:بلى يارسول الله، قال: « هذا علىّ ؛ فأحبّوه بحبّى،وأكرِموه بكرامتى؛فإنّ جبرائيل أمرنى بالّذى قلت لكم عن الله عزّ وجلّ » .

رواه الحافظ أبو نعيم فى ” حلية الأولياء “ .

***

الخبر الحادى عشر : «مرحبًا بسيّد المؤمنين؛وإمام المتقين» ! فقيل لعلىّ عليه السلام: كيف شكرُك ؟ فقال : أحمد الله على ما آتانى ، وأسأله الشُكر على ما أولانى ، وأنْ يزيدَنى مما أعطانى .

ذكره صاحب ” الحلية “ أيضاً .

***

الخبر الثانى عشر : « مَنْ سرّه أن يحيا حياتى ، ويموت مماتى ، ويسكنَ جنّة عدن التى غرسها ربّى ، فليوالِ عليًّا من بعدِى ، وليوال وليّه ، وليقتد بالأئمة من بعدى،فإنّهم عِترَتى ، خلقُوا من طينتى، ورزقوا فهماً وعلما.فويل للمكذبين من أمتى ! القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهمُ الله شفاعتى » .

ذكره صاحب ” الحلية “ أيضاً .

***

الخبر الثالث عشر : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد فى سريّة ، وبعث عليًّا عليه السلام فى سريّة أخرى ،وكلاهما إلى اليمن،وقال : « إن اجتمعتما فعلىّ عَلَى الناس ، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما على جُنده » ، فاجتمعوا وأغاروا وسبيا نساء ، وأخذا أموالا ، وقتلا ناسا ، وأخذ علىّ جارية فاختصّها لنفسه ، فقال خالد لأربعة من المسلمين ؛ منهم بُريدة الأسلمىّ: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فاذكروا له كذا،واذكروا

له كذا ، لأمور عدّدها على عليّ ، فسبقوا إليه ، فجاء واحد من جانبه ، فقال: إنّ عليًّا فعل كذا ، فأعرَض عنه ، فجاء الآخر من الجانب الآخر ، فقال : إنّ عليا فعل كذا ، فأعرَض عنه فجاء بُريدة الأسلمى فقال : يارسول الله ، إنّ عليا فعل ذلك ، فأخذ جاريةً لنفسه ، فغضب صلى الله عليه وآله ، حتى احمرّ وجهه ، وقال : «دَعُوا لى عليًّا !» ، يكررها ، «إنّ عليا مِنّى وأنا مِنْ علىّ ، وإنّ حظه فى الخمس أكثر مما أخذ ؛ وهو ولىّ كلّ مؤمن من بعدى » .

رواه أبو عبد الله أحمد فى "المسند" غير مرة ، ورواه فى كتاب فضائل علىّ ، ورواه أكثر المحدّثين .

***

الخبر الرابع عشر : « كنت أنا وعلىّ نوراً بين يدى الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام ، فلما خَلَق آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزأين ، فجزء أنا ، وجزء علىّ » .

رواه أحمد فى "المسند" وفى كتاب فضائل على عليه السلام ، وذكره صاحب كتاب الفردوس ، وزاد فيه : « ثمّ انتقلنا حتى صرنا فى عبد المطلب ، فكان لى النبوّة ولعلىّ الوصية » .

***

الخبر الخامس عشر : « النّظر إلى وجهك ياعلىّ عبادة ، أنت سيّد فى الدنيا وسيّد فى الآخرة ، مَنْ أحبّك أحبّنى . وحبيبى حبيب الله ، وعدوّك عدوّى وعدوّى عدوّ الله ، الويل لمن أبغضك ! » .

رواه أحمد فى "المسند" ، قال: وكان ابنُ عبّاس يفسره ، ويقول : إنّ مَن ينظر إليه يقول : سبحان الله ! ما أعلم هذا الفتى ! سبحان الله ماأشجع هذا الفتى ! سبحان الله ، ماأفصح هذا الفتى !

الحديث السادس عشر : لما كانت ليلة بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ يستقى لنا ماء ؟ » ، فأحجم الناس ، فقام علىّ فاحتضن قربة ، ثم أتى بئرا بعيدة القعر مظلمة ، فانحدر فيها ، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل : أن تأهبوا لنصر محمد وأخيه وحزبه ، فهبطوا من السماء ، لهم لغط يذعر مَنْ يسمعه ، فلما حاذوا البئر، سلّموا عليه من عند آخرهم إكراما له وإجلالا .

رواه أحمد فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام ، وزاد فيه فى طريق أخرى عن أنس ابن مالك : « لتؤتَيَنَّ يا علىّ يوم القيامة بناقةٍ من نوق الجنة فتركبها ، وركبتك مع ركبتى ، وفخِذُك مع فخذى ؛ حتى تدخل الجنة » .

* * *

الحديث السابع عشر : خَطَب صلى الله عليه وآله الناس يوم جمعة ، فقال : « أيها النّاس ؛ قدّموا قريشا ولا تقدموها ، وتعلّموا منها ولا تعلموها ، قوّة رجلٍ من قريش تعدِلُ قوّة رجُلين من غيرهم ، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم . أيها الناس أوصيكم بحبّ ذى قرباها ، أخى وابن عمّى علىّ بن أبى طالب ؛ لا يحبّه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلاّ منافق ؛ مَنْ أحبّه فقد أحبّنى ، ومَنْ أبغضه فقد أبغضنى ، ومَنْ أبغضنِى عذّبه الله بالنار » .

رواه أحمد رضى الله عنه فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام .

* * *

الحديث الثامن عشر : الصِّديقون ثلاثة : « حبيب النّجار ، الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ومؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانَه ، وعلىّ بن أبى طالب ؛ وهو أفضلهم » .

رواه أحمد فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام .

* * *

الحديث التاسع عشر : أعطِيتُ فى علىّ خمسا ، هُنّ أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها ؛ أما واحدة فهو كابٍ بين يدى الله عزّ وجلّ ؛ حتى يفرغ من حساب الخلائق ، وأما الثانية

فلواء الحمد بيده ، آدم ومن ولد تحته ، وأما الثالثة فواقف عَلَى عُقْرِ[١] حوضى ؛ يسقى مَنْ عرف من أمّتى ، وأما الرابعة فساتر عورتى ومسلمى إلى رَبِّى ، وأما الخامسة فإنى لست أخشى عليه أن يعود كافرا بعد إيمان ، ولا زانيا بعد إحصان » .

رواه أحمد فى كتاب الفضائل .

* * *

الحديث العشرون : كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ، فقال عليه الصلاة والسلام يوما : « سدّوا كلّ باب فى المسجد إلا باب علىّ » ، فسدّت ، فقال فى ذلك قوم ، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم ، فقال : « إنّ قوماً قالوا فى سدّ الأبواب وترك باب علىّ ، إنى ما سددت ولا فتحت ، ولكنّى أمرْت بأمرٍ فاتبعته » .

رواه أحمد فى " المسند " مرارا ، وفى كتاب الفضائل .

* * *

الحديث الحادى والعشرون : دعا صلى الله عليه وآله عليًّا فى غزاة الطائف ، فانتجاه ، وأطال نجواه حتى كرِه قوم من الصحابة ، ذلك ، فقال قائل منهم : لقد أطال اليَوم نَجْوى ابن عمّه ، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوما ، ثم قال : « إنّ قائلا قال : لقد أطالَ اليوم نجوى ابن عمّه ، أما إنى ما انتجيتهُ ؛ ولكن الله انتجاه » .

رواه أحمد رحمه الله فى " المسند " .

* * *

الحديث الثانى والعشرون : « أخصِمك[٢] يا علىّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدِى ، وتخصم الناس بسبع ، لا يحاجك فيها أحد من قريش : أنت أوّلهم إيمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسويّة ، وأعدلهم فى الرعيّة ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزيّة » .

(١) العقر : مؤخر الحوض حيث تقف الإبل .

(٢) أخصمك : أغلبك .

رواه أبو نعيم الحافظ فى '' حلية الأولياء ''.

***

الخبر الثالث والعشرون ، قالت فاطمة : إنك زوّجتنى فقيراً لا مال له ، فقال : « زوّجتك أقدمهم سِلْماً ، وأعظمهم حِلْماً ، وأكثرهم عِلْماً ! ألا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً ، فاختار منها أباك ، ثم اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلك ! » .

رواه أحمد فى المسند .

***

الحديث الرابع والعشرون ، لما أنزل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ بعد انصرافه عليه السلام من غزاة حُنَيْن ، جعل يكثر من « سبحان الله ! أستغفر الله » ، ثم قال : « يا علىّ إنه قد جاء ما وعدت به ، جاء الفتح ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، وإنّه ليس أحد أحقّ منك بمقامى ؛ لقِدَمك فى الإسلام وقربك منى ، وصهرك ؛ وعندك سيّدة نساء العالمين ؛ وقبل ذلك ما كان من بلاء أبى طالب عندى حين نزل القرآن ؛ فأنا حريصٌ عَلَى أن أراعى ذلك لولده » .

رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى « تفسير القرآن » .

***

واعلم أنّا إنما ذكرنا هذه الأخبار ها هنا ، لأنّ كثيرا من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مرّوا عَلَى كلامه فى « نهج البلاغة » وغيره المتضمّن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صَلى الله عليه وآله ، وتميزه إياه عن غيره ، ينسبونه إلى التيه والزّهو والفخر ، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة ، قيل لعمر : وَلّ علياً أمر الجيش والحرب ، فقال : هو أتيَهُ من ذلك ! وقال زيد بن ثابت : مارأينا أزهَى من علىّ وأسامة .

فأردنا بإيراد هذه الأخبار ها هنا عند تفسير قوله : « نحن الشعار والأصحاب ، ونحن الخزنة والأبواب » ، أن ننبهَ عَلَى عِظَم منزلته عند الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّ من قيل

فى حقه ماقيل لو رقى إلى السماء ، وعرج فى الهواء ، ونخر عَلَى الملائكة والأنبياء ، تعظما وتبجحا ؛ لم يكن ملوماً ، بل كان بذلك جديرا ؛ فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قطّ مسلك التعظّم والتكبّر فى شىء من أقواله ولا من أفعاله ؛ وكان ألطف البشر خلقا ، وأكرمهم طبعا ، وأشدهم تواضعا، وأكثرهم احتمالا ، وأحسنهم بِشراً ، وأطلقهم وجها؛ حتى نسبه من نسبه إلى الدُّعابة والمزاح، وهما خُلُقان ينافيان التكبّر والاستطالة؛ وإنما كان يذكر أحيانا مايذكره من هذا النوع ، نَفْثَة مصدُور ، وشكوى مكروب ، وتنفس مهموم ؛ ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة ، وتنبيه الغافل عَلَى ماخصّه الله به من الفضيلة ، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ عَلَى اعتقاد الحقّ والصواب فى أمره والنهى عن المنكر الذى هو تقديم غيره عليه فى الفضل ؛ فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1] .

* * *

الأصلُ :

منها :

فِيهِمْ كَرَائِمُ الإيمَانِ ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ ؛ إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا ، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا . فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ ؛ فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ ؛ يَكُونُ مُبْتَدأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ : أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ ؛فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

(١) سورة يونس ٣٥ .

إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ ؛ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ ؛ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ !

***

الشرح :

قوله : « فيهم » يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله : « نحن الشعار والأصحاب » ، وهو يطلق دائما هذه الصيغ الجمعية ، ويعنى نفسه ؛ وفى القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] .

وكرائم الإيمان : جمع كريمة وهى المنفسات منه ، قال الشاعر :

ماض مِنَ العيش لو يفدى بذلت لَهُ ... كرائم المال من خيلٍ ومن نَعَمِ

فإن قلت : أيكون فى الإيمان كرائم وغير كرائم ؟ قلت : نعم لأنّ الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطّاعات كلّها واجبها ونفلها، فمن كانت نوافله أكثر كانت كرائم الإيمان عنده أكثر ، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل ، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان .

فإن قلت : فعلى هذا تكون النّوافل أكرمَ من الواجبات ؟

قلت : هى أكرم منها باعتبار ، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر ؛أمّا الأوّل فلأنّ صاحبها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً فى الجنّة ممن اقتصر على الواجبات فقط؛ وأمّا الثانى فلأنّ المخلّ بها لا يعاقب ، والمخلّ بالواجبات يعاقب .

قوله : « وهم كنوز الرحمن » لأن الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملمّة تلمّ بالإنسان، وكذلك هؤلاء قد ذخروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين .

---

(١) سورة آل عمران ١٧٣ .

ثم قال : إن نطقوا صدقوا ، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عيّ يوجب كونهم مسبوقين ؛ لكنّهم ينطقون حُكْما ، ويصمُتون حلما .

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح ، وقال : « ليصدق رائدٌ أهلَه » ، الرائد : الذاهب من الحيّ يرتاد لهم المرعى ؛ وفي أمثالهم : « الرائد لا يكذِب أهلَه » ، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدُق نفسَه ولا يكذبَها بالتسويف والتمليل ، قال الشاعر :

أخيَّ إذا خاصمت نفسَك فاحتشِدْ لها وإذا حدّثت نفسَك فاصدُقِ

وفي المثل : « المتشبِّع بما لا يملك كلابس ثوبَيْ زور » .

فإنه منها قدم ؛ قد قيل : إن الله تعالى خَلَق أرواح البشر قبل أجسادهم ، والخبر في ذلك مشهور والآية أيضا ؛ وهي قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[1] . ويمكن أنْ يفسّر على وجه آخر ؛ وذلك أنّ الآخرة اليوم عَدَمٌ محضٌ ، والإنسان قَدِم من العدَم ، وإلى العدم ينقلب ؛ فقد صحّ أنه قَدِم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة .

وروى : « أنّ العامل بالبصَر » أي بالبصيرة ، فيكون هو وقوله : « فالناظر بالقلب » ، سواء ؛ وإنما قاله تأكيدا ، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل ، فأمّا الرواية المشهورة فالوجه في تفسيرها أن يكون قوله : « فالناظر » مبتدأ و « العامل » صفة له ؛ وقوله : « بالبصر يكون مبتدأ عمله » جملة مركبة من مبتدأ وخبر ، موضعها رفع ، لأنها خبر المبتدأ الذي هو « فالناظر » ؛ وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها « كان » ، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع ، لأنّها خبر « كان » ، ويكون قوله فيما بعد : « أن يعلم » منصوب

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢

الموضع ؛ لأنه بدل من «البصر» الذى هو خبر « يكون » والمراد بالبصر هاهنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام : فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم : أعمله له أم عليه !

ويروى : « كالسابل على غير طريق » ، والسابل: طالب السبيلِ ؛ وقد جاء فى الخبر المرفوع: « مَنْ عمِل بغير هدى، لم يزدد من الله إلا بعدا »، وفى كلام الحكماء: «العامل بغير علم كالرامى من غيرِ وتَر » .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ ؛ فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ ، طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ » .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام مشتقّ من قوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً ﴾[١]؛ وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر ، ولمن لا يؤثّر ذلك فيه مثله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبْت ، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت؛ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومِىء. يقول : إنّ لكلتا حالتى الإنسان الظاهرة أمراً باطنا يناسبها من أحواله ؛ والحالتان الظاهرتان : ميله إلى العقل وميله إلى الهوى ؛ فالمتبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز؛ فهذا هو الذى طاب

(١) سورة الأعراف ٥٨ .

ظاهره ، وطاب باطنه ، والمتبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشقاوة والعطب؛ وهذا هو الذى خبُث ظاهره وخَبُث باطنه .

فإن قلت : فلم قال : «فما طاب» ؟ وهلاّ قال: «فمن طاب» ! وكذلك فى «خَبُث» !

قلت : كلامه فى الأخلاق والعقائد وما تنطوى عليه الضمائر؛ يقول : ماطاب من هذه الأخلاق والملكات ، وهى خلق النفس الربانيّة المريدة للحقّ؛ من حيث هو حقّ؛ سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن ؛ وسواء كان ذلك مستقبحا مستهجنا عند العامّة أو لم يكن ؛ وسواء نال به من الدنيا حظًّا أو لم ينل . يستطيب باطنه يعنى ثمرته ؛ وهى السعادة ؛ وهذا المعنى من مواضع « ما » لا من مواضع « من » .

فأما الخبر المروى[1]، فإنه مذكور فى كتب المحدّثين؛ وقد فسّره أصحابنا المتكلّمون، فقالوا : إنّ الله تعالى قد يحبّ المؤمن ومحبّته له إرادة إثابته ، ويبغض عملا من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر ؛ فإنّها مكروهة عند الله ؛ وليست قادحة فى إيمان المؤمن ، لأنها تقع مكفِّرة؛ وكذلك قد يبغض العبدَ بأن يريد عقابه ؛ نحو أن يكون فاسقا لم يتب، ويحبّ عملا من أعماله ؛ نحو أن يطيع ببعض الطاعات ، وحبّه لتلك الطاعة ؛ هى إرادته تعالى أن يُسقط عنه بها بعض مايستحقّه من العقاب المتقدّم .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَاغِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ . وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

***

(١) ساقطة من ب .

الشرح :

السَّقْى : مصدر سَقَيْت ، والسِّقْى ، بالكسر : النصيب من الماء .

وأمرَّ الشيء ، أى صار مرًّا .

وهذا الكلام مثل فى الإخلاص وضدّه وهو الرياء وحبّ السمعة ، فكلّ عمل يكون مدده الإخلاص لوجه تعالى لا غير ؛ فإنه زاكٍ حلو الجَنَى ، وكلّ عمل يكون الرياء وحبّ الشهرة مدده ؛ فليس بزاكٍ ، وتكون ثمرته مرّة المذاق .

(١٥٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ.

هُوَ اللّٰهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ. لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ؛ فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ؛ فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ. وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلَاقِهَا.

وَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا؛ أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً ؛ وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً !

وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا ، وَلَمْ[1] يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ . تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا ، لاَجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ .

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ !

* * *

الشرح :

الخفّاش ، واحد جمعه خَفَافيش،وهو هذا الطائر الذى يطير ليلا ولا يطير نهارا،وهو مأخوذ من الخَفَش؛ وهو ضعف فى البصر خِلْقة،والرجل أخفش،وقد يكون علّة،وهو الذى يبصر بالليل لا بالنهار ، أو فى يوم غيم لا فى يوم صَحْو .

وانحسرت الأوصاف : كلّت وأعيت . وردعت : كفّت . والمساغ : المسلك .

قال : « أحقّ وأبين مما ترى العيون » ؛ وذلك لأنّ العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضرورية ، كانت أوثق من المحسوسات،لأنّ الحسّ يغلط دائما،فيرى الكبير صغيرا كالبعيد ، والصغير كبيرا ، كالعنبة فى الماء تُرى كالإجّاصة،ويُرى الساكن متحرّكا؛ كحرف الشطّ إذا رآه راكب السفينة متصاعدا،ويُرى المتحرك ساكنا كالظلّ،إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها ؛ لأنها بديهيّة أو تكاد،فالغلط غير داخل عليها.

قوله : « يقبضها الضياء » ، أى يقبض أعينها .

قوله : « وتتّصل بعلانية برهان الشمس » كلام جيّد فى مذاهب الاستعارة .

---

(١) د : « ولما » .

وسُبُحات إشراقها: جلاله وبهاؤه . وأكنّها : سترها، وبُلَج ائتلافها: جمع بُلْجة؛ وهى أول الصبح ؛ وجاء بَلْجة أيضا بالفتح .

والحِدَاق : جمع حَدَقة العين . والأسداف : مصدر أسدف الليل ، أظلم . وغسق الدَّجُنّة : ظلام الليل . فإذا ألقت الشمس قناعها ، أى سفرت عن وجهها وأشرقت .

والأوضاح: جمع وَضَح، وقد يراد به حليٌ يعمل من الدراهم الصّحاح، وقد يراد به الدراهم الصّحاح نفسها وإن لم يكن حُليًا. والضِّباب ، جمع ضَبّ. ووِجارها : بيتها . وشظايا الآذان: أقطاع منها . والقصب هاهنا : الغُضروف .

وخلاصة الخُطْبة، التعجُّب من أعين الخفافيش التى تبصر ليلا ولا تبصر نهارا، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشاً، والنهار لها سكنا ؛ بعكس الحال فيما عداها. ثم من أجنحتها التى تطير بها وهى لحم لا ريش عليه ولا غضروف؛ وليست رقيقة فتنشق ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقا بها هكذا ، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها .

***

[فصل فى ذكر بعض غرائب الطُّيور ومافيها من عجائب]

واعلم أنّه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية فى عدم إبصارها نهارا ؛ وهو انفعال حاسّة بصرها عن الضوء الشديد ؛ وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس ؛ وهو المرض المسمّى « روز كور » أى أعمى النهار ، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل فى الروح النورىّ، فإذا لقىَ حرّ النهار أصابه قمر ، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول ، فيعود الإبصار .

وأما طيرانها من غير ريش ؛ فإنه ليس بذلك الطيران الشديد ، وإنما هو نهوض وخِفّة ، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة، والتصاق الولد بها ، لأنها تضمّه إليها بالطبع، وينضمّ إليها كذلك ، وتستعين على ضمّه برجليها، وبقصر المسافة. وجملة الأمر أنه تعجّب من عجيب . وفى الأحاديث العامية : قيل للخفاش: لماذا لا جناح لك ؟ قال : لأنى تصوير مخلوق ، قيل : فلماذا لا تخرج نهارا ؟ قال: حياء من الطيور ، يعنون أنّ المسيح عليه السلام صوّره ، وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ (١) .

وفى الطير عجائب وغرائب لا تهتدى العقول إليها ؛ ويقال : إن ضربين من الحيوان أصمان لا يسمعان ، وهما النعام والأفاعِى .

وتقول العرب : إن الظّليم يسمع بعينه وأنفِه ؛ لا يحتاج معهما إلى حاسّة أخرى . والكراكى يجمعها أمير لها كيعسوب النحل، ولا يجمعها إلا أزواجا. والعصافير آلفةٌ للناس آنسةٌ بهم، لا تسكن داراً حتى يسكنها إنسان؛ ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج الإنسان منها؛ فبفراقه تفارق ؛ وبسكناه تسكن . ويذكر أهل البصرة أنه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق فى البصرة عُصفور إلا خرج إليها ، إلا ما أقام على بَيْضه وفراخه ؛ وقد يُدَرَّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع .

وقال شيخنا أبو عثمان: بلغنى أنه درِّب فيرجع مِنْ مِيل. وليس فى الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من رأس العصفور ، وليس فى الحيوان الذى يعايشُ الناس أقصرَ عمرا منه ، قيل لأجل السّفاد الذى يستكثر منه . ويتميز الذكر من الأنثى فى العصافير تميُّز الديك

---

(١) سورة المائدة ١١٠ .

من الدجاجة ؛ لأنّ له لحية ؛ ولا شيء أحنَى على ولده منه ، وإذا عَرَض له شيء صاح ، فأقبلت إليه العصافير بساعدْنه ؛ وليس [لشيء][١] في مثل جسم العصفور [من][١] شدّة وطئه [إذا مشى أو على السطح ما للعصفور ؛ فإنك][١] إذا كنتَ تحت السطح ووقع ؛ حسبت وقعتَه وقعة حجر ، وذكور[٢] العصافير لا تعيش إلّا سنة ؛ وكثيرا ما تجلب الحيّاتِ إلى المنازل ، لأنّ الحيّات تتبعها حرصا على ابتلاع بيضها وفراخها .

ويقال : إن الدجاجة إذا باضت بيضتيْن في يوم واحد وتكرّر ذلك ماتت ، وإذا هَرِمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضهُ صفرة ؛ وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرُوج؛ لأن غذاءه المحّ مادام في البيضة،وقد يكون للبيضة مُحّانِ فتنفقص[٣] عن فَرُّوجَيْنِ يخلقان من البياض ، ويغتذيان بالمحّيْن ، لأن الفراريج تُخْلَق من البياض وتغتذى بالصُّفرة .

وكلّ ديكٍ فإنه يلتقط الحبّة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً ؛ ولهذا قالوا : « أسمح من لاقطة » يعنون الدِّيَكة ، إلا ديَكةَ مَرْو بخراسان ، فإنّها تطرد دجاجها عن الحبّ وتنزعه من أفواهها فتبتلعه .

والحمامة بلهاء ، وفى أمثالهم : « أحمق من حمامة » ، وهى مع حُمْقِها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها .

قال ابنُ الأعرابىّ : قلت لشيخ من العرب : مَنْ علّمك هذا ؟ قال : علّمنى الذِى علّم الحمامة على بَلَهِهَا تقليبَ بيضها ، كىْ تعطىَ الوجهين جميعا نصيبهما من الحضْن .

والهداية فى الحمام لاتكونُ إلّا فى الخُضر والسُّمْر ، فأمّا الأسود الشديد السواد فهو كالزنجىّ القليل المعرفة ، والأبيض ضعيف القوّة . وإذا خرج الجوزل[٤] عن بَيْضته علم أبواه أنّ حلقه لايتسع للغذاء ،فلا يكون لهما همّ إلا أن ينفخا فى حَلْقه الريح لتتّسع حَوْصلته بعد التحامها ،ثم يعلمان أنه لا يحتمل فى أوّل اغتذائه أن يُزَقّ بالطعْم ؛ فيزقّانه باللعاب المختلط

---

(١) تكملة من كتاب الحيوان .

(٢) د : « ذكورة

(٣) انفقصت البيضة عن الفرخ : انفلقت عنه.

(٤) الجوزل : فرخ الحمام .

بقوتهما وقوى الطُّعْم ثم يعلمان أنّ حَوْصلته تحتاج إلى دِباغ ، فيأ كلان من شَورج [١] أصول الحيطان ، وهو شىء من الملح الخالص والتراب فيزُقّانه به . فإذا علما أنه قد اندبغ زقّاه بالحبّ الذى قد غَبّ فى حواصلهما ، ثم بالذى هو أطرى فأطرى ، حتى يتعوّد ؛ فإذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعضَ المنع ، ليحتاج ويتشوّف ، فتطلبه نفسه ، ويحرص عليه ؛ فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما ، نزع الله تلك الرحمة منهما ، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر .

ويقال : إنّ حيّة أكلَتْ بيض مُكّاء فجعل المُكّاء يشرشر على رأسها ، ويدنو منها حتى دَلَعت [٢] الحيّة لسانها ، وفتحت فاها تريده وتهمّ به ، فألقى فيها حَسَكة [٣] فأخذت بحلقها حتى ماتت !

ومن دعاء الصالحين : يارزّاق النّعّاب [٤] فى عشّه ! وذلك أنّ الغراب إذا فقص عن فراخه ، فقص عنها بيض الألوان ، فينفر عنها ولا يزقّها ؛ فتنفتح أفواهها ، فيأتيها ذباب يتساقط فى أفواهها ، فيكون غذاءها إلى أن تسودّ ، فينقطع الذباب عنها ، ويعودُ الغراب إليها فيأنس بها ويغذّيها .

والحُبارى تدبق [٥] جناح الصقر بذرقها ، ثم يجتمع عليه الحُبارَيات ، فينتِفنَ ريشه طاقةً طاقةً ؛ حتى يموت ؛ ولذلك يحاول الحُبارى العلوّ عليه ، ويحاول هو العلوّ عليها ، ولا يتجاسر أن يدنوَ منها متسفّلا عنها . ويقال : إن الحبارَى تموت كَمَداً إذا انحسر عنها ريشها ، ورأت صُوَيحباتها تطير .

* * *

---

(١) الشورج : نوع من الملح ؛ وربما كان للدباغة خاصة .
(٢) دلعت لسانها : أخرجته .
(٣) حسكة : شوكة .
(٤) النعاب ، أى الغراب .
(٥) تدبق : تصطاد .

وكلّ الطير يتسافدُ بالأستاه إلا الحجَل؛ فإن الحجلة تكون في سُفالة الريح، واليعقوب [١] في علاوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفُحّال [٢] بالريح .

والحُبارَى شديدُ الحمق، يقال إنّها أحمق الطير؛ وهي أشدّه حياطةً لبيضها وفراخها .

والعقعق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثا، وأشدّها حذَراً، ليس في الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه .

ومن الطير مايؤثر التفرّد كالعُقاب؛ ومنه مايتعايش زوجا كالقطَا .

والظليم يبتلع الحديد المحمّى، ثم يُميعهُ في قانصته حتى يُحيله كالماء الجاري؛ وفي ذلك أعجوبتان : التغذّي بما لايغذّي به، واستمراؤه وهضمه شيئا لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ .

وكما سُخّر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سُخّر الصخر الأصمّ لأذناب الجراد، إذا أراد أن يلقي بيضه غرس ذنبه في أشدّ الأرض صلابة، فانصدع له؛ وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه؛ كما إنّ عود الحلفاء الرّخو الدقيق [٣] المنبت، يلقى في نباته الآجرّ والخزَف الغليظ، فيثقبه .

وقد رأيت في مسنّاة سور بغداد، في حجر صلد نبمةَ نبات قد شقّت وخرجت من موضع؛ لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثرا .

وقد قيل : إن إبْرة العقرب أنفذُ في الطَّنجير [٤] والطست .

وفي الظليم شَبَهٌ من البعير من جهة المنسِم والوظيف والعُنق والخِزامة التي في أنفه ،

---

(١) اليعقوب : ذكر الحجل .
(٢) الفحال : ذكر النخل .
(٣) ساقطة من ب .
(٤) الطنجير : وعاء يعمل فيه الخبيص (معرب) .

وشَبَهٌ من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار . ثم إنّ مافيه من شَبَه الطير جَذَبه إلى البيض ، وما فيه من شَبَه البعير لم يجذبه إلى الولادة .

ويقال : إنّ النعامة مع عظم عظامها وشدّة عَدْوِها لا مخّ فيها ، وأشدّ مايكون عَدْوُها أن تستقبل الريح ؛ فكلّما كان أشدّ لعصوفها كان أشدّ لحُضرها[١] ، تضع عنقها على ظهرها ثم تخرق الريح ، ومن أعاجيبها أنّ الصّيف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفها في الحُمْرة ؛ فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهيَ حُمْرة البُسر ، ولذلك قيل للظليم : خاضب ، ومن العجَب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشا كلتها للنوعين ؛ ولا يكاد يرى بيضها مبدّدًا البتّة ، بل تصفّه طولا صَفًّا مستويا على غاية الاستواء ، حتى لو مددْتَ عليه خيط المِسطَر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض ؛ ثم تعطِى لكلّ واحدة نصيبَها من الحَضْن .

والذئب لا يعرض لبيض النعام مادام الأبوَان حاضرين ، فإنهما متى نقفاه[٢] ركبه الذكر فَطحرَه[٣] وأدركته الأنثى فركضته : ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عِوَضه ، فلا يزالان يفعلان بهذلك حتى يقتلاه أويعجزهما هرباً . والنعام قد يتخذ في الدّور ، وضرره شديد ، لأنّ النعامة ربّما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ ، نخطفته وأكلته ، وخرمت الأذن ، أو رأت ذلك في لبّتها فضربت بمنقارها اللّبة نخرقتها[٤] .

---

(١) الحضر : نوع من السير .
(٢) نقفاه : ثقباه .
(٣) طحره : كسر بيضته .
(٤) الحيوان ٥ : ٢١٧ وما بعدها .

(١٥٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم:

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ فَلْيَفْعَلْ ؛ وَإِنْ أَطَعْتُمُونِي؛ فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ ؛وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ. وَأَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ . وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى ، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ !

***

الشَّرْحُ :

يعتقل نفسه على الله : يحبسها على طاعته . ثم ذكر أنّ السبيل التى حملهم عليها وهى سبيل الرشاد ؛ ذات مشقّة شديدة ومذاقة مريرة ، لأنّ الباطل محبوب النفوس؛فإنه اللهو واللّذة ، وسقوط التكليف ؛ وأما الحقّ فمكروه النفس ، لأن التكليف صعب وترك الملاذّ العاجلة ، شاقّ شديد المشقّة .

والضِّغن : الحقد . والمِرْجل : قِدْر كبيرة . والقين : الحداد ، أى كغليان قِدْر من حديد .

***

[فصل فى ترجمة عائشة وذكر طرَف من أخبارها]

وفلانة كناية عن أمّ المؤمنين عائشة ، أبوها أبو بكر ، وقد تقدّم ذكر نسبه ، وأمها أم رُومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سبيع بن دَهْمان ابن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الهجرة بسنتين ، بعد وفاة خديجة ؛ وهى بنت سبع سنين ، وبَنَى عليها بالمدينة ؛ وهى بنت تسع سنين وعشرة أشهر ؛ وكانت قبله تذكر لجُبَير بن مطعِم ؛ وتُسمّى له ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله رأى فى المنام عائشة فى سَرَقة[١] من حرير عند متوفّى خَديجة ، فقال : « إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه »[٢] ؛ روى هذا الخبر فى المسانيد الصحيحة ، وكان نكاحُه إياها فى شوّال ، وبناؤه عليها فى شوّال أيضاً ، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبّتها على أزواجهنّ فى شوّال ، وتقول : هل كان فى نسائه أحظَى منّى ! وقد نكحنى ، وبنى علىّ فى شوال ؛ ردًّا بذلك على مَنْ يزعم من النساء أنّ دخولَ الرجل بالمرأة بين العيدين مكروه .

وتوفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وهى بنت عشرين سنة . واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وآله فى الكُنْية ، فقال لها : « اكتنى بابنك عبد الله بن الزُّبير » ؛ يعنى ابنَ أختها ، فكانت تكنَى أمّ عبد الله . وكانت فقيهةً راوية للشعر ، ذات حظّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومَيْلٍ ظاهر إليها ، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمِى ويستشرى[٢] ، حتى كان منها فى أمره فى قصّة مارية ، ما كان من الحديث[٣]

---

(١) السرقة ، واحدة السرق ؛ وهو شقق من الحرير الأبيض .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٤٤ .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٤ : ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

الذى أسرّه إلى الزوجة الأخرى ، وأدّى إلى تظاهرهما عليه ، وأنزل فيهما قرآنا يُتلى فى المحاريب ، يتضمّن وعيداً غليظاً عَقِيب تصريح بوقوع الذنب ، وصَغْو القلب ، وأعقبتْها تلك الجرأة ، وذلك الانبساط وحدث منها فى أيام الخلافة العلويّة ما حدث ؛ ولقد عفا الله تعالى عنها ، وهى من أهل الجنّة عندنا بسابق الوعد ، وماصحّ من أمر التوبة .

وروى أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " فى باب عائشة ، عن سعيد ابن نصر ، عن قاسم بن أصبغ ، عن محمد بن وضاح ؛ عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع عن عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه : « أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبَب ، يقتَل حولها قتلى كثير ، وتنجو بعدما كادت »[١] ؟ .

قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا الحديث من أعلام نبوّته صلّى الله عليه وآله ، قال : وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد ، فثقة رجاله أشهر من أن تذكر[٢] .

ولم تحمل عائشة من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا وُلد له ولد من مَهِيرة[٣] إلا من خديجة ، ومن السّرارىّ من مارية .

وقُذِفت عائشة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله بصفوان بن المعطّل السُّلَمىّ ، والقصة مشهورة ، فأنزل الله تعالى براءتها فى قرآن يُتْلَى وينقل ، وجُلِد قاذفوها الحدّ ، وتوفيت فى سنة سبع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وستون سنة ، ودفنت بالبَقيع ،

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٠ ؛ والرواية هناك : « ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ؛ تنبحها كلاب الحوأب ؟ » ؛ وقال فى شرحه : أراد « الأدب » ، فأظهر الإدغام لأجل الحوأب ، والأدب الكثير وبر الوجه .

(٢) الاستيعاب ٧٤٤ ، وفيه : « وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى ذكر » .

(٣) المهيرة : الحرة من النساء ؛ وهى غير السرية .

فى مُلَّث معاوية ، وصلّى عليها المسلمون ليلاً ، وأمّهم أبو هريرة ، ونزل فى قبرها خمسة من أهلها : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر ، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ وذلك لسبع عشرة خلتْ من شهر رمضان من السنة المذكورة .

* * *

فأما قوله: «فأدركها رأىُ النساء»، أى ضعف آرائهن . وقد جاء فى الخبر: «لا يفلح قوم أسندوا أمرَهم إلى امرأة » . وجاء : « إنهنّ قليلات عقل ودين » ، أو قال : «ضعيفات»، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد؛ والمرأة فى أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب، سيئة الظن فاسدة التدبير، والشجاعة فيهنّ مفقودة، أو قليلة؛ وكذلك السخاء.

وأما الضِّغْن ، فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج ، إلى شرح ، وقد كنت قرأته على الشيخ أبى يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعانىّ رحمه الله أيام اشتغالى عليه بعلم الكلام ، وسألته عمّا عنده فيه ، فأجابنى بجواب طويل ؛ أنا أذكر محصوله ، بعضُه بلفظه رحمه الله ، وبعضُه بلفظى ، فقد شذّ عنى الآن لفظه كلّه بعينه ، قال : أول بدء الضِّغْن كان بينها وبين فاطمة عليهما السلام ، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تزوّجها عَقِيب موت خديجة ، فأقامها مقامها ، وفاطمة هى ابنة خديجة ، ومن المعلوم أنّ ابنة الرجل إذا ماتت أمّها ، وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَرٌ وشنآن ، وهذا لابدّ منه ، لأن الزوجة تنفَس عليها ميل الأب ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة . كالضَّرّة لأمها ؛ بل هى ضرة على الحقيقة ، وإن كانت الأمّ ميتة . ولأنّا لو قدّرنا الأمّ حيّة ، لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة ، فإذا كانت قد ماتت ورثتْ ابنتها تلك العداوة ، وفى المثل : « عداوة الحماة والكَنّة » . وقال الراجز :

إن الحماة أو لِعَتْ بالكَنَّهْ ⁽¹⁾ وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّهْ

ثم اتفق أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مال إليها وأحبّها ، فازداد ماعند فاطمة بحسب زيادة ميله ، وأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمةَ إكراماً عظيما أكثر مما كان الناس يظنونه؛ وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم ، حتى خرج بها عن حدّ حبّ الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاصّ والعام مراراً لا مرة واحدة ، وفى مقامات⁽²⁾ مختلفة لا فى مقام واحد : إنّها سيّدة نساء العالمين ، وإنها عديلة مريم بنت عمران ، وإنها إذا مرّت فى الموقف نادى منادٍ من جهة العرش : يا أهل الموقف ، غضّوا أبصاركم لتعبُرَ فاطمة بنت محمد . وهذا من الأحاديث الصحيحة ، وليس من الأخبار المستضعَفة ؛ وإن إنكاحه عليّاً إيّاها ما كان إلّا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها فى السماء بشهادة الملائكةَ . وكم قال لامرّة⁽³⁾ : « يؤذينى ما يؤذيها ، ويغضبنى ما يغضبها » ، و « إنها بضعة منّى ، يريبنى ما رابها » ، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضّغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل ، والنفوس البشريةَ تغيظُ على ما هو دون هذا ، فكيف هذا !

ثم حصل عند بعلها ماهو حاصلٌ عندها ــ أعنى عليّاً عليه السلام ــ فإنّ النساء كثيرا مايحملنَ الأحقاد فى قلوب الرجال ؛ لاسيما وهنّ محدّثات الليل ، كما قيل فى المثل ؛ وكانت تكثر الشكوى من عائشة ، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلنَ إليها كلماتٍ عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلنَ إليها كلماتٍ عن فاطمة ؛ وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها ، كانت عائشة تشكو إلى أبيها ، لعلمها أنّ بعلها لا يُشكيها⁽⁴⁾ على ابنته ، فحصل فى نفس أبى بكر من ذلك أثرٌ ما ، ثم تزايد تقريظُ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الكنة : امرأة الابن .
(٢) ب : « فى » .
(٣) د : « مرة » .
(٤) يقال : أشكى فلانا ؛ إذا قبل شكواه .

لعليّ عليه السلام ، وتقريبه واختصاصه ؛ فأحدث ذلك حسداً له وغبطة فى نفس أبى بكر عنه ؛ وهو أبوها ، وفى نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهى تجلس إليهما ، وتسمع كلامهما ؛ وهما يجلسان إليها ويحادثانها ، فأعدَى إليها منهما كما أعدتْهما .

قال : ولست أبرّئ علياً عليه السلام من مثل ذلك ؛ فإنه كان ينفَسُ على أبى بكر سكونَ النبيّ صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه ، ويحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده ، فتأكّدت البِغْضة بين هذين الفريقين . ثم كان من أمر القذف ما كان ؛ ولم يكن عليّ عليه السلام من القاذفين ، ولكنّه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها ، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشَّنَأة والمنافقين .

قال له لما استشاره : إن هى إلا شِسْع نعلِك ، وقال له : سَلِ الخادم وخوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربْها . وبلغَ عائشة هذا الكلام كلّه ، وسمعت أضعافه ممّا جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاماً كثيرا عن عليّ وفاطمة ، وأنهما قد أظهرا الشماتة جهاراً وسرّاً بوقوع هذه الحادثة لهـــا ، فتفاقم الأمرُ وغلُظ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صالَحها ورجع إليها ، ونزل القرآن ببراءتها ؛ فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قُهِر ، ويستظهر بعد أن غُلِب ، ويبرأ بعد أن اتُّهم ؛ من بسط اللسان ، وفلَتاتِ القول ؛ وبلغ ذلك كلّه عليا عليه السلام وفاطمة عليها السلام ، فاشتدّت الحال وغلُظت ، وطوى كلٌّ من الفريقين قلبه عَلَى الشنآن لصاحبه. ثم كان بينها وبين عليّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال ؛ كلُّها تقتضِي تهييج مافى النفوس ، نحو قولها له — وقد استدناه رسول الله ، فجاء حتى قعد بينه

وبينهاوهما متلاصقان : أماوجدتَ مقعدا لـكذا ـ لاتـكنى عنه ـ إلا فخذى ! ونحوماروى أنهسايره يوماوأطال مناجاته؛ فجاءت وهىسائرة خلفهماحتى دخلت بينهما، وقالت:فيم أنتما فقد أطلتما ! فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله غَضِب ذلك اليوم . وما روى من حديث الجفنة من الثريد التى أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها ؛ ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها .

ثم اتفق أنّ فاطمةوَلَدَت أولادا كثيرة بنين وبنات ؛ولم تلد هى ولداً ، وأنّ رسول الله صلى الله عليهوآله كان يُقيم بنى فاطمة مقام بنِيه ،ويسمّى الواحدمنهما «ابنى» ويقول: « دعوا لى ابنى ولا تُزْرِموا[1] على ابنى » ، و « مافعل ابنى؟» فما ظنُّك بالزوجةإذاحُرِمت الولد من البعل ، ثمّ رأت البعل يتبنّى بنى ابنتِهمن غيرها ،ويحنو عليهم حُنُوَّ الوالدالمشفق! هل تـكون مُحِبّةً لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم ، أم مبغِضة ! وهل تودّ دوامَ ذلك واستمرارَه ،أم زواله وانقضاءه !

ثم اتفق أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله سدّ باب أبيها إلى المسجد ، وفتح باب صهره ؛ ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة ، ثم عزله عنها بصهره ، فقدح ذلك أيضا فى نفسها، وولدلرسول الله صلى الله عليهوآله إبراهيم من مارية، فأظهر علىّ عليهالسلام بذلكسروراً كثيرا ؛ وكان يتعصّب لمارية، ويقوم بأمرها عند رسول الله صلى الله عليه وآله ميلا عَلَى غيرها ، وجرت لمارية نـكبة مناسبةلنـكبة عائشة ،فبرّأها علىّ عليهالسلام منها ، وكشف بطلانها ، أو كـشفه الله تعالى عَلَى يدِه ، وكان ذلك كـشفا محسّا بالبصر ، لايتهيّأ للمنافقين أن يقولوا فيه ماقالوه فى القرآن المنزّل ببراءة عائشة ،وكلّ ذلك مما كان يوغِرُ صدرَ عائشة عليـه ، ويؤكـد مافى نفسها منه ، ثم مات إبراهيم فأبطنتْ شماتةً ، وإن أظهرت كآبة ،

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٤ ، قال : « أى لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم الدمع والبول ؛ إذا انقطع . » .

ووَجَم علىّ عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة ، وكانا يؤثران ، ويريدان أن تتميَّز مارية عليها بالوَلد ، فلم يقدَّر لهما ولا لمارية ذلك ؛ وبقيَت الأمور على ماهى عليه ؛ وفى النفوس مافيها ، حتى مَرِض رسول الله صلى الله عليه وآله المرضَ الذى توفّى فيه ، وكانت فاطمة عليها السلام وعلىّ عليه السلام يريدان أن يمرّضاه فى بيتهما ، وكذلك كان أزواجه كلّهنّ ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبّة القلبية التى كانت لها دون نسائه ، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلَها فى بيتهما ؛ فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما مايكون إذا خلا بنفسه فى بيت مَنْ يميل إليه بطبعه ، وعلم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة ، ونوم ويقظة وانكشاف ، وخروج حَدَث ، فكانت نفسه إلى بيته أسكَنَ منها إلى بيت صهره وبنته ، فإنه إذا تصوّر حياءهما منه استحيا هو أيضا منهما ؛ وكلّ أحدٍ يحبُّ أن يخلُوَ بنفسه ، ويحتشم الصهر والبنت ، ولم يكن له إلى غيرها من الزوجات مثل ذلك الميل إليها ، فتمرّض فى بيتها ، فغُبِطت على ذلك ، ولم يمرض رسول الله صلى الله عليه وآله منذ قدم المدينة مثل هذا المرض ؛ وإنما كان مرضه الشَّقِيقة[1] يوما أو بعض يوم ثم يبرأ ، فتطاولَ هذا المرضُ ؛ وكان علىّ عليه السلام لايشكّ أنّ الأمر له ، وأنه لاينازعه فيه أحد من الناس ، ولهذا قال له عمّه وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله : امْدُد يدَك أبايعك ، فيقول الناس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابنَ عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان . قال : ياعمّ ، وهل يطمع فيها طامع غيرى ! قال : ستعلم ، قال : فإنى لاأحبّ هذا الأمر من وراء رتاج ، وأحبّ أن أُصْحِرَ به[2] . فسكت عنه ، فلما ثقل[3] رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرضِه ، أنفذ جيش أسامة ، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام

---

(١) الشقيقة : مرض يأخذ فى نصف الرأس والوجه .

(٢) يقال : أصحر فلان بما فى قلبه ، أى أظهره .

(٣) يقال : أصبح ثاقلا ، أى مريضا .

المهاجرين والأنصار ؛ فكان علىّ عليه السلام حينئذ بوصوله إلى الأمر — إن حدث برسول الله صلى الله عليه وآله حدث — أوثق ، وتغلّب على ظنه أنّ المدينة لو ماتت لخلتْ من منازِع ينازعه الأمر بالكلّية ؛ فيأخذه صفواً عفواً ، وتتمّ له البيعة ، فلا يتهيأ فسخها لو رام ضدّ منازعته عليها ، فكان — من عَوْدِ أبى بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه ، وإعلامه بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت — ما كان ، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف ، فنسب علىٌّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولَى أبيها أنْ يأمره فليصلّ بالناس ؛ لأنّ رسول الله كما روى ، قال : « ليصلّ بهم أحدُهم » ، ولم يعيّن ؛ وكانت صلاة الصبح ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو فى آخر رَمَقٍ يتهادَى بين على والفضل بن العباس ؛ حتى قام فى المحراب كما ورد فى الخبر ، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ، فجعل يومُ صلاته حُجّةً فى صرف الأمر إليه . وقال : أيّكم يَطيبُ نفساً أن يتقدّم قَدَمين قدّمهما رسول الله فى الصلاة ؟ ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة لصرفه عنها ؛ بل لمحافظته على الصّلاة مهما أمكن ؛ فبويع عَلَى هذه النكتة التى اتّهمها علىّ عليه السلام على أنّها ابتدأت منها .

وكان علىّ عليه السلام يذكر هذا لأصحابه فى خَلَواته كثيرا ؛ ويقول : إنّه لم يقلّ صلى الله عليه وآله : « إنّكن لَصُوَيحبات يوسف » إلا إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها ، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما ؛ وأنّه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب ؛ فلم يُجْدِ ذلك ، ولا أثّر ، مع قوة الداعى الذى كان يدعو إلى أبى بكر ويمهّد له قاعدة الأمر ؛ وتقرر حاله فى نفوس الناس ومن اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار . ولما ساعد على ذلك من الحظ الفَلَكىّ والأمر السمائىّ ؛ الذى جمع عليه القلوب والأهواء ، فكانت هذه الحال عند علىّ أعظم من كلّ عظيم ؛ وهى الطامّة الكبرى ،

والمصيبة العظمى ؛ ولم ينسُبْها إلا إلى عائشة وحدَها ، ولا علّق الأمر الواقع إلا بها ؛ فدعا عليها فى خلواتِه وبين خواصّه ، وتظلّم إلى الله منها ، وجرى له فى تخلفه عن البيْعة ما هو مشهور ؛ حتّى بايع ؛ وكان يبلغه وفاطمة عنها كلّ مايكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن توفّيَت فاطمة ، وهما صابران على مضضٍ ورَمَض[1] ، واستظهرت بولاية أبيها ، واستطالت وعَظُم شأنها ، وانخذل علىّ وفاطمة وقُهِرا ؛ وأُخِذَت فَدَك ، وخرجت فاطمة تجادل فى ذلك مرارا فلم تظفر بشىء ، وفى ذلك تبلّغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلّ كلام يسوءها ، ويبلّغْنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك ، إلا أنه شتّان ما بين الحالين ، وبعد ما بين الفريقَيْن ، هذه غالبة وهذه مغلوبة ، وهذه آمرة وهذه مأمورة ، وظهر التشفى والشماتة ، ولا شىء أعظم مرارة ومشقّة من شماتة العدوّ .

فقلت له ، رحمه الله : أفتقول أنت : إنّ عائشة عيّنَت أباها للصلاة ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يعيِّنْه ! فقال : أمّا أنا فلا أقول ذلك ، ولكنّ عليًّا كان يقوله ، وتكليفى غير تكليفه ، كان حاضراً ولم أكن حاضرا ، فأنا محجوج بالأخبار التى اتّصلت بى ، وهى تتضمن تعيين النبىّ صلى الله عليه وآله لأبى بكر فى الصلاة ، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال التى كان حضرها .

قال : ثم ماتت فاطمة ، فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وآله كلهنّ إلى بنى هاشم فى العزاء إلا عائشة ، فإنّها لم تأتِ ، وأظهرت مرضاً ، ونقل إلى علىّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور .

ثم بايع علىّ أباها فسرّت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيْعة واستقرار

---

(١) الرمض : الغيظ الشديد .

الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا ، واستمرّتِ الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلِي ، والأحقاد تذيب الحجارة ، وكلما طال الزمان على عَلِيّ تضاعفت همومه ، وباح بما في نفسه ، إلى أن قتِل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليبا وتحريضاً ، فقالت : أبعده الله ! لمّا سمعت قتلَه ، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة ، فتعود الإمْرة تيمية كما كانت أوّلا ، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه ! قتِل عثمان مظلوما ، وثار ما في الأنفس ، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده .

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله ، ولم يكن يتشيّع ، وكان شديداً في الاعتزال ، إلا أنه في التفضيل كان بغدادياً .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولو دُعِيَتْ لتنال من غيري مثل ما أتت إليّ ، لم تفعل » فإنما يعني به عمر ، يقول : لو أنّ عمر وَلِيَ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتِل عليه ، والوجهِ الّذي أنا وليت الخلافة عليه ، ونسِب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله ، أو يحرّض عليه ، ودعِيَتْ عائشة إلى أن تخرج عليه في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام ، تثير فتنة وتنقض البيعة ـ لم تفعل ، وهذا حقّ ، لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على عليّ عليه السلام ، ولا الحال الحال .

فأما قوله : « ولها ـ بعدُ ـ حُرْمتها الأولى ، والحساب على الله » ، فإنه يعني بذلك حُرْمتَها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله لها ، وحبه إياها . وحسابها على الله ، لأنه غفور رحيم لا يتعاظم عفوه زلّة ، ولا يضيق عن رحمته ذنب .

فإن قلت : هذا الكلام يدلّ على توقفه عليه السلام في أمرها ، وأنتم تقولون : إنها من أهل الجنة ، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام ؟

قلت : يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها ؛ فإنّ أصحابنا يقولون : إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت ، وقالت : لوددْت أن لى من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين ؛ كلّهم ماتوا ، ولم يكن يوم الجمل . وأنّها كانت بعد قتله تُثنى عليه وتنشر مناقبَه ؛ مع أنهم رووْا أيضا أنها عَقِيب الجمل كانت تبكى حتى تبلّ خمارها ، وأنها استغفرت الله وندمت ؛ ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عَقِيب الجمل بلاغا يقطع العذر ويثبت الحجة ؛ والذى شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعا مستفيضا ، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهى على ذلك ، والتائب مغفور له ، ويجب قبول التوبة عندنا فى العدل ، وقد أكّدوا وقوع التوبة ؛ منها ما روى فى الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآخرة كما كانت زوجته فى الدنيا ، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أنْ نتكلّف إثبات توبتها ولو لم ينقل ، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر !

***

الأصْلُ :

منه :

سَبِيلٌ أبْلَجُ الْمِنهَاجِ ، أنْوَرُ السِّرَاجِ ؛ فَبِالإيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإيمَانِ ، وَبِالإيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنيَا ، وَبِالدُّنيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ

لِلْفَاوِينَ . وَإِنَّ ٱلْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ ٱلْقِيَامَةِ ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى .

***

الشرح :

هو الآن فى ذكر الإيمان ، وعنه قال : « سبيل أبلج المنهاج » ، أى واضح الطريق.

ثم قال: «فبالإيمان يستدلّ على الصالحات» ، يريد بالإيمان هاهنا مسمّاه اللغوى لا الشرعىّ لأنّ الإيمان فى اللغة هو التصديق ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾[1] أى بمصدّق ، والمعنى أنّ من حصل عنده التّصديق ، بالوحدانية والرسالة ؛ وهما كلمتا الشهادة ، استدلّ بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها ، لأنّ للمسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وآله أنه أوجب عليه أعمالاً صالحة ، وندبه إلى أعمال صالحة ؛ فقد ثبت أنّ بالإيمان يستدلّ على الصالحات .

ثم قال : « وبالصالحات يستدلّ على الإيمان » ، فالإيمان هاهنا مستعمل فى مسمّاه الشرعىّ لا فى مسمّاه اللغوىّ ، ومسمّاه الشرعىّ هو العقد بالقلب ؛ والقول باللسان ، والعمل بالجوارح ، فلا يكون المؤمن مؤمنا حتى يستكمل فعل كلّ واجب ، ويجتنب كلّ قبيح ؛ ولا شبهة أنا متى علمنا أو ظننّا من مكلّف أنه يفعل الأفعال الصالحة ، ويجتنب الأفعال القبيحة ؛ استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه ، وبهذا التفسير الذى فسّرناه نسلم من إشكال الدّور ، لأنّ لقائل أن يقول : من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول ؛ فلو كان كلّ واحد من الإيمان والصالحات يستدلّ به على الآخر ، لزم تقدّم العلم بكلّ واحد منهما على العلم بكلّ واحد منهما ، فيؤدّى إلى الدّور ؛ ولا شبهة أن هذا الدّور غير لازم على التفسير الذى فسّرناه نحن .

---

(١) سورة يوسف ١٧ .

ثم قال عليه السلام : « وبالإيمان يعمر العلم » ؛ وذلك لأنّ العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما عِلم ، بل مستضرّ به غاية الضرر ؛ فكأنّ علمه خراب غير معمور ؛ وإنما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرِنا أو القول اللسانيّ على قول آخرين ؛ ومذهبنا أرجح، لأنّ عمارة العلم إنما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح ؛ وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان .

ثم قال : « وبالعلم يُرهب الموت » ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(١) .

ثم قال : « وبالموت تختم الدنيا » ؛ وهذا حق لأنه انقطاع التكليف .

ثم قال : « وبالدنيا تحرز الآخرة » ؛ هذا كقول بعض الحكماء . الدنيا متجر، والآخرة ربح ، ونفسك رأس المال .

ثم قال : « وبالقيامة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين » ، هذا من القرآن العزيز(٢) .

وتزلف لهم : تقدّم لهم وتقرّب إليهم .

ولا مقصَر لي عن كذا : لا محبس ولا غاية لي دونه . وأرقل : أسرع . والمضمار : حيث تستبِق الخيل .

***

الأصْل :

منها :

قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ ؛ لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا ؛

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ . سورة الشعراء ٩٠ ، ٩١ .

لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا، وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ.

وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ؛ لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.

* * *

الشرح:

شَخَصُوا من بلد كذا: خرجوا. ومستقرّ الأجداث: مكان استقرارهم بالقبور؛ وهى جمع جَدَث.

ومصائر الغايات: جمع مَصِير، والغايات: جمع غاية وهى ماينتهى إليه، قال الكميت:

فالآن صرت إلى أُمَيّـــة والأمور إلى مصايرْ

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب؛ كلّ من الفريقين يقيم بدار لا يتحوّل منها؛ وهذا كما ورد فى الخبر: « إنه ينادِى منادٍ: ياأهل الجنّة سعادة لافناء لها، وياأهل النار؛ شقاوة لافناء لها ».

ثم ذكر أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خُلقان من خُلُق الله سبحانه؛ وذلك لأنه تعالى ماأمر إلّا بمعروف، ومانهى إلاعن منكر؛ ويبقى الفرق بيننا وبينه أنّا يجب علينا النهى عن المنكر بالمنع منه، وهو ـ سبحانه ـ لايجب عليه ذلك؛ لأنه لومنع من إتيان المنكر لبطل التكليف.

ثم قال: « إنّهما لايقرّبان من أجَلٍ، ولا ينقصان من رزق »، وإنما قال عليه السلام

ذلك ، لأنّ كثيرا من الناس يكفّ عن نهى الظلمة عن المناكير ؛ توهّما منه أنهم إمّا أن يبطشوا به فيقتلوه ،أو يقطعوا رزقه ويحرموه ، فقال عليه السلام : إنّ ذلك ليس مما يقرّب من الأجل ، ولا يقطع الرزق . وينبغى أن يحمَل كلامُه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظنّ بعدم تطرّق الضرر الموفِي على مصلحة النهى عن المنكر .

ثم أمر باتباع الكتاب العزيز ، ووصفه بما وصفَه به .

وماء ناقع ، ينقع الغلة ، أى يقطعها ويُروى منها . ولا يزيغ : يميل فيُستعتب : يطلب منه العتبى هى الرضا ؛ كما يطلب من الظالم يميل فيسترضى .

قال : ولا يخلقه كثرة الردّ وولوج السمع ، هذا من خصائص القرآن المجيد شرّفه الله تعالى ، وذلك أنّ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردّد ولوجُه الأسماع ملّ وسُمج واستُهجن ؛ إلا القرآن فإنه لا يزال غضا طريًا محبوبًا غير مملول .

(١٥٧)

الأصل

وقام إليه عليه السلام رجل ، فقال : أخبرنا عن الفتنة ، وهل سألتَ عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال عليه السلام :

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، مَاهَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا ؟ فَقَالَ : يَاعَلِيُّ ؛ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي .

فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي: « أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ ؟ » فَقَالَ لِي : « إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً » ! فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ؛ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ؛ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ ، وَقَالَ : يَاعَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ .

فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ؟ فَقَالَ : بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ .

●●●

الشرح :

قد كان عليه السلام يتكلم فى الفتنة ؛ ولذلك ذكر الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولذلك قال : « فعليكم بكتاب الله » ، أى إذا وقع الأمر واختلط الناس ، فعليكم بكتاب الله ؛ فلذلك قام إليه مَنْ سأله عن الفتنة . وهذا الخبر مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قد رواه كثير من المحدّثين عن علىّ عليه السلام ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب علىّ جهاد المشركين » ، قال : فقلت : يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التى كتب علىّ فيها الجهاد ؟ قال : قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وَأنّى رسول الله ، وهم مخالفون للسنّة . فقلت : يا رسول الله ، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد ؟ قال : على الإحداث فى الدّين ، ومخالفة الأمر ؛ فقلت : يارسول الله ، إنك كنت وعدتَنى الشهادة ، فاسأل الله أن يعجّلها لى بين يديك ، قال : فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ! أما إنّى وعدتك الشهادة وستستشهد ؛ تضربُ على هذه فتخضب هذه ، فكيف صبرك إذاً ! قلت : يارسول الله ليس ذا بموطن صبر ، هذا موطن شكر ، قال : أجلْ ، أصبت ، فأعدّ للخصومة فإنك مخاصَم ، فقلت : يا رسول الله ، لو بينت لى قليلا ! فقال : إن أمتى ستُفتَن من بعدى ؛ فتتأوّل القرآن وتعمل بالرأى ؛ وتستحلّ الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهديّة ، والرّبا بالبيع ، وتحرّف الكتاب عن مواضعه ، وتغلب كلمة الضلال ، فكن جليسَ بيتك حتى تقلّدَها ، فإذا قُلِّدتها جاشت عليك الصدور ، وقلبت لك الأمور ؛ تقاتل حينئذ عَلَى تأويل القرآن ، كما قاتلتَ عَلَى تنزيله ؛ فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى . فقلت : يا رسولَ الله ، فبأىّ المنازل أنزِل هؤلاء المفتونين من بعدك ؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزله ردّة ؟ فقال : بمنزلة فتنةٍ يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدْل . فقلت : يا رسولَ الله ، أيدركهم العدل مِنّا أم من غيرنا ؟ قال : بل منّا ، بنا فتح وبنا يختَم ، وبنا ألّف الله بين القلوب

بعد الشرك ، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة . فقلت : الحمد لله على ما وهب لنا من فضله .

* * *

واعلم أنّ لفظه عليه السلام المروىّ فى "نهج البلاغة" يدلّ على أنّ الآية المذكورة وهى قوله عليه السلام : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ أنزلت بعد أُحُد ؛ وهذا خلاف قول أرباب التفسير ، لأنّ هذه الآية هى أوّل سورة العنكبوت وهى عندهم بالاتفاق مكيّة ، ويوم أُحُد كان بالمدينة ؛ وينبغى أن يقال فى هذا : إنّ هذه الآية خاصّة أنزلت بالمدينة ، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة ؛ وغلب عليها نسب المكىّ لأنّ الأكثر كان بمكة ، وفى القرآن مثل هذا كثير ، كسورة النحل ، فإنها مكيّة بالإجماع ، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أُحُد ، وهى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

فإن قلت : لِمَ قال : « علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسولُ الله بين أظهرنا » ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (٢) .

وقوله : « حيزتْ عنّى الشّهادةُ » ، أى منعت .

قوله : « ليس هذا من مواطن الصبر » كلامٌ عالٍ جدًا يدلّ على يقين عظيم ، وعرفانٍ تام ، ونحوه قوله — وقد ضربه ابن ملجم — : فزتُ وربّ الكعبة .

---

(١) سورة النحل ١٢٦ — ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣٣ .

قوله : « سيُفتنون بعدِى بأموالهم » من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (١) .

قوله : « ويمنُّون بدينهم على ربهم » ، من قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ (٢) .

قوله : « ويتمنَّوْن رحمته » من قوله : « أحمق الحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله » .

قوله : «وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ» من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

والأهواء الساهية : الغافلة . والسُّحْت : الحرام ، ويجوز ضم الحاء ، وقد أسحت الرجل فى تجارته ، إذا اكْتَسَبَ السُّحْت .

وفى قوله : « بل بمنزلة فتنة » تصديق لمذهبنا فى أهل البغى ، وأنهم لم يدخلوا فى الكفر بالكليّة ، بل هم فسّاق ، والفاسق عندنا فى منزلة بين المنزلتين ، خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر .

(١) سورة الأنفال ٢٨ .
(٢) سورة الحجرات ١٧ .
(٣) سورة الأعراف ٩٩ .

(١٥٨)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي جَعَلَ اَلْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلاً عَلَى آلاَئِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ اَللّٰهِ ؛ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ . آخِرُ فَعَالِهِ [(١)] كَأَوَّلِهِ ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاَمُهُ . فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ؛ فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِي اَلْهَلَكَاتِ ؛ وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ ؛ وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ . فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

اِعْلَمُوا عِبَادَ اَللّٰهِ ؛ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ ؛ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ . أَلاَ وَ بِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ اَلْخَطَايَا، وَ بِالْيَقِينِ تُدْرَكُ اَلْغَايَةُ اَلْقُصْوَى .

عِبَادَ اَللّٰهِ ؛ اَللّٰهَ اَللّٰهَ فِي أَعَزِّ اَلْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ اَلْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ : فَشِقْوَةٌ لاَزِمَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ . فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ اَلْفَنَاءِ ، لِأَيَّامِ اَلْبَقَاءِ . قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى اَلزَّادِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى اَلْمَسِيرِ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ . أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ

---

(١) د : « أفعاله » .

خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ ٱللهُ مِنَ ٱلْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ ٱللهِ، ٱحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ ٱلْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ ٱلْأَطْفَالُ.

ٱعْلَمُوا ـ عِبَادَ ٱللهِ ـ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ؛ وَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ؛ يَذْهَبُ ٱلْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ ٱلْغَدُ لَاحِقاً بِهِ؛ فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَالَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ؛ قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ ٱلْأَبَاطِيلُ، وَٱضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ ٱلْعِلَلُ، وَٱسْتَحَقَّتْ بِكُمُ ٱلْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ مَصَادِرَهَا؛ فَٱتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَٱعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَٱنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

***

الشرح:

جعل الحمد مفتاحا للذكر؛ لأنّ أوّل الكتاب العزيز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾؛ والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]،

---

(١) سورة الحجر ٩.

وسببا للمزيد ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] ، والحمد ها هنا هو الشكر ، ومعنى جعله الحمدَ دليلا على عظمته وآلائه أنه إذا كان سببا للمزيد ، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه ؛ أمّا دلالته عَلَى عظمته ، فلأنّه دالٌّ عَلَى أنّ قدرته لاتتناهى أبداً ؛ بل كلّما ازداد الشكر ازدادت النعمة . وأمّا دلالته عَلَى آلائه ، فلأنّه لا جودَ أعظمُ من جود مَنْ يعطى مَنْ يحمَده ، لا حمداً متطوّعا ، بل حمْدا واجبا عليه .

قوله : « يجرى بالباقين كجريه بالماضين » ، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم مانظموه فى هذا المعنى ، قال بعضهم :

مات مَنْ مات والثريّا الثريّا والسِّماك السِّماك والنَّسْرُ نَسْرُ
ونجــوم السّماء تضحك مِنّا كيفَ تَبْقَى مِنْ بعدِنَا وَنمُرّ !

وقال آخر :

فما الدّهرُ إلا كالزّمان الّذى مَضَى ولا نحن إلّا كالقرون الأوائلِ

قوله : « لا يعود ما قد ولّى منه » ، كقول الشاعر :

مَا أحْسَنَ الأيّام إلّا أنّهَا ياصاحبىَ إذا مَضَتْ لم ترجعِ[2]

قوله : « ولا يبقى سرمداً ما فيه » ؛ كلام مطروق المعنى ، قال عدىّ :

ليس شىءٌ عَلَى المنون بباقِ غير وجــه المهيمن الخلّاقِ

قوله : « آخر أفعاله كأوّله » ، يروى : « كأوّلها » ، ومن رواه : « كأوّله » أعاد الضّمير إلى الدهر ، أى آخر أفعال الدهر كأوّل الدهر ، فحذف المضاف .

متشابهة أموره ؛ لأنّه ـ كما كان من قبل ـ يرفع ويضع ، ويغنى ويفقر ، ويوجد

---

(١) سورة إبراهيم ٧ .
(٢) للبحترى ، ديوانه ٢ : ١٠٠ .

وبعدم ، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة . وروى : « متسابقة » أى شىء منها قبل شىء ، كأنها خيلٌ تتسابق فى مِضمارٍ .

متظاهرة أعلامه ، أى دَلالاته على سجيّتِهِ التى عامَل النّاس بها قديما وحديثا .

متظاهرة : يقوى بعضها بعضا . وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام عَلَى عادة العرب فى ذكر الدّهر ؛ وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر .

والشَّوْل : النُّوق التى خَفّ لبنها وارتفع ضَرْعها ، وأتى عليها من نتَاجها سبعة أشهر أو ثمانية ، الواحدة شائلة ، وهى جَمْعٌ عَلَى غير القياس . وشَوّلت الناقة ، أى صارت شائلة ، فأما الشائلة بغيرها ، فهى الناقة تَشُول بذَنبها للقاح ولا لبنَ لها أصلا ، والجمع شُوّل ، مثل راكع وركّع ، قال أبو النجم :

* كأنَّ فى أذنابهنَّ الشُّوّلِ[1] *

والزاجر : الذى يزجر الإبل بسوقها ، ويقال : حدوتُ إبلى وحدوتُ بإبلى ، والحدو سَوْقها ، والغناء لها ، وكذلك الحُداء ، ويقال للشّمال : حَدْواء ، لأنّها تحدو السحاب ، أى تسوقه ، قال العجاج :

* حَدْوَاء جاءتْ من بــلاد الطورِ[2] *

ولا يقال المذكر : « أحْدَى » ، وربما قيل للحمار إذا قدم أُتنه : حادٍ ، قال ذو الرُّمة :

* حادى ثلاثٍ من الحُقْب السَّماحيج[3] *

والمعنى أنّ سائقَ الشَّوْل يعسِف بها ، ولا يتّقى سَوْقها ولا يدارك كما يسوق العِشار[4] .

---

(١) اللسان (شول) .

(٢) ديوانه ٢٨ .

(٣) ديوانه ٧٨ ، وصدره :

* كأنَّهُ حِينَ يَرْمِى خَلْفَهُنَّ به *

(٤) العشار من الإبل : التى قد أتى عليها عشرة أشهر .

ثم قال عليه السلام : « مَنْ شغَل نفسَه بغير نفسه هلك » ، وذلك أنّ من لا يوفى النظرَ حقّه ، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف . والحجاج ممّا رُبّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا فى قلبه العقائد ؛ يكون قد شغل نفسَه بغير نفسه، لأنّه لم ينظر لها ، ولاقصد الحقّ من حيث هو حقّ ، وإنّما قصد نُصْرة مذهب معيّن يشقّ عليه فراقه ، ويصعب عنده الانتقال منه ؛ ويسوءه أن يردّ عليه حجةٌ تبطله ، فيُسهر عينه ، ويتعب قلبَه فى تهويس[1] تلك الحجة والقدح فيها بالغثّ والسمين ، لا لأنه يقصد الحقّ ، بل يقصد نصرة المذهب المعيّن ، وتشييد دليله ، لا جرَم أنّه متحيّر فى ظلمات لا نهاية لها !

والارتباك : الاختلاط ، ربكت الشيءأربكه ربْكاً ، خلطته فارتبك ، أى اختلط ، وارتبك الرّجل فى الأمر ، أى نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه .

قوله : « ومدّت به شياطينه فى طغيانه » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[2] .

وروى : « ومدّت له شياطينه » باللّام ، ومعناه الإمهال ،مدّ له فى الغىّ ، أى طوّله، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾[3] .

قوله : « وزينت له سيّء أعماله » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾[4] .

قوله : « التقوى دار حصن عزيز » ، معناه دار حصانة عزيزة ، فأقام الاسم مقام المصدر ، وكذلك فى الفجور .

ويحرز مَنْ لجأ إليه : يحفظ من اعتصم به .

---

(١) تهويس الحجة : إفسادها .
(٢) سورة الأعراف ٢٠٢ .
(٣) سورة مريم ٧٥ .
(٤) سورة فاطر ٨ .

وحُمَةَ الخطايا : سمّها ، وتقطع الحمة ، كما تقول : قطعت سَرَيان السمّ فى بدن الملسوع بالبادزهرات والترياقات ؛ فكأنه جعل سمّ الخطايا ساريا فى الأبدان ، والتقوى تقطع سريانه .

قوله : « وباليقين تدرك الغاية القصوى » ؛ وذلك لأنّ أقصى درجات العرفان الكشف ؛ وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين .

وانتصب «اللهَ ، الله » على الإغراء . و « فى » متعلّقة بالفعل المقدّر ؛ وتقديره : راقبوا . وأعزّ الأنفس عليهم ، أنفسهم .

قوله : « فشِقْوة لازمة » ، مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف ؛ تقديره : فغايتكم ، أو فجزاؤكم ، أو فشأنكم ؛ وهذا يدلّ على مذهبنا فى الوعيد ، لأنه قسّم الجزاء إلى قسمين ، إمّا العذاب أبدا ، أو النعيم أبدا ؛ وفى هذا بطلان قول المرجئة : إنّ ناساً يخرجون من النّار فيدخلون الجنة ، لأن هذا لو صحّ لكان قسماً ثالثاً .

قوله : « فقد دُلِلتُم على الزّاد » ، أى الطاعة .

وأمرتم بالظَّعن ، أى أمرتم بهجْر الدنيا ، وأنْ تظعَنُوا عنها بقلوبكم . ويجوز : « الظَّعْن » بالتسكين .

وحُثِثتم على المسير ؛ لأنّ الليل والنهار سائقان عنيفان .

قوله : « وإنّما أنتم كركْب وقوف لا يَدْرُون مَتَى يؤمرون بالسير » ، السَّيْر هاهنا ، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة ؛ بالموت ؛ جعل الناس ومقامهم فى الدنيا كركْب وقوف لا يدرون متى يقال لهم : سيروا فيسيرون ، لأنّ النّاس لا يعلمون الوقت الذى يموتون فيه .

فإن قلت : كيف سمّى الموت والمفارقة سيراً ؟

قلت : لأنّ الأرواح يُعْرَجُ بها إمّا إلى عالمها وهم السُّعداء ، أو تهوى إلى أسفل

السافلين وهم الأشقياء ؛ وهذا هو السَّيْر الحقيق ، لا حركة الرجل بالمشى ، ومَنْ أثبت الأنفس المجرّدة ، قال : سَيْرها خلوصها من عالم الحسّ ، واتّصالها المعنوىّ لا الأبدىّ ببارئها ، فهو سير فى المعنى لا فى الصورة ؛ ومَنْ لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال : إنّ الأبدان بعد الموت تأخذ فى التحلّل والتزايل ، فيعود كلّ شىء منها إلى عنصره ، فذلك هو السَّيْر .

و « ما » فى « عمّا قليل » زائدة . وتَبِعتُه : إثمُه وعقوبته .

قوله : « إنه ليس لما وعد الله من الخير مَتْرَك » ، أى ليس الثواب فيما ينبغى للمرء أن يتركه ، ولا الشرّ فيما ينبغى أن يرغب المرء فيه .

وتفحَصُ فيه الأعمال : تكشف . والزَّلزال ، بالفتح : اسم للحركة الشديدة والاضطراب ، والزِّلْزال ؛ بالكسر المصدر ، قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾[1] .

قوله : « ويشيب فيه الأطفال » كلامٌ جارٍ مجرى المثل ، يقال فى اليوم الشديد : إنه ليُشِيب نواصى الأطفال ؛ وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[2] ، وليس ذلك على حقيقته ، لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر حالهم فى الآخرة إلى الشيب ؛ والأصل فى هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالتْ على الإنسان شاب سريعاً ، قال أبو الطيّب :

والهمُّ يخترِم الجسيمَ نحافةً ... ويُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ[3]

قوله : « إنّ عليكم رصداً من أنفسكم ، وعيوناً من جوارحكم » ، لأنّ الأعضاء تنطق فى القيامة بأعمال المكلفين ، وتشهد عليهم .

---

(١) سورة الأحزاب ١١ .
(٢) سورة المزمل ١٧ .
(٣) ديوانه ٤ : ١٢٤ .

والرّصد جمع راصد، كالحرس جمع حارس.

قوله: « وحفّاظ صدق »؛ يعنى الملائكة الكاتبين؛ لا يعتصم منهم بسترة ولا ظلام ليل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إذا ما خلوت الدّهر يوما فلا تقلْ خَلَوْتُ؛ وَلَكِن قُل: علىّ رقيبُ

قوله: « وإنّ غدا من اليوم قريب »، ومنه قول القائل:

* فإنّ غَـدا لناظِرِهِ قَرِيبُ[1] *

منه قوله:

* غدٌ ما غدٌ ما أقرب اليوم من غدِ *

ومنه قول الله تعالى: ﴿ إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ أَليسَ الصُّبحُ بِقَرِيبٍ ﴾[2].

والصيحة: نفخة الصُّور.

وزاحت الأباطيل: بعدت. واضمحلّت: تلاشت وذهبت.

قوله: « واستحقّت »، أى حقت ووقعت، استفعل بمعنى « فعل »، كقولك: استمرّ على باطله، أى مرّ عليه.

وصدرت بكم الأمور مصادرها، كلّ وارد فله صَدَر عن مورده، وصدَر الإنسان عن موارد الدنيا: الموت ثم البعث.

(١) صدره:

* فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَـذَا الْيَوْمِ وَلّى *

(٢) سورة هود ٨١

(١٥٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ ؛ ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ ؛ وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . . .

أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِى ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِى ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ .

* * *

الشّرْحُ :

الهجْعة : النَّوْمة الخفيفة؛ وقد تستعمل فى النَّوْم المستغرَق أيضا. والمبرَم: الحبل المفتول. والذى بين يديه : التوراة والإنجيل .

فإن قلت : التوراة والإنجيل قبله ، فكيف جعلهما بين يديه ؟

قلت: أحد جزأىِ الصلة محذوف وهو المبتدأ ؛ والتقدير : بتصديق الذى هو بين يديه؛ وهو ضمير القرآن ، أى بتصديق الذى القرآن بين يديه ؛ وحذف أحد جزأىِ الصلة هاهنا، ثم حذفه فى قوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾[1] ، فى قراءة مَنْ جعله اسما

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥ .

مرفوعا، وأيضا فإنّ العرب تستعمل «بين يديه» بمعنى «قبل»، قال تعالى: ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1]، أى قبله.

***

الأصل:

منها:

فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ؛ مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ؛ وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ؛ مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ؛ وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ.

فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَتَطَعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا، مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

***

الشرح:

التَّرْحة: الحزن، قال: فحينئذ لا يبقى لهم، أى يحيق بهم العذاب؛ ويبعث الله عليهم مَنْ ينتقم، وهذا إخبارٌ عن مُلْك بنى أميّة بعده؛ وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم فى الأرض.

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظّلَمة، ومَنْ كان يؤثر ملكهم، فقال، «أصفيتم بالأمر

---

(١) سورة سبأ ٤٦.

غير أهله ، أصفيتُ فلانا بكذا : خصصته به ، وصفيّة المغنم : شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة .

وأوردتموه غير ورده : أنزلتموه عند غير مستحقه .

ثم قال : سيبدّل الله مآكلهم اللذيذة الشهيّة بمآكل صبرة علقميّة . والمقر : المرّ . ومآكلا منصوب بفعل مقدّر أى يأكلون مآكلاً ؛ والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصلة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ ﴾[1] وكقول أبي تمام :

فَبِما قدْ أرَاهُ رَيَّانَ مَكْسُوَّ   المعانِي مِنْ كلِّ حُسْن وطيب[2]

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[3] .

وجعل سمارهم الخوف ، لأنه باطن فى القلوب ، ودِثارهم السّيف لأنه ظاهر فى البدن ؛ كأن الشّعار ما كان إلى الجسد والدّثار ما كان فوقه .

ومطايا الخطيّات : حوامل الذنوب . وزوامل الآثام : جمع زاملة ، وهى بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه ، قال الشاعر :

زَوامِلُ أشْعَارٍ وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ   بجيِّدِها إلَّا كعِلْمِ الأباعِرِ[4]

وتنخّمت النُّخامة : إذا تنخمتها ، والنُّخامة : النُّخاعة .

والجديدان : الليل والنهار ؛ وقد جاء فى الأخبار الشائعة المستفيضة فى كتب المحدّثين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر أنّ بنى أميّة تملك الخلافة بعده ، مع ذمّ منه عليه

---

(١) سورة النساء ١٥٥ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٤ .

(٣) سورة القصص ١٧ .

(٤) بعده :

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِى الْبَعِيرُ إذَا غَدَا   بأوسَاقِهِ أوْ رَاحَ ما فِى الْغَرَائِرِ

والبيتان لمروان بن سليمان بن أبى حفصة ، يهجو قوما من رواة الشعر (اللسان — زمل) .

والسلام لهم ، نحو ماروى عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[١] فإن المفسرين قالوا : إنه رأى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذى فسر لهم الآية به ، فساءه ذلك ثم قال : الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ؛ ونحو قوله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دُوَلا وعباده خَوَلاً » ونحو قوله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[٢] قال : ألف شهر يملك فيها بنو أمية . وورد عنه صلى الله عليه وآله من ذمهم الكثير المشهور نحو قوله : « أبغض الأسماء إلى الله الحكم وهشام والوليد » ، وفي خبر آخر : « اسمان يُبْغضهما الله : مروان والمغيرة » ؛ ونحو قوله : « إن ربكم يحب ويُبغض ؛ كما يحب أحدكم ويبغض ، وإنه يبغض بنى أمية ويحب بنى عبد المطلب » :

فإن قلت : كيف قال : « ثم لا تذوقها أبدا » وقد ملكوا بعد قيام الدولة الهاشمية بالمغرب مدة طويلة ؟

قلت : الاعتبار بملك العراق . والحجاز ؛ وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به .

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٢) سورة القدر ٣ .

(١٦٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ وَحَلَقِ الضَّيْمِ ؛ شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

أحطت بجُهدى من ورائكم : حميتُكم وحضَنْتُكم . والجُهد ، بالضمّ الطاقة . الرِّبَق جمع رِبْقة ، وهى الحبل يُرْبَق به البهم .

وحلَق الضيم : جمع حَلْقة ، بالتسكين ، ويجوز : « حِلق » بكسر الحاء وحِلاق .

فإن قلت : كيف يجوز له أن يطرق ويغضِى عن المنكر ؟

قلت : يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنّه أنّه إن نهاهم عنه لم يرتدعوا ، وأضافوا إليه منكراً آخر ، فحينئذ يخرج الإطراق والإغضاء عن حالّ الجواز إلى حدّ الوجوب ، لأنّ النهى عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة .

(١٦١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ ؛ يَقْضِي بِعِلْمٍ ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ .

اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي ؛ وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي ؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ ؛ وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ ؛ حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ ؛ حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ ؛ حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ ؛ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ ؛ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ؛ لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ ، أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ ، وَأَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ .

وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ ؛ وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ـ أَعْظَمُ . فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَوَاتِكَ ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ ـ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً ، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً ، وَسَمْعُهُ وَالِهاً ، وَفِكْرُهُ حَائِراً .

* * *

الشرح

يجوز أن يكون أمره هاهنا هو الأمر الفعلىّ ، لا الأمر القولىّ ، كما يقال : أمر فلان مستقيم ، وما أمر كذا ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾[1] ، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[2] ، فيكون المعنى أنّ شأنه تعالى ليس إلّا أحد شيئين وهما « أن يقول » ، « وأن يفعل » ، فعبّر عن « أن يقول » بقوله : « قضاء » لأنّ القضاء الحكم ، وعبر عن « أن يفعل » بقوله : « وحكمة » لأنّ أفعاله كلّها تتبع دواعىَ الحكمة . ويجوز أن يكون « أمره » هو الأمر القولى ؛ وهو المصدر من « أمر له بكذا أمراً » فيكون المعنى أنّ أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة ؛ وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب فى القرآن العزيز فى قوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[3] ، أى أوجب وألزم .

قوله : « ورضاه أمانٌ ورحمة » ؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة ؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة .

قوله : « يقضى بعلم » ، أى يحكم بما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء ، أو وجوبه فى العدل .

قوله : « ويعفو بحلم » ، أى لا يعفو عن عجز وذلّ ، كما يعفو الضعيف عن القوىّ ؛ بل هو قادر على الانتقام ولكنّه يحلم .

ثم حمِد الله تعالى على الإعطاء والأخذ ، والعافية والبلاء ؛ لأنّ ذلك كلّه من عند الله لمصالح للمكلّف ، يعلمها وما[4] يعلمها المكلّف ، والحمد على المصالح واجب .

---

(١) سورة القمر ٥٠ .
(٢) سورة النحل ٧٧ .
(٣) سورة الإسراء ٢٣ .
(٤) د : « ولا » .

ثم أخذ فى تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة فى وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله زنةَ عرشه ، الحمد لله عددَ خلقه ، الحمد لله ملء سمائه وأرضه »، فقال عليه السلام : حمداً يكون أرضَى الحمد لك » ، أى يكون رضاك له أوفَى وأعظم من رضاك بغيره ، وكذلك القول فى : « أحبّ » و « أفضل » .

قوله : «و يبْلُغ ماأردت » ، أى هو غاية ماتنتهى إليه الإرادة ؛ وهذا كقول الأعرابية فى صفة المطر : غشينا ماشئنا ؛ وهو من فصيح الكلام .

قوله : « لايحجب عنك » ، لأنّ الإخلاص يقارنه ، والرياء منتفٍ عنه .

قوله : « ولا يُقْصَرُ دونك » ؛ أى لا يحبَس ؛ أى لامانع عن وصوله إليك ، وهذا من باب التوسّع ؛ ومعناه : أنه برىء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه ، وروى « ولا يقُصر » من القصور ، وروى « ولا يقصّر » من التقصير .

ثم أخذ فى بيان أنّ العقول قاصرة عن إدراك البارى سبحانه والعلم به ، وأنا إنما نعلم منه صفات إضافية أو سلبية ؛ كالعلم بأنه حىّ ، ومعنى ذلك أنه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدّر ؛ وأنّه قيوم بمعنى أن ذاته لايجوز عليها العدَم ، أى يقيم الأشياء ويمسكها ؛ وكلّ شىء يقيم الأشياء كلّها ويمسكها ، فليس بمحتاج إلى مَنْ يقيمه ويمسكه ؛ وإلّا لم يكُنْ مقيما وممسكا لكلّ شىء ، وكلّ مَنْ ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه ؛ فذاته لايجوز عليها العَدَم. وأنّه تعالى لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم ؛ لأنّ هذا من صفات الأجسام ؛ ومالا يجوز عليه العَدَم لايكون جِسْماً ، ولا يوصف بخواصّ الأجسام ولوازمها ، فإنه لاينتهى إليه نظَر ، لأن انتهاء النظر إليه ؛ يستلزم مقابلته وهو تعالى منزه عن الجهة ، وإلا لم يكن ذاته مستحيلا عليها العدم ، وأنه لا يدركه بصَر ، لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثلتها فى الرطوبة الجليدية كانطباع أشباح المرئيّات فى المرآة ، والبارى تعالى لا يتمثّل ، ولا يتشبّح ؛ وإلّا لم يكن

قيوماً ، وأنه يدرك الأبصار ؛ لأنه إمّا عالم لذاته ، أو لأنه حيّ لا آفة به ، وأنه يحصى الأعمال لأنه عالم لذاته ، فيعلم كلّ شىء حاضراً وماضياً ومستقبلا ، وأنه يأخذ بالنواصى والأقدام ، لأنه قادر لذاته ، فهو متمكّن من كلّ مقدور .

ثم خرج إلى فنّ آخر ؛ فقال : وما الذى نعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك ، والغائب عنّا من عظمتك أعظم من الحاضر ! مثال ذلك أن جِرْم الشمس أعظمُ من جِرْم الأرض مائة وستين مرّة . ولا نسبة لجِرْم الشمس إلى فَلَكها المائل ، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها المِيل ؛ وفلك تدوير المرّيخ الذى فوقها أعظمُ من ممِيل الشمس ؛ ولا نسبة لفلك تدوير المرّيخ إلى فلكه المِيل ؛ وفلك تدوير المشترى أعظم من ممِيل المرّيخ ، ولا نسبة لفلك تدوير المشترى إلى فلكه المِيل ، وفلك تدوير زُحَل أعظم من ممِيل المشترى ، ولا نسبة لفلك تدوير زُحل إلى ممِيل زحل ، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت ، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى : فانظر أىّ نسبة تكون الأرض بكليّتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس ، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه ، وتنتهى دونه ، وتحول سواتر الغيوب بينها وبينه ، كما قال عليه السلام .

ثم ذكر أنّ مَنْ أعمل فكرَه ليعلم كيف أقام سبحانه العرش ، وكيف ذرأ الخلق ، وكيف علّق السموات بغير علاقة ولا عَمَد ، وكيف مدّ الأرض على الماء ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً . وهذا كلّه حقّ ، ومن تأمل كتبنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين علّلوا هذه الأمور ، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسبابا عقلية ، وادّعوا وقوفهم على كُنهها وحقائقها ، علم صحة ما ذكره عليه السلام ، من أنّ مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى ، وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله ، فقد ضل ضلالا مبينا .

وروى : « وفكره جائرا » ، بالجيم ، أى عادلا عن الصواب والحسير : المتعب . والمبهور : المغلوب . والواله : المتحيّر .

***

الأصْلُ :

منها :

يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ! فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ـ إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ـ إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ ـ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ .

يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ ؛ فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ ! فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ !

أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً ، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً ! وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ ؛ أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ ؛ فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً .

وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ؛ آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ ؛ فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا ، وَصَارَ عَبْداً لَهَا .

***

الشّرح :

يجوز « بزُعمه » ، بالضم و « بزَعمه » بالفتح ، و « بزِعمه » بالكسر ، ثلاث لغات ، أى بقوله فأما من « زعمت » ، أى كفلت ، فالمصدر « الزّعم » بالفتح ، والزّعامة .

ثم أقسم على كذب هذا الزاعم، فقال : « والعظيم »، ولم يقل : والله العظيم، تأكيداً لعظمة البارئ سبحانه، لأنّ الموصوف إذا أُلقِيَ وتُرِكَ واعتُمِدَ على الصّفة حتى صارت كالاسم، كان أدلّ على تحقق مفهوم الصفة، كالحارث والعباس.

ثم بيّن مستنَد هذا التكذيب، فقال : مابالُ هذا الزاعم ! إنه يرجو ربَّه، ولا يَظهر رجاؤه فى عمله، فإنّا نَرَى مَنْ يَرجو واحداً من البشر يلازم بابه ؛ ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه، ويتقرّبُ إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب ؛ ليظفرَ بمراده منه، ويتحقق رجاؤه فيه، وهذا الإنسان الذى يزعم أنه يرجُو الله تعالى، لا يظهر من أعماله الدينية ما يدلّ على صدق دَعْواه، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه، بل كلّ إنسانٍ هذه صفته، فالخطاب له والحديث معه.

ثم قال : « كلّ رجاء إلّا رجاء الله فهو مدخول »، أى معيب، والدَّخْل، بالتسكين : العيب والرّيبة. ومن كلامهم : « تَرَى الفتيان كالنّخل، ومايدريك ماالدّخْل »(١)، وجاء « الدَّخَل » بالتحريك أيضاً، يقال : هذا الأمر فيه دَخَل ودَغَل، بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾(٢) ؛ أى مكراً وخديعة، وهو من هذا الباب أيضاً.

ثم قال : « وكلّ خوف محقّق إلا خوف الله فإنه معلول » : محقّق، أى ثابت، أى كلّ خوفٍ حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح ؛ إلا خوف الله وحده وتقواه، وهيبته وسطوته وسخطه، ذلك لأنّ الأمر الذى يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال، والأمر الذى يُخاف من البارى تعالى لاغاية له ولا انقضاء لمحذوره، كما قيل فى الحديث المرفوع : « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ».

---

(١) مثل، وأول من قالته عثمة بنت مطرود البجلية . وانظر الفاخر ١٥٦ .
(٢) سورة النحل ٩٤ .

ثمّ عاد إلى الرجاء ، فقال : يرجو هذا الإنسان الله فى الكثير ، أى يرجو رحمته فى الآخرة ، ولا يتعلق رجاؤه بالله تعالى إلّا فى هذا الموضع ، فأمّا ماعدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضارّ والتوصّل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات ، فإنه لايخطر له الله تعالى ببالٍ ، بل يعتمد فى ذلك على السُّفراء والوسطاء ، ويرجو حصول هذه المنافع ، ودفعَ هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر ، فقد أعطى العبادَ مِنْ رجائه مالم يعطه الخالق سبحانه ، فهو مخطئٌ ؛ لأنه إمّا أن يكونَ هو فى نفسه صالحًا لأن يرجوه سبحانه ، وإمّا ألّا يكون البارئُ تعالى فى نفسه صالحاً لأن يُرجَى ، فإن كان الثانى فهو كُفرٌ صُراح ، وإن كان الأوّل فالعبد مخطئٌ حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لعمل الصالحات ، لأن يصلحَ لرجاء البارئُ سبحانه .

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف ، فقال : وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثلَه ؛خافه أكثر من خوفه البارئُ سبحانه؛ لأنّ كثيرا من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة البارئُ سبحانه ؛ وهذا مشاهَد ومعلوم من النّاس ، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجّل ، وخوفهم من خالقهم ضِمارٌ ووعد . والضّمار : مالا يرجَى من الوعود والديون . قال الراعى :

حَمِدْنَ مَزَارَهُ وأَصَبْنَ مِنْـهُ عَطاءً لم يكُنْ عِـدَةً ضِمارا[1]

ثم قال : « وكذلك من عظمت الدنيا فى عينه » يختارها على الله ، ويستعبده حبها. ويقال : كبُر ، بالضمّ ، يكبُر أى عَظُم ؛ فهو كبير وكُبَار بالتخفيف ؛ فإذا أفرط قيل :

---

(١) اللسان ٦ : ١٦٤ ، وقبله :

وأنضاءٍ أنِخْنَ إلى سَعِيـدٍ طروقاً ثم عَجَّلْنَ ابتكارا

« كُبّار » بالتشديد ، فأمّا كُبر بالكسر ، فمعناه أسن ؛ والمصدر منهما كِبَراً ، بفتح الباء .

***

الأصلُ :

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا ؛ إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾؛وَاللهِ مَاسَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ ،لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ .

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ،وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا ! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَظِلاَلُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَاتُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ ؛ دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ .

***

الشرح :

يجوز أُسوة وإسوة، وقرئ التنزيل بهما، والمساوئ :العيوب؛ ساءه كذا يسوءه سَوْءا بالفتح ومساءة ومسائية . وسوته سوايةً ومسايةً، بالتخفيف ،أى ساءه ماراَه منى. وسأل سيبويهِ الخليل عن « سوائية » ،فقال : هى « فعاليَة » بمنزلة علانيَة، والذين قالوا: « سواية » حذفوا الهمزة تخفيفا ؛ وهى فى الأصل . قال :وسألته عن « مسائيَة » ،فقال: هى مقلوبة وأصلها « مساوئة »فكرهوا الواو مع الهمزة ،والذين قالوا: « مساية »حذفوا الهمزة أيضا تخفيفا ؛ ومن أمثالهم : « الخيل تجرى فى مساويها » ؛ أى أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب ، فإنّ كرمَها يحملها على الجرى .

والمخازى : جمع مَخزاة ؛ وهى الأمر يستحَى من ذكره لقبْحه .

وأكنافُها : جوانبها . وزَوَى : قبض . وزخارف : جمع زُخرف ؛ وهو الذهب ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « عُرِضَتْ علىّ كنوز الأرض ودُفِعت إلىّ مفاتيح خزائنها ، فكرهتُهاواخترت الدار الآخرة » ، وجاء فى الأخبار الصحيحةأنه كان يجوعُ ويشدّ حجَرا عَلَى بطنه . وأنه ماشبع آل محمد من لحم قطّ ، وأنّ فاطمة وبعلَها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير ، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدُّوها لفطورهم ، وباتوا جياعا . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ملك قطعة واسعة من الدّنيا ، فلم يتدنّس منها بقليل ولا كثير ؛ ولقد كانت الإبل التى غنمها يوم حنين أكثر من عشرة آلاف بعير ؛ فلم يأخذ منها وبَرةً لنفسه ، وفرّقها كلّها على الناس ، وهكذا كانت شيمته وسيرته فى جميع أحواله إلى أن توفى .

والصّفاق : الجلد الباطن الذى فوقه الجلْد الظاهر من البطن . وشفيفه : رقيقه الذى يستَشفّ ماوراءه ، وبالتفسير الذى فسر عليه السلام الآية فسّرها المفسرون ، وقالوا :إنّ

خضرة البقل كانت تُرَى فى بطنه من الهزال ، وإنه ما سأل الله إلا أكلةً من الخبز . وما فى ﴿ لِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ بمعنى أىّ ، أىْ إنى لأى شىء أنزلتَ إلىّ — قليل أو كثير ، غثّ أو سمين — فقير .

فإن قلت : لم عدّى « فقيرا » باللام ، وإنما يقال : « فقير إلى كذا » ؟

قلت : لأنه ضمّن معنى « سائل » و « مطالب » . ومن فسّر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتجْ إلى الجواب عن هذا السؤال ، فإنّ قوما قالوا : أراد : إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلتَ إلىّ من خير ، أىْ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ؛ فإنّ ذلك رضا بالبدل السنىّ ، وفرحاً به وشكراً له .

وتشذُّب اللحم : تفرّقه .

والمزامير : جمع مزمار ؛ وهو الآلة التى يزمر فيها ، ويقال : زَمَر يزمِر ويزمُر ، بالضم والكسر ؛ فهو زمّار ، ولا يكاد يقال : زامر ؛ ويقال للمرأة : زامرة ، ولا يقال زمّارة ، فأما الحديث أنّه نَهى عن كَسْب الزمّارة ، فقالوا : إنّها الزانية هاهنا . ويقال : إنّ داود أعطِىَ من طيب النغم ولذّة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو فى محرابه ، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفِر منهم لما قد استفرقها من طيب صوته . وقال النبىّ صلى الله عليه وآله لأبى موسى ، وقد سمعه يقرأ : « لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير داود » ، وكان أبو موسى شجىّ الصوت إذا قرأ . وورد فى الخبر : « داود قارئ أهل الجنة » .

وسفائف الخوص : جمع سفيفة ، وهى النسيجة منه ، سففْت الخوصَ وأسففته بمعنى .

وهذا الذى ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنّه شرح حاله قبل أن يملك فإنه كان فقيرا ، فأمّا حيث ملك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك .

فأما عيسى فحاله كما ذكرها عليه السلام ، لاريب فى ذلك ، على أنه أكل اللحم وشرب

الحمر ، وركب الحمار وخدمه التلامذة ؛ ولكنّ الأغاب من حاله هى الأمور التى عدّدها أمير المؤمنين عليه السلام .

ويقال: حزننى الشىء يحزُننى بالضم؛ ويجوز: «أحزننى» بالهمز يُحزننى،وقرئ بهما، وهو فى كلامه عليه السلام فى هذا الفصل بهما .

ويقال : لفته عن كذا ، يلفِتُه بالكسر ، أى صرفه ولواه .

* * *

الأصل :

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ ،صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى . وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّى بِنَبِيِّهِ ،وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ . قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً ، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً . أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً ، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ ،وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلّهِ تَعَالَى وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى ! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ؛ وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ : يَافُلَانَةُ -لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ- غَيِّبِيهِ عَنِّى ؛ فَإِنِّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنيا وَزَخَارِفَهَا . فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ،وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ،وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً،وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَاماً ، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ؛ وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا ؛ إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ ،فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ : أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ ! فَإِنْ قَالَ : « أَهَانَهُ » فَقَدْ كَذَبَ وَاللهِ الْعَظِيمِ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ ، وَإِنْ قَالَ : « أَكْرَمَهُ »فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ ؛ فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ؛ وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَماً لِلسَّاعَةِ ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ ؛ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً ، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً ، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ ؛ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ ؛ فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ ! وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ : اعْزُبْ عَنِّي ؛ فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى .

***

الشَّرْحُ :

المقتص لأثره : المتبع له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (١) .

وقَضَم الدنيا : تناول منها قدر الكفاف ،وما تدعو إليه الضرورة من خشن العيشة ، وقال أبو ذر رحمه الله : « يخضمون ونقضم ،والموعد الله ! » . وأصلُ القَضم ، أكلُ الشيء اليابس بأطراف الأسنان ، والخضم : أكلٌ بكل الفم للأشياء الرطبة ، وروى : « قصم » بالصاد ، أي كسر .

---

(١) سورة القصص ١١ .

قوله : « أهضَمُ أهلِ الدّنيا كشحا » الكَشْحُ : الخاصرة، ورجلٌ أهضَم : بيِّن الهضَم ؛ إذا كان خميصاً لِقلّةِ الأكل .

وروى : « وحقّر شيئا لحقّره » بالتخفيف . والشّقاق : الخلاف .

والمحادّة : المعَاداة . وخَصَف النّعْل : خرزها . والرياش : الزينة ، والمِدْرعة . الدّرّاعة .

وقوله : « عند الصّباح يحمد القوم السرى » ؛ مثل يضرب لمحتمِل المشقّة العاجلة[1]، رجاء الراحة الآجلة .

***

[نبذ من الأخبار والآثار الواردة فى البعد عن زينة الدنيا]

جاء فى الأخبار الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : « إنّما أنا عبدٌ آكل أكلَ العبيد ، وأجلس جِلْسة العبيد » ؛ وكان يأكل على الأرض ، ويجلس جلوسَ العبيد، يضع قصبَتىْ ساقيه على الأرض ، ويعتمد عليهما بباطنى فَخِذيه ، وركوبه الحمار العارى آيةُ التواضع وهضْم النفس . وإرد ف غيره خلفه آكد فى الدلالة على ذلك .

وجاء فى الأخبار الصحيحة النهىُ عن التصاوير وعن نصب الستور التى فيها التصاوير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى سِتْراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة .

وجاء فى الخبر : « مَنْ صَوّر صورةً كُلِّف فى القيامة أن ينفخ فيها الروح ، فإذا قال : لا أستطيع ، عُذِّب » .

---

(١) وأول من قاله خالد بن الوليد ؛ وانظر مضربه ومورده فى الفاخر ١٩٣ .

قوله : « لم يضع حَجَراً على حجر » هو عين ماجاء فى الأخبار الصحيحة ، خَرَج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا ولم يضع حجَرا على حجر .

وجاء فى أخبار علىٍّ عليه السلام التى ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى كتاب فضائله، وهو رِوايتى عن قريش بن السبيع بن المهنا العلوىّ ، عن نقيب الطالبيين أبى عبد الله أحمد بن على بن المعمّر ، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيرَفىّ المعروف بابن الطيورىّ ، عن محمد بن علىّ بن محمد بن يوسف العلاف المزنىّ ، عن أبى بكر أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك القطيعىّ ، عن عبدالله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه أبى عبد الله أحمد رحمه الله، قال : قيل لعلىٍّ عليه السلام : ياأميرَ المؤمنين ، لم ترقعُ قميصَك ؟ قال . ليخشعَ القلبُ ، ويقتدىَ بى المؤمنون .

وروى أحمد رحمه الله أنّ عليا كان يطوفُ الأسواق مؤتزراً بإزار ، مرتديا برداء، ومعه الدِّرة كأنه أعرابىٌّ بدوىّ ، فطاف مرّة حتى بلغ سوقَ الكرابيس ، فقال لواحد :ياشيخ، بعْنِى قميصاً تكون قيمتُه ثلاثة دراهم ، فلما عرفه الشيخ لم يشترِ منه شيئاً ، ثم أتى آخر ، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئاً ، فأتى غلاماً حَدَثاً ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، فلما جاء أبو الغلام ، أخبره ، فأخذ دِرْهماً . ثم جاء إلى علىّ عليه السلام ليدفَعه إليه ، فقال له: ماهذا ؟ أو قال ماشابةَ هذا ، فقال : يامولاى ، إنّ القميص الذى باعك ابنى كان يساوى درهمين ، فلم يأخذ الدّرهم ، وقال : باعنى رضاىَ وأخذ رضاه .

وروى أحمد رحمه الله عن أبى النوار بائع الخام بالكوفة ، قال : جاءنى علىّ بن أبى طالب إلى السوق ، ومعه غلام له وهو خليفة ، فاشترى مِنّى قميصين ،وقال لغلامه: اخترأيَّهما شئت ، فأخذ أحدَهما ، وأخذ علىٌّ الآخر ، ثم لبسه ومدّ يده ، فوجد كُمّه فاضلة ،فقال: اقطع الفاضل . فقطعته ، ثم كَفّه وذهب .

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير ، قال : رأيتُ قميص علىّ عليه السلام الذى أصيب فيه ، وهو كرابيس سبيلانىّ (١) ، ورأيت دمَه قد سال عليه كالدّردىّ (٢) .

وروى أحمد رحمه الله قال : لما أرسل عثمان إلى علىّ عليه السلام ، وجده مؤتزرا بعباءة ، محتجِزاً بِعقال ، وهو يَهْنَأ بعيرا له .

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

---

(١) الكرابيس : ثياب فارسية من القطن ؛ وسبيلانى : أنها منسوبة إلى سبيلة ، موضع .
(٢) الدردى : ما رسب من الزيت و أسفل الإناء .

(١٦٢)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ ؛ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ . أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ . فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ ؛ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللّٰهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ .

* * *

الشرح :

بالنور المضيء ، أى بالدين ،أو بالقرآن . وأسرتُه : أهله . أغصانها معتدلة ، كناية عن عدم الاختلاف بينهم فى الأمور الدينية . وثمارها متهدّلة ؛ أى متدلّية ، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها .

وطَيْبة اسم المدينة ، كان اسمها يثرب ، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله طَيْبة ،

ومما أكفر النّاس به يزيدَ بن معاوية أنه سماها « خبيثة »،مراغَمة لرسول الله صلى الله عليه وآله .

علا بها ذكره ، لأنه صلّى الله عليه وآله إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة .

« ودعوة متلافية » أى تتلافى ما فسد فى الجاهلية من أديان البشر .

قوله : «وبيّن به الأحكام المفصولة»:ليس يعنى أنها كانت مفصولة قبل أن بيّنها،بل المراد : بيّن به الأحكام التى هى الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا ؛ لأجل بيانه لها .

والـكبوة : مصدر كبا الجواد ، إذا عثر فوقع إلى الأرض .

والمآب : المرجع . والعذاب الوبيل : ذو الوبال وهو الهلاك :

والإنابة : الرجوع . والسبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث . والقاصدة : ضدّ الجائرة.

فإن قلت لم عدّى القاصدة بـ « إلى » ؟

قلت : لأنها لمّا كانت قاصدة ،تضمّنت معنى الإفضاء إلى المقصد ، فعدّاها بـ « إلى » باعتبار المعنى .

***

الأصْـلُ :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً ، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً ؛ رَهَّبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ،وَوَصَفَ لَـكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا،وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا ؛ فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ .

نَغُضُوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ؛ فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ .

وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ ؛ قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا ، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لَا يَتَفَاخَرُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ وَلَا يَتَحَاوَرُونَ .

فَاحْذَرُوا ــ عِبَادَ اللهِ ــ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .

***

الشّرح :

المنجاة : مصدر نجا ينجو نجاةً ومنجاة. والنّجاة : النّاقة يُنجَى عليها؛ فاستعارها هاهنا للطاعة والتقوى ، كأنها كالمطيّة المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلكة .

قوله : « رهّب فأبلغ » ؛ الضمير يرجع إلى الله سبحانه ؛ أى خوّف المكلّفين فأبلغ فى التخويف ، ورغّبهم فأتمّ الترغيب وأسبغه .

ثم أمر بالإعراض عما يسرّ ويروق من أمر الدنيا ؛ لقلة مايصحب النّاس من ذلك .

ثم قال : إنّها أقربُ دار من سخط الله، وهذا نحو قول النبى صلى الله عليه وآله : « حبُّ الدّنيا رأسُ كلّ خطيئة » .

قوله : « فغضّوا عنكم عباد الله غمومها » ، أى كفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها ، يقال : غضضت فلانا عن كذا أى كففته ، قال تعالى : ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[1] .

قوله : « فاحذروها حَذَرَ الشفيق الناصح » ، أى فاحذروها على أنفسكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه ، وكما يحذر المجدّ الكادح ؛ أى الساعى من خيبة سعيه .

والأوصال : الأعضاء . والمحاورة : المخاطبة والمناجاة ، وروى : « ولا يتجاورون » بالجيم .

والعَلَم : ما يستدلّ به فى المفازة .

وطريق جَدَد ، أى سهل واضح . والسبيل قَصْد ، أى مستقيم .

---

(١) سورة لقمان ١٩ .

(١٦٣)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه ، وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟ فقال عليه السلام :

يا أخا بني أسدٍ ؛ إنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ ؛ تُرْسِلُ فى غَيْرِ سَدَدٍ ؛ ولكَ بَعْدُ ذِمامةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ ؛ وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فاعْلَمْ .

أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنا بِهذَ المَقامِ ، وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً ، وَالأَشَدُّونَ بالرَّسُولِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّم نَوْطاً ، فإِنَّها كانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْها نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْها نُفُوسُ آخَرِينَ ؛ وَالحَكَمُ اللهُ ، وَالْمَعْوَدُ[1] إِلَيْهِ يَوْمُ الْقِيامَةِ .

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فى حَجَرَاتِهِ ... وَلَكِنْ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

وَهَلُمَّ الخَطْبَ فى ابنِ أَبى سُفْيانَ ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكائِهِ ؛ وَلَا غَرْوَ وَاللهِ ؛ فَيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ ، وَيُكْثِرُ الأَوَدَ !

حاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْباحِهِ ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ؛ وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً ، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى ، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الحَقِّ عَلى مَحْضِهِ ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى ، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[2]

---

(١) المعود ، بسكون العين وفتح الواو ؛ كذا ضبطت فى اللسان . وفى النهاية لابن الأثير : هكذا جاء « المعود » على الأصل ؛ وهو « مفعل » ، من عاد يعود ، ومن حق أمثاله أن تقلب واوه ألفا ، كالمقام والمراح ، ولكنه استعمله على الأصل .

(٢) سورة فاطر ٨ .

الشرح :

الوضين : بِطان القَتَب[1] ، وحزام السرج ؛ ويقال للرجل المضطرب فى أموره : إنَّه لقَلِقُ الوضِين ؛ وذلك أنّ الوضِين إذا قلق ، اضطرب القتَبُ أو الهودَجُ ، أو السَّرْج ومَنْ عليه .

ويرسِل فى غير سَدد ، أى يتكلّم فى غير قصد وفى غير صواب ، والسَّدَدُ والاستداد : الاستقامة والصواب ، والسديد : الذى يصيب السَّدد ، وكذلك المُسِدّ . واستدّ الشىء ، أى استقام .

وذِمامة الصِّهر ، بالكسر ؛ أى حرمته ، هو الذِّمام ، قال ذو الرُّمة :

تَكُنْ عَوْجَةً يجزيكَها الله عِنْدَهُ بها الأجرَ أو تُقْضَى ذِمامَةُ صاحِبِ[2]

ويروى : « ماتّة الصِّهر » ، أىْ حرمته ووسيلته ، متّ إليه بكذا ، وإنّما قال عليه السلام له : « ولك بعد ذِمامة الصِّهر » ؛ لأنّ زينب بنت جحش زوْج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسَدِيّة ؛ وهى زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة ابن مرّة بن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة . وأمّها أميّة بنت عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، فهى بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمصاهرة المشار إليها ، هى هذه .

ولم يفهم القطب الراوندىّ ذلك ، فقال فى الشرح : « كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج فى بنى أسد » ولم يصِبْ ، فإنّ عليا عليه السلام لم يتزوّج فى بنى أسد البتّة . ونحن نذكر أولاده : أمّا الحسَنُ والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى ، فأمّهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله[3] . وأما محمّد فأمّه خَوْلة بنت إياس[4] ابن جعفر ، من بنى حَنيفة ، وأمّا أبو بكر وعبد الله ، فأمّهما ليلى بنت مسعود النّهشلية ،

---

(١) البطان : حزام القتب ؛ وهو الذى يجعل تحت بطن الدابة ، والقتب : رحل صغير على قدر السنام .

(٢) ديوانه ٥٤ .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « ويذكر أنه كان لها منه ابن آخر يسمى محسناً ، توفى صغيراً » .

(٤) فى نسب قريش : « خولة بنت جعفر بن قيس » .

من تميم وأما عمر ورقيّة فأمهما سَبِيَّةٌ من بنى تَغْلِب، يقال لها: الصَّهْباء، سُبِيت فى خلافة أبى بكر وإمارة خالد بن الوليد بعَيْنِ التمر . وأمّا يحيى وعون فأمّهما أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية(١) . وأمّا جعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن(٢) فأمّهم أم البنين بنت حزام ابن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بنى كلاب . وأمّا رملة وأمّ الحسن فأمّهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفىّ ، وأما أمّ كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأمّ الكرام ونفيسة وأمّ سلَمة وأم أبيها(٣) وأمامة بنت علىّ عليه السلام فهنّ لأمهات أولاد شتى ؛ فهؤلاء أولاده ، وليس فيهم أحدٌ من أسديّة ، ولا بلَغنا أنه تزوّج فى بنى أَسَد ، ولم يولد له ، ولكنّ الراونديّ يقول ما يخطِر له ولا يحقّق .

وأما حقّ المسألة ، فلأن للسائل على المسئول حقّا حيث أهّله لأن يستفيد منه .

والاستبداد بالشيء : التفرّد به . والنَّوْط : الالتصاق . وكانت أَثَرة ، أى استئثاراً بالأمر واستبدادا به ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله للأنصار : « ستلقوْنَ بعدى أَثَرَة » .

وشحّتْ : بخلت . وسَخَتْ : جادت ؛ ويعنى بالنفوس التى سَخَتْ نفسَه ، وبالنفوس التى شحّت ؛ أمّا على قولنا فإنه يعنى نفوسَ أهل الشورى بعد مقتل عُمَر ، وأمّا على قول الإماميّة ، فنفوسَ أهلِ السّقيفة . وليس فى الخبر ما يقتضِي صَرْفَ ذلك إليهم ، فالأَوْلَى أن يحمَل على ما ظهر عنه من تألّمه مِنْ عبد الرحمن بن عوف ومَيْله إلى عثمان .

ثم قال : إنّ الحكَم هو الله ، وإنّ الوقت الذى يعود النّاس كلّهم إليه هو يوم القيامة . وروى : « يومَ » بالنّصب على أنه ظرف والعامل فيه « المَعْوَد » ، على أن يكون مصدرا .

وأما البيتُ فهو لامرئ القيس بن حُجْر الكنديّ ، وروِى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدرِه فقطْ وأتمّه الرواة .

(١) فى إحدى روايات الطبرى أنه أعقب منها يحيى ومحمد الأصغر .

(٢) فى الطبرى ونسب قريش : « وعثمان » .

(٣) كذا فى الأصول ، ولم تذكر فى الطبرى ، وزاد : « أم هانئ ورملة الصغرى » .

[حديث عن امرئ القيس]

وكان من قصّة هذا الشّعر أنّ امرأ القيْس ، لما تنقّل فى أحياء العرب بعد قَتْل أبيه ، نزل على رَجُلٍ من جَدِيلة طيّئ ، يقال له طريف[1] بن ملّ ، فأجاره وأكرمه ، وأحسن إليه ، فمدحه وأقام عنده . ثم إنه لم يولِه نصيباً فى الجبلين : أجأ وسَلْمَى ، فخاف ألاّ يكون له مَنَعة ، فتحوّل ونزل على خالد بن سَدُوس بن أصمع النَّبهانىّ ، فأغارتْ بنو جَدِيلة على امرئ القيس وهو فى جوار خالد بن سَدُوس ، فذهبوا بإبله ، وكان الذى أغار عليه منهم باعث بن حُوَيص ، فلما أتى امرأ القيس الخبر ، ذكر ذلك لجارِه ، فقال له : أعطِنى رواحلَك ألحق عليها القوم ، فأردّ عليك إبلَك ، ففعل . فركب خالد فى إثر القوم حتى أدركهم ، فقال : يا بنى جَدِيلة ، أغرتُمْ على إبل جارى ! فقالوا : ما هو لك بجار ، قال : بلَى والله وهذه رواحله ، قالوا : كذلك ! قال : نعم ، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ ، وذهبوا بهنّ وبالإبل . وقيل : بل انطوَى خالدٌ على الإبل فذهب بها ، فقال امرؤ القيس :

دَعْ عنك نهباً صِيحَ فى حَجَرَاتِه ... ولكن حديثاً ما حديثُ الرّواحلِ[2]

كأنّ دِثاراً حَلّقتْ بِلَبُونِهِ ... عُقابُ تنوفَى لا عُقاب القواعِلِ[3]

تَلَعّبَ باعثٌ بذِمّـــةِ خالدٍ ... وأوْدَى دِثارٌ فى الخطوب الأوائل[4]

وأعجبـــنى مشىَ الحُزُقّةِ خالدٍ ... كمشْىِ أتانٍ حُلّئتْ بالمناهلِ

أبتْ أجأٌ أن تُسْلِمَ العامَ جارَها ... فمن شاء فلينهَضْ لها من مقاتلِ

تبيت لَبونِى بالقُرَيّةِ أُمّنا ... وأسْرَحُها غِبّاً بأكناف حائلِ

(١) فى الديوان ١٤٢ : « طريف بن مالك » .

(٢) الشعر والخبر فى الديوان ٩٤ ـ ٩٦ . والحجرات : النواحى .

(٣) اللبون : التى لها ألبان .

(٤) باعث : رجل من طيّئ ؛ وهو ممن أغار عليه .

بنو ثُعَلَ جيرانُها وحُماتُها ... وتُمنَعُ من رُماةِ سعدٍ ونائل
تُلاعِبُ أولادَ الوُعولِ رِباعُها ... دُوَيْنَ السَّماء فى رءوسِ المجادل
مكلَّلةً حمراءَ ذاتَ أسِرَّةٍ ... لها حُبُكٌ كأنّها من وَصائلِ

دِثار: اسم راعٍ كان لامرئ القيس. وتَنُوفَى والقواعل جبال. والحزُقّة: القصير الضخم البطن، واللّبون: الإبل ذوات الألبان. والقُرَيّة: موضع معروف بين الجبَلين. وحائل اسم موضع أيضا. وسعد ونائل حيّان من طيّئ. والرِّباع: جمع رُبَع، وهو ما نتج فى الربيع. والمجادل: القصور. ومكلّلة، يرجع إلى المجادل مكلّلة بالصخر. والأسرّة: الطرائق وكذلك الحُبُك. والوصائل: جمع وَصِيلة، وهو ثوب أمغر[1] الغَزْل، فيه خطوط. والنّهب: الغنيمة، والجمع النِّهاب، والانتهاب مصدر انتهبتُ المال، إذا أبحته يأخذه من شاء، والنُّهَى: اسم ما أُنهِب. وحَجَراته: نواحيه، الواحدة حَجْرة، مثل جَمَرات وجَمْرة. وصيح فى حَجَراته صياح الغارة. والرَّواحل: جمع راحلة، وهى الناقة التى تصلح أن تُرْحَل، أى يُشدّ الرَّحْل على ظهرها، ويقال للبعير: راحلة. وانتصب «حديثا» بإضمار فعل، أى هات حديثا أو حدِّثنى حديثا. ويروى: «ولكن حديثٌ»، أى ولكن مرادى أو غرضى حديث فحذف المبتدأ، وما هاهنا، يحتمل أن تكون إبهاميّة؛ وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة زادته إبهاماً وشياعا، كقولك: أعطِنى كتابا ما، تريد أىّ كتاب كان، ويحتمل أن تكون صلة مؤكّدة كالتى فى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ﴾[2]. فأمّا «حديث» الثانى فقد ينصب وقد يرفع، فمن نصب أبدله من «حديث» الأوّل، ومَنْ رفع جاز أن يجعل «ما» موصولة بمعنى «الذى»، وصلتها الجملة، أى الذى هو حديث الرواحل، ثمّ حذف صدر الجملة كما حذف فى ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾[3] ويجوز أن تجعل «ما» استفهامية بمعنى «أىّ».

(١) المغرة: لون يضرب إلى الحمرة.
(٢) سورة النساء ١٥٥.
(٣) سورة الأنعام ١٥٤.

ثم قال: « وهلمّ الخطب » ، هذا يقوِّى رواية مَنْ روى عنه أنّه عليه السلام لم يستشهد إلّا بصدر البيت ، كأنّه قال: دع عنك مامضى وهلمّ مانحن الآن فيه من أمرِ معاوية، فجعل « هلمّ » مانحن فيه من أمر معاوية قائما مقام قول امرئ القيس.

* ولَكِنْ حديثاً ما حديثُ الرّواحِلِ *

وهلمّ ، لفظ يستعمل لازما ومتعدّيا ، فاللازم بمعنى « تعالَ » ، قال الخليل : أصلُه « لمّ » من قولهم : لمّ الله شعثَه » أى جمعه ، كأنّه أراد « لُمّ نفسك إلينا » أى اجمعها واقرُب مِنّا ، وجاءت « ها » للتنبيه قبلها ، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة ؛ يستوى فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكّر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه : ﴿ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾[1] ، وأهل نجد يصرّفونها فيقولون للاثنين : « هلمّا » وللجمع : « هلمّوا » وعلى ذلك . وقد يوصل إذا كان لازما باللام، فيقال: هلمّ لك ، وهلمّ لكما ، كما قالوا : هَيْتَ لك ، وإذا قيل لك : هلُمّ إلى كذا أى تعال إليه، قلت : لا أَهَلُمّ مفتوحة الألف والهاء، مضمومة الميم ، فأمّا المتعدية فهى بمعنى « هات » ، تقول : هلُمّ كذا وكذا ، قال الله تعالى : ﴿ هلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾[2] ، وتقول لمن قال لك ذلك : لا أهلمّه ، أى لا أعطيكه ، يأتى بالهاء ضمير المفعول ليتميّز من الأولى.

يقول عليه السلام : ولكن هات ذكر الخطب ، فحذف المضاف . والخطْب : الحادث الجليل ؛ يعنى الأحوال التى أدّت إلى إن صار معاوية منازعاً فى الرياسة ، قائماً عند كثير من النّاس مقامه ، صالحا لأنْ يقع فى مقابلته ، وأن يكون ندًّا له.

ثم قال : « فلقد أضحكنى الدهر بعد إبكائه » ، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ سلف عليه؛ فلم يقنع الدّهر له بذلك ، حتى جعل معاوية نظيرا له؛ فضحك عليه

(١) سورة الأحزاب ١٨ .
(٢) سورة الأنعام ١٥٠ .

السلام بما تحكّم به الأوقات ، ويقتضيه تصرّف الدّهر وتقلّبه ؛ وذلك ضَحِك تعجُّب واعتبار .

ثم قال : « ولا غَرْوَ والله » ، أى ولا عَجَب والله .

ثم فسّرَ ذلك فقال : ياله خطبا يستفرغُ العجب ! أى يستنفده ويفنيه ، يقول: قدصار العجبُ لا عجبَ لأنّ هذا الخطب استغرق التعجّبَ ؛ فلم يبق منه مايطلَق عليه لفظ التعجُّب ؛ وهذا من باب الإغراق والمبالغة فى المبالغة ، كما قال أبو الطيب :

أسَفِى على أسَفِى الّذى دَلَّهتِنى ... عن علمه فَبِهِ علىّ خفاء[1]
وشَكِيَّتِى فَقْدُ السقام لأنّهُ ... قد كَانَ لمّا كانَ لى أعضاء

وقال ابن هانى المغربىّ :

قَدْ سِرْتُ فى الميدان يوم طِرَادِهِمْ ... فعجبتُ حتى كِدْتُ ألاّ أعْجَبَا[2]

والأوَد : العوَج .

ثم ذكر تمالؤ قريش عليه ، فقال : حاول القوْمُ إطفاء نور الله من مصباحه ، يعنى ماتقدّم من منابذة طَلْحة والزبير وأصحابهما له ، وما شفع ذلك من معاوية وعمرو وشيعتهما . وفوّار اليَنْبوع : ثقب البئر .

قوله : « وجدحوا بينى وبينهم شِرْبا[3] » ، أى خلطوه ومزجوه وأفسدوه .

والوبِىء : ذو الوباء والمرض ؛ وهذا استعارة كأنّه جعل الحال التى كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم ، وجعلوها مَظِنّة الوباء والسَّقَم ، كالشرب الذى يخلط بالسمّ أو بالصَّبِر فيفسد ويوبِئ .

---

(١) ديوانه ١ : ١٤ .
(٢) ديوانه ٨١ (طبعة المعارف) .
(٣) الشرب : النصيب من الماء .

ثم قال : فإن كشف الله تعالى هذه المحنَ التى يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لى التمكّن من الأمر ، حملتهم على الحقّ المحض الذى لا يمازجُه باطل ، كاللبن المحضِ الذى لا يخالطه شىء من الماء ، وإن تكُن الأخرى ، أى وإنْ لم يكشف الله تعالى هذه الغمّة ومتّ أو قتلت — والأمور على ماهى عليه من الفتنة ودولة الضلال — فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ؛ والآية من القرآن العزيز [1] .

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوىّ نقيب البصرة ، وقت قراءتى عليه ، عن هذا الكلام ، وكان رحمه الله على مايذهب إليه من مذهب العَلَوية منصفا وافر العقل ، فقلت له : مَنْ يعنى عليه السلام بقوله : « كانت أثَرة شحّت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين ؟ » ومَن القومُ الّذين عناهم الأسدىّ بقوله : « كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به » ؟ هل المرادُ يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة؟ فقلت: إنّ نفسى لا تسامحنى أن أنسُب إلى الصحابة عصيان رسول الله صلى الله عليه وآله ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحنى أيضا نفسى أن أنسب الرسول صلى الله عليه وآله إلى إهمال أمر الإمامة ، وأنْ يتركَ النّاس فوضى سُدًى مهمَلين ؛ وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلّا ويؤمِّر عليها أميرا وهو حىّ ليس بالبعيد عنها ، فكيف لا يؤمِّر وهو ميّت لا يقدر على استدراك ما يحدُث !

ثم قال : ليس يشكّ أحدٌ من الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاقلا كامل العقل ، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم ؛ وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة ، سديد الرأى ، أقام ملّة ، وشرَع شريعة ، فاستجدّ ملكا عظيما بعقله وتدبيره ؛ وهذا الرّجل العاقل الكامل يعرفُ طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثّارات والذُّحول ؛ ولو بعد الأزمان المتطاولة . ويقتُل الرجل من القبيلة رجلا من بيت آخر ،

---

(١) سورة فاطر ٨ .

فلا يزال أهلُ ذلك المقتول وأقاربه يتطلّبون القاتل ليقتلوه ؛ حتى يدركوا ثأرهم منه؛ فإن لم يظفروا به قَتَلُوا بعضَ أقاربه وأهله ، ومن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحدا أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدنين . والإسلام لم يُحِلْ طباعهم ، ولا غيّر هذه الحميّة المركوزة في أخلاقهم ، والغرائز بحالها ، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل الكامل وَتَر العرب ، وعلى الخصوص قريشاً ، وساعدَهُ على سَفْك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابنُ عمّه الأدنى وصهرُه ، وهو يعلم أنّه سيموت كما يموت الناس ، ويتركه بعده وعنده ابنته ، وله منها ابنان يجريان عنده مَجْرَى ابنين من ظَهْره حُنوّاً عليهما ، ومحبّةً لهما ، ويعدل عنه في الأمر بعده ، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه ، فيحقِنُ دمه ودم بنيه وأهله باستخلافه ! ألا يعلمُ هذا العاقل الكامل ؛ أنه إذا تركه وترك بنيه وأهله سُوقَةً ورعيّة ؛ فقد عرّض دماءهم للإراقة بعده ؛ بل يكونُ هو عليه السلام هو الذى قتله ، وأشاط[1] بدمائهم ، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم ؛ وإنّما يكونون مضغةً للآكل ، وفريسةً للمفترِس ، يتخطّفهم الناس ، وتبلُغ فيهم الأغراض ! فأمّا إذا جَعَل السلطان فيهم ، والأمر إليهم ؛ فإنّه يكون قد عَصَمهم وحَقَن دماءهم بالرّياسة التى يَصُولون بها ، ويرتدع الناس عنهم لأجلها . ومثل هذا معلوم بالتجربة . ألا ترى أنّ ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قَتَل النّاس ووتَرَهم ، وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه ، ثم أهمل أمر ولده وذريّته من بعده ، وفَسَح للناس أن يقيموا مَلِكاً من عُرْضِهم ، وواحداً منهم ، وجعل بنيه سوقَةً كبعض العامّة ، لكان بنوه بعده قليلًا بقاؤهم ، سريعاً هلاكهم ، ولوثب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتِّرات من كلّ جهة ، يقتلونهم ويشرّدونهم كلّ مشرَّد . ولو أنّه عيّن ولداً من أولاده للملك ، وقام خواصّه وخدمه وخَوَلُه بأمره بعده ، لحُقِنت دماء أهل

---

(١) أشاط بدمائهم : أهدرها أو عمل على هلاكها .

بَيْته ، ولم تطلْ يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك ، وأبّهة السلطنة ، وقوة الرياسة ، وحرمة الإمارة !

أفترى ذهب عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى ؛ أم أحبّ أن يُستأصل أهله وذريته من بعده ! وأين موضعُ الشَّفَقة على فاطمة العزيزة عنده ، الحبيبة إلى قلبه !

أتقول : إنه أحبّ أن يجعلها كواحدةٍ من فقراء المدينة ، تتكفّفُ الناس ، وأن يجعل عليًا ، المكرّم المعظّم عنده ، الذى كانت حاله معه معلومةً ، كأبى هريرة الدَّوْسِيّ وأنس ابن مالك الأنصارىّ ، يحكّم الأمراء فى دمه وعرْضِه ونفسه وولده ، فلا يستطيع الامتناع ، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول ؛ تتلظّى أكباد أصحابها عليه ، ويودُّون أن يشربُوا دمه بأفواههم ، ويأكلوا لحمه بأسنانهم ؛ قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامَهم ، والعهدُ لم يطُلْ ، والقروح لم تتقرّف(١) ، والجروح لم تندمل !

فقلت له : لقد أحسنتَ فيما قلت ، إلّا أن لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن نصّ عليه ، ألا تراه يقول : « ونحنُ الأعلَون نسباً ، والأشَدُّون بالرسول نَوْطا » ، فجعل الاحتجاج بالنَّسَب وشدّة القرْب ؛ فلو كان عليه نصّ ، لقال عِوَض ذلك : «وأنا المنصوص علىّ ، المخطوب باسمى » .

فقال رحمه الله : إنما أتاه من حيثُ يعلم ، لا من حيث يجهل ؛ ألا ترى أنه سأله ، فقال : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام ، وأنتم أحقّ به ؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه؛ وهم أحقّ به من جهة اللُّحمة والعِترة ؛ ولم يكن الأسدىُّ يتصوّر النّصّ ولا يعتقده ، ولا يخطر بباله ، لأنّه لو كان هذا فى نفسه ، لقال له : لم دَفَعكَ النّاس عن هذا المقام، وقد نصّ عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولم يَقُل له هذا ، وإنما قال كلاما عامًّا لبنى هاشم كافّة :

---

(١) تقرف الجرح : طلعت فوقه قشرة . أى شارف البرء .

كيف دفعكم قومُـكم عن هذا وأنتم أحقّ به ؟ أي باعتبار الهاشميّة والقربَى . فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذى تعلّق به الأسدىّ بعينه ؛ تمهيدا للجواب ، فقال : إنّما فعلوا ذلك مع أنّا أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا ، ولو قال له : أنا المنصوص علىّ ، والمخطوب باسمي فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما كان قد أجابه ، لأنّه ما سأله : هل أنت منصوص عليك أم لا ؟ ولا هل نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلافة على أحـد أم لا ؟ وإنّما قال : لم دَفَعكم قومُـكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم ؟ فأجابه جوابًا ينطبق على السؤال ويلائمه أيضا ، فلو أخذ يصرّح له بالنصّ ، ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنَفَر عنه ، واتّهمه ولم يقبل قوله ، ولم ينجذب إلى تصديقه ؛ فكان أولى الأمور فى حكم السياسة وتدبير الناس ؛ أن يجيب بما لا نُفْرة منه ، ولا مطعن عليه فيه .

(١٦٤)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

الحَمْدُ لِلهِ خالِقِ العِبادِ ، وَساطِحِ المِهادِ ، وَمُسِيلِ الوِهادِ ، وَمُخْصِبِ النِّجادِ ؛ لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابتِداءٌ ، وَلا لِأَزَلِيَّتِهِ انقِضاءٌ ؛ هُوَ الأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ ، والباقي بِلا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الجِباهُ ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفاهُ . حَدَّ الأَشياءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَها إِبانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِها ، لا تُقَدِّرُهُ الأَوْهامُ بِالحُدودِ وَالحَرَكاتِ ،وَلا بِالجَوارِحِ وَالأَدَواتِ ؛لا يُقالُ لَهُ :«مَتَى»؟ وَلا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِـ« حَتّى »؛ الظّاهِرُ لا يُقالُ : « مِمَّ » ؟ وَالباطِنُ لا يُقالُ :«فِيمَ»؟

لا شَبَحٌ فَيَتَقَصَّى، وَلا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشياءِ بِالْتِصاقٍ ،وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْها بِافْتِراقٍ ، وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ، وَلا كُرُورُ لَفْظَةٍ ، وَلا ازْدِلافُ رَبْوَةٍ ، وَلا انْبِساطُ خُطْوَةٍ . فِي لَيْلٍ داجٍ ، وَلا غَسَقٍ ساجٍ ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ القَمَرُ المُنِيرُ،وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذاتُ النُّورِ فِي الأُفُولِ وَالكُرورِ ،وَتَقَلُّبِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ ؛ مِنْ إِقْبالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَإِدْبارِ نَهارٍ مُدْبِرٍ .

قَبْلَ كُلِّ غايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَكُلِّ إِحْصاءٍ وَعِدَّةٍ ، تَعالَى عَمّا يَنْحَلُهُ المُحَدِّدُونَ مِنْ صِفاتِ الأَقْدارِ، وَنِهاياتِ الأَقْطارِ ، وَتَأَثُّلِ المَساكِنِ، وَتَمَكُّنِ الأَماكِنِ . فَالحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ ، وإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ .

لَمْ يَخْلُقِ الأَشياءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ ،وَلا مِنْ أَوائِلَ أَبَدِيَّةٍ ؛ بَلْ خَلَقَ ما خَلَقَ فَأَقامَ

حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ .

لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ ؛ عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا ، كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى .

***

الشّرح :

المهاد هنا : هو الأرض ؛ وأصله الفراش : وساطحه باسطه ؛ ومنه تسطيح القبور خلاف تسنيمها ؛ ومنه أيضا المِسْطَح ؛ للموضع الذى يبسط فيه التمر ليجفّ .

والوِهاد : جمع وَهْدة ؛ وهى المكان المطمئن . ومسيلها : مجرى السَّيْل فيها . والنّجاد : جمع نَجْد ، وهو ما ارتفع من الأرض . ومخصبها : مروّضها وجاعلها ذوات خِصْب .

***

[مباحث كلامية]

واعلم أنه عليه السلام أوردَ فى هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد ، وكلها مبنيّة على ثلاثة أصول :

الأصل الأول : أنه تعالى واجب الوجود لذاته ، ويتفرّع على هذا الأصل فروع :

أولها : أنه ليس لأوّليته ابتداء ، لأنه لو كان لأوّليته ابتداء لكان محدَثا ، ولاشىء من المحدَث بواجب الوجود ، لأن معنى واجب الوجود ، أنّ ذاته لا تقبل العدَم ، ويستحيل الجمع بين قولنا : هذه الذات محدَثة ، أى كانت معدومة من قبل ، وهى فى حقيقتها لا تقبل العدَم .

وثانيها : أنه ليس لأزليته انقضاء ، لأنه لو صحّ عليه العَدَمُ لكان لعدمه سبب ، فكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه ، والمتوقِّف على غيره ، يكون ممكنَ الذات ، فلا يكون واجبَ الوجود . وقوله عليه السلام : « هو الأول لم يزَلْ ، والباق بلا أجَل » تكرار لهذين المعنيين السابقَيْن على سبيل التأكيد ، ويدخل فيه أيضا قوله : « لا يقال له مَتَى ، ولا يضرب له أمد بحتّى » ؛ لأن « متى » للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان ، و « حتى » للغاية وواجب الوجود لا غاية له . ويدخل أيضا فيه قوله : « قبل كلّ غاية ومدّة ، وكلّ احصاء وعدّة » .

وثالثها : أنه لا يشبهُ الأشياء البتّة ، لأنّ ما عداه إمّا جسم أو عَرَض أو مجرّد ، فلو أشبهَ الجِسْم أو العرض لكان إما جسما أو عرضا ؛ ضرورة تساوى المتشابهين المتماثلين فى حقائقهما . ولو شابهَ غيرَه من المجرّدات — مع أنّ كل مجرد غير مُمْكِن — لكان ممكناً ، وليس واجب الوجود بممكن ، فيدخل فى هذ المعنى قوله عليه السلام : « حَدّ الأشياء عند خَلْقِهِ لها ، إبانةً لَهُ من شبهها » ، أى جعل المخلوقاتِ ذوات حدود ليتميز هو سبحانه عنها ، إذ لا حدّ له ، فبطل أنْ يشبِهه شيء منها . ودخل فيه قوله عليه السلام : « لا تقدّره الأوهام بالحدود والحركات ، ولا بالجوارح » . والأدوات : جمع أداة وهى مايعتمَد به ، ودخل فيه قوله : « الظّاهر فلا يقال : مم » ؟ أىْ لا يقال : من أىّ شيء ظَهَر ، « والباطن فلا يقال : فيم » ، أى لا يقال فيما ذا بطن ؟ ويدخل فيه قوله : « لا شَبَحٌ فيتقصّى » والشّبح : الشخص ويتقصى يطلب أقصاه . ويدخل فيه قوله : « ولا محجوب فيحوَى » وقوله : « لم يقرب من الأشياء بالتصاق ، ولم يبعد عنها بافتراق » ؛ لأنّ هذه الأمور كلّها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها . ويدخل فيه قوله عليه السلام : « تعالى عما ينحَلُه المحدّدون من صفات الأقدار » ؛ أى مما ينسبه إليه المشبهة والمجسّمة من صفات المقادير ، وذوات المقادير .

ونهايات الأقطار ، أى الجوانب .وتأثّلَ المساكن ، مجدٌ مؤثّل ، أى أصيل ،وبيت مؤثّل ، أى معمور ؛ وكأنّ أصلَ الكلمة أن تبنى الدار بالأثل ، وهو شجر معروف . وتمكّن الأماكن : ثبوتها واستقرارها . وقوله : « فالحدّ لخلقه مضروب ، وإلى غيره منسوب » ، وقوله: « ولاله بطاعة شىء انتفاع » ،لأنه إنّما ينتفع الجسم الذى يصحّ عليه الشهوة والنّفرة ؛ كلُّ هذا داخل تحت هذا الوجه .

***

الأصل الثانى : أنّه تعالى عالم لذاته ، فيعلم كلّ معلوم ، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام : « لايخفَى عليه من عبادِه شخوص لحظة » ؛ أن تسكن العين فلا تتحرك . ولا « كرور لفظة» ، أى رجوعها . «ولا ازدلاف ربوة» ،صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض ، وهى الموضع المرتفع « ولا انبساط خطوة . فى ليل داج » أى مظلم . « ولا غسق ساج» ، أى ساكن .

ثم قال : « يتفيّأ عليه القمر المنير » ، هذا من صفات الغَسَق ، ومن تتمّة نعته : ومعنى: « يتفيّأ عليه » يتقلّب ذاهباً وجائيا فى حالتَىْ أخذه فى الضوء إلى التبدّر، وأخذه فى النقص إلى المحاق .

وقوله : « وتعقّبه » ، أى وتتعقّبه، فحذف إحدى التاءين ، كما قال سبحانه : ﴿ الّذِين تَتَوفَّاهُمُ الملَائِكَةُ ﴾[1]؛ أى « تتوفّاهم » ، والهاء فى « وَتَعَقّبُهُ » ترجع إلى القمر ،أى وتسير الشمس عقِبه فى كروره . وأفوله ، أى غيبوبته ، وفى تقليب الأزمنة والدهور ،من إقبال ليلٍ وإدبار نهار .

---

(١) سورة النساء ٩٧ .

فإن قلت : إذا كان قوله : « يتفيّأ عليه القمر المنير » فى موضع جرّ ، لأنه صفة « غسق » ، فكيف تتعقب الشمس القمر مع وجود الغسق ؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق ؟

قلت : لا يلزم من تعقّب الشمس للقمر ثبوتُ الغسق ؛ بل قد يصدق تعقبها له ويكون الغسق معدوما ، كأنه عليه السلام قال : « لا يخفى على الله حركةٌ فى نهار ولا ليل ، يتفيّأ عليه القمر ، وتعقبه الشمس » ، أى تظهر عقيبه ، فيزول الغسق بظهورها .

وهذا التفسير الذى فسرناه يقتضى أن يكون حرف الجر وهو « فى » التى فى قوله : « فى الكرور » متعلقا بمحذوف ، ويكون موضعه نصبا على الحال ، أى وتعقبه كارًّا وآفلا . ويدخل تحته أيضا قوله عليه السلام : « علمه بالأموات الماضين ، كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بما فى السموات العلا ، كعلمه بما فى الأرضين السُّفلى » .

***

الأصل الثالث : أنه تعالى قادر لذاته ، فكان قادراً على كلّ الممكنات ، ويدخل تحته قوله : « لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة ، ولا من أوائل أبدية ، بل خلق ما خلق فأقام حدّه ، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته » ، والردّ فى هذا على أصحاب الهيولى والطينة التى يزعمون قدمها . ويدخل تحته قوله : « ليس لشىء امتناع » ، لأنه متى أراد إيجادَ شىء أوجدَه ، ويدخل تحته قوله : خرّت له الجباه » ، أى سجدت . و « وحّدته الشفاه » ، يعنى الأفواه ، فعبر بالجزء عن الكلّ مجازا ؛ وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النعم . كالحياة والقدرة والشهوة .

***

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذى بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب فى زمانه قاطبة

واستحقّ به التقدّم والفضل عليهم أجمعين ؛ وذلك لأنّ الخاصّة التى يتميّز بها الإنسان عن البهائم هى العقل والعلم، ألا ترى أنه يشاركه غيرُه من الحيوانات فى اللّحميّة والدمويّة والقوّة والقدرة ، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلّا بالقوّة الناطقة ، أى العاقلة العالمة ؛ فكلّما كان الإنسانُ أكثرَ حظًّا منها ، كانت إنسانيتُه أتمّ؛ ومعلوم أنّ هذا الرّجل انفرد بهذا الفنّ، وهو أشرفُ العلوم، لأنّ معلومَه أشرف المعلومات، ولم يُنقَل عن أحدٍ من العرب غيره فى هذا الفنّ حرف واحد ، ولا كانت أذهانهم تَصِلُ إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفنّ فَهُوَ[1] منفرد فيه، وبغيره من الفنون ـ وهى العلوم الشرعية ـ مشارك لهم، وراجحٌ[2] عليهم ؛ فكان أكملَ منهم، لأنا قد بيّنّا أنّ الأعلم أدخلُ فى صورة الإنسانية ؛ وهذا هو معنى الأفضليّة .

***

الأصلُ :

منها :

أيُّها المَخْلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالمُنْشَأُ المَرْعِيُّ ؛ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ . بُدِئْتَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؛ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ ؛ تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لا تُحِيرُ دُعَاءً ، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً . ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ؛ وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا ؛ فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ !

هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ ؛ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ المَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ .

***

(١) ساقطة من ب

(٢) ا ، ب : « وأرجح » . وما أثبته من ج ، د .

الشرح

السَّوىّ : المستوى الخلقة غير ناقص ،قال سبحانه : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[1].

والمُنشأ ، مفعول من « أنشأ » أى خُلِق وأوجِد . والمرعىّ : المحوط المحفوظ .

وظلمات الأرحام ، ومضاعفات الأستار: مستقرّ النُّطَف ، والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعَى المستقيم ؛ وهى مربوطة برباطات على هيئة السّلسلة ، وجسمها عصبىّ ؛ ليمكن امتدادها واتّساعها وقتَ الحاجة إلى ذلك عند الولادة ، وتنضمّ وتتقلّص إذا استُغنِى عن ذلك ؛ ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحـد ، وزائدتان يسمّيان قرنَيِ الرحم ؛ وخَلْفَ هاتين الزائدتين بيضَتا المرأة؛ وهما أصغر من بيضتِى الرّجُل ، وأشدّ تفرطُحاً، ومنهما ينصبّ مَنِىُّ المرأة إلى تجويف الرَّحِم ؛ وللرّحِم رَقَبَةٌ منتهية إلى فَرْج المرأة ، وتلك الرّقبـة من المرأة بمنزلة الذّكر من الرجل ؛ فإذا امتزج مَنِىُّ الرجل بمَنِىِ المرأة فى تجويف الرّحم كان العلوق، ثم ينمِى ويزبد من دم الطَّمْث ، ويتصّل بالجنين عروق تأتى إلى الرَّحِم فتغذوه ، حتى يتمّ ويكمُل ،فإذا تمّ لم يـكتَفِ بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركاتٍ قويّة ، طلباً للغذاء، فتنهتك أربطة الرَّحِم التى قلنا إنّها على هيئة السلسلة ؛ وتـكونُ منها الولادة .

قوله : « بُدِئْت من سُلَالة من طين » ، أى كان ابتـداء خلقك من سُلالة ؛ وهى خلاصة الطين ، لأنها سُلّت من بيْن الـكَدَر ، و« فُعَالة » بناء للقلّة ، كالقُلامة والقُمامة . وقال الحسن : هى مابين ظَهْرَانَىِ الطّين .

ثم قال : « ووضعتَ فى قرار مكين » ،الـكلام الأوّل لآدم الذى هو أصلُ البشر، والثانى لذرّيّته ،والقرار المـكين :الرّحِم متمكّنة فى موضعها برباطاتها، لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العُلُوق .

---

(١) سورة مريم ١٩

ثم قال : « إلى قَدَر معلوم ، وأجَلٍ مقسوم » ، إلى : متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : « منتهيا إلى قَدَرٍ معلوم » ، أى مقدّراً طوله وشكله إلى أجلٍ مقسوم مدّة حياته .

ثم قال : « تمور فى بطنِ أمّك » ، أى تتحرّك . لا تُحِيرِ ، أى لاترجع جوابا ، أحار يُحِير .

إلى دار لم تشهدها ؛ يعنى الدنيا ؛ ويقال : أشبه شىء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التى بعد الموت ؛ انتقالُ الجنين من ظلمة الرَّحِم إلى فضاء الدنيا ؛ فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنه لادار له إلا الدّار التى هو فيها ، ولا يشعر بما وراءها ، ولا يحسّ بنفسه إلّا وقد حَصَل فى دارٍ لم يعرفها ، ولا تخطِرُ بباله ، فبقىَ هو كالحائر المبهوت ؛ وهكذا حالنا فى الدنيا إذا شاهدنا مابعد الموت .

ولقد أحسن ابن الرومىّ فى صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِها ... يكونُ بكاء الطِّفْلِ ساعَةَ يولَدُ[(1)]
وإلّا فما يُبْكيه منها وإنّها ... لأوْسَعُ مِمّا كَانَ فيه وأرْغَدُ !
إذا أبْصَرَ الدنيا استهلّ كأنّه ... بما سوفَ يلقَى من أذاها يهدَّدُ

قال : « فَمَنْ هداك إلى اجترارِ الغِذَاء من ثَدْيِ أمّك ؟ » ، اجترار : امتصاص الابن من الثّدْى ؛ وذلك بالإلهام الإلهىّ .

قال : « وعرّفك عند الحاجة » ، أى أعلمك بموضع الحلَمة عند طلبك الرّضاع فالتقمتَها بفمِك .

---

(١) ديوانه الورقة ٦٥ (مخطوطة دار الكتب المصرية _ ١٣٩ أدب) .

ثم قال : « هيهات » ، أى بَعُد أن يحيط علما بالخالق مَنْ عجز عن معرفة المخلوق !

قال الشاعر :

رَأَيْتُ ٱلْوَرَى يَدَّعُونَ ٱلْهُدَى ... وَكَمْ يَدَّعِى الحقَّ خَلْقٌ كَثِيرْ
وما فِى البرايا امرُؤٌ عنــــدَهُ ... من العــلم بالحقّ إلا اليسيرْ
خَفِىٌّ فمـــا ناله ناظرٌ ... وما إن أشار إليـــهِ مشيرْ
ولا شىء أظهرُ من ذاته ... وكيف يرى الشَّمْسَ أعمى ضرير ؟!

(١٦٥)

الأصـل :

ومن كلام له عليه السلام لعثمان بن عفان : قالوا : لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وشكوا إليه مانقموه على عثمان ، وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم ، فدخل عليه السلام على عثمان ، فقال :

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ !

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانَعْلَمُ ؛ مَاسَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا ، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَاصَحِبْنَا . وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْخَيْرِ[1] مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَالَمْ يَنَالَا ؛ فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ وَاللهِ مَاتُبَصَّرُ مِنْ عَمًى ، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ ؛ وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ .

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ ؛ هُدِيَ وَهَدَى ، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً ، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً ؛ وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ؛ وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ ؛ فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً ، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً ! وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ؛ ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا .

---

(١) د : « الحق » .

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً . فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ ، وَتَقَضِّي الْعُمْرِ .

فقال له عثمان رضى الله عنه :

كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي ، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ .

فقال عليه السلام :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ : وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ .

***

الشرح :

نقَمت على زيد، بالفتح ، أنقِم فأنا ناقم ، إذا عتبتَ عليه . وقال الكسائىّ : نقِمت بالكسر أيضاً ، أنقَم لغة ؛ وهذه اللفظة تجىء لازمة ومتعدّية ، قالوا : نقَمت الأمرَ أى كرهته .

واستعتبتُ فلانا ؛ طلبت منه العُتبى وهى الرّضا ، واستعتابهم عثمان : طلبهم منه مايرضيهم عنه .

واستسفرونى : جعلونى سفيراً ووسيطا بينك وبينهم .

ثم قال له وأقسم على ذلك : إنه لا يعلم ماذا يقول له ! لأنه لا يعرف أمرا يجهله ، أى من هذه الأحداث خاصّة . وهذا حقّ ، لأنّ عليا عليه السلام لم يكن يعلم منها مايجهله

عثمان ، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميِّزين ، يعلمون وجهَيِ الصواب والخطأ فيها .

ثم شرع معه فى مسلك الملاطفة والقول اللّين ، فقال : ماسبقنا إلى الصُّحْبة ، ولا انفردنا بالرَّسُول دونك ، وأنت مثلنا ونحن مثلك .

ثم خرج إلى ذكر الشيْخَيْن ، فقال قولا معناه أنّهما ليسا خيراً منك،فإنّك مخصوص دونهما بقرْب النسب ،يعنى المنافيّةوبالصهر ؛ وهذا كلام هو موضع المثل : « يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء » ، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما ، لأنّ العلّة التى باعتبارها فضّل عثمان عليهما محقّقةٌ فيه وزيادة ؛ لأنّ له مع المنافيّة الهاشميّة ، فهو أقرب .

والوشيجة : عروقُ الشّجرة . ثم حذّره جانب الله تعالى ونبّهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة ، وأنّ الإمام العادل أفضلُ الناس عندالله ،وأنّ الإمام الجائر شرّ الناس عند الله .

ثم روى له الخبر المذكور ، وروى : « ثم يرتبك فى قعرها » ، أى ينشَب .

وخوّفه أن يكون الإمامَ المقتول الذى يفتح الفِتَن بقتله ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليـه وآله قال كلاما هو هذا ، أو يشبه هذا .

ومَرَجَ الدين ، أى فسد . والسَّيِّقة : ما استاقه العدوّ من الدوابّ ، مثل الوسيقة ، قال الشاعر :

فما أنا إلّا مثلُ سَيِّقة العِـدَا ... إن استَقْدَمَتْ نحرٌ وإنْ جَبَأَتْ عَقْرُ[(١)]

والجُلال ، بالضم : الجليل ، كالطُّوال والطويل ؛ أى بعد السنّ الجليل ؛ أى العمر الطويل .

---

(١) اللسان ١٢ : ٣٣ من غير نسبة .

وقوله: «ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه ؛ وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»، كلام شريف فصيح ، لأنّ الحاضر أىّ معنى لتأجيله اوالغائب فلا عذر بعد وصول الأمر فى تأخيره؛لأنّ السلطان لا يؤخَّر أمره .

وقد ذكرنا من الأحداث التى نُقمت على عثمان فيما تقدّم مافيه كفاية ، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ رحمه الله فى "التاريخ الكبير"[1] هذا الكلام،فقال : إنّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا ، فكتب بعضهم إلى بعض: أن اقدموا ، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالروم ؛ واستطال الناس على عثمان ، ونالوا منه؛ وذلك فى سنة أربع وثلاثين ؛ ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهى ؛ إلّا نفرٌ ، منهم زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدىّ ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ؛ فاجتمع الناس ، فكلّموا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسألوه أن يكلّم عثمان ، فدخل عليه ، وقال له إنّ الناس ... وروَى الكلام إلى آخره بألفاظه ، فقال عثمان : وقد[2] علمت أنك لتقولنّ[2] ماقلت ! أما والله لو كنتَ مكانى ماعنفتُك ، ولأعتبت عليك[3] . ولم آت منكراً ، إنّما وصلتُ رحماً ، وسددتُ خَلّة، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولّيه ؛ أنشدك الله ياعلىّ ، ألا تعلم[4] أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك ! قال : بلى،قال: أفلا تعلم أنّ عمر ولّاه ! قال : بلى ، قال : فلم تلومنى أنْ ولّيت ابنَ عامر فى رحمه وقرابته ! فقال علىّ عليه السلام : إنّ عمرَ كان يطأ على صماخ مَنْ يولّيه ، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة ، وأنت فلا تفعل ؛ ضعفت ورققت على أقربائك .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣٧ ، وما بعدها .

(٢-٢) الطبرى : « قد والله علمت ليقولن الذى قلت » .

(٣) الطبرى : « ما عنفتك ولا أسلمتك » .

(٤) الطبرى : « هل تعلم » .

[قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً ، فقال علىّ : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ؛ ولكنّ الفضل فى غيرهم] [١] .

فقال عثمان : أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية ! فقد ولّيته . قال علىّ : أنشدُك الله ألا تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يرْفأ غلامه له ؟ قال : بلى ، قال : فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس : هذا بأمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه !

ثم قام علىّ ، فخرج عثمان على أثره ، فجلس على المنبر ، فخطب الناس ، وقال : أما بعد ؛ فإنّ لكلّ شىء آفة ، ولكلّ أمرٍ عاهة ، وإن آفة هذه الأمّة ، وعاهة هذه النّعمة عيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبُّون ، ويُسِرُّون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتَقولون ؛ أمثال النّعام يتبَعُ أوّلَ ناعق ، أحبّ مواردها إليها البعيد ، لا يشربون إلا نَغَصاً ، ولا يردُون إلا عِكَراً . أما والله لقد عبْتم علىّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله ؛ ولكنّه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ؛ فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولِنْت لكم ، وأوطأتكم كَتِفِى ، وكففت يدِى ولسانى عنكم ، فاجترأتم علىّ . أما والله لأنا أقربُ ناصرا ، وأعزّ نفراً ؛ وأكثر عدداً ؛ وأحرى إن قلت : هلمّ أن يُجاب صوتى . ولقد أعددت لكم أقرانًا ؛ وكشرت لكم عن نابى ؛ وأخرجتم منى خُلُقاً لم أكن أحسنه ؛ ومنطقا لم أكن أنطق به . فكفّوا عنى ألسنتكم وطعنكم وعَيْبكم عَلَىّ ولاتكم ؛ فما الذى تفقدون من حقّكم ! والله ما قصّرت عن بلوغ مَنْ كان قبلى [يبلغ] [١] ؛ وما وجدتكم تختلفون عليه ؛ فما بالكم !

فقام مروان بن الحكم ، فقال : وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف .

فقال عثمان : اسكت لا سكتّ ! دعنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ! ألم أتقدّم [٢] إليك ألّا تنطق !

فسكت مروان ، ونزل عثمان .

---

(١) من الطبرى .
(٢) تقدم إليه : أمره .

(١٦٦)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس :

ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَساكِنٍ وَذِى حَرَكَاتٍ، وَأَقامَ مِنْ شَواهِدِ ٱلْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقادَتْ لَهُ ٱلْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَما ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ ٱلْأَطْيارِ الَّتِي أَسْكَنَها أَخادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِها، وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِها؛ مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ وَهَيْئاتٍ مُتَبايِنَةٍ؛ مُصَرَّفَةٍ فِي زِمامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِها فِي مَخَارِقِ ٱلْجَوِّ ٱلْمُنْفَسِحِ، وَٱلْفَضَاءِ ٱلْمُنْفَرِجِ.

كَوَّنَها بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ، فِي عَجائِبِ صُوَرٍ ظاهِرَةٍ، وَرَكَّبَها فى حِقاقِ مَفاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَها بِعَبالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الهَوَاءِ خُفُوفاً؛ وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً؛ وَنَسَقَها عَلَى ٱخْتِلَافِها فِي الأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ؛ فَمِنْها مَغْمُوسٌ فى قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْها مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

***

الشَّرْحُ :

المَوات، بالفتح: مالا حياة فيه. وأرضٌ موات، أى قفر، والساكن هاهنا كالأرض والجبال. وذو الحركات: كالنار والماء الجارى والحيوان.

ونعقت فى أسماعنا دلائله ، أى صاحت دلائله ؛ لظهورها كالأصوات المسموعة التى تعلم يقينا .

وأخاديد الأرض : شقوقها ، جمع أخْدُود . وفجاجها : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق بين الجبلين . ورواسى أعلامها : أثقال جبالها

مصرَّفة فى زمام التَّسخير ، أى هى مسخَّرة تحت القدرة الإلهية .

وحِقاق المفاصل : جمع حُقّ ؛ وهو مجمع المفصِلين من الأعضاء كالركبة ؛ وجماها محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللّحم .

وعَبالة الحيوان : كثافة جَسده . والخفوف : سرعة الحركة . والدفيف للطائر : طيرانه فُوَيق الأرض ؛ يقال : عُقاب دَفُوف . قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبّهها بالعُقاب :

كأنى بِفَتْخاء الجناحين لِقْوَةٍ دفوفٍ من العقبان طأطأْت شِمْلالِ[1]

ونسقها : رتبها . والأصابيغ : جمع أصْباغ ، وأصباغ جمع صِبْغ .

والمغموس الأوّل : هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر . والمغموس الثانى : ذو اللونين ، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء .

وروى : « قد طورق لون » أى لون على لون ، كما تقول : طارقت بين الثوبين .

فإن قلت : ماهذه الطيور التى يسكن بعضها الأخاديد وبعضها الفِجاج ، وبعضها رءوس الجبال ؟

قلت : أمّا الأول فكالقطا والصّدا[2] ، والثانى كالقبَج[3] والطّيْهوج[4] ، والثالث كالصّقر والعُقاب .

* * *

(١) ديوانه ٣٨ . الفتخاء : اللينة الجناحين . واللقوة : السريعة من العقبان . وطأطأت : دانيت وخفضت . والشملال : الخفيفة السريعة .

(٢) الصدا : ذكر البوم .

(٣) القبج ، واحده القبجة ؛ وهى أنثى الحجل .

(٤) الطيهوج : طائر شبيه بالحجل الصغير ، غير أن عنقه أحمر ومنقاره ورجلاه حمر .

الأصلُ :

وَمِنْ أعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ ؛ الَّذِي أقَامَهُ فِي أحْسَنِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ ، وَذَنَبٍ أطَالَ مَسْحَبَهُ ؛ إذَا دَرَجَ إلَى الأنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وسَمَا بِهِ مُطِلاً عَلَى رَأْسِهِ ؛ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ . يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ . يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيَؤُرُّ بِمَلاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ . أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إسْنَادُهُ . وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ ؛ لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ !

***

الشرح :

الطاوس : فاعول ، كالماضوم ، والكابوس ، وترخيمه «طُوَيس» : ونضّد : رتّب.

قوله : « أشرج قصبَه » ، القصب هاهنا : عروق الجناح . وغضاريفه : عظامه الصغار ، وأشرجها : ركّب بعضها فى بعض كما تُشرَج العيبة ، أى يداخِلُ بين أشراجها وهى عُراها واحدها ؛ شَرَج ، بالتحريك .

ثم ذكر ذَنَب الطاوس ، وأنه طويل المسحَب ، وأنّ الطاوس إذا درَج إلى الأنثى للسِّفاد نشَر ذَنَبه من طيّه ، وعلا بِهِ مرتفعا على رأسه . والقَلْع : شِراع السفينة ، وجمعه قِلاع . والدّاريّ : جالب العطر فى البحر من دارِين ؛ وهى فُرْضة بالبحرين ، فيها سُوقٌ يحمل إليها المسْك من الهند ، وفى الحديث : « الجليس الصالح كالدّاريّ ، إن لم يُحْذِك من عطره علقَك من ريحه » (١) . قال الشاعر :

---

(١) نهاية ابن الأثير ١ : ٢١١ . لم يحذك : لم يعطك .

إذا التَّاجر الدَّارِيُّ جاء بِفَأْرَةٍ　　من المسك رَاحَتْ في مفارقهم تجرى

والنُّوتَى : الملّاح ؛ وجمعه نواتىّ

وعَنَجه : عطَفه ، وعَنَجْتُ خِطام البعير ، رددته على رجليه ، أعنُجُه بالضمّ ، والاسم العَنَج ؛ بالتحريك ؛ وفي المثل « عَوْدٌ يُعَلَّمُ العَنَجَ[1] » يضرب مثلا لتعليم الحاذق .

ومختال ، من الخُيَلاء وهى العُجْب . ويميس : يتبختر .

وَزَيفانه : تبختره ، زافَ يزيف ، ومنه ناقة زيَّافة ، أى مختالة ، قالَ عنترة :

* زَيَّافَةٍ مثل الفنيق المكدَّم[2] *

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جرّ الذُّنابَى ، ودفع مقدّمه بمؤخره واستدار عليها .

ويفضى : يسفِد ، والدِّيَكةَ جمع ديك ، كالقِرَطة والجِحَرَة جمع قُرْط وجُحْر .

ويؤرّ : يسفِد ؛ والأرّ : الجماع ، ورجل آرّ كثير الجماع ، ومَلاقحه : أدوات اللقاح وأعضاؤه ؛ وهى آلات التناسل .

قوله : « أرّ الفُحول » ، أى أرًّا مثل أرّ الفحول ذات الغلمة والشَّبَق .

ثم ذكر أنه لم ينقل ذلك عن إسناد قد يضعّف ويتداخله الطعن ، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة .

---

(١) العود : البعير المسن ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٢ .

(٢) من المعلقة — بشرح التبريزى ، وصدره :

* ينباعُ مِنْ ذِفْرَى غضوبٍ جَسْرَةٍ *

ينباع : ينفعل من باع يبوع ؛ إذا مر مرًّا لينا . والذفريان : الحيدان الناتئان بين الأذن ومنتهى الشعر . والجسرة : الضخمة . والزيافة : المسرعة . والفنيق : الفحل ، والمكدم ، من الكدم وهو العض . (من شرح التبريزى) .

فإن قلت : من أين للمدينة طواويس ؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أحيلك من ذلك على معاينة » ؛ لا سيما وهو يعنى السِّفاد، ورؤية ذلك لمن تكثُر الطواويس فى داره ويطول مكثُها عنده نادرة !

قلت : لم يشاهد أميرُ المؤمنين عليه السلام الطواويسَ بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذ تجبَى إليها ثمرات كلِّ شيء، وتأتى إليها هدايا الملوك من الآفاق ، ورؤية المسافدة مع وجود الذَّكر والأنثى غير مستبعَدة .

***

واعلم أنَّ قوماً زعموا أنَّ الذكر تدمع عينه ، فتقف الدمعة بين أجفانه ، فتأتى الأنثى فتطعمها فتلقَح من تلك الدمعة ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك ، ولكنه قال : ليس بأعجب من مطاعمة الغراب ، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد ؛ ومن أمثالهم : « أخفى من سِفاد الغراب » ؛ فيزعمون أنَّ اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما ، وانتقال جزء من الماء الذى فى قانصته إليها من منقاره . وأما الحكماء فقلَّ أن يصدّقوا بذلك ؛ على أنهم قد قالوا فى كتبهم ما يقرب من هذا ، قالوا فى السمك البياض : إنَّ سفاده خفىٌّ جدا ، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتدّ به ويحكم بسببه .

هذا لفظ ابن سينا فى كتاب " الشفاء " ، ثم قال : والناس يقولون : إن الإناث تأخذ زرع الذكور فى أفواهها إلى بطونها ، ثم قال : وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع ، وأما عند الولادة فإنّ الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها .

قال ابن سينا : والقبجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحجَل الذكر ؛ ومن سماع صوته . قال : والنوع المسمّى مالاقيا ، تتلاصق بأفواهها ، ثم تتشابك ، فذاك سِفادها ؛ وسمعت

أنّ الغراب يسفد وأنه قد شوهد سِفاده ؛ ويقول الناس : إنّ من شاهد سِفاد الغراب يُثرِي ولا يموت إلّا وهو كثير المال موسر .

والضُفّتان ، بفتح الضاد : الجانبان، وهما ضفتا النّهر ، وقد جاء ذلك بالكسر أيضا، والفتح أفصح .

والمنبجس : المنفجر. ويسفحها : يصبها، وروى : «تنشجها مدامعه» ؛ من النّشيج، وهو صوت الماء وغليانه من زِقّ أو حُبّ أو قِدْر .

الأصْلُ :

تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضّةٍ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ . فَإِنْ شَبّهْتَهُ بِمَا أَنبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ : جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ . وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ .

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ ؛ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ ؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ ؛ لِأَنّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيّةِ .

***

الشّرْح :

قَصَبُه : عظام أجنحته ، والمدَارِى جمع مِدْرَى ؛ وهو فى الأصل القَرْن ؛ قال النّابغة يصف الثّوْر والكلاب :

شَكّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِدْرَى فأنفذَها شكّ المبيطِر إذ يشفى من العَضَدِ [(١)]

---

(١) ديوانه ٢٠ . شك : أنفذ . الفريصة : بضعة فى مرجع الكتف إلى الخاصرة . والمبيطر : البيطار والعضد : داء يأخذ فى العضد .

وكذلك المِدْرَاة ؛ ويقال المِدْرَى لشىء كالمِسَلّة تصلِحُ بها الماشطة شُعُور النساء ؛ قال الشاعر :

تَهْلِكُ المِدْرَاةُ فى أكنافِهِ وإذا ما أرْسَلَتْهُ يَعْتَفِرْ[1]

وتمدّرت المرأة ، أى سرّحت شعْرَها . شبّه عظام أجنحة الطاوس بمدارَى من فضّة لبياضها ؛ وشبّه ما أنبت الله عليها من تلك الدّارات والشموس الّتى فى الرِّيش بخالصِ العِقْيان ؛ وهو الذّهب .

وَفِلَذ الزَّبَرْجَد : جمع فِلْذَة ، وهى القطعة . والزَّبَرْجد : هذا الجوهر الذى تسمّيه الناس الباخش .

ثم قال : إن شبّهته بنبات الأرض قلت : إنه قد جُنِىَ من زهرة كلّ ربيع فى الأرض ، لاختلاف ألوانه وأصباغه .

وإنْ ضاهيتَه بالملابس ، المضاهاة : للمشاكلة ، يهمز ولا يُهمز ، وقرِئ : ﴿يضَاهُونَ قَوْلَ الّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] ، ﴿وَيُضَاهِئُونَ﴾ ؛ وهذا ضَهِىّ هذا ، على « فَعِيل » ، أى شبيهه .

وموشِىّ الحلَل : ما دُبّج بالوشى ؛ وهو الأرقم الملوّن . والعَصْب : بُرود اليمن . والحُلِىّ : جمع حَلْى ؛ وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة ، مثل ثَدْى وثُدِىّ ، ووزنه « فُعول » ، وقد تكسر الحاء لمكان الياء ، مثل « عِصِىّ » . وقرِئ : ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾[3] بالضمّ والكسر .

ونطِقَتْ باللّجين ؛ جعلت الفضّة كالنِّطاق لها . والمكلّل : ذو الإكليل .

---

(١) اللسان ١٨ : ٢٨٠ (من غير نسبة) .
(٢) سورة التوبة ٣٠ .
(٣) سورة الأعراف ١٤٨ .

وزَقَا : صَوّت ، يزقو زَقْواً وزقياً وزُقاء ، وكلُّ صائح زاقٍ . والزَّقية : الصَّيحة ؛ وهو أثقـلُ من الزَّواق ؛ أى الدِّيَكة ، لأنهم كانوا يسمُرون ؛ فإذا صاحت الدِّيَكة تفرّقوا .

ومُعوِلاً : صارخا ، أعولت الفرس صوّتت ، ومنه العَويل والعوْلة .

وقوائمه حُمْش : دِقاق ؛ وهو أحمش السَّاقَين وحَمْش الساقين بالتَّسكين ؛ وقد حِمِشت قوائمه ، أى دَقّت . وتقول العرب للغلام إذا كانت أمّه بيضاء وأبوه عربيا : آدم، لجاء لونه بين لونيهما .

خِلاسىّ ، بالكسر والأنثى خِلاسيّة وقال اللّيث : الدِّيَكة الخِلاسيّة،هى المتولّدة من الدجاج الهندىّ والفارسىّ .

يقول عليه السلام: إنّ الطاوس يزْهَى بنفسه؛ ويتيه إذا نَظَر فى أعطافه،ورأى ألوانه المختلفة ؛ فإذا نظر إلى ساقَيْه وَجَم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه ، فصاح صياح العويل لحزنه ؛ وذلك لدقّة ساقيه ونُتُوء عُرقوبَيْه .

* * *

الأصْـلُ :

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ ، وَمَغْرِزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأُقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقٌ ؛ فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ

ماهُنالِكَ يأْتلِقُ ، وقَلَّ صِبْغٌ إلاَّ وقد أخذَ مِنهُ بِقِسْطٍ ؛ وعَلاهُ بِكَثْرَةِ صِقالِهِ وبَريقِهِ ، وبَصِيصِ دِيباجِهِ ورَوْنَقِهِ ، فهُوَ كالأزاهيرِ المَبْثُوثَةِ ، لم تُرَبّها أمطارُ رَبيعٍ ، ولا شُمُوسُ قَيْظٍ .

* * *

الشرح :

نَجَمَتْ : ظهرتْ . والظُّنبوب : حَرْف الساق ؛ وهو هذا العظم اليابس .

والصِّيصيَة فى الأصل : شوكة الحائك التى يسوّى بها السَّدَاةَ واللُّحمة ، ومنه قوله (١) :

* كوَقْعِ الصَّيَاصِى فى النَّسيج المَمَدَّدِ *

ونقل إلى صِيصيَة الديك لتلك الهيئة التى فى رجله .

والعُرْف : الشعر المرتفع من عُنقه على رأسه . والقُنْزُعة ، واحدة القنازع ؛ وهى الشَّعر حوالى الرأس ، وفى الحديث : « غطِّى عنّا قنازِعَك ياأمَّ أيمن » (٢) .

وموشّاة : ذات وشى .

والوسِمة ، بكسر السين : العِظْلِم الذى يُخْضَب به ؛ ويجوز تسكينُ السِّين .

والأسحم : الأسود . والمتلفّع : الملتحف ، ويروى : « متقنّع بِمعْجَر » ؛ وهو ماتشدُّه المرأة على رأسها كالرِّدَاء .

والأقحوان : البابونج الأبيض ؛ وجمعه أقاح .

---

(١) لدريد بن الصمة ، وصدره :

* فجئتُ إليهِ والرِّماحُ تنوشُهُ *

من كلمة له فى ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ـ ٣٠٩ بشرح التبريزى .

(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٧٩ ؛ ولفظه هناك : « أنه قال لأم سليم : خضلى قنازعك » .

وأبيض يَقَق : خالص البياض ، وجاء : « يقِق » بالكسر . وبأتلق : يلمع .
والبصيص : البريق ، وبصّ الشيء : لَمَع .
وتربُّها الأمطار : تربّيها وتجمعها .

يقول عليه السلام : كأنّ هذا الطائرَ ملتحِفٌ بملحفة سوداء، إلّا أنها لكثرة ونقها يتوهّم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة ، وقلّ أن يكون لون إلّا وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب ، فهو كأزاهير الربيع ، إلّا أنّ الأزهار تربّيها الأمطار والشموس؛ وهذا مستغنٍ عن ذلك .

***

الأصل :

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى ؛ وَيَنْبُتُ تِبَاعاً ؛ فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأغصانِ ، ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ . لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فى غَيْرِ مَكَانِهِ ؛ وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ ، أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً ، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ؛ فَكَيْفَ تَصِلُ إلَى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ ؛ وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ ؛ وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ !

فَسُبْحَانَ الَّذِى بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ ؛ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً ، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً ، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ !

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إلَى مَافَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ!

ورأى على نَفْسِهِ ألّا يضطرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أولَجَ فيهِ الرُّوحَ ؛ إلّا وَجَعلَ الحِمامَ مَوْعِدَهُ، وَالفَناء غايَتَهُ .

***

الشرح :

ينحسر من ريشه : ينكشف فيسقط ، ويروى : « يتحسّر » .

تَتْرى ، أى شيئاً بعد شىء وبينهما فترة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾[1]؛ لأنه لم يرسلهم على تراسل ، بل بعد فترات ؛ وهذا مما يغلط فيه قومٌ ، فيعتقدون أنّ « تَتْرَى » للمواصلة والالتصاق . وأصلها الواو من « الوَتْر» وهو الفرد وفيها لغتان ، تنوّن ولا تنوّن ، فمن ترك صَرْفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث ، ومَنْ نوّنها جعل ألفها للإلحاق .

قال عليه السلام : « وينبُت تباعاً » أى لافترات بينهما ، وكذلك حال الريش الساقط ، يسقط شيئاً بعد شىء ، وينبت جميعاً .

وينحتّ : يتساقط ، وانحتاتُ الورق : تناثرها . وناميا : زائداً . يقول عليه السلام: إذا عاد ريشه عادَ مكان كلّ ريشة ريشةٌ ملوّنة بلون الريشة الأولى ، فلا يتخالف الأوائل والأواخر .

والخضرة الزَّبرجديّة : منسوبة إلى الزّمرّذ[2]، ولفظة « الزّبرجد » تارة تستعمل له، وتارة لهذا الحجَر الأحمر المسمّى « باخش » . والعسجد : الذهب . وعمائق الفِطَن :

---

(١) سورة المؤمنين ٤٤ .

(٢) فى اللسان : « الزبرجد والزبردج : الزمرذ » .

البعيدة القَعْر . والقريحة : الخاطر والذهن . وبَهَرَ : غَلَب ، وجلّاه : أظهره ؛ ويروى بالتخفيف . وأدمج القوائم : أحكمها ؛ كالحبل المدمَج الشديد الفَتْل .

والذَّرّة : النملة الصغيرة . والهَمَجَة ، واحدة الهمَج ؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنَم والحمر وأعينها .

ووأى : وعد ، والوأى : الوعد .

* * *

واعلم أنّ الحكماء ذكروا فى الطاوس أمورا ، قالوا : إنّه يعيش خمسا وعشرين سنة[1] ، وهى أقصى عمره ، ويبيض فى السنة الثالثة من عمره عندما يتفقش لونه ، ويتمّ ريشه . ويبيض فى السنة مرّة واحدة اثنتىْ عشرة بيضة فى ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوما ، فيفرخ ويلقى ريشَه مع سقوط ورق الشجر ، وينبته مع ابتداء نبات الورق .

والدجاج قد يحضِن بيض الطاوس ؛ وإنّما يختار الدجاج لحضانته ؛ وإن وُجدت الطاوسة ، لأنّ الطاوس الذّكر يعبث بالأنثى ، ويشغلها عن الحضانة ، وربّما انفقص البيض من تحتها ؛ ولهذه العلّة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذُكرانها ، ولا تقوى الدجاجة على أكثر من بيضتَىْ طاوس . وينبغى أن يتعهّد الدّجاجة حينئذ بتقريب العلَف منها .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله فى كتاب " الحيوان " : إن الطاوسة قد تبيض من الريح ؛ بأن يكون فى سُفالة الريح وفوقها طاوس ذكر ، فيحمل ريحه فتبيض منه ، وكذلك القَبَجة .

قال : وبيض الريح قلّ أن يُفْرِخ .

* * *

---

(١) ساقط من ب .

الأصل :

منها فى صفة الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا ؛ لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ .

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ ؛ فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ؛ لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا ؛ جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

تفسير بعض ما فى هذه الخطبة من الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ » الأَرُّ : كِنَايَةٌ عن النِّكَاحِ ؛ يقال : أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يَؤُرُّهَا ، إذا نَكَحَهَا .

وَقَوْلُهُ عليه السلام : « كأنه قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ » ؛ الْقِلْعُ : شِرَاعُ السفينة . وَدَارِيٌّ : منسوب إِلَى دَارِين ؛ وهى بلدة عَلَى البحرِ يُجْلَبُ منها الطِّيبُ . وَعَنَجَهُ ، أى عَطَفَهُ ؛ يقال : عَنَجْتُ الناقة ، أَعْنُجُهَا عَنْجاً إذا عطفتها . وَالنُّوتِيُّ : الْمَلَّاحُ .

وقوله عليه السلام : « صَفْحَتَىْ جُفُونِهِ » ، أراد جانِبَىْ جُفُونِهِ ، وَالصَّفْحَتَانِ : الْجَانِبَانِ .

وَقوله : « وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ » ، الْفِلَذُ : جمع فِلْذَةٍ وهِىَ الْقِطْعَةُ .

وقوله عليه السلام : « كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطِبِ » الْكِبَاسَةُ : الْعِذْقُ . وَالْعَسَالِيجُ : الْغُصون ، وَاحدها عُسْلُوجٌ .

***

الشرح :

رميتَ ببصرِ قلبك ، أى أفكرْت وتأملت وعزَفتْ نفسُك : كرهتْ وزهدت. والزخارف : جمع زُخرف ؛ وهو الذهب وكلّ مموّه .

واصطفاف الأشجار : انتظامها صَفًّا ، ويروى : « فى اصطفاق أغصان » أى اضطرابها .

ويأتى على مُنية مجتنيها : لا يترك له مُنية أصلا ، لأنه يكون قد بلغ نهاية الأمانى .

والعسل المصفّق : المصفّى تحويلا من إناء إلى إناء . والمونقة : المعجبة . وزهقت نفسه : مات .

***

واعلم أنّه لا مزيد فى التشويق إلى الجنّة على ماذكره الله تعالى فى كتابه ؛ فكلّ الصّيْد فى جانب الفرا[1] .

(١) الفرأ : حمار الوحش ؛ وأصل المثل : « كل الصيد فى جوف الفرا » ، وفى القاموس بغير همز لأنه مثل ؛ والأمثال موضوعة على الوقف » .

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك أخبار صحيحة ، فروى أسامة بن زيد ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الجنّة فقال : « ألا مشمرٍ لها اهى وربِّ الكعبة ريحانة تهتزّ ، ونور يتلألأ ، ونهر يطّرد ، وزوجة لا تموت ؛ مع حبور ونعيم ، ومقام الأبد » .

وروى أبو سعيد الخدرىّ عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله سبحانه لما حوّط حائط الجنّة ؛ لبِنَة من ذهب ولبنة من فضّة ، وغرس غرسها ، قال لها : تكلّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : طوبَى لك منزل الملوك ! » .

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام : « إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة، قال لهم ربّهم تعالى : أتحبون أن أزيدكم ؟ فيقولون : وهلْ خيرٌ ممّا أعطيتنا ؟ فيقول : نعم ، رِضوانى أكبر » .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « إنّ أحدَهم ليُعطَى قوّة مائة رجل فى الأكل والشرب » ، فقيل له : فهل يكون منهم حَدَث ـ أو قال خَبَث ؟ قال: « عَرَقٌ يفيض من أعراضهم كريح المسك يضمُر منه البطن » .

وروى الزمخشرىّ فى '' ربيع الأبرار '' ـ ومذهبه فى الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم؛ وكذلك فى انحرافه عن الشّيعة وتسخيفه لمقالاتهم ـ أنّ رسول الله محمدا صلى الله عليه وآله، قال : « لما أسرِىَ بى ، أخذنى جبرئيل ، فأقعدنى على دُرْنوكٍ من درانيك الجنّة ، ثم ناولنى سَفرجلة ، فبينا أنا أقلّبها انفلقتْ ، فخرجت منها جارية لم أرَ أحسنَ منها ، فسلّمت ، فقلت: مَنْ أنتِ ، قالت : أنا الراضية المرضيّة ، خلقنى الجبّار من ثلاثة أصناف : أعلاى من عنبر،

وأوسطى من كافور ، وأسفلى من مسك. ثم عجنني بماء الحيوان ، وقال لى : كونى كذا ، فكنت . خلقنى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب » .

قلت : الدُّرنوك : ضرب من البُسط ذو خَمَل ، ويشبّه به فَرْوة البعير ، قال الراجز :

* جعد الدَّرانيك رِفَلّ الأجلاد[1] *

(١) اللسان ١٢ : ٣٠٦ ، ونسبه إلى رؤبة ، وبعده .

* كأنه مُخْتَضِبٌ فى أجْساد *

(١٦٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ؛ وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرًّا .

* * *

الشَّرْحُ

أمرهم عليه السلام أن يتأسّى الصغير منهم بالكبير فى أخلاقه وآدابه ؛ فإنّ الكبير لكثرة التّجربة أحزم وأكيس ، وأن يرأف الكبير بالصغير . والرأفة : الرحمة ؛ لأنّ الصغير مظنّة الضعف والرقة .

ثم نهاهم عن خُلُق الجاهليّة فى الجفاء والقسوة ، وقال : إنهم لا يتفقّهون فى دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به ؛ وهذا من قول الله سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١) . وروى : « تتفقهون » بتاء الخطاب .

ثم شبّههم ببيضِ الأفاعى فى الأعشاش ، يظنّ بيض القطا فلا يحلّ لمن رآه أن يكسره لأنه يظنّه بيض القطا ، وحضانه يُخرج شرًّا ؛ لأنه يفقصُ عن أفعى .

---

(١) سورة البقرة ١٧١ .

واستعمار لفظة « الأداحى » للأعشاش مجازا؛ لأنّ الأداحى لا تكون إلّا للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودَحْوها: توسيعها، من دَحَوْت الأرض.

والقَيْض: الكسر والفلق، قِضْتُ القارورة والبيضة، وانقاضت هى، وانقاض الجدار انقياضا، أى تصدّع من غير أن يسقط؛ فإن سقط قيل: تقيّض تقيُّضا، وتقوّض تقوضا؛ وقوّضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكسرت فلقا: تقيّضت تقيضا، فإنْ تصدّعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهى منقاضة، والقارورة مثله.

***

الأصْلُ:

منها:

افتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِم؛ فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ؛ أَيْنَما مالَ مالَ مَعَهُ؛ على أَنَّ اللهَ تَعالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ؛ كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكاماً كَرُكامِ السَّحابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ؛ حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلا حِدابُ أَرْضٍ؛ يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ.

وَايْمُ اللهِ لَيَذُوبَنَّ ما فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كما تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

أَيُّها النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْباطِلِ، لَمْ

يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيسَ مِثْلَكُمْ ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيكُمْ ، لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرائِيلَ .

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعافاً ؛ بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى ، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ .

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهاجَ الرَّسُولِ ، وَكُفِيتُمْ مَئُونَةَ الاعْتِسَافِ ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفادِحَ عَنِ الأَعْناقِ .

* * *

الشرح :

هو عليه السلام : يذكر حال أصحابه وشيعته بعده ، فيقول : افترقوا بعد ألفتهم : أى بعد اجتماعهم .

وتشتتوا عن أصلهم ، أى عنى بعد مفارقتى ؛ فمنهم آخذ بغصن ؛ أى يكون منهم مَنْ يتمسك بمن أخلفه بعدِي من ذرية الرسول ، أينما سلكوا سلكوا معهم ؛ وتقدير الكلام : ومنهم مَنْ لا يكون هذه حاله . لكنه لم يذكره عليه السلام ، اكتفاء بذكر القسم الأول لأنه دالٌّ على القسم الثانى .

ثم قال : على أنّ هؤلاء القوم : من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت ؛ لابدّ أن يجمعهم الله تعالى لشرّ يوم لبنى[1] أمية ، وكذا كان ، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بنى مَرْوان : مَنْ كان منهم ثابتاً على ولاء علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ومَنْ حادَ منهم عن ذلك ؛ وذلك فى أواخر أيام مَرْوان الحمار ، عند ظهور الدعوة الهاشمية .

وقَزَع الخريف : جمع قَزَعة ، وهى سُحُب صغار تجتمع فتصيرُ ركاما ، وهو ما كَثُف

---

(١) ج : « بنى » .

من السّحاب . وركمت الشيء أركمه ، إذا جمعته وألقيتَ بعضه على بعض .

ومستثارهم : موضع ثورتهم .

والجنّتان : هما اللتان قال الله تعالى فيهما : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [١] . وسلّط الله عليهما السّيل ، قال الله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [٢] . فشبّه عليه السلام سَيلان الجيوش إلى بنى أميّة بالسيل المسلّط على تينِك الجنّتين.

فإنه لم تسلم عليه قارة ؛ وهى الجبَيل الصغير . ولم تَثْبُتْ له أكمة ، وهى التّلعة من الأرض .

ولم يردّ سَنَنه ، أى طريقه . طَوْد مرصوص ، أى جبَل شديد التصاق الأجزاء بعضها ببعض . ولا حِدَاب أرض . جمع حَدَبة [٣] وهى الرّوابى والنّجاد .

ثم قال : « يذعذعهم الله ؛ الذّعذعة بالذال المعجمة مرتين : التّفريق ، وذعذعة الشرّ : إذاعته .

ثم يسلكهم ينابيع فى الأرض ، من ألفاظ القرآن [٤] ، والمراد أنه كما أنّ الله تعالى ينزّل من السّماء ماء فيستكنّ فى أعماق الأرض ، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها ، كذلك هؤلاء القوم ، يفرّقهم الله تعالَى فى بطون الأودية وغوامض الأغوار ، ثم

---

(١) سورة سبأ ١٥ .

(٢) سورة سبأ ١٦ .

(٣) فى اللسان : الحدبة ، بفتحتين : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع . ولا تكون الحدبة إلا فى قف أو غلظ من الأرض .

(٤) وهو قوله تعالى فى سورة الزمر ٢١ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

يظهرُهم بعد الاختفاء فيأخـذ بهم من قوم ٍ حقوقَ آخرين ، ويمكّن منهم قوما من ملك قوم وديارهم .

ثم أقسم ليذُوبنّ ما في أيدِي بنى أمية بعد علوّهم وتمكينهم ، كما تذوب الألْيَـة على النار ؛ وهمزة « الأَلْيَة » مفتوحة ، وجمعها أَلَيات ، بالتحريك ؛ والتثنية أَلْيَان بغير تاء ؛ قال الراجز :

* ترتجّ أَلْيَاهُ ارتجاجَ الْوَطْبِ (١) *

وجمع الألية ألا. على « فَعَال » وكبش آلَى على « أفْعَل » ونعجة « أَلياء » والجمع أُلْىٌ على « فُعْل » ، ويقال أيضاً : كبش أَلْيَان بالتحريك ، وكباش أَلْيَانات ، ورجل أَلْيَا ، أى عظيم الألية ، وامرأة عجزاء ولا تقل : «أَلياء» وقد قاله بعضهم . وقد أَلىَ الرجُل بالكسر يألَى : عَظُمتْ أَلْيَتُه .

ثم قال : لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم مَنْ هو دونكم .

وتهِنُوا ، مضارع وَهَن ، أى ضعف ، وهو من ألفاظ القرآن (٢) أيضاً .

وتهْتُم مَتَاه بنى إسرائيل : حِرْتم وضَلَلتم الطريق ؛ وقد جاء فى المسانيد الصّحيحة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « لتَرْكبُنّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم حذْوَ النّعل النعل ، والقُذّة بالقُذّة ؛ حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه » ، فقيل : يارسولَ الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذاً ! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً : « أمتهوِّكُون أنتم كما تهوَّكَت اليهودُ والنّصارى ! » (٣) .

وفى صحيحى البخارىّ ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناسٍ من أمّتى ،

(١) الصحاح (ألى) من غير نسبة .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٣٩ : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ .

(٣) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٥٨ ؛ قال : « التهوك كالتهور ؛ وهو الوقوع فى الأمر بغير روية . أو الذى يقع فى كل أمر ؛ وقيل : هو التحير » .

فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فإذا رأيتُهم اختاجوا دونى ، قلت : أى ربِّ ، أصحابى ! فيقال لى : إنك لا تدرى ما عملوا بعدك ؟ فأقول ما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا توفَّيْتَنِى كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد ﴾ : الإسناد فى هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه .

وفى الصحيحين أيضاً ، عن زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من نومه محمرًّا وجهه ؛ وهو يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ! » ، فقلت : يارسول الله ، أنهلِكُ ، وفينا الصالحون ! فقال : « نعم ، إذا كثر الخبَث » .

وفى الصحيحين أيضاً : « يُهلك أمتى هذا الحىُّ من قريش » ، قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : « لو أنَّ الناس اعتزلوهم » ، رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام : « أَيُضَعِّفَنَّ لكم التيه من بعدى » . يعنى الضلال ، يضعّفه لكم الشيطان وأنفسكم بما خلّفتم الحق وراء ظهوركم ، أى لأجل تركـكم الحق . وقطعكم الأدنى - يعنى نفسه . ووصلكم الأبعد ، يعنى معاوية . ويروى : « إن اتبعتم الراعى لكم » ، بالراء .

والاعتساف : سلوك غير الطريق . والفادح : المثقِل ، فدحه الدين : أثقله .

(١٦٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام فى أول خلافته :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا ، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا .

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ ! أَدُّوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا ، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا . فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ .

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ .

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ؛ فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ :

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ .

***

الشرح

واصدِفوا عن سَمْت الشر ، أى أعرِضوا عن طريقه . تقَصَّدوا ، أى تعدلوا ، والقصْد : العدل .

ثم أمَر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها ؛ كالصّلاة والزّكاة ؛وانتصب ذلك على الإغراء .

ثم ذكر أنّ الحرام غير مجهول للمكلّف بل معلوم ،والحلال غير مدخول ،أى لا عيب ولا نقص فيه ؛ وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات . وهذا لفظ الخبر النبوىّ : « حُرْمة المسلم فوق كلّ حُرْمة ، دمه وعرضه وماله » .

قال عليه السلام : « وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين فى معاقدها » ؛لأنّ الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال : « فالمسلم مَنْ سلِم الناس » ؛ هذا لفظ الخبر النبوىّ بعينه .

قوله : « ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب » ،أى إلّا بحقّ ؛ وهو الكلام الأوّل ، وإنما أعاده تأكيدا .

ثم أمر بمبادرة الموت ، وسماه الواقعة العامة ، لأنه يعمّ الحيوان كلّه ، ثم سمّاه خاصّة أحدكم ؛ لأنه وإن كان عاماً إلا أن له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم.

قوله : « فإنّ الناس أمامكم » ؛ أى قد سبقوكم . والساعة تسوقُكم من خَلفكم .

ثم أمر بالتخفّف[1]؛ وهو القَناعة من الدنيا باليسير ، وترك الحرص عليها، فإنّ المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل ، من الثقيل .

---

(١) ا ، ب « بالتخفيف » ، وما أثبته من د .

وقوله : « فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم » ؛ أى إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضا ، فيبعث الكلّ جميعا فى وقت واحد .

ثم ذكر أنّهم مسؤولون عن كلّ شىء حتى عن البقاع : لم استوطنتم هذه ، وزهِدتم فى هذه ؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار ؟ وحتى عن البهائم ؛ لم ضربتموها ؟ لم أجعتموها ؟

وروى : « فإن البأس [(١)] أمامكم » يعنى الفتنة ، والرواية الأولى أظهر . وقد ورد فى الأخبار النبوية « ليُنتصفَنّ للجمّاء من القرناء » ، وجاء فى الخبر الصحيح : « إنّ الله تعالى عذّب إنسانا بهرّ ، حبسه فى بيت وأجاعه حتى هلك » .

(١) ب : « الناس » تحريف ؛ وما أثبته من باقى الأصول .

(١٦٩)

ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابة : لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ! فقال عليه السلام :

يا إِخوَتَاه ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ ؛ وَلَـكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ؛ وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا ؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ !

إِنَّ هَـذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ ؛ وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً . إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَـذَا الْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ : فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا هَذَا . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً .

فَاهْدَءُوا عَنِّي وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي ؛ وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً ، وَتُسْقِطُ مُنَّةً ، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً . وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ ؛ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا ؛ فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْـكَيُّ .

* * *

الشرح :

أجلَب عليه : أعان عليه ؛ وأجابه : أعانه . والألف فى « يا إخوتاه » بدل من باء الإضافة ، والهاء للسكت .

وعلى حدّ شوكتهم . شدّتهم ؛ أى لم تنكسر سورتُهم .

والعِبْدان جمع عَبْد ، بالكسر : مثل جَحْش وجِحشان ، وجاء عُبدان بالضم ، مثل تَمْر وتُمران ، وجاء عبيد ، مثل كَلْب وكَلِيب ؛ وهو جمع عزيز ، وجاء أَعْبُد وعِباد وعبدّان ، مشددة الدال ، وعبَداء بالمد ، وعبُدّى بالقصر ، ومعبوداء بالمدّ ، وعُبُد بالضم ، مثل سقف وسُقُف ، وأنشدوا :

أنسُبِ العبــــدَ إلى آبائه   أسوَد الجلدة من قوم عُبُدْ[1]

ومنه قرأ بعضهم : ﴿ وَعُبُدَ الطّاغوت ﴾[2] وأضافه .

قوله : « والتفّتْ إليهم أعرابكم » : انضمّت واختلطتْ بهم .

وهم حلالكم ، أى بينكم يسومونكم ماشاءوا : يكلّفونكم ، قال تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[3] .

وتؤخذ الحقوق مُسمَحة ، من أسمح ؛ أى ذلّ وانقاد .

فاهدءوا عنّى ، أى فاسكنوا[4] . هَدَأَ الرجل هدْءًا وهدوءًا ، أىْ سكن ؛ وأهدأه غيره .

وتضعضع قوّة : تضعف وتهدّ : ضعضعتُ البناء : هددته . والمنّة : القوة . والوَهْن : الضعف . وآخر الدواء الكىّ ، مثل مشهور ؛ ويقال : « آخر الطبّ » ويغلط فيه العامة فتقول : « آخر الداء » ، والكىّ ليس من الدّاء ليكون آخره .

***

(١) اللسان ٤ : ٢٦٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٠ ؛ وهى قراءة عن ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبي ٦ : ٢٣٥ .

(٣) سورة البقرة ٤٩ .

(٤) فى الأصول : « فاسكتوا »

[موقف علىّ من قتلة عثمان]

واعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام كان فى نفسه عِقابُ الذين حصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتلَه ، إن كان بقىَ ممن باشَر قتله أحد ؛ ولهذا قال : إنى لستُ أجهل ما تعلمون ؛ فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك ، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغى ؛ وصدق عليه السلام ؛ فإنّ أكثر أهل المدينة أجْلبُوا عليه ، وكان مِنْ أهل مِصر ومن الكوفة عالَم عظيم حضروا من بلادهم ، وطووا المسالك البعيدة لذلك ، وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية ، وكان الأمرُ أمرَ جاهلية ، كما قال عليه السلام ، ولو حرّك ساكناً لا ختلف الناس واضطربوا ، فقومٌ يقولون : أصابَ ، وقوم يقولون : أخطأ ، وقوم لا يحكُمون بصواب ولاخطأ . بل يتوقفون ، ولايأمن – لو شرع فى عقوبة الناس والقبضِ عليهم – مِنْ تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم ؛ فكان الأصوبُ فى التدبير ، والذى يوجبه الشرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة ، وتفرّق تلك الشعوب وعَوْد كلّ قوم إلى بلادهم ؛ وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعَه معاوية وغيرُه ، وأن يحضُرَ بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم ، ويعيِّنون قوماً بأعيانهم ، بعضهم للقتل ، وبعضهم للحصار ، وبعضهم للتسوّر ، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضى ؛ فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى ؛ فلم يقع الأمر بموجب ذلك ، وعَصَى معاوية وأهلُ الشام ، والتجأ ورثة عثمان إليه ، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعياً ، وإنما طلبوه مغالبة ، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية ، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه ؛ وقبل ذلك ما كان من أمرِ طلحة والزبير ، ونقضِهما البيعة ، ونهبهما أموالَ المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها ؛ وجرت أمور كلُّها تمنع الإمام عن التصدّى للقصاص ، واعتماد ما يجب اعتماده ؛ لو كان الأمر وَقَع على القاعدة

الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة ، وقد قال هو عليه السلام لمعاوية : « فأمّا طلبُك قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ، وحاكم القوم إلىّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنّة رسوله » .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : وهذا عَيْن الحقّ ، ومحضُ الصواب ، لأنه يجب دخول الناس فى طاعة الإمام ، ثم تقع المحاكمة إليه ، فإن حَكَم بالحق استديمت إمامته ، وإن حَكَم بالجوْر انتقضَ أمره ، وتعين خلعُه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « وسأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكىّ » .

قلت : ليس معناه : وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكنَ الصبر ، فإذا لم أجد بدًّا عاقبتهم ، ولكنه كلام قاله أوّل مسير طلحة والزبير إلى البَصْرة ، فإنه حينئذ أشارَ عليه قوم بمعاقبة المجلِبين ، فاعتذر بما قد ذكر ، ثم قال : « وسأمسك الأمر ما استمسك » ؛ أى أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى ، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم ، وأجتهد فى ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب ، فإذا لم أجد بدًّا من الحرب ، فآخر الدواء الكَىّ ، أى الحرب ، لأنها الغاية التى ينتهى أمر العصاة إليها .

(١٧٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ ؛ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ؛ إِلاَّ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا . وَإِنَّ فِى سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ ؛ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا .

وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ (١) الْإِسْلَامِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً ؛ حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِى ؛ وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛ وَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْىِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ .

* * *

الشّرْحُ :

وأمر قائم ، أى مستقيم ليس بذى عِوَج. لا يهلك عنه إلا هالك ، تقديره : لا يهلك عادلاً عنه إلا هالك ؛ وهذا كما تقول : لا يعلم هذا الفنَّ إلا عالم ، أى مَنْ قد بلغ الغاية

---

(١) ساقطة من ب .

في العلم واستحقّ أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه ، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلّا من هو أعظم الهالكين ، ومن يشارُ إليه بالهلاك ، وقد بلغ الغاية في الهلاك .

ثم قال : « إنّ المبتدعاتِ المشبّهاتِ هنّ المهلكات » ، المبتدَعات : ما أحدِث ولم يكن على عهد الرسول . والمشبَّهات : التي تشبِه السنن وليست منها ، أي المشبّهات بالسنن . وروى : « المشبِّهات » بالكسر ، أي المشبّهات على الناس ، يقال : قد شبِّه عليه الأمر ؛ أي ألبِس عليه ، ويروى : « المشتَبِهات » أي الملتبَسات ، لا يُعرف حقّها من باطلها .

قال : « إلّا مَنْ حفظ الله » ، أي مَنْ عصمه الله بألطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ . ثم أمرَهم بلزوم الطّاعة، واتباع السلطان ، وقال: إنّ فيه عصمة لأمركم ؛ فأعطوه طاعتَكم غير مُلوّمة ، أي مخاصين ذوى طاعة محضة لا يلامُ باذلها ، أي لا ينسَب إلى النفاق . ولا مستكره بها ، أي ليست عن استكراه ، بل يبذلونها اختياراً ومحبّة ، ويروى : « غير ملويّة » أي معوجة ، من لوَيْتُ العود .

ثم أقسم أنّهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام — يعنى الخلافة — ثم لا يعيده إليهم أبدا ، حتى يأرز الأمر إلى غيرهم ؛ أي حتى ينقبض وينضمّ ويجتمع ؛ وفي الحديث : « إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جُحْرِها »[1] .

فإن قلت : كيف قال : إنّه لا يعيده إليهم أبداً ، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية ؟

قلت : لأنّ الشّرط لم يقع ؛ وهو عدم الطاعة ، فإنّ أكثرهم أطاعوه طاعة غير ملوّمة ولا مستكرَه بها ، وإذا لم يتحقّق الشرط لم يتحقّق المشروط .

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤ .

وقد أجاب قوم عن هذا ، فقالوا : خاطب الشّيعة الطالبيّة ، فقال : إنْ لم تُعطونى الطاعة المحضةَ نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرِز وينضمّ إلى بيت آخر ؛ وهكذا وقع ؛ فإنها انضمّت إلى بيت آخر من بنى هاشم .

وأجاب قوم آخرون ، فقالوا : أراد بقوله : « أبداً » المبالغة ؛ كما تقول : احبِسْ هذا الغريم أبداً ، والمراد بالقوم الذين يأرِز الأمر إليهم بنو أمية ؛ كأنه قال : إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلها فى قوم آخرين ؛ وهم أعداؤكم من أهل الشام وبنى أمية ، ولا يعيده إليكم إلى مدّة طويلة ، وهكذا وقع .

وقد تمالئوا : قد اجتمعوا . وتساعدوا على سَخطة إمارتى : على كراهيتها وبغضها .

ثم وعد بالصبر عليهم مالم يُخَفْ من فرقة الجماعة ، وانتشار حبل الإسلام .

وفَيالة الرأى : ضعفه ، وكذلك فُيولته ؛ ورجل فِيلُ الرأى : أى ضعيفه ، قال :

بنى ربّ الجواد فلا تَفِيلوا ... فما أنتم فنعذرَكم لفِيلِ [1]

أى لستم على رجل ضعيف الرأى والجمع أفيال ، ويقال أيضا : رجل فال ، قال :

رأيتُك يا أُخَيطِلُ إذ جرَيْنا ... وجُرّبتِ الفَراسةُ كنْتَ فالا [2]

قال : إن تمّوا على هذا الرأى الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك ، وأفاءها عليه : ردّها عليه ، فاء يفِئْ : رجع . وفلان سريع الفىء من غَضَبه ، أى سريع الرجوع . وإنه لحسن الفِيئَة بالكسر ؛ مثال « الفِيعة » أى حسن الرجوع ؛ وهذا الكلام لايشعر بأنه عليه السلام كان يعتقد أنّ الأمر له ، وأنه غُلِب عليه ثم رجع إليه ، ولكنه محمول على أنّه من رسول صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكلّ ، وأنهما من جوهر واحد ، فلما كان الوالى قديما وهو رسول الله صلى الله

(١) اللسان ١٤ : ٥٠ ونسبه إلى الكميت .
(٢) اللسان ١٤ : ٥٠ ، ونسبه إلى جرير .

عليه وآله ، ثم تخلل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات غريبة ، سمّى ولايته فيئاً ورجوعا ، لأنها رجعت إلى الدَّوْحة الهاشميّة ؛ وبهذا يجب أن يتأوّل قوله : « فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها » أى أرادوا انتزاع الخلافة من بنى هاشم ، كما انتزعت أولا ، وإقرارها فى بيوت بعيدة عن هـذا البيت ، أسوة بما وقع من قبل .

والنّعْش : مصدر نعش ، أى رفع ، ولا يجوز : « أنعش » .

(١٧١)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كلم به بعضَ العرب ، وقد أرسله قومٌ من أهلِ البصرة ؛ لما قرب عليه السلام منها، ليعلمَ لهم منه حقيقة حالِه مع أصحاب الجملِ لتزُولَ الشبهة من نفوسهم ؛ فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنّهُ عَلَى الحقّ ، ثمّ قال له : بايع ، فقالَ : إني رسول قوم ، ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم . فقال عليه السلام :

أرأيتَ لَوْ أنّ الّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائداً ، تَبْتَغِى لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغيثِ ، فَرَجَعْتَ إليهِم وَأخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلأ وَالماء ، فَخَالَفُوا إِلَى المَعَاطِشِ وَالمَجَادِبِ ما كُنتَ صَانِعاً ؟

قَالَ : كُنتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى الْكَلأ وَالماء .

فقال عليه السَّلامُ : فَامْدُدْ إذاً يدَكَ .

فقالَ الرّجل : فَوَاللهِ مَا اسْتَطَعْتُ أنْ أمْتَنِعَ عند قيام الحُجّةِ عليَّ فبايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَام .

والرّجل يُعْرَفُ بكُلَيْبٍ الْجَرْمِيّ .

***

الشرح :

الجرميّ : منسوب إلى بنى جَرْم بن رَبّان بن حُلوان بن عمران بن الحافِ ابن قُضاعة ، من حِمْير . وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام ،

يستعلم حاله : أهو على حجّة[1] أم على شبهة ؟ فلما رآه عليه السلام ، وسمع لفظه ، علم صدقه وبرهانه ؛ فكان بينهما ماقد شرحه عليه السلام .

ولا شيء ألطفُ ولا أوقعُ ولا أوضحُ من المثال الذى ضرب به عليه السلام ، وهو حجّة لازمة لا مدفع لها .

قوله : « ولا أحدِث حدثا » أى لا أفعل مالم يأمرونى به ، إنما أمرت باستعلام حالك فقط ؛ فأمّا المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلا مالم أندَب له .

ومساقط الغيث : المواضع التى يسقط الغيث فيها . والكلأ : النبت إذا طال وأمكن أن يُرْعَى ؛ وأول مايظهر يسمى الرُّطَب ، فإذا طال قليلا فهو الخلا ، فإذا طال شيئا آخر فهو الكلأ ، فإذا يبس فهو الحشيش .

والمعاطش والمجادب : مواضع العطش والجدْب ، وهو المحْل .

---

(١) ب : « حجتهم » .

(١٧٢)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اَللّٰهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ؛ الَّذِى جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ .

وَرَبَّ هٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِى جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِى الَّتِى جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً ، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً ، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا ، فَجَنِّبْنَا الْبَغْىَ ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ !
الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ !

* * *

الشَّرْحُ :

السقف المرفوع : السماء . والجوّ المكفوف : السماء أيضا ؛ كَفّه ، أى جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، ويمرّ فى كلامه نحو هذا ، وأنّ السماء هواء جامد أو ماء جامد .

وجعلته مغيضاً لليل والنهار ، أى غَيْضة لهما ؛ وهى فى الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء ،

فتسمّى غَيضة ومغيضا ؛ وينبت فيها الشجر ، كأنّه جعل الفلك كالغَيضة ، والليل والنهار كالشجر النابت فيها .

ووجـه المشاركة أنّ المغيض أو الغيضة يتولّد منهما الشجر ؛ وكذلك الليل والنهار يتولّدان من جَرَيان الفلك .

ثم عاد فقال : « ومجرًى للشمس والقمر » ، أى موضعاً لجريانهما .

ومختلَفاً للنجوم السيّارة ، أى موضعا لاختلافها ، واللام مفتوحة .

ثم قال : « جعلت سـكانه سِبْطا من ملائـكتك » أى قبيلة ، قال تعالى : ﴿ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾[1] .

لايسأمون : لايملّون . وقرارا للأنام ، أى موضع استقرارهم وسكونهم . ومدرَجاً للهوامّ ، أى موضع دُروجهم وسـيرهم وحركاتهم ، والهوامّ : الحشرات والمخوف من الأحناش .

ومالا يحصى ، أى لايضبط بالإحصاء والعدّ ؛ مما نراه ونعرفه ومالا نراه ولا نعرفه .

وقال بعض العلماء : إن أردت أن تعرف حقيقـة قوله : « مما يُرى ومالا يُرى » فأوقد نارا صغيرة فى فلاةٍ فى ليلة صيفيّة ، وانظر مايجتمع عليها من الأنواع الغريبةالعجيبة الخلْق ؛ التى لم تشاهدها أنت ولا غيرك قطّ .

قوله : «وللخلق اعتمادا»، لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم ، فينتفعون بها ويبنون منازل إلى جانبها ، فيقوم مقام جدار قد استغنوا عن بنيانه ، ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها .

---

(١) سورة الأعراف ١٦٠ .

قوله : « وسدَّدنا للحق » أى صوبنا إليه ، من قولك : « سهم سديد » ، أى مصيب ، وسدد السنان إلى القِرْن ، أى صوّبه نحوه .

والذّمار : ما يحامى عنه . والغائر : ذو الغَيْرة . ونزول الحقائق : نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها .

ثم قال : « النار وراءكم » ، أى إن رجعتم القهقرى هاربين .

والجنة أمامكم ، أى إن أقدمتم على العدو مجاهدين . وهذا الكلام شريف جدا .

(١٧٣)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ اَلَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضُها فوق بعض ، كما أن السمٰواتِ كذلك ، ولم يأت فى الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى : ﴿ اَللهُ اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ اَلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[1] ، وهو قول كثير من المسلمين .

وقد تأوّل ذلك أربابُ المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة ، فقالوا : إنها سبعة أقاليم ، فالمثلية هى من هذا الوجه ، لا من تعدد الأرَضِين فى ذاتها .

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فيقال : إنها وإن كانت أرضا واحدة ، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة ، وهى كُرِيّة الشكل ، فَمن على حَدَبة الكرة لا يرى مَنْ تحته ، ومن تحته لا يراه ، ومَنْ على أحد جانبيها لا يرى مَنْ على الجانب الآخر ، والله تعالى يدركُ ذلك كله أجمع ، ولا يحجُب عنه شىء منها بشىء منها .

فأما قوله عليه السلام : « لا توارِى عنه سماءٌ سماء » ، فلقائل أن يقولَ : ولا يتوارَى شىء من السموات عن المدركين منا ، لأنها شفافة ، فأى خصيصة للبارى تعالى فى ذلك ؟ فينبغى أن يقال هذا الكلام على قاعدةٍ غير القاعدة الفلسفية ، بل هو على قاعدة

(١) سورة الطلاق ١٢ .

الشريعة[1] الإسلاميّة التى تقتضى أنّ السمٰوات تحجب ماوراءها عن المدرِكين بالحاسّة؛ وأنها ليست طباقا متراصّة، بل بينها خلْق من خلق الله تعالى لايعلمهم غيره. واتباعُ هذا القول واعتقاده أولى.

***

الأَصْلُ:

مِنها:

وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ يابْنَ أَبِي طالِبٍ لَحَرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ؛ وَأَنا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ؛ فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشَّرْحُ:

هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ماجرى يوم الشورى بعد مقتل عمر. والذى قال له: «إنك على هذا الأمر لحريص» سَعْد بن أبى وقاص، مع روايته فيه: «أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى»، وهذا عجب؛ فقال لهم: بل أنتم والله أحرصُ وأبعد... الكلام المذكور. وقد رواه الناس كافة.

وقالت الإماميّة: هذا الكلام يوم السقيفة، والذى قال له: إنك على هـذا الأمر لحريص، أبو عبيدة بن الجراح؛ والرواية الأولى أظهر وأشهر.

(١) ب: «على قاعدته الشريعة الإسلامية».

وروى : « فلما قرَعته » بالتخفيف ، أى صدمته بها .

وروى : « هبّ لا يدرى مايجيبنى » ، كما تقول: استيقظ وانتبه ، كأنه كان غافلاذاهلا عن الحجة فهبّ لمّا ذكرتُها .

أستعديك : أطلب أن تُعْدِيَنى عليهم وأنْ تنتصف لى منهم .

قطعوا رحِمى : لم يرعَوْا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله .

وصغّروا عظيم منزلتى : لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه .

وأجمعوا على منازعتى أمراً هولى ، أى بالأفضلية أنا أحقّ به منهم ؛ هكذا ينبغى أن يُتأوّل كلامه .

وكذلك قوله : « إنما أطلب حقًا لى وأنتم تحولون بينى وبينه ، وتضربون وجهى دونه » .

قال : « ثم قالوا : ألا إنّ فى الحقّ أن تأخُذَه ، وفى الحقّ أن تتركه »،قال:لم يقتصروا على أخذِ حقّى ساكتين عن الدَّعوى ؛ ولكنهم أخذوه وادّعوْا أنّ الحقّ لهم.وأنه يجبُ علىّ أن أترك المنازعة فيه ؛ فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّى، فكانت المصيبة به أخفّ وأهون .

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول ، نحو قوله : « مازلتُ مظلوماً منذ قبضَ الله رسولَه حتى يوم النّاس هذا » .

وقوله : « اللهمّ أخزِ قريشاً فإنها منعتْنى حقى وغصبتْنى أمرى » .

وقوله : « فجزى قريشا عنّى الجوازِى ، فإنهم ظلمونى حقّى ، واغتصبونى سلطان ابن أمّى » .

وقوله ، وقد سمع صارخا ينادى : أنا مظلوم ، فقال : « هلمّ فلنصرُخْ معا ، فإنى مازلتُ مظلوماً » .

وقوله : « وإنه ليعلم أنّ محلّى منها محلّ القطب من الرحى » .

وقوله : « أرى تراثى نهبا » .

وقوله : « أصفيا بإنائنا ، وحَملا الناس على رقابنا » .

وقوله : « إنّ لنا حقا إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ؛ وإن طال السُّرَى » .

وقوله : « مازلت مستأثَراً علىّ ، مدفوعاً عمّا أستحقه وأستوجبه » .

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقّية ؛ وهو الحقّ والصواب ؛ فإنْ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار ؛ ولكنّ الإماميّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها ، وارتكبوا بها مركبا صعبا . ولعمرى إنّ هذه الألفاظ مُوهِمةٌ مغلّبة على الظن مايقوله القوم ؛ ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ ؛ ويدرأ ذلك الوهم ، فوجب أن يجرى مجرى الآيات المتشابهات الموهمة مالا يجوز على البارئ ، فإنه لا نعمل بها ، ولا نعوّل على ظواهرها ، لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة فى الكتب .

وحدثنى يحيى بن سعيد بن على الحنبلى المعروف بابن عالية ، من ساكنى قَطُفْتا (١) بالجانب الغربىّ من بغداد ، وأحد الشهود المعدّلين بها ، قال : كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل ابن علىّ الحنبلىّ الفقيه المعروف بغلام ابن المنى ، وكان الفخر إسماعيل بن على هذا ، مقدّم

---

(١) قطفتا ، بالفتح ثم الضم والفاء ساكنة وتاء مثناة والقصر : محلة بالجانب الغربى من بغداد ، بينها وبين دجلة أقل من ميل (مراصد الاطلاع) .

الحنابلة ببغداد فى الفقه والخلاف ؛ ويشتغل بشىء فى علم المنطق ، وكانَ حُلْوَ العبارة ، وقد رأيته أنا وحضرت عنده ، وسمعت كلامه ، وتوفى سنة عشر وستمائة .

قال ابن عالية : ونحن عنده نتحدّث ؛ إذ دخل شخص من الحنابلة ، قد كان له دَيْن على بعض أهل الكوفة ، فانحدر إليه يطالبه به ، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ، والحنبلىّ المذكور بالكوفة ؛ وهذه الزيارة هى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جُمُوعٌ عظيمة ؛ تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن عالية : فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص : مافعلت ؟ مارأيت ؟ هل وصل مالُكَ إليك ؟ هل بقىَ لك منه بقية عند غريمك ؟ وذلك يجاوبه ؛ حتى قال له : ياسيّدى لوشاهدتَ يوم الزيارة يوم الغدير ، ومايجرى عند قبر على بن أبى طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جِهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة ! فقال إسماعيل : أىّ ذنب لهم ! والله ماجرّأهم على ذلك ، ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر .

فقال ذلك الشخص : ومَنْ صاحب القبر ؟ قال : علىّ بن أبى طالب ! قال : ياسيدى ، هو الذى سنّ لهم ذلك ، وعلّمهم إياه وطرّقهم إليه ! قال : نعم والله ، قال : ياسيّدى فإن كان محقا فمالنا أن نتولّى فلانا وفلانا ! وإن كان مبطلا فمالنا نتولاه ! ينبغى أن نبرأ إمّا منه أومنهما .

قال ابن عالية : فقام إسماعيل مسرعا ، فلبس نعليْه ، وقال : لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة ، ودخل دار حرمه ، وقمنا نحن وانصرفنا .

***

الأجنل

منها فى ذكر أصحاب الجمل :

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ عِندَ شِرَائِهَا

مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ . فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا،وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ؛ فِي جَيْشٍ مَامِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ ،وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ؛ طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا ، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً ، وَطَائِفَةً غَدْراً .

فَوَٱللهِ إِنْ لَوْلَمْ يُصِيبُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ ٱلْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا،وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ ، دَعْ مَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ٱلْعِدَّةِ ٱلَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ !

***

الشَّرْحُ :

حُرْمة رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عن الزَّوجة ، وأصله الأهل والْحَرَم ؛ وكذلك حَبيس رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عنها .

وقتلوهم صبرا ، أى بعد الأسر . وقوله : « فوالله إنْ لولم يصيبوا » إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة .

ويُسأل عن قوله عليه السلام: « لولم يصيبوا إلا رجلا واحدا لحلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره ، لأنهم حضروه فلم ينكروا » ،فيقال : أيجوز قتلُ من لم ينكِر المنكر مع تمكّنه من إنكاره ؟

والجواب،أنّه يجوز قتلُهم؛لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحا،فإنهم إذا اعتقدوا إباحته، فقداعتقدوا إباحة ماحرّم الله ، فيكون حالُهم حالَ من اعتقد أنّ الزنا مباح،أو أنّ شرب الخمر مباح .

وقال القطب الراوندى : يريد أنهم داخلون فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ (١) .

ولقائل أن يقول : الإشكال إنما وقع فى قوله : « لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلا واحدا لحلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره » ، لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسانٍ ولا يدٍ ، فهو علّل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر ، ولم يعلل ذلك بعموم الآية .

وأما معنى قوله : « دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التى دخلوا بها عليهم » ، فهو أنه لو كان المقتول واحدا لحل لى قتلهم كلهم ، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدّةً مثل عدّتهم التى دخلوا بها البصرة ! وما ها هنا زائدة .

وصدق عليه السلام ، فإنهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال بالبَصْرة خلقًا كثيرا ؛ بعضهم غدراً وبعضهم صبراً ، كما خطب به عليه السلام .

* * *

[ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال] (٢)

وروى أبو مخنف ، قال : حدثنا إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبى حازم . وروى الكلبىّ عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وروى جرير بن يزيد ، عن عامر الشعبى ، وروى محمد ابن إسحاق ، عن حبيب بن عمير ، قالوا جميعا : لما خرجت عائشة وطَلْحةُ والزبير من مكة إلى البصرة ، طرقت ماء الحوأب ـ وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة ـ فنَبَحَتْهم الكلاب ، فنفرت صِعاب إبلهم ، فقال قائل منهم : لَعَن الله الحوأب فما أكثر كلابها ! فلما سمعت عائشة ذِكْر الحوأب ، قالت : أهذا ماء الحوأب؟ قالوا : نعم ، فقالت : رُدُّونى رُدُّونى . فسألوها ماشأنها؟ما بدا لها؟ فقالت: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « كأنى بكلاب

---

(١) سورة المائدة ٣٣ .　　(٢) انظر ص ١١١ ومابعدها من هذا الجزء .

ماء يدعَى الحوأب ، قد نبحتْ بعضَ نسائى » ، ثم قال لى : « إياكِ ياحميراء أن تكونيها » فقال لها الزبير : مهلًا يرحمك الله، فإنا قد جُزْنَا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك مَنْ يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب ؟ فلفّق لها الزّبير وطلحة خمسين أعرابيًا جعلًا لهم جُعلًا، فحلفوا لها ، وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوأب ، فكانت هذه أوّل شهادة زُور فى الإسلام .

فسارت عائشة لوجهها .

***

قال أبو مخنف : وحدثنا عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوما لنسائه ، وهُنّ عنده جميعا : « ليت شعرى أيتكُنّ صاحبة الجمل الأدْبب[1] ، تنبحُها كلابُ الحوأب ، يُقْتَلُ عن يمينها وشمالها قَتلَى كثيرة ، كلّهم فى النار وتَنْجُو بعد ما كادت ؟ » .

قلت : وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله ، يحملون قوله عليه السلام : « وتنجو » على نجاتها من النار ، والإماميّة يحملون ذلك على نجاتها من القَتْل ، ومحملنا أرجح ، لأن لفظة « فى النار » أقرب إليه من لفظة « القتلى » ، والقرْب معتبر فى هذا الباب ؛ ألا ترى أنّ نحاة البصريين أعملوا أقرَب العاملين ، نظرا إلى القرب !

***

قال أبو مخنف : وحدّثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، أن الزبير وطلحة أغذّا[2] السير بعائشة، حتى انتهَوْا إلى حَفَر أبى موسى الأشعرىّ ، وهو قريب من البصرة، وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصارىّ ، وهو عامل علىّ عليه السلام عَلَى البصرة : أن أخلِ لنا دارَ الإمارة ، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحنف بن قيس ، فقال له : إنّ هؤلاء القوم قدِموا علينا ومعهم زوجة رسول الله ، والناس إليها سراع كما ترى ؛ فقال الأحنف:

---

(١) الأدبب : الكثير الشعر .

(٢) الإغذاذ : الإسراع .

إنهم جاءوك بها للطّلب بدم عثمان ؛ وهم الذين ألّبُوا على عثمان الناس ، وسفكوا دمه ؛ وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا ، ويسفكوا دماءنا ، وأظنُّهم والله سيركبون منك خاصّة مالا قبلَ لك به ، إنْ لم تتأهّب لهم بالنهوض إليهم فيمَن معك من أهل البصرة ، فإنّك اليوم الوالى عليهم ، وأنت فيهم مطاع ، فسر إليهم بالنّاس ، وبادرهم قبل أن يكونوا معك فى دار واحدة ، فيكون الناس لهم أطوعَ منهم لك ؟

فقال عثمان بن حَنيف : الرأى مارأيتَ ، لكننى أكره الشرّ ، وأن أبدأهم به ، وأرجو العافية والسّلامة إلى أن يأتيَنى كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدىّ من بنى عمرو بن وديعة ، فأقرأه كتاب طلحة والزبير ، فقال له مثل قول الأحنف ، وأجابه عثمان بمثل جوابه للأحنف ، فقال له حكيم : فأذَنْ لى حتى أسير إليهم بالناس ، فإن دخلوا فى طاعة أمير المؤمنين ، وإلّا نابذتهم على سواء .

فقال عثمان : لو كان ذلك رأيى لسرتُ إليهم بنفسى ، قال حكيم : أما والله إن دخلوا عليك هذا المِصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم ، وليزيلنّك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عليه عثمان .

***

قال : وكتبَ علىّ إلى عثمان لمّا بلغه مشارفَةُ القوم البصرة .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عثمان بن حَنيف ، أما بعد :

فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثُوا ، وتوجّهوا إلى مصرك ، وساقهم الشيطان لطلب مالا يرضَى الله به . والله أشدّ بأسا ، وأشدّ تنكيلا ، فإذا قدِموا عليك فادعُهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذى فارقونا عليه ، فإنْ أجابوا فأحسِنْ جوارَهم ماداموا

عندك ، وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف ، فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك ، وبينهم وهو خير الحاكمين ؛ وكتبت كتابى هذا إليك من الرَّبَذة ، وأنا معجّل المسير إليك إن شاء الله .

وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى سنة ست وثلاثين .

قال : فلما وصلَ كتابُ علىّ عليه السلام إلى عثمان ، أرسل إلى أبى الأسود الدؤلىّ وعمران بن الحصين الخُزاعىّ ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلْم القوم ، وما الذى أقدمهم ! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَر أبى موسى ، وبه معسكر القوم ، فدخلا على عائشة ، فنالاها ووَعظاها ، وأذكراها وناشداها الله ، فقالت لهما : القيا طلحة والزُّبير . فقاما من عندها ، ولقيا الزبير فكلماه ، فقال لهما : إنا جئنا للطلب بدم عثمان ، وندعو الناس إلى أن يردُّوا أمرَ الخلافة شورى ، ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إن عثمان لم يُقْتَل بالبصرة ليطلبَ دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان مَنْ هم ، وأين هم ! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشدَّ الناس عليه ، وأعظمهم إغراء بدمه ، فأقِيدوا من أنفسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شورى ، فكيف وقد بايعتم عليًا طائعين غير مكرَهين ! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنت آخذ قائمَ سيفك ، تقول : ما أحدٌ أحقّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه ! وامتنعت من بيعة أبى بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول !

فقال لهما : اذهبا فالقيا طلحة ، فقاما إلى طلحة فوجَداه أخشَن الملمس ، شديد العريكة ، قوى العزم فى إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب ، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف ، فأخبراه وقال له أبو الأسود :

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفرْ ... وطاعِنِ القوم وجالد واصبِرْ[1]

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ : ١٧٤ .

* وابرز لها مستلئماً وشَمِّرْ *

فقال ابن حَنيف : إى والحرمين لأفعلنّ . وأمر مناديَه فنادى فى الناس : السلاح السلاح ! فاجتمعوا إليه ، وقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام وطلحة كالنّجم أو أبعدُ
وأحسنُ قوليهما فادحٌ يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيد فأهونْ علينا بما أوعَدُوا
فقلنا ركضتم ولم تَرْمِلُوا وأصدرتُمُ قبل أن توردُوا
فإن تلقحوا الحرب بين الرجال فملقِحها حده الأنكدُ
وإن علياً لكم مصحِرٌ ألا إنه الأسد الأسودُ
أما إنه ثالث العابدين بمكة والله لا يعبدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجَلوا(١) فإن غدا لكمُ موعدُ

قال : وأقبل القوم ، فلما انتهوا إلى المربِد ، قام رجل من بنى جُشمَ فقال : أيها الناس ، أنا فلان الجُشَمىّ ، وقد أتاكم هؤلاء القوم ، فإن كانوا أتوكم خائفين ؛ لقد أتوكم من المكان الذى يأمن فيه الطير والوحش والسباع ، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان ؛ فغيرُنا ولِىَ قتله . فأطيعونى أيها الناس وردُّوهم من حيث أقبلوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلَموا من الحرب الضَّرُوس والفتنة الصماء التى لا تُبقى ولا تذر .

قال : فحصَبه ناس من أهل البصرة ، فأمسك .

قال : واجتمع أهلُ البصرة إلى المربِد حتى ملئوه مشاة وركبانا ، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكونِ ليخطُب ، فسكتوا بعد جهد . فقال : أمّا بعد ، فإن عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة ، ومن المهاجرين الأولين الذى رضى الله عنهم ورضُوا عنه

(١) رخى : مثل أرخى .

ونزل القرآن ناطقا بفضلهم ، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان أحدث أحداثا نقِمنا عليه ، فأتيناه فاستعتبناه فأعتبَنا ، فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرَها غصبا بغير رضاً منها ولا مشورة ، فقتله وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار ، فقتِل محرِما بريئاً تائبا . وقد جئنا كم أيّها الناس نطلب بدم عثمان ، وندعوكم إلى الطلب بدمه ؛ فإنْ نحنُ أمكننا الله من قَتَلتِه قتلناهم به ، وجعلْناهذا الأمر شورَى بين المسلمين ،وكانت خلافة رحمةً للأمة جميعا ،فإنّ كلّ مَنْ أخذ الأمر من غير رضاً من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً ، كان ملكه ملكا عَضُوضاً ، وحدَثا كثيرا .

ثم قام الزّبير ، فتكلّم بمثل كلام طلحة .

فقام إليهما ناس من أهل البصرة ، فقالوا لهما : ألم تبايعا عليا فيمن بايعه ؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما ! فقالا : ما بايعنا ، وما لأحد في أعناقنا بيْعة ؛ وإنما استُكرِهنا على بيْعة . فقال ناس : قد صدقا وأحسنا القول ، وقطعا بالثواب . وقال ناس : ما صَدَقا ولا أصابا في القول ؛ حتى ارتفعت الأصوات .

قال : ثم أقبلت عائشة على جملِها ، فنادت بصوت مرتفع : أيّهاالناس ، أقلّوا الكلام واسكتوا ، فأسكت الناس[1] لها ، فقالت :

إنّ أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسِل ذلك بالتوبة ؛ حتى قتِل مظلوما تائبا ، وإنما نقَمُوا عليه ضربه بالسوط ، وتأميرَه الشبّان ، وحمايته موضع الغمامة ، فقتلوه محرِماً في حرمة الشهر وحرمة البلد ، ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا وإنّ قريشا رمتْ غرَضَها بنبالها ، وأدْمت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئا ، ولا سلكتْ به سبيلا

(١) أسكت الناس : انقطعوا عن الكلام .

قاصدا ، أما والله ليَرَوُنَّها بلايا عقيمة تنبّه النائم ، وتقيم الجالس ، ولَيَسَلَّطَنَّ عليهم قوم لا يرحمونهم ؛ ويسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ؛ إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه . مُصْتُموه[1] كما يُماص الثوب الرحيض[2] ، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابنَ أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصباً . ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ! ألَا إنّ عثمان قتِل مظلوما فاطلبوا قتَلَته ، فإذا ظفرتُمْ بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورَى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ ولا يدخل فيهم مَنْ شَرَكَ فى دم عثمان .

قال : فماج الناس واختلطوا ، فمن قائل : القول ما قالت ، ومن قائل يقول : وما هى وهذا الأمر ، إنما هى امرأة مأمورة بلزوم بيتها ! وارتفعت الأصوات ، وكثُر اللغط حتى تضاربُوا بالنعال ، وتراموْا بالحصى .

ثم إنّ الناس تمايزوا فصاروا فريقين : فريق مع عثمان بن حَنيف ، وفريق مع عائشة وأصحابها .

***

قال : وحدّثنا الأشعث بن سوّار ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى الخليل ، قال : لما نزل طلحة والزّبير المربد ، أتيتهما فوجدتهما مجتمعين ، فقلت لهما : ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما الذى أقدمكما أرضنا هذه ؟ فلم يتكلّما ، فأعدْت عليهما ، فقالا : بلغنا أنّ بأرضكم هذه دنيا ، فجئنا نطلبها .

***

(١) الموص : الغسل بالأصابع ؛ وفى النهاية لابن الأثير ٤ : ١١٤ « يقال : مصته أموصه موصاً . أرادت أنهم استتابوه مما نقموا منه ، فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه » .

(٢) الرحيض : المغسول .

قال : وقد روَى محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس أنّه لقيهما ، فقالا له مثل مقالتهما الأولى : إنما جئنا لطلب الدنيا .

وقد روى المدائنيّ أيضاً نحواً مما روى أبو مخنف ، قال : بعثَ عليٌّ عليه السلام ابنَ عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب ، فقال له : إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لـكم : ألم تبايِعنى طائعاً غير مكرَه ، فما الذى رابك منّى ، فاستحللت به قتالى ؟ قال : فلم يكن له جواب إلا أنه قال لى : إنّا مع الخوف الشديد لنطمع ؛ لم يقـل غير ذلك .

قال أبو إسحاق : فسألت محمد بن علىّ بن الحسين عليه السلام : ماتراه يعنى بقوله هذا ؟ فقال : أما والله ماتركتُ ابن عباس حتى سألتهُ عن هذا ، فقال : يقول : إنّا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه ، نطمع أن نلِي مثل الذى وليتم .

* * *

وقال محمد بن إسحاق : حدّثنى جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : بعثنى علىّ عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير ، وبعث معى بمصحف منشور ، وإن الريح لتصفِق ورقه ، فقال لى : قل لهما : هذا كتاب الله بيننا وبينـكم ، فما تريدان ؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قالا : نريد ما أراد ؛ كأنهما يقولان : المُلْك .

فرجعتُ إلى علىّ فأخبرته

* * *

وقد روى قاضى القضاة رحمه الله فى كتاب " المغنى " عن وهب بن جرير ، قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إنّ لـكما فضلًا وصحبة ؛ فأخبرانى عن مسيركما

هذا وقتا لسكما ؛ أشيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله ، أم رأيٌ رأيتماه؟ فأمّا طلحة فسكت وجعل ينكت فى الأرض ، وأما الزّبير ، فقال : ويحك ! حُدِّثنا أنّ هاهنا دراهم كثيرة ، فجئنا لنأخذ منها .

وجعل قاضى القضاة هذا الخبر حجة فى أنّ طلحة تاب ، وأنّ الزبير لم يكن مصرًّا على الحرب . والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف ، وإنّ صحّ هو وماقبله ؛ إنه لدليل على حُمْقٍ شديد ، وضعف عظيم ، ونقص ظاهر . وليت شعرى ماالذى أحوجهما إلى هذا القول ! وإذا كان هذا فى أنفسهما ، فهلّا كتماه !

* * *

ثم نعود إلى خبرهما : قال أبو مخنف : فلما أقبل طلحة والزبير من المربد ، يريدان عثمان بن حَنيف ، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السّكك ؛ فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدّباغين ، فاستقبلهم أصحاب ابن حَنيف فشجَرهم[1] طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح ، فحمل عليهم حكيم بن جبلة ، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك ، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة ، فأخذوا إلى مقبرة بنى مازن ، فوقفوا بها مليًّا حتى ثابت إليهم خيلهم ، ثم أخذوا على مُسنّاة البصرة ، حتى انتهوا إلى الرابوقة ، ثم أتوا سَبَخة دار الرزق ، فنزلوها .

قال : وأتاهما عبد الله بن حكيم التميمىّ لما نزلا السّبَخة بكتب كانا كتباها إليه ، فقال لطلحة : ياأبا محمد ، أما هذا كتبك إلينا؟ قال : بلَى ، قال : فكتبتَ أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله ؛ حتى إذا قتلته ، أتيتنا ثائراً بدمه ! فلعمرى ماهذا رأيك ؛ لا تريد إلّا هذه الدنيا . مهلا ! إذا كان هذا رأيك ؛ فلمَ قبلتَ من علىّ ماعرض عليك من البيعة ،

---

(١) شجره بالرمح : طعنه .

فبايعته طائعاً راضياً ، ثم نكثتَ بيعتك ، ثم جئت لتدخِلنا فى فتنتك ! فقال : إنّ عليا دعانى إلى بيعته بعد مابايع الناس ، فعلمتُ لو لم أقبلْ ما عرضه علىّ لم يتمّ لى ، ثم يغرى بى مَنْ معه .

قال : ثم أصبحنا من غدٍ فصفّا للحرب ، وخرج عثمان بن حنيف إليهما فى أصحابه ، فناشدَهما اللهَ والإسلام ، وأذكرهما بيعتهما عليًا عليه السلام ، فقالا : نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : وما أنتما وذاك ! أين بنوه ؟ أين بنو عمّه الذين هم أحق به منكم ! كلّا والله ؛ ولكنّكما حسدتماه ؛ حيث اجتمع الناس عليه ، وكنتما ترجُوَان هذا الأمر ، وتعملان له ! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولا منكما ! فشتَماه شتماً قبيحاً ، وذكرا أمّه ، فقال للزبير : أما والله لولا صفيّة ومكانُها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل ، وأنّ الأمر بينى وبينك — يابن الصعبة — يعنى طلحة — أعظم من القول ؛ لأعلمتكما من أمركما مايسوءكما. اللهم إنى قد أعذرت إلى هذين الرجلين !

ثم حمل عليهم ، واقتتل النّاس قتالًا شديداً ، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتبَ بينهم كتاب صلح فكتب :

هذا مااصطلح عليه عثمان بن حَنيف الأنصارىّ ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وطلحة والزُّبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما ؛ أنّ لعثمانَ بن حنيف دار الإمارة والرّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنّ لطلحة والزُّبير ومَنْ معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة ، ولا يضارّ بعضُهم بعضاً فى طريق ولا فُرْضة ولاسوق ولا شِرْعة ولا مرفِق ، حتى يقدَم أميرُ المؤمنين علىّ بن أبى طالب ؛ فإنْ أحبُّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة ، وإن أحبوا لحق كلٌّ قوم بهواهم وما أحبوا من

قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهدالله وميثاقه ، وأشدّ ماأخذه على نبيّ من أنبيائه ؛ من عهد وذمة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه : الحقوا رحمكم الله بأهلكم ، وضعوا سلاحكم ، وداووا جرْحاكم . فمكثوا كذلك أياما

ثم إنّ طلحة والزبير قالا : إن قدِم عليّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف ؛ ليأخذن بأعناقنا ، فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب ، فأرسلا إلى وجوهِ الناس وأهل الرياسة والشرف ، يدعُوَانهم إلى الطلب بدم عثمان ، وخلع عليّ ، وإخراج ابن حنيف من البصرة . فبايعهم على ذلك الأزدُ وضَبّة وقَيْس بن عَيْلان كلّها إلا الرجُل والرجلين من القبيلة ، كرهوا أمرهم فتوارَوْا عنهم ، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمى فلم يأتهم ؛ فجاءه طلحة والزبير إلى داره ، فتوارى عنهما ، فقالت له أمه : مارأيت مثلَك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما ! فلم تزلْ به حتى ظهر لهما ، وبايعهما ومعه بنو عمرو ابن تميم كلّهم وبنو حَنظَلة إلا بنى يربُوع ؛ فإن عامّتهم كانوا شيعة لعليّ عليه السلام ، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلا نفراً من بني مُجاشع ذوِى دين وفضل .

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرُهما ، خرجا فى ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ، ومعهما أصحابهما ، قد ألبسوهم الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب ، فانتهوْا إلى المسجد وقتَ صلاة الفجر ، وقد سَبَقهم عثمان بن حَنِيف إليه ، وأقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان ليصلّيَ بهم ، فأخّره أصحابُ طلحة والزبير ، وقدموا الزبير فجاءت السبابجة — وهم الشُّرَط حرس بيت المال — فأخرجوا الزبير ، وقدّموا عثمان ، فغلبهم أصحاب الزبير ، فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلعُ ، وصاح بهم أهلُ المسجد : ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس ! فغلب الزّبير فصلى بالنّاس ،فلما انصرف من

صلاتِه ، صاح بأصحابه المستلحين : أنْ خُذوا عثمان بن حُنَيف ، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما ، فلما أسر ضُرِب ضرب الموت ، ونتِف حاجباه وأشفار عينيه، وكلّ شعرة فى رأسه ووجهه ، وأخذوا السبابجةَ وهم سبعون رجلا ؛ فانطلقوا بهم وبعثمان ابن حُنيف إلى عائشة ، فقالت لأبان بن عثمان : اخرج إليه فاضرب عنقه ، فإنّ الأنصار قتلتْ أباك ، وأعانت على قتله . فنادى عثمان : ياعائشة، وياطلحة ، ويازُبير ؛ إن أخى سهل ابن حُنيف خليفةُ علىّ بن أبى طالب على المدينة ؛ وأقسم بالله إنْ قتلتُمونى ليضعَنّ السيفَ فى بنى أبيكم وأهليكم ورهطكم ؛ فلا يُبقِ أحداً منكم . فكَفُّوا عنه ، وخافوا أن يقع سهل بن حُنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة ، فتركوه .

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتلُ السّبابجة ، فإنّه قد بلغنى الذى صنعوا بك . قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ، ولِىَ ذلك منهم عبدُ الله ابنه ، وهم سبعون رجلا، وبقيَتْ منهم طائفة مستمسكين ببيت المال . قالوا : لاندفعُه إليكم حتى يقدَم أمير المؤمنين ؛ فسار إليهم الزبير فى جيش ليلاً ، فأوقع بهم ؛ وأخذ منهم خمسين أسيراً ، فقتلهم صَبْرا .

* * *

قال أبو مخنف : فحدّثنا الصقعب بن زهير ، قال : كانت السبابجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل ، قال : فكان غَدْرُ طلحة والزبير بعثمانَ بن حُنيف أوّلَ غدر كان فى الإسلام ، وكان السبابجة أوّلَ قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صَبْراً . قال : وخَيّروا عثمانَ ابن حُنَيف بَيْن أن يقيم أو يلحق بعلىّ ، فاختار الرّحيل ؛ فخلَّوْا سبيلَه ، فلحِق بعلىّ عليه السلام ، فلما رآه بكى ، وقال له : فارقتك شيخاً ، وجئتك أمرد ، فقال علىّ : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! قالها ثلاثا .

قلت : السبابجة لفظة معرّبة ، قدذ كرها الجوهرىّ فى كتاب " الصّحاح "[1] قال: هم قوم من السِّند ، كانوا بالبصرة جَلَاوزة[2] وحرّاس السجن ، والهاء للعُجْمة والنسب، قال يزيدُ بن مفرِّغ الحِمْيَرِىّ :

وَطماطِيمَ من سَبابيجَ خُزْرٍ ... يُلبِسُونى مع الصَّباح القُيودَا

قال : فلما بلغ حَكِيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حُنيف ، خرج فى ثلاثمائة من عَبْد القيس مخالفاً لهم ومنابذا؛ فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جَمَلٍ ؛ فسمّى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر ، ويوم علىّ يوم الجمل الأكبر .

وتجالد الفريقان بالسّيوف ،فشدّ رجل من الأزد من عسكر عائشة عَلَى حَكِيم بن جبلة، فضرب رجله فقطعها ، ووقع الأزدىّ عن فرسه ،فجثا حَكِيم، فأخذ رجله فرمى بها الأزدىّ، فصرعه ، ثم دبّ إليه فقتله متكئا عليه ، خانقا له حتى زهقت نفسه ، فمر بحَكِيم إنسانٌ وهو يجود بنفسه ، فقال : مَنْ فعل بك ؟ قال : وسادى ، فنظر فإذا الأزدىّ تحته ، وكان حَكِيم شجاعا مذكورا.

قال :وقتل مع حَكِيم إخوة له ثلاثة ،وقتل أصحابه كلُّهم،وهم ثلاثمائة من عَبْد القيس، والقليل منهم مِنْ بكر بن وائل ، فلما صفت البَصْرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حُنَيف عنهما اختلفا فى الصلاة ، وأراد كلٌّ منهما أن يؤمّ بالناس ، وخاف أن تكون صلاته خَلْفَ صاحبه تسليما له ورضا بتقدّمه ؛ فأصلحت بينهما عائشة ، بأنْ جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصلّيان بالناس ، هذا يوما وهذا يوما .

قال أبو مِخْنف : ثم دخلا بيت المال بالبصرة ، فلما رأوْا مافيه من الأموال ، قال الزّبير :﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾[3]،فنحن أحقّ

---

(١) الصحاح ١ : ٣٢١ .

(٢) الجلواز : الشرطى .

(٣) سورة الفتح ٢٠ .

بها من أهل البصرة ، فأخذا ذلك المال كلّه ، فلما غلب علىٌّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال ، وقسمها فى المسلمين .

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفيّة الوقعة ، ومقتل الزبير فارًّا عن الحرب خوفا أو توبة — ونحن نقول : إنها توبة — وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان علىّ عليه السلام إليها وإلى مَنْ أسِر فى الحرب ، أو ظفر به بعدها .

***

[منافرة بين ولَدَى على وطلحة]

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمى — يلقّب أبا بعرة ، ولىَ شُرْطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس — كلّم إسماعيل ابن جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة[1] ، فقال القاسم بن محمد : لم يزلْ فضلُنا وإحساننا سابغاً عليكم يا بنى هاشم وعلى بنى عبد مناف كافّة ، فقال إسماعيل : أىّ فضل وإحسانٍ أسْدَيْتُموه إلى بنى عبد مناف ؟ أغضَبَ أبوك جدّى بقوله : ليموتَنَّ محمد ولنجولَنّ بين خلاخيل نسائه كما جال بين خلاخيل نسائنا[2] . فأنزل الله تعالى مُراغمة لأبيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾[3] ومنع ابنُ عمّك أمى حقها من فَدَك وغيرها من ميراث أبيها ؛ وأجلَبَ أبوك على عثمان وحصره حتى قُتِل ، ونكث بيعة علىّ وشام[4] السيفَ

---

(١) المنافرة : المفاخرة بالحسب والنسب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣ : ٥٠٦ .

(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .

(٤) شام بالسيف : شهره .

فى وجهه ، وأفسد قلوب المسلمين عليه ، فإنْ كان لبنى عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً ؛ فعرِّفنى مَنْ هم جعلتُ فداك !

***

[منافرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس]

وتزوّج عبد الله بن الزبير أمَّ عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزاريّة ، فلمّا دخل بها قال لها تلك الليلة : أتدرين مَنْ معك فى حَجَلتك[1] ؟ قالت : نعم ؛ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى .

قال : ليس غير هذا ! قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معكِ مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أنّ بعض بنى عبد مناف حَضَرك لقال لك خلافَ قولك . فغضب ، وقال : الطعام والشراب علىّ حرام حتى أحضرك الهاشميّين وغيرهم من بنى عبد مناف ؛ فلا يستطيعون لذلك إنكارا . قالت : إن أطعتَنى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك .

فخرج إلى المسجد فرأى حَلقةً فيها قوم من قريش ، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابنُ الزُّبير : أحِبّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ؛ فقام القوم بأجمعهم حتى وَقَفُوا على باب بيته ؛ فقال ابنُ الزبير : يا هذه اطرَحِي عليك سترَكِ ، فلما أخذوا مجالسَهم دعا بالمائدة ، فتغدّى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتُكم لحديث ردّته علىّ صاحبةُ السّتر ، وزعمتْ أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقرّ لى بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً . وأنت يا بنَ عباس ، ما تقول ؟ إنى أخبرتُها أنّ معها فى خِدْرها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة

---

(١) الحجلة ، بالتحريك : بيت للعروس يزين بالثياب والأسرة والستور .

الرأس من الجسد ، بل بمنزلة العينين من الرأس ! فردَّتْ علىَّ مقالتى ، فقال ابن عباس : أراكَ قصدْتَ قصدى ؛ فإن شئت أن أقولَ قلت ، وإن شئتَ أن أكفَّ كففت ، قال: بل قل ، وما عسى أن تقول ! ألستَ تعلم أنّى ابنُ الزبير حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنّ أمّى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين ، وأنّ عمتى خديجة سيدة نساء العالمين ، وأن صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتى ، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتى ! فهل تستطيع لهذا إنكارا !

قال ابن عباس : لقد ذكرت شرفًا شريفًا ، وفخرا فاخرا ، غير أنك تُفاخر مَنْ بفخره فخرتُ ، وبفضله سموتُ . قال : وكيف ذلك؟ قال : لأنك لم تذكرْ فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتَ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوّة ، قال ابن عباس :

* قد أنصفَ القارة مَنْ راماها[1] *

نشدتكم الله أيها الحاضرون ! أعبد المطّلب أشرف أم خويلد فى قريش ؟ قالوا : عبدالمطّلب ، قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم ، قال : أفعبدمناف أشرف أم عبد العزّى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تنافرنى يابنَ الزُّبير وَقَدْ قَضَى عليك رسولُ الله لا قول هازلِ
ولو غيرُنا يابنَ الزبير فخرته ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

(١) القارة : قوم من رماة العرب ؛ وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة ، من كنانة ؛ سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم فى كنانة . وأصل المثل كما ذكره صاحب اللسان : أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى والآخر أسدى ؛ فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشد :

قد أنصفَ القارة مَنْ رَامَاهَا إنَّا إذا ما فِئَةٌ نَلْقَاهَا

* نردُّ أولاها على أخراها *

ثم انتزع له سهماً فشك فؤاده .

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل فى قوله : «ما افترقت فرقتان إلا كنتُ فى خيرهما » ، فقد فارقناك من بعد قصيٍّ بن كلاب ، أفنحن فى فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت: نعم خُصِمْتَ[1] ، وإن قلت : لا كفرت !

فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرّمك بطعامنا يابنَ عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك ، قال ابن عباس : ولم ؟ أبباطل فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحقّ لا يخشى من الباطل !

فقالت المرأة من وراء السِّتر : إنى والله لقد نهيتُه عن هـذا المجلس ، فأبى إلا ماترون .

فقال ابن عباس : مَهْ أيتها المرأة ! اقنعى ببعلِك ، فما أعظم الخطر ، وما أكرم الخبر! فأخذ القوم بيد ابن عباس — وكان قد عَمِيَ — فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرّة ، فنهض وقال :

ألَا ياقَوْمَنَا ارتحلُوا وسيروا فلو تُرِكَ الْقَطـــا لَغَفَا ونَامَا

فقال ابن الزبير : ياصاحبَ القطا ، أقبِلْ علىَّ ، فما كنتَ لتدَعنى حتى أقول ، وايمُ الله لقد عرف الأقوام أنى سابقٌ غير مسبوق ، وابن حوارىّ وصدّيق ، متبجّح فى الشرف الأنيق ، خيرٌ من طليق .

فقال ابن عباس : دَسَعْتَ بجرّتك[2] فلم تبق شيئاً ؟ هذا الـكلام مردود ، من امرئ حسود ، فإنْ كنتَ سابقاً فإلى مَنْ سَبقْتَ ؟ وإن كنت فاخراً فبِمَنْ فخرت ؟ فإن كنتَ أدركت هذا الفخر بأسْرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا ، وإن كنتَ إنّما أدركتَه بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، والـكَثْكَث[3] فى فمك ويديك . وأمّا ما ذكرت

(١) خصمت : أى غلبت .

(٢) يقال : دسع البعير بجرته ؛ أى دفعها حتى أخرجها ؛ والـكلام على التمثيل .

(٣) الـكثـكث : التراب .

من الطَّلبق ، فوالله لقد ابتُلِيَ فصبر ، وأنعم عليه فشكر ؛ وإن كان والله لوفيًا كريمًا غير ناقض بيعةً بعد توكيدها ، ولا مسلِمٍ كتيبةً بعد التأمّر عليها .

فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبن ؛ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك !

قال ابن عباس : والله إني لا أعلم إلّا أنه فرّ وما كرّ ، وحارب فما صبر ، وبايع فما تمّ ، وقطع الرحم ، وأنكر الفضل ، ورام ماليس له بأهل .

وَأَدْرَكَ مِنْهَا بعضَ ما كان يرتجى   وقصّر عن جَرْيِ الكرام وبَلّدَا

وما كان إلا كالمجين أمامه   عَنَاقٌ فجاراه العَنَاقُ فأجهدا

فقال ابن الزبير : لم يبق يابني هاشم غير المشاتمة [1] والمضاربة .

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث : أقمناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنتَ إلّا كالسغِب الظمآن ، يفتح فاه يستزيد من الريح ، فلا يشبع من سَغَب ، ولا يروى من عطش ؛ فقل إن شئت ، أو فدع .

وانصرف القوم .

---

(١) ب : « المشاغبة » .

(١٧٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمِينُ وَحْيِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ ؛ فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ .

وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ ؛ مَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ ؛ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ .

أَلَا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ : رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

***

الشَّرْحُ :

صدر الكلام في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويتلوه فصول :

أولها : أنّ أحقّ الناس بالإمامة أقواهم عليها ، وأعلمهم بحكم الله فيها ؛ وهذا لا ينافي مذهبَ أصحابنا البغداديين في صحّة إمامة المفضول ، لأنّه ما قال : إن إمامة غير الأقوى فاسدة ، ولكنه قال : إنّ الأقوى أحقّ ؛ وأصحابنا لا ينكرون أنه عليه السلام أحقّ ممن تقدّمه بالإمامة مع قولهم بصحّة إمامة المتقدمين ؛ لأنه لا منافاة بين كونه أحقّ ، وبين صحة إمامة غيره .

فإن قلت : أىّ فرقٍ بين أقوامهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه ؟ قلت : أقوامهم أحسنُهم سياسة ، وأعلمهم بأمر الله أكثرُهم علما وإجراء للتدبير بمقتضى العلم ؛ وبين الأمرين فرق واضح ، فقد يكون سائسا حاذقا، ولا يكون عالما بالفقه ، وقد يكون سائسا فقيها، ولا يجرى التدبير على مقتضى علمه وفقهه .

وثانيها : أنّ الإمامة لا يشترط فى صحة انعقادها أن يحضرُها الناسُ كافّة، لأنه لو كان ذلك مشترَطا لأدّى إلى ألّا تنعقد إمامة أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنّها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحلّ والعقد الحاضرين، ثم لا يجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجِعُوا من غير سبب يقتَضِى رجوعَهم، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير مَنْ عقدله، بل يكون محجوجا بعقد الحاضرين ، مكلّفا طاعة الإمامة المعقود له ؛ وعلى هذا جرت الحال فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وانعقد إجماع المسلمين عليه ؛ وهذا الكلام تصريح بصحة مذهب أصحابنا فى أنّ الاختيار طريق إلى الإمامة ، ومبطلٌ لما تقوله الإماميّة من دعوى النصّ عليه ؛ ومن قولهم : لا طريق إلى الإمامة سوى النصّ أو المعجز .

وثالثها : أنّ الخارج على الإمام يستعتَب أولا بالكلام والمراسلة، فإن أبى قُوتل؛ وهذا هو نصّ الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ورابعها : أنه يقاتِل أحدَ رجلين: إمّا رجلاً ادّعى ماليس له نحو أن يخرُج على الإمام مَن يدّعى الخلافة لنفسه، وإمّا رجلاً منع ماعليه، نحو أن يخرج على الإمام رجلٌ لا يدّعى الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط .

فإن قلت : الخارج عَلَى الإمام مدّعٍ الخلافة لنفسه ، مانع ماعليه أيضا لأنه قد امتنع من الطاعة ، فقد دخل أحدُ القسميْن فى الآخر !

---

(١) سورة الحجرات ٩ .

قلت : لمّا كان مدّعى الخلافة قد اجتمع له أمران : إيجابىّ وسلبىّ ، فالإيجابى دعواه الخلافة ، والسلبىّ امتناعُه من الطاعة ، كان متميّزاً ممن لم يحصل له إلّا القسم السلبىّ فقط ، وهو مانع الطاعة لاغير ، فكان الأحسن فى فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب ، فلذلك قال : « إمّا مدعيا ماليس له ، أو مانعا ماهو عليه » .

***

الأصْلُ :

أُوصِيكُمْ - عِبَادَ ٱللهِ - بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنهَا خَيْرُ مَاتَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ ؛ وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ ؛ وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ ، وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا ٱلْعِلْمَ إِلاَّ أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ ٱلْحَقِّ ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً .

أَلَا وَإِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا ، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلِكُمُ ٱلَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ ؛ وَلَا ٱلَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ .

أَلَا وَإِنهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ ، وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا ؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا ، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا ، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا ؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى ٱلدَّارِ ٱلَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَٱنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ ٱلْأَمَةِ عَلَى مَازُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا ، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ ٱللهِ ، وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

***

الشرح :

لم يكن المسلمون قَبْلَ حربِ الجمل يعرفون كيفيّة قتالِ أهل القبلة ؛ وإنما تعلّموا فقه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال الشافعيّ : لولا عليّ لما عرِف شيء من أحكام أهل البغى .

قوله عليه السلام : « ولا يحمل هذا العلمَ إلا أهلُ البصر والصبر » ، وذلك لأنّ المسلمين عَظُم عندهم حربُ أهل القبلة ، وأكبروه ؛ ومَنْ أقدَم عندهم عليه أقدَم على خوف وحذر ، فقال عليه السلام : إن هذا العلم ليس يدركه كلّ أحدٍ ، وإنّما له قوم مخصوصون .

ثم أمرهم بالمضىّ عندما يأمرهم به ، وبالانتهاء عمّا ينهاهم عنه ، ونهاهم عن أن يعجَلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يتبيّن ويتّضح .

ثم قال : إنّ عندنا تغييراً لكلّ ماتنكرونه من الأمور التى يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها ، أى لستُ كعثمان أصرّ على ارتكاب ما أنهى عنه ، بل أغيّر كلّ ماينكره المسلمون ، ويقتضى الحال والشرع تغييرَه .

ثم ذكر أنّ الدنيا التى تغضب الناس وترضيهم ؛ وهى منتهى أمانيهم ورغبتهم ، ليست دراهم ، وإنما هى طريقٌ إلى الدار الآخرة ، ومدّة اللبْث فى ذلك الطريق يسيرة جدا .

وقال : إنها وإنْ كانت غرّارة فإنها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما رأوْه من آثارها فى

سلَفهم وإخوتهم وأحبائهم ، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء ، وفراق المألوف .

قال : فدعوا غرورَها لتحذيرها ؛ وذلك لأنّ جانب تحذيرها أوْلى بأن يعمل عليه من جانب غرورها ؛ لأن غرورها إنما هو بأمرٍ سريع مع التصرّم والانقضاء ، وتحذيرها إنما هو لأمرٍ جليل عظيم ؛ فإن الفناء المعجّل محسوس ؛ وقد دلّ العقل والشرائع كافّة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة ، فينبغى للعاقل أن يحذَر من تلك الشقاوة ، ويرغب فى تلك السعادة ، ولاسبيلَ إلى ذلك إلا برفض غُرور الدنيا ، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللبّ والبصيرة رفضُها ، لأن الموجود منها خيال ، فإنه أشبه شىء بأحلام المنام ؛ فالتمسك به والإخلاد إليه حُمْق .

والخنين : صوت يخرجُ من الأنف عند البكاء ، وأضافه إلى الأمَة ؛ لأنّ الإماء كثيرا ما يُضرَبْن فيبكين ، ويسمَع الخنين منهنّ ؛ ولأن الحرّة تأنف من البكاء والخنين .

وزوى : قبض .

ثم ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه ، يعنى القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات ، ولا ينفعه حصولُ الدنيا كلّها بعد تضييعه دينه ؛ لأن ابتياع لذّة متناهية بلذة غير متناهية يُخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً ، ويدخلها فى باب المضارّ ؛ فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية ، أعاذنا الله منها !

(تم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء العاشر)

(تنبيه) : ضبطت كلمة « حُنيف » ، فى بعض المواطن من صفحات هذا الجزء بفتح الحاء المهملة ، والصواب بالضم .

فهرس الخطب *

	الصفحة
١٣٦ ـ من كلام له عليه السلام فى وصف بيعته	٣١
١٣٧ ـ من كلام له عليه السلام فى شأن طلحة والزبير	٣٣ ـ ٣٨
١٣٨ ـ من خطبة له عليه السلام يومئ فيها إلى ذكر الملاحم	٤٠ ـ ٤٧
١٣٩ ـ من كلام له عليه السلام فى وقت الشورى	٤٩
١٤٠ ـ من كلام له عليه السلام فى النهى عن غيبة الناس	٥٩
١٤١ ـ من كلام له عليه السلام فى النهى عن التسرع بسوء الظن	٧٢
١٤٢ ـ من كلام له عليه السلام فى أمر من وضع المعروف عند غير أهله	٧٤
١٤٣ ـ من كلام له عليه السلام فى الاستسقاء	٧٦ ، ٧٧
١٤٤ ـ من خطبة له عليه السلام فى بعثة الأنبياء ثم استطرد إلى وصف بنى هاشم	٨٤ ـ ٨٨
١٤٥ ـ من خطبة له عليه السلام فى الزهد ، وذكر البدع والسنن	٩١ ـ ٩٣
١٤٦ ـ من كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه	٩٥
١٤٧ ـ من خطبة له فى هدى الناس ببعثة الرسول عليه السلام وذكر من انحرف عن القرآن ، وفيها نبه الناس إلى مواطن الرشد والغى	١٠٣ ـ ١٠٦
١٤٨ ـ من كلام له عليه السلام فى ذكر أهل البصرة	١٠٩ ـ
١٤٩ ـ من كلام له عليه السلام قبل موته	١١٦ ، ١١٧
١٥٠ ـ من خطبة له عليه السلام يومىء فيها إلى الملاحم	١٢٦ ، ١٣٢

(*) وهى الخطب التى وردت فى نهج البلاغة .

	صفحة
١٥١ ـ من خطبة له عليه السلام فى التحذير من الفتن وغيرها مما يهلك	١٣٧ ، ١٤٦
١٥٢ ـ من خطبة له فى تمجيد الله وتعظيمه	١٤٧ ، ١٥٢
١٥٣ ـ من خطبة له عليه السلام فى تحذير الناس من الغفلة	١٥٧ ـ ١٦٠
١٥٤ ـ من خطبة له عليه السلام فى وصف الداعى ووصف أهل البيت وذكر لزوم العمل بالعلم والعلم بالعمل	١٦٤ ـ ١٧٩
١٥٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش	١٨١ ـ ١٨٢
١٥٦ ـ من كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم	١٨٩ ـ ٢٠٣
١٥٧ ـ ومن كلام له عليه السلام حينما قام إليه رجل وسأله عن الفتنة	٢٠٥
١٥٨ ـ من خطبة له عليه السلام فى وصف الدهر والتحفظ منه ، وفيها جملة وصايا	٢٠٩ ـ ٢١٠
١٥٩ ـ ومن خطبته له عليه السلام فى حال الناس قبل البعثة وبعدها	٢١٧ ـ ٢١٨
١٦٠ ـ من خطبة له عليه السلام فى وصف حاله مع أصحابه	٢٢١
١٦١ ـ من خطبة له عليه السلام فى تعظيم الله ، وفيها ذكر شخص يزعم أنه يرجو الله وهو لا يعمل لرجائه ، وفيها حث على الاقتداء بالأنبياء	٢٢٣ ـ ٢٢٩
١٦٢ ـ من خطبة له عليه السلام ؛ ذكر فيها الرسول عليه السلام وشرف أسرته	٢٣٧ ـ ٢٣٩
١٦٣ ـ من كلام له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟	٢٤١
١٦٤ ـ من خطبة له عليه السلام فى تنزيه الله وتذكير الإنسان بهديه له فى سبيل معيشته	٢٥٢ ـ ٢٥٧

صفحة

١٦٥ ـ من كلام قاله عليه السلام لعثمان بن عفان ، لما اجتمع عليه الناس وسألوه مخاطبته عنهم ٢٦١ ـ ٢٦٢

١٦٦ ـ من خطبة له يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس ، وفيها وصف الجنة ٢٦٦ ـ ٢٧٨

١٦٧ ـ من خطبة له عليه السلام ، يوصى فيها بمكارم الأخلاق ، وبوعد بنى أمية ٢٨٢

١٦٨ ـ من خطبة له عليه السلام فى أول خلافته ، وفيها حث على اتباع القرآن ، وتأدية الفرائض ٢٨٨

١٦٩ ـ من كلام له عليه السلام بعدما بويع له بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابة . لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ! ٢٩١

١٧٠ ـ من خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة ٢٩٥

١٧١ ـ من كلام له عليه السلام لرجل من أهل البصرة وقد أرسله قومه ليعلم حقيقة حاله مع أصحاب الجمل ٢٩٩

١٧٢ ـ من كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين ٣٠١

١٧٣ ـ من خطبة له عليه السلام ، وفيها ذكر أصحاب الجمل ٣٠٤

١٧٤ ـ من خطبته له عليه السلام ، فيمن أحق بالخلافة ، وفيمن يجب قتاله ، وفيها ذم للدنيا وتزهيد فيها ٣٢٨ ـ ٣٣١

فهرس الموضوعات

ذكر أطراف مما شجر بين على وعثمان فى أثناء خلافته	٣ ـ ١٨
فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام فى حضرة على	١٨ ـ ٢٤
أسباب المنافسة بين على وعثمان	٢٤ ـ ٣٠
فصل فى الاعتراض وإيراد مثل منه	٤٢ ـ ٤٦
من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان	٤٩ ـ ٥٨
أقوال مأثورة فى ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين	٦٠ ـ ٦٦
حكم الغيبة فى الدين	٦٦ ـ ٦٩
فصل فى الأسباب الباعثة على الغيبة	٦٩ ـ ٧١
طريق التوبة من الغيبة	٧١
الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب	٧٩ ـ ٨٣
اختلاف الفرق الإسلامية فى كون الأئمة من قريش	٨٧ ، ٨٨
يوم القادسية	٩٦ ـ ٩٩
يوم نهاوند	٩٩ ـ ١٠١
من أخبار يوم الجمل	١١١ ، ١١٢
مقتل طلحة و لزبير	١١٣ ، ١١٥
عقيدة على فى عثمان ورأى المعتزله فى ذلك	١٥٣
فصل فى ذكر بعض غرائب الطيور وما فيها من عجائب	١٨٣ ـ ١٨٨
فصل فى ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها	١٩٠ ـ ١٩٩
نبذ من الأخبار والآثار الواردة فى الابتعاد عن زينة الدنيا	٢٣٤ ـ ٢٣٦
حديث عن امرئ القيس	٢٤٤ ـ ٢٤٥
موقف على من قتلة عثمان	٢٩٣ ـ ٢٩٤
ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال	٣١٠ ـ ٣٢٣
منافرة بين ولدى على وطلحة	٣٢٣ ـ ٣٢٤
منافرة بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس	٣٢٤ ـ ٣٢٧

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء العاشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٧م)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ الحمد لله الواحد العدل ١)

(١٧٥)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام فى معنى طلحة بن عبيد الله:

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ؛ وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ؛ لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ (٢) الْأَمْرُ، وَيَقَعَ الشَّكُّ.

وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ:

لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ.

وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ.

وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ؛ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ، وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ.

فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ؛ وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

***

(١ - ١) ساقط من ب.

(٢) مخطوطة النهج: «ليلبس».

الشرح :

كان هاهنا تامّة ، والواو واو الحال ؛ أى خُلقتُ ووجدتُ وأنا بهذه الصفة ، كما تقول: خلقنى الله وأنا شجاع .

ويجوز أن تكون الواو زائدة ، وتكون « كان » ناقصة ، وخبرها « ما أُهدَّد»، كما فى المثل : « لقد كنت وما أُخَشَّى بالذئب[1] » .

فإن قلت : إذا كانت ناقصة ، لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى ؛ فيكون الآن يهدَّد ويُرَهَّب .

قلت : لا يلزم ذلك ، لأنّ « كان » الناقصة للماضى من حيث هو ماضٍ ؛ وليس يشترط فى ذلك أن يكون منقطعا ؛ بل قد يكون دائما ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[2] .

ثم ذكر عليه السّلام أنه على ماوعده ربُّه من النصر ، وأنّه واثق بالظَّفَروالغَلبةالآن، كما كانت عادتُه فيما سبق .

ثم شرح حال طلحة ، وقال : إنّه تجرّد[3] للطّلب بدم عثمان ، مغالطةً للنّاس ، وإيهاماً لهم أنّه برىء من دمه ، فيلتبسُ الأمرُ، ويقع الشكّ .

وقد كان طلحةُ أجهد نفسَه فى أمرِ عثمان والإجلاب[4] عليه ، والحصرِ له ، والإغراء به ، ومنّتْهُ نفسه الخلافة ؛ بل تلبّس بها ، وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها ، وقاتل النّاس ، وأحدقوا به ، ولم يبقَ إلا أن يَصْفِق[5] بالخلافة على يده .

---

(١) بقية المثل : « فاليوم قيل الذئب الذئب » ، وأول من قاله قباث بن أشيم الكنانى ، وانظر مجمع الأمثال ٢ : ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ١٧ .

(٣) يقال : تجرد للأمر ؛ إذا جد فيه وتفرغ له .

(٤) أجلب عليه ، أى حاول أن يجمع الناس له من كل مكان .

(٥) صفق على يديه بالبيعة صفقاً وصفقة ، أى ضرب يده على يده .

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ فى كتاب "التاريخ"، قال :

حدّثنى عمر بن شبّة ، عن علىّ بن محمد ، عن عبد ربّه ، عن نافع ، عن إسماعيل بن أبى خالد[١] ، عن حَكِيم[٢] بن جابر ، قال: قال علىّ عليه السلام لطلحة وعثمان محصور : أنشُدك الله إلّا رددتَ الناس عن عثمان ! قال : لا والله حتى تُعطِىَ بنو أميّة الحقَّ من أنفسها .

وروى الطّبرىّ أنّ عثمان كان له عَلَى طلحة خمسون ألفا ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد، فقال له طلحة : قد تهيّأ مالك فاقبِضْه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك[٣] .

قال : فكان عثمان يقولُ وهو محصور : جزاء سِنِمّار !

وروى الطبرىّ أيضا أنّ طلْحة باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف ، فحملها إليه ، فقال طلحة : إنّ رجلا يبيت[٤] وهذه عنده وفى بيته ، لا يدرى مايطرُقه من أمر الله لغرِيرٌ بالله ؟ فبات ورسله تختلف بها فى سِكَكِ المدينة يقسِمُها حتّى أصبح وما عنده منها درهم واحد .

قال الطبرىّ : روى ذلك الحسن البصرىّ ، وكان إذا روَى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم ــ أو قال : والصفراء والبيضاء[٥] .

---

(١) فى الأصول : « أبو طالب » ، تحريف وصوابه من تاريخ الطبرى .
(٢) حكيم بمفتوحة وكسر الكاف ؛ كذا ضبط فى التقريب .
(٣) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٤ .
(٤) فى الطبرى : « تطرق » .
(٥) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٥

وروى الطّبرىّ أيضا ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : لما حَججتْ بالنّاس نيابة عن عثمان وهو محصور ، مررت بعائشة بالصُّلْصُل[١] ، فقالت : يابنَ عباس، أنشدك الله. فإنك قد أُعطِيتَ لساناً وعقلا ، أن تُخَذِّل الناسَ عن طلحة ؛ فقد بانت لهم بصائرهم فى عثمان وأنهجَتْ[٢] ، ورفعت لهم المنار ، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ ؛ وإنّ طلحة - فيما بلغنى - قد اتخذ رجالا على بيوت الأموال، وأخذ مفاتيحَ الخزائن وأظنّه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبى بكر ، فقال : يا أمّه ، لو حدَث بالرّجل حدثٌ مافزع الناس إلّا إلَى صاحبنا ، فقالت : إيهاً عنك يابن عباس ؛ إنى لستُ أُريد مكابرَتك ولا مجادَلتك[٣] .

وروى المدائنىّ فى كتاب " مقتل عثمان "، أنّ طلحة مَنع من دفنه ثلاثة أيام ، وأنّ عليا عليه السلام لم يبايع الناس إلّا بعد قتل عثمان بخمسة أيام ، وأن حَكِيم بن حزام أحدَ بنى أسد بن عبد العُزّى ، وجُبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدَا بعلىّ عليه السلام على دفنه ، فأقعد طلحةُ لهم فى الطّريق ناسا بالحجارة ، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطا بالمدينة يعرف بحَشّ كَوْكب[٤] كانت اليهود تَدْفِنُ فيه موتاهم ، فلما صار هناك رُجِم سريره ، وهمّوا بطرحه ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكفُّوا عنه فكفُّوا ، فانطلقوا به حتى دفنوه فى حَشّ كوكب .

---

(١) صلصل : موضع بنواحى المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل به صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح ؛ قال عبدالله بن مصعب الزبيرى :

أشْرِف عَلَى ظَهْرِ الْقُدَيْمَةِ هَلْ تَرَى ... برقاً سَرَى فى عارِضٍ متهلّلِ
نَضَح العَقِيقَ فَبطْنَ طَيْبَةَ مَوْهِناً ... ثمّ اسْتَمَرّ يَؤُمُّ قَصْدَ الصُّلْصُلِ

(٢) أنهج الطريق : وضح .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٧ .

(٤) حش كوكب : موضع عند بقيع الغرقد ، ذكره ياقوت ، وقال : اشتراه عثمان بن عفان ، وزاده فى البقيع ، ولما قتل ألقى فيه ، ثم دفن فى جنبه .

وروى الطبرىّ نحو ذلك ؛ إلّا أنه لم يذكر طلحة بعينه ؛ وزاد فيه أنّ معاوية لما ظَهَر على النّاس ؛ أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البَقِيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتّصل [ذلك] [١] بمقابر المسلمين .

وروى المدائنىّ فى هذا الكتاب ، قال : دفن عثمان بين المغرب والعَتَمة ، ولم يشهد جنازته إلّا مَرْوان بن الحكَم وابنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه ، فرفعت ابنتُه صوتها تندُبه ؛ وقد جعل طلحة ناساً هناك أكمنهم كمينا ، فأخذتهم الحجارة ، وصاحوا : نعثل نعثل [٢] ! فقالوا : الحائط الحائط ! فدفن فى حائطٍ هناك .

وروى الواقدىّ ، قال : لما قتِل عُثمان ، تكلّموا فى دفنه ، فقال طلحة : يُدفن بدير سَلْع - يعنى مقابر اليهود .

وذكر الطبرىّ فى تاريخه هذا ؛ إلّا أنه روى عن طلحة فقال : قال رجل : يدفن بدير سلْع - فقال حكيم بن حزام : والله لايكون هذا أبدا وأحد من ولد قصىّ [حىّ] [١] حتى كاد الشرّ يلتحم ؛ فقال ابن عُدَيْس البَلَوِىّ : أيها الشيخ ؛ وما يضرّك أين دفن ! قال : لا يدفن إلا ببقيع الغَرْقد [٣] ؛ حيث دفن سَلَفُه ورهطه ؛ فخرج به حكيم بن حزام فى اثنى عشر رجلا ، منهم الزّبير بن العوام ، فمنعهم النّاس عن البقيع ، فدفنوه بحَشّ كَوْكب [٤] .

***

(١) من تاريخ الطبرى .

(٢) نعثل : رجل من أهل مصر ؛ كان طويل اللحية ؛ وكان شانئو عثمان رضى الله عنه يسمونه بذلك . اللسان .

(٣) أصل البقيع فى اللغة ، الموضع الذى فيه أروم الشجر ؛ والغرقد كبار الشجر المسمى بالعوسج . وهو مقبرة أهل المدينة (ياقوت) .

(٤) تاريخ الطبرى ٤ : ٤١٢ ، ٤١٧

وروى الطبرىّ فى التاريخ أنّ عثمان لما حُصِر ، كان علىّ عليه السلام بخيبر فى أمواله ؛ فلما قدم أرسل إليه يدعوه ، فلما دخل عليه قال له : إنّ لى عليك حقوقا : حقّ الإسلام ، وحقّ النسب ، وحقّ مالى عليك من العهد والميثاق ؛ ووالله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شىء وكنّا فى جاهلية ؛ لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيْمٍ مُلْكهم — يعنى طلحة — فقال له عليه السلام : سيأتيك الخبر ، ثم قام فدخل المسجد ، فرأى أسامة بن زيد جالساً ، فدعاه فاعتمد على يدِه ، وخرج يمشى إلى طلحة ، فدخل داره ؛ وهى دِحَاسٌ[1] من الناس ؛ فقام عليه السلام ، فقال : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعتَ فيه ؟ فقال : يا أبا أحسن ، أبعدَ ما مسّ الحِزام الطُّبْيين ! فانصرف علىّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيت المال ، فنادى : افتحُوا هذا الباب ، فلم يقدروا على فَتْحِه ، فقال : اكسِرُوه ، فكُسِر فقال : أخرجوا هذا المال ، فجعلوا يخرجونه وهو يعطى الناس ؛ وبلغ الذين فى دار طلحة ما صنع علىّ عليه السلام ، فجعلوا يتسلّلون إليه حتى بقى طلحة وحده ؛ وبلغ الخبرُ عثمان ، فَسُرّ بذلك ، ثم أقبل طلحة يمشى عامداً إلى دار عثمان ، فاستأذن عليه ؛ فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ أستغفر الله وأتوبُ إليه ؛ لقد رمت أمراً حال الله بينى وبينه . فقال عثمان : إنك والله ما جئت تائبا ؛ ولكن جئت مغلوبا ؛ والله حسيبك يا طلحة[2] !

ثم قسم عليه السلام مالَ طلحة ،فقال : لا يخلو إمّا أن يكون معتقداً حلّ دم عثمان ، أو حرمته ؛ أو يكون شاكاً فى الأمرين ؛ فإن كان يعتقد حلّه لم يجُزْ له أن ينقضَ البَيْعة لنصرة إنسان حلال الدم ، وإن كان يعتقد حرمته ، فقد كان يجب عليه أن ينهنِهَ عنه الناس ، أىْ يكفّهم .

---

(١) دحاس من الناس ؛ أى ممتلئة .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٣١

وأن يعذّر فيه ؛ بالتشديد أى يقصّر ولم يفعل ذلك ؛ وإنْ كان شاكاً ؛ فقد كان يجب عليه أن يعتزِل الأمر ، ويركد جانبا ؛ ولم يعتزل وإنما صَلِيَ بنار الفتنة ، وأصلاها غيرَه .

فإن قلت : يمكن أن يكون طلحةُ اعتقَد إباحة دم عثمان أوّلاً ، ثم تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتله ؛ فاعتقد أنّ قتلَه حرام ، وأنه يجب أن يقتصّ من قاتليه !

قلت : لو اعترف بذلك لم يقسِّم علىّ عليه السلام هذا التقسيم؛وإنما قسّمه ابقائه على اعتقاد واحد ؛ وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه ؛ وكذا كان حال طلحة فإنّه لم ينقل عنه أنه قال : ندمت على مافعلت بعثمان .

فإن قلت : كيف قال أمير المؤمنين عليه السّلام:« فما فعل واحدة من الثلاث »؛وقد فعل واحدة منها ، لأنّه وازر قاتليه حيث كان محصورا !

قلت : مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالما ، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله ؛ يحامى عنهم،ويمنعهم ممّن يروم دماءهم؛ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك،وإنما وازرهم وعثمان حىّ؛ وذلك غير داخل فى التقسيم .

(١٧٦)

الأصْلُ :

من خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ المَغْفُولِ عَنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ ، وَالمَأْخُوذُ [١] مِنْهُمْ .

مَالِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ كَالمَعْلُوفَةِ لِلمُدَى ؛ لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا ! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا .

وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ ؛ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الخَلْقِ ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقًا ؛ وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو ، وَمَآلِ هَذَا الأَمْرِ ؛ وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

خاطب المكلّفين كافّة ؛ وقال : إنّهم غافلون عمّا يُراد بهم ومنهم ؛ وليسوا بمغفول عنهم ؛ بل أعمالهم محفوظة مكتوبة .

---

(١) ب : « المأخوذ » ، من غير واو .

ثم قال : والتاركون : أى يتركون الواجبات .

ثم قابل ذلك بقوله : « والمأخوذ منهم » ، لأنّ الأخذ فى مقابلة التَّرْك ؛ ومعنى الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم ؛ وانتقاض قواهم ، واستلاب أحبابهم وأموالهم .

ثم شبههم بالنّعم التى تتبع نعماً أخرى .

سائمة ، أى راعية ؛ وإنّما قال ذلك لأنّها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغَ فى ضرب المثل بجهالها من الإبل التى يُسِيمُها راعيها والمرعى الوبىّ : ذو الوَباء والمرض . والمشرب الدّوىّ ذو الداء ، وأصل « الوبى » اللّيّن الوبىء المهموز ؛ ولكنه ليّنه ؛ يقال : أرض وبيئة على « فعيلة » ، ووبئة على « فَعِلة » ؛ ويجوز أو بأتْ فهى موبئة .

والأصل فى الدوىّ « دَوٍ » بالتخفيف ؛ ولكنه شدّده للازدواج .

ثم ذكر أن هذه النَّعم الجاهلة التى أوقعت أنفسها فى هذا المرتع والمشرب المذمومين كالغنم وغيرها من النّعم المعلوفة .

للمُدَى : جمع مُدْية ؛ وهى السّكين ، لا تعرف ماذا يراد بها ، وتظنّ أنّ ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة .

ومعنى قوله : « تحسب يومها دهرها » ؛ أىْ تظنّ أنّ ذلك العلف والإطعام كما هو حاصلٌ لها ذلك اليوم ، يكون حاصلا لها أبداً .

و « شبعها أمرَها » ، مثل ذلك ، أى تظن أنه ليس أمرُها وشأنُها إلّا أن يطْعِمها أربابُها لتشبع وتحسُن وتسمن ؛ ليس يريدون بها غير ذلك .

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر ، فأقسم أنه لو شاء أن يخبر كلّ واحد منهم من أين خرج ، وكيفية خروجه من منزله ، وأين يلج ، وكيفيّة ولوجه ؛ وجميع شأنه من مطعمه ومشربه ، وما عزم عليه من أفعاله ، وما أكله ، وما ادّخره فى بيته ، وغير ذلك من شئونه وأحواله ، لفعل .

وهـذا كقولِ المسيح عليـه السلام : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾(١) .

قال : إلّا أنى أخاف أن تـكفروا فىّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ أىْ أخاف عليـكم الغلوّ فى أمرى ، وأن تُفَضِّلُونى على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ بل أخاف عليـكم أن تدّعوا فىّ الإلٰهيـة ، كما ادّعت النصارى ذلك فى المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغائبة .

ثم قال : «ألَا وإنّى مُفْضِيه إلى الخاصّة» أى مفضٍ به ومودعٌ إياه خواصّ أصحابى وثقاتى الذين آمنُ منهم الغلوّ ، وأعلم أنهم لا يـكفرون فىّ بالرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته ، إذ يكون تابع من أتباعه ، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة .

ثم أقسم قسَماً ثانيا أنه ماينطق إلّا صادقا ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد بذلك كلّه إليه ، وأخبره بمهلِك مَنْ يهلِك من الصحابة وغيرهم من الناس ؛ وبنجاةِ(٢) مَنْ ينجو ، وبمآلِ هذا الأمر — يعنى مايفضى إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة — وأنه ماترك شيئا يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه .

* * *

[فصل فى ذكر بعض أقوال الغلاة فى علىّ]

واعلم أنه غيرُ مستحيل أن تكون بعض الأنفُس مختصّةً بخاصيّة تدرِك بها المغيّبات ؛ وقد تقدّم من الـكلام فى ذلك مافيه كفاية ، ولـكنْ لا يمكنُ أن تـكون نفس تدرك كلّ المغيّبات ؛ لأنّ القوة المتناهية لا تحيط بأمورٍ غير متناهية ؛ وكلّ قوّة فى نفس حادثة فهى متناهية ؛ فوجب أن يحمَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، لا على أن يريد به عموم العالميّة

(١) سورة آل عمران ٤٩ .
(٢) ا : « بنجاة » .

بل يعلم أمورا محدودة من المغيّبات ؛ مما اقتضت حكمة البارئ سبحانه أن يؤهّله لعلمه ؛ وكذلك القول فى رسول الله صلى الله عليه وآله إنه إنّما كان يعلم أموراً معدودة لا أمورا غير متناهية ؛ ومع أنّه عليه السلام قد كتم ماعلمه حذرا من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كفر كثير منهم ، وادّعوا فيه النبوّة ، وادّعوا فيه أنه شريك الرسول فى الرسالة ، وادعوا فيه أنّه هو كان الرسول ؛ ولكنّ الملَكَ غلط فيه ؛ وادّعوا أنه هو الذى بعث محمدا صلى الله عليه وآله إلى الناس ، وادّعَوا فيه الحلول ، وادّعوا فيه الاتحاد ، ولم يتركوا نوعا من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه ؛ وقال شاعرهم فيه من أبيات :

وَمَنْ أهلكَ عادا وثمودا بدواهيـــــه
وَمَنْ كلّم موسَى فوْ قَ طُورٍ إذ يُنــادِيهِ
ومن قال على المنـ ـبر يوما وهو راقيــه :
سَلُونى أيّهــا الناس فحاروا فى معانيــه

وقال بعض شعرائهم :

إنما خالقُ الخلائقِ مَنْ زَعْ زَعَ أركان حصن خيـبرَ جَذْبا
قَدْ رضينــا به إماماً ومولى وسجدْنا له إلٰهــا وربّا

***

[جملة من إخبار علىّ بالأمور الغيبية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرفا صالحا ، ومن عجيب ماوقفت عليه من ذلك قوله فى الخطبة التى يذكر فيها الملاحم ، وهو يشير إلى القرامطة[1] :

---

(١) يرجع مذهب القرامطة إلى كبيرهم الحسن بن بهرام الجنابى أبو سعيد ؛ كان دقاقاً من أهل جنابة بفارس ، ونفى فيها ، فأقام فى البحرين تاجراً ، وجعل يدعو العرب إلى نحلته ، فعظم أمره ؛ فحاربه الخليفة مظفر الحسن وصافاه المقتدر العباسى ؛ وكان أصحابه يسمونه السيد . استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ؛ وكان شجاعا ؛ داهية ، قتله خادم له صقلبى فى الحمام بهجر ، مات سنة ٣٠١ . وانظر تاريخ ابن الأثير .

« ينتحلون لنا الحبّ والهوى ، ويضمِرُون لنا البغضَ والقِلى ؛ وآية ذلك قتلهم ورّاثنا ، وهجرهم أحداثنا » .

وصحّ ما أخبَر به ؛ لأن القرامِطة قتلتْ مِن آل أبي طالب عليه السلام خلْقا كثيرا ؛ وأسماؤهم مذكورة في كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهانيّ .

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابيّ في جيشه بالغَرِيّ[١] وبالحاير[٢] ؛ فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف .

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة : كأنّي بالحجر الأسود منصوبا هاهنا . ويْحَهم . إن فضيلتَه ليست في نفسه ، بل في موضعه وأسُسه ، يمكث هاهنا برهة ، ثم هاهنا برهة — وأشار إلى البحرين — ثم يعود إلى مأواه ، وأمّ مثواه .

ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم ، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه ، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهرا ؛ وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة ، بل من كلام له وجدتُه متفرّقا في كتب مختلفة ؛ ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه ؛ وهو يخطب على المنبر ويقول : « سلوني قبل أن تفقدوني ؛ فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة ، أو تهدي مائة إلّا نبأتكم بناعقها وسائقها ، ولو شئت لأخبرتُ كلّ واحدٍ منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه » . فقال : فكم في رأسي طاقة شعر ؟ فقال له : أما والله إنّي لأعلم ذلك ؛ ولكن أين برهانه لو أخبرتك به ! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالِكَ . وقيل لي إنّ على كلّ

---

(١) الغري ، واحد الغريين ؛ وهما بناءان كالصومعتين ؛ كانا بظهر الكوفة ؛ قرب قبر علي عليه السلام (مراصد الاطلاع) .
(٢) الحاير ، بعد الألف ياء مكسورة : موضع قبر الحسين عليه السلام . ذكره ياقوت .

شعرة من شعر رأسك ملكا يلعنك وشيطانا يستفزّك ، وآيةُ ذلك أنّ في بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ويحضّ على قتله(١) .

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام ، كان ابنه حصين ـ بالصاد المهملة ـ يومئذ طفلًا صغيرا يرضع اللّبن ، ثم عاش إلى أن صار على شُرطة عبيد الله بن زياد ، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام وبتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك ، فقتِل عليه السلام صَبيحة اليوم الذى ورد فيه الحصين بالرسالة فى ليلته .

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرَاء بن عازب يوما : يابراء ، أيقتَل الحسين وأنت حىّ فلا تنصره ! فقال البرَاء : لا كان ذلك ياأمير المؤمنين !

فلما قتِل الحسين عليه السلام كان البَراء يذكر ذلك ؛ ويقول : أعظِمْ بها حَسْرة ! إذْ لم أشهده وأقتل دونه !

وسنذكر من هذا النَّمَط ـ فيما بعد إذا مررنا بما يقتضى ذكره ـ مايحضرنا إن شاء الله.

---

(١) ب : « قتاله » .

(١٧٧)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ ؛ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ ؛ فإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالجَلِيَّةِ ، وأَخَذَ[1] عَلَيْكُمُ الحجَّةَ ؛ وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمالِ ، وَمَكارِهَهُ مِنْهَا ؛ لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ ، فإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم كانَ يَقُولُ : إِنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكارِهِ ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مامِنْ طاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهٍ ، وَما مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً ، وَإِنَّها لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوًى .

وَاعْلَمُوا عِبادَ اللهِ أَنَّ المُؤْمِنَ لَا يُمْسِي وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْها، وَمُسْتَزِيداً لَهَا .فَكُونُوا كالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ ،وَالمَاضِينَ أَمامَكُمْ؛ قَوَّضُوا مِنَ الدُّنيا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ ، وَطَوَوْها طَيَّ المَنازِلِ .

***

الشَّرْحُ :

أعذر إليكم : أوضح عذره فى عقابكم إذا خالفتم أوامره . والجليّة : اليقين ؛ وإنما أعذر إليهم بذلك، لأنه مكّنهم من العلم اليقينيّ بتوحيده وعدله ، وأوجب عليهم ذلك فى

(١) مخطوطة النهج : « وأخذ » .

عقولهم ؛ فإذا تركوه ساغ فى الحكمة تعذيبهم وعقوبتهم ؛ فكأنّه قد أبان لهم عذره أنْ لو قالوا : لِمَ تعاقبنا ؟

ومحابّه من الأعمال ، هى الطاعات التى يحبّها . وحبه لها إرادة وقوعها من المكلّفين. ومكارهه من الأعمال : القبائح التى يكرهها منهم ؛ وهذا الكلام حجّة لأصحابنا على المجبِّرة . والخبر الذى رواه عليه السّلام مرويّ فى كتب المحدّثين ؛ وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «حُجبت الجنّة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات» ، ومن المحدّثين من يرويه : « حفّت » فيهما ، وليس منهم من يرويه : «حُجِبت» فى النار ؛ وذلك لأنّ لفظ « الحجاب » إنما يُستعمَلُ فيما يرام دخوله وولوجه لمكان النفع فيه ؛ ويقال : حُجِب زيد عن مأدُبة الأمير ، ولا يقال : حُجِب زيد عن الحبْس .

ثم ذكر عليه السّلام أنه لا طاعة إلّا فى أمرٍ تكرهه النفس ،ولا معصيةَ إلّا بمواقعة أمرٍ تحبّه النفس ؛ وهذا حقّ ، لأنّ الإنسانَ مالم يكن متردّد الدواعى لا يصحّ التكليف؛ وإنما تتردّد الدواعى إذا أمر بما فيه مشقّة ، أو نُهِيَ عمّا فيه لذّة ومنفعة .

فإن قلت : أليس قد أُمِر الإنسان بالنّكاح وهو لذة؟ قلت : مافيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبى على اللّذة الحاصلة فيه[1] مرارا .

ثم قال عليه السلام : « رحم الله امرأ نزع عن شهوته » ، أى أقلع .

وقمع هوَى نفسِه ، أى قهره .

ثم قال : فإنّ هذه النفس أبعدُ شيء منزَعاً ، أى مذهبا ، قال أبو ذؤيب :

والنفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ[2]

---

(١) د : « منه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٣ .

ومن الكلام المرويّ عنه عليه السلام ـ ويروى أيضا عن غيره : « أيّها الناس، إنّ هذه النفوسَ طُلَعة [١] فإلّا تقدعوها [٢] تنزع بكم إلى شرّ غاية » [٣] .

وقال الشاعر :

وَمَا النّفس إلّا حيثُ يجعلُها الفتى ... فإن أطمِعَتْ تاقَتْ وإلاَّ تَسلَّتِ

ثم قال عليه السلام : « نَفْس المؤمن ظَنُون عنده »؛ الظَّنُون : البئر [٤] التى لا يدرَى أفيها ماء أم لا ، فالمؤمن لا يصبِح ولا يمسِى إلّا وهو على حَذَرٍ من نفسه ، معتقدا فيها التقصير والتضجيع [٥] فى الطاعة ، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها .

وزاريا عليها : عائبا ؛ زريتُ عليه : عبت .

ثم أمرهم بالتأسّى بمن كان قبلهم، وهم الذين قوّضوا من الدّنيا خيامَهم، أى نقضوها ، وطوَوْا أيّام العمر كما يطوِى المسافر منازلَ طريقه .

***

الأصلُ :

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِى لَا يَغُشُّ ، وَالْهَادِى الَّذِى لَا يَضِلُّ ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَا يَكْذِبُ ، وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ زِيَادَةٍ فِى هُدًى ؛ أو نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

---

(١) الطلعة : الكثيرة التطلع .

(٢) القدع : المنع والكف .

(٣) الخبر فى الفائق ١ : ٢٤٦ منسوب إلى الحسن البصرى بهذه الرواية : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله ؛ فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة » . وانظر نهاية ابن الأثير ٣ : ٤٢ ، ٢٣٤ .

(٤) فى اللسان عن المحكم : « بئر ظنون : قليلة الماء لا يوثق بمائها » .

(٥) التضجيع فى الأمر : التقصير فيه .

غِنًى ؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ ؛ إِنَّهُ مَاتَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ .

فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ .

***

الشرح :

غشّه يغشّه ، بالضم ، غِشًّا ، خلاف نصحه . واللأواء : الشدّة .

وشَفَع له القرآن شفاعة ، بالفتح ؛ وهو مما(1) يغلط فيه العامّة فيكسرونه، وكذلك مت كذا بكذا ، أتبعته ، مفتوح أيضا .

ومَحَلَ به إلى السّلطان ، قال عنه مايضرّه ؛ كأنّه جعل القرآن يَمْحَلُ يوم القيامة عند الله بقوم ؛ أي يقول عنهم شرًّا ، ويشفع عند الله لقوم ، أى يُثْنِي عليهم خيرا .

والحارث : المكتسب ، والحرْث : الكسب . وحَرَثَة القرآن : المتاجرون به الله .

واستنصحوه على أنفسكم،أى إذا أشار عليكم بأمر وأشارت عليكم أنفسكم بأمر يخالفه،

---

(١) ب « والتغلط » .

فاقبلُوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم؛ وكذلك معنى قوله : « واتّهموا عليه آراءكم ، واستغشّوا فيه أهواءكم » .

***

[فصل فى القرآن وذكر الآثار التى وردت بفضله]

واعلم أنّ هذا الفصل من أحسنِ ماورد فى تعظيم القرآن وإجلاله ؛ وقد قال النّاس فى هذا الباب فأكثروا .

ومن الكلام المروىّ عن أمير المؤمنين عليه السلام فى ذِكر القرآن أيضا،مارواه ابن قتيبة فى كتاب ’’ عيون الأخبار ،، عنه عليه السلام أيضا ، وهو : « مثل المؤمِن الّذى يقرأ القرآن كمَثل الأترُجّة ؛ ريحها طيّب ، وطعمها طيّب . ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التّمْرة طعمها طيّب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الّذى يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة . ريحها طيّب، وطعمها مرّ . ومثل الفاجر الّذِى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مرّ ، وريحُها منتنة » .

وقال الحسن رحمه الله : قرّاء القرآن ثلاثة : رجل اتّخذه بضاعة فنقله من مِصْر إلى مِصْر ؛ يطلب به ماعند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيّع حدوده ، واستدرّ به الولاة واستطال به على أهل بلاده ، وقد كثر الله هذا الضّرب من حَملة القرآن ـ لا كثّرهم الله ـ ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن ، فوضعه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وانهملت عيناه ، وتسربل بالخشوع ، وارتدى بالحزن ؛ فبذاك وأمثاله يُسْقى النّاس الغيث ، وينزل النّصْر ، ويُدْفع البلاء . والله لَهذا الضّرْب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر .

وفى الحديث المرفوع : « إنّ من تعظيم جلال الله إكرامَ ذى الشّيبة فى الإسلام ، وإكرام الإمام العادل ، وإكرام حَمَلة القرآن » .

وفى الخبر المرفوع أيضا : « لا تسافِرُوا بالقرآن إلى أرض العدوّ ؛ فإنى أخاف أن ينالَه العدوّ » .

وكانت الصّحابة تـكرهُ بيعَ المصاحف وتراه عظيما ، وكانوا يكرهون أن يأخُذَ المعلّم على تعليم القرآن أجرا .

وكان ابنُ عبّاس يقول : إذا وقعتُ فى آل حم ؛ وقعتُ فى روضات دمِثات أتأنّق فيهنّ .

وقال ابنُ مسعود : لـكلّ شىء ديباجة ، وديباجة القرآن آل حم .

قيل لابن عباس : أيجوز أن يحلَّى المصحف بالذهب والفضة ؟ فقال : حِليَتُه فى جوفه .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « أصفر البيوت جوف صفِرٌ من كتاب الله » .

وقال الشعبىّ : « إياكم وتفسيرَ القرآن ؛ فإنّ الذى يفسرّه إنما يحدّث عن الله » .

الحسن رحمه الله : رحِم الله امرأ عرَض نفسه وعمله على كتاب الله ؛ فإنْ وافق ، حمِد الله وسأله الزيادة ، وإن خالف ، أعتب وراجع من قريب .

حفِظ عمر بن الخطاب سورة البقرة ، فنحر وأطعم .

وفدَ غالبُ بن صعصعة على علىّ عليه السـلام ومعه ابنه الفرزدق ، فقال له : مَنْ أنت ؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعىّ ، قال : ذو الإبل الـكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلت إبلُك ؟ قال : أذهبتْها النوائب ، وذَعْذَعَتْها الحقوق . قال : ذاك خير سبلها .

---

(١) أى فرقتها وبددتها .

ثم قال : يا أبا الأخطل ، مَنْ هذا الغلام معك ؟ قال : ابنى وهو شاعر ، قال : علّمه القرآن فهو خير له من الشعر ؛ فكان ذلك فى نفس الفرزدق؛ حتى قيّد نفسَه ، وآلى ألا يحلّ قيْدَه حتى يحفظ القرآن ؛ فما حلّه حتى حفظه ؛ وذلك قوله :

وما صبّ رجلى فى حديد مجاشعٍ   مع القدِّ إلا حاجةٌ لى أريدها[1]

قلت : تحت قوله عليه السلام : « يا أبا الأخطل » ، قبل أن يعلم أنّ ذلك الغلام ولده وأنه شاعر ، سرّ غامض ؛ ويكاد يكون إخبارا عن غيب ؛ فليلمح .

الفُضيل بن عِياض : بلغنى أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية ، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال : ألهذا حملتَنى !

قلت : وهذا القول على سبيل المثَل والتخويف من مواقعة المعاصى لمن يحفظ القرآن .

أنس : قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابن أمّ سليم ، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساء ؛ فإنّ القرآن يحيى القلب الميّت ، وينهى عن الفحشاء والمنكر » .

كان سفيان الثورىّ إذا دخل شهرُ رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبلَ على قراءة القرآن من المصحف .

كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : مَثَل كتاب محمد فى الكتب مثل سِقَاء فيه لبن ، كلّما مخضته استخرجت منه زُبْدًا .

أسلم الخواص : كنتُ أقرأ القرآن ؛ فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسى : يا أسلم ، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فجاءت حلاوة قليلة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ؛ فازدادت الحلاوة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به ، فجاءت الحلاوة كلها .

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٥ ؛ وهو أيضاً فى اللسان ٥ : ٢ ؛ ويقال : صب رجلا فلان فى القيد ؛ أى قيد.

بعضُ أرباب القلوب : إن الناس يجمزون[1] فى قراءة القرآن ما خلا المحبّين ؛ فإن لهم خانَ إشارات، إذا مرُّوا به نزلوا . يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكّرون فيها .

فى الحديث المرفوع : « ما مِنْ شفيع ؛ من ملَكٍ ولا نبي ولا غيرهما ، أفضل من القرآن » .

وفى الحديث المرفوع أيضا : « مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتِىَ أفضلَ مما أوتى فقد استصغر عظمةَ الله » .

وجاء فى بعض الآثار : إنَّ الله تعالى خلَق بعض القرآن قبل أن يخلُقَ آدم ، وقرأه على الملائكة ، فقالوا : طوبى لأمةٍ ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا !

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : يا رسول الله ، وما جِلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » .

وعنه عليه السلام . « ما أذن الله لشىء أذنَه لنبيٍّ حسن الترنم بالقرآن »[2] .

وعنه عليه السلام : « إن ربكم لأشدُّ أذَناً إلى قارئ القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنَتِهِ » .

وعنه عليه السلام : « أنت تقرأ القرآن مانهاك ؛ فإذا لم ينهك فلست تقرؤه » .

ابن مسعود رحمه الله : ينبغى لحامِل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ النّاس مفطِرُون ، وبحزنه إذِ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون سِكّيتا زمّيتا ليّناً[3] ، ولا ينبغى أن يكون جافياً ولا ممارياً ، ولا صيّاحاً ولا حدِيدا ولا صَخّابا[4] .

---

(١) يجمزون : يسرعون .
(٢) الأذن : الاستماع مع الإعجاب .
(٣) السكيت : الكثير السكوت ، والزميت : الحليم الساكن القليل الكلام .
(٤) الحديد : السريع الغضب .

بعض السلف . إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتى يفرغ منها . وإنّ العبدَ ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، قيل : كيف ذاك ؟ قال : إذا أحلّ حلالها ، وحرّم حرامها ؛ صلّت عليه وإلّا لعنته .

ابن مسعود : أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به،فاتّخذوا دراسته عملاً؛إنّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته مايسقط منه حرفا ، وقد أسقط العمل به .

ابن عباس : لأنْ أقرأ البقرة وآل عمران أرتّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذْرَمة [1] .

ثابت البنانيّ : كابدت فى القرآن عشرين سنة ، وتنعّمت به عشرين سنة.

***

الأصْلُ :

أَلْعَمَلَ أَلْعَمَلَ ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ ، وَالاسْتِقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَأَلْوَرَعَ أَلْوَرَعَ !

إِنَّ لَـكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِـكُمْ ، وَإِنَّ لَـكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِـكُمْ ، وَإِنَّ لِلإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ ؛وَاُخْرُجُوا إِلَى اللهِ مِمَّا اُفْتَرَضَ عَلَيْـكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَـكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ .

أَنَا شَاهِدٌ لَـكُمْ ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْـكُمْ .أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ .

وَإِنِّي مُتَـكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِـكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

---

(١) الهذرمة : السرعة فى القراءة .

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ؛ وَقَدْ قُلْتُمْ : ﴿ رَبُّنَا اللهُ ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا ، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

* * *

الشرح :

النّصب على الإغراء ؛ وحقيقته فعل مقدّر ، أى الزموا العمل ، وكرّر الاسم لينوب أحدُ اللفظين عن الفعل المقدّر ؛ والأشبه أن يكون اللفظ الأوّل هو القائم مقام الفعل ؛ لأنه فى رتبته . أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة ، وعبّر عنها بالنهاية ؛ وهى آخر أحوالِ المكلّف التى يفارق الدنيا عليها ؛ إمّا مؤمنا أو كافرا ، أو فاسقا، والفعل المقدّر هاهنا : راعوا وأحسنوا وأصلحوا ، ونحو ذلك .

ثم أمرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها ؛ وهى أداء الفرائض .

ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمته ، وبملازمة الوَرَع .

ثم شرع بعد هذا الكلام المجمَل فى تفصيله فقال : « إنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم » ، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله : « أيها الناس ، إنّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم ، وإنّ لكم غايةً فانتهُوا إلى غايتكم » ، والمراد بالنهاية والغاية أن يموتَ الإنسان على توبةٍ من فعل القبيح والإخلال بالواجب .

ثم أمرهم بالاهتداء بالعلَم المنصوب لهم ؛ وإنما يعنى نفسَه عليه السلام .

ثم ذكر أنّ للإسلام غاية ، وأمرَهم بالانتهاء إليها ؛ وهى أداء الواجبات ، واجتناب المقبحات .

ثم أوضح ذلك بقوله : واخرجوا إلى الله ممّا افترَض عليكم من حقّه ، وبيّن لكم

من وظائفه » ؛ فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التى أجملها أولا . ثم ذكر أنه شاهد لهم ، ومحاجّ يوم القيامة عنهم ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] .

وحجيج : فعيل بمعنى « فاعل » ، وإنّما سمّى نفسه حجيجاً عنهم ؛ وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة[2] ؛ لأنه إذا شهد لهم ، فكأنه أثبت لهم الحجّة ، فصار محاجًّا عنهم .

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ القَدَر السابق قد وقع » ، يشير به إلى خلافته .

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التى خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان ؛ وفى هذا إشارة إلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أنّ الأمر سيُفضى إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله .

ثم أخبرهم أنه سيتكلّم بوعد الله تعالى ومحجته على عباده فى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . ﴾[3] الآية ، ومعنى الآية أنّ الله تعالى وعد الذين أقرّوا بالربوبية ولم يقتصروا على الإقرار ، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزّل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى ، ولفظة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخى ، والاستقامة مفضّلة على الإقرار باللسان ، لأنّ الشأن كلّه فى الاستقامة ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[4]، أى ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ، والاستقامة هاهنا هى الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية . وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبى بكر ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أدُّوا الفرائض ، وقال أبو بكر : استمرّوا على التوحيد .

---

(١) سورة الإسراء ٧١
(٢) د : « محاجة » .
(٣) سورة فصلت ٣٠
(٤) سورة الحجرات ١٥ .

وروى أن أبا بكر تلاها ، وقال : ما تقولون فيها ؟ فقالوا : لم يذنبوا ، فقال : حملتم الأمرَ على أشدّه ، فقالوا : قل ، قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . ورأىُ أبي بكر فى هذا الموضع ـ إن ثبت عنه ـ يؤكد مذهب الارجاء ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا .

وروى سفيان بن عبد الله الثقفىّ ، قال : قلتُ يا رسول الله ، أخبِرْنى بأمْرٍ أعتصم به ، فقال : قُلْ : لا إله إلا الله ، ثم استقمْ ، فقلت : ما أخوَفُ ما تخافُه علىّ ؟ فقال : هذا ، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله .

وتتنزّل عليهم الملائكة ، عند الموت ، أو فى القبر ، أو عند النشور .

وألا تخافوا « أن » بمعنى « أى » ، أو تكون خفيفة من الثقيلة ، وأصله « أنه لا تخافوا » والهاء ضمير الشأن .

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة فى الآية ، فقال : قد أقررتم بأنّ الله ربكم فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته .

لا تمرقوا منها ، مرق السهمُ ، إذا خرج من الرميّة مروقاً .

ولا تبتدعوا : لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة .

ولا تخالفوا عنها ، تقول : خالفت عن الطريق ، أى عدلتُ عنها .

قال : فإنّ أهل المروق منقطع بهم ، بفتح الطاء . انقُطِع بزيد بضم الهمزة ، فهو منقطَعٌ به ، إذا لم يجد بلاغا ووصولا إلى المقصد .

***

الأصل :

ثُمَّ إيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ، وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تقوى تَنْفَعُهُ حَتَّى يختزن لِسَانَهُ ؛ وَ إِنَّ لِسانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ؛ وَ إِنَّ قَلْبَ الْمُنافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسانِهِ؛ لأَنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَ إِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ ؛ وَ إِنَّ الْمُنافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ . وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَسْتَقِيمُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسانُهُ .

فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ سُبْحانَهُ ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَلْيَفْعَلْ .

* * *

الشرح :

تهزيعُ الأخلاق : تغييرها ؛ وأصل الهزْع : الكسر ، أسد مهزّع : يكسر الأعناق ويرضّ العظام ، ولمّا كانَ المتصرّف بخلُقه ، الناقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور ؛ اشتركا فى مسمّى شامل لهما ؛ فاستعمل التهزيع فى الخلق للتغيير والتبديل مجازاً .

قوله : « واجعلوا اللّسان واحدا » ، نهى عن النّفاق واستعمال الوجهين .

قال : « وليخزُن الرجل لسانه » ، أى ليحبسه ؛ فإنّ اللسان يجمح بصاحبه فيلقيه فى الهلكة .

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان ؛ قال : فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه ؛ وشرَح ذلك وبيّنه .

فإن قلت : المسموع المعروف : « لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه » ؛ كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟

قلت : لأنه قلّ أن يكون المنافق إلا أحمق ، وقلّ أن يكون العاقل إلا مؤمنا فلأ كثرية ذلك ، استعمل لفظ « المؤمن » ؛ وأراد العاقل ، ولفظ « المنافق » وأراد الأحمق .

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وهو مشهور .

ثم أمرهم بالاجتهاد فى أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنما المسلِم مَنْ سلِم المسلمون من لسانه ويده » ، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم ؛ وانتصاب « تهزيع » على التحذير ؛ وحقيقته تقدير فعل ، وصورته : جنّبوا أنفسكم تهزيعَ الأخلاق ؛ فـ « إياكم » قائم مقام أنفسكم ، والواو عوضٌ عن الفعل المقدّر ، وأكثر ما يجىء بالواو ؛ وقد جاء بغير واو فى قول الشاعر :

إيّاكَ إيّاكَ المراءَ فإنّهُ إلَى الشَّرِّ دَعّاءٌ وللشّرِّ جالِبُ

وكان يقال : ينبغى للعاقل أن يتمسّك بستّ خِصال ، فإنها من المروءة : أن يحفظَ دينه ، ويصونَ عِرْضَه ، ويَصِلَ رحمه ، ويحمِيَ جارَه ، ويرعى حقوقَ إخوانه ، ويخزُنَ عن البَذاء لسانه[1] .

وفى الخبر المرفوع : « مَنْ كُفِيَ شرّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه ، ولَقْلَقِه ، دخل الجنّة » .

---

(١) البذاء : السفه والفحش فى المنطق .

فالقبقب البطن : والذبذب : الفرج ، والقلق : اللسان .

وقال بعض الحكماء : مَنْ عَلِمَ أنّ لسانه جارحةٌ من جوارحه أقلّ من اعمالها ، واستقبح تحريكها ؛ كما يستقبح تحريك رأسه أو منكبه دائما .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ ما اسْتَحَلَّ عاماً أوَّلَ ، وَيُحرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عاماً أوَّلَ؛ وَأنَّ ما أحْدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِ الْحَلَالُ مَا أحَلَّ اللهُ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا ، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتْ الأمْثَالُ لَكُمْ ، وَدُعِيتُمْ إلَى الأمْرِ الْوَاضِحِ فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذَلِكَ إلاَّ أصَمُّ ، وَلَا يَعْمَى عنه إلاَّ أعْمَى .

وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ ؛ وَأتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أمَامِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أنْكَرَ ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ ؛ فَإنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ : مُتَّبِعٌ شِرْعَةً ، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً ؛ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ .

***

الشَّرْحُ :

يقول : إنّ الأحكام الشرعيّة لا يجوز بعد ثبوت الأدلّة عليها من طريق النصّ أن تُنقَض باجتهاد وقياس ؛ بل كلّ ماورد به النصّ تُتبَع مورد النصّ فيه ، فما استحللته عاما أوّل ؛ فهو فى هذا العام حلال لك ؛ وكذلك القول فى التحريم؛ وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا ؛ أنّ النصّ مقدّم على القياس ، وقد ذكرناه فى كتبنا فى أصول الفقه .

وأوّل هاهنا ، لاينصرف ، لأنّه صفة على وزن « أفعل » .

وقال : « إنّ ما أحدث الناسُ لا يُحِلُّ لكم شيئا مما حُرِّم عليكم » ؛ أى ما أحدثوه من القياس والاجتهاد ؛ وليس هذا بقادح فى القياس ، ولكنه مانعٌ من تقديمه على النصّ ؛ وهكذا يقول أصحابنا .

قوله : « وضرّستموها » بالتشديد أى أحكمتموها تجربةً وممارسة، يقال : قد ضرّسته الحرب ، ورجل مضرّس .

قوله : « فلا يَصَمّ عن ذلك إلّا أصمّ » أى لا يَصَمّ عنه إلّا من هو حقيق أن يقال عنه : إنه أصمّ ، كما تقول : ما يجهل هذا الأمر إلّا جاهل ؛ أى بالغ فى الجهل .

ثم قال : « مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء » أى بالامتحان والتجربة ، لم تنفعه المواعظ ؛ وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه ، وينكر ما قد كان عارفا به . وسمّى اعتقاد العرفان وتخيّله « عرفانا » على المجاز .

ثم قسم النّاس إلى رجلين : إما متّبع طريقةً ومنهاجا ، أو مبتدعٌ ما لا يعرف؛ وليس بيده حجّة ، فالأوّل المحقّ والثانى المبطِل .

والشِّرعة : المنهاج . والبرهان : الحجة .

***

الأصْلُ:

فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحداً بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ ، وَفِيهِ رَبِيعُ القَلْبِ ، وَيَنابِيعُ العِلْمِ ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ المُتَذَكِّرُونَ ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَو المُتَناسُونَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقُولُ : يَابْنَ آدَمَ ، اعْمَلِ الخَيْرَ ، وَدَعِ الشَّرَّ ؛ فَإِذَا أَنْتَ جَوادٌ قَاصِدٌ .

***

الشَّرح :

إنما جعله حبْل الله ؛ لأنّ الحبْل ينجو من تعلّق به من هوّة ، والقرآن ينجو من الضلال مَنْ يتعلّق به .

وجعله متينا ، أى قويًّا ، لأنه لا انقطاع له أبدا ، وهذه غاية المتانة والقوّة .

ومَتُن الشىء ، بالضم ، أى صلُب وقوِىَ . وسببه الأمين ، مثل حَبْله المتين ؛ وإنّما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة .

وفيه ربيع القلب ؛ لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برَعْىِ الربيع .

وينابيع العلم ؛ لأنّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول .
والجلاء ، بالكسر : مصدر جلوْتُ السيف ؛ يقول : لا جِلَاء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والغفلات إلا القرآن .

ثم قال : إنّ المتذكّرين قد ذهبوا وماتوا ، وبَقِىَ النّاسون الّذين لا علومَ لهم ، أو المتناسون الذين عندهم العلوم ، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروى : « والمتناسون » بالواو .

ثم قال : أعينوا على الخير إذا رأيتموه ، بتحسينه عند فاعله ، وبدفع الأمور المانعة عنه ، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله ، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه ، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم فى مقام الراضى به ، الموافق على فعله . ثم روى لهم الخبر .

والجواد القاصد : السهل السيْر ، لا سريع يتعب بشرعته ، ولا بطىء يفوتُ الغرض ببطئه .

***

الأصْلُ :

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ : فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ.
فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ ؛ فَالشِّرْكُ بِاللهِ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً .
الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى ، وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ ؛ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ .

فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ ؛ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ .

يَأَيُّهَا النَّاسُ ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ ؛ وَأَكَلَ قُوتَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ !

* * *

الشّرْحُ :

قسم عليه السلام الظلم ثلاثة أقسام :

أحدها : ظلمٌ لا يغفر ؛ وهو الشِّرْك بالله ، أى أن يموت الإنسان مصرًا على الشِّرْك ؛ ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر ؛ وإنْ لم يذكرْها ، لأنّ حكمها حكم الشِّرْك عندهم .

وثانيها : : الهنات المغفورة ، وهى صغائر الذنوب ؛ هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام .

وثالثها : مايتعلّق بحقوق البَشر بعضِهم على بعض ؛ فإنّ ذلك لا يتركه الله هَمَلًا ، بل لا بدّ من عقاب فاعله ؛ وإنما أفردَ هذا القِسْم مع دخوله فى القِسم الأول لتميُّزه بكونه متعلقًا بحقوق بنى آدم بعضِهم على بعض ؛ وليس الأوّل كذلك .

فإن قلت : لفظه عليه السلام مطابقٌ للآية ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) والآية ولفظه عليه السلام صريحان فى مذهب المرجِئة ؛ لأنكم إذا فسرتم قوله : « لمن يشاء » بأنّ المراد به أرباب التوبة قيل لكم : فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتَهم ، ويسقط عقاب شِرْكهم بها ، فلأىّ معنى خصص المشيئة بالقسم الثانى وهو مادون الشرك ! وهل هذا إلا تصريح بأنّ الشرك لا يُغفر لمن مات عليه ، وما دونه من المعاصى إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب ،ولا لغيره بل أمرُه إلى الله !

قلت : الأصوب فى هذا الموضع ألّا يحمل قوله : « لمن يشاء » معنيًا به التائبون ؛ بل نقول : المراد أنّ الله لا يستر فى موقف القيامة مَنْ مات مشركا ، بل يفضحه على رءوس الأشهاد كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

وأمّا مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام ، فإنّ الله تعالى يستره فى الموقف ، ولا يفضحه بين الخلائق ؛ وإن كان من أهل النار ؛ ويكون معنى المغفرة فى هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصى فى موقف الحشر ؛وقد يكون من أهل الكبائر ممّن يقرّ بالإسلام

---

(١) سورة النساء ٤٨ .
(٢) سورة هود ١٨ .

لعظيم كبائره جدًّا ، فيفضحه الله تعالى فى الموقف كما يفضح المشرك ؛ فهذا معنى قوله : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فأمّا الكلامُ المطوّل فى تأويلات هذه الآية فذكور فى كتبنا الكلاميّة .

واعلم أنه لا تعلّق للمرجئة ولا جدْوَى عليهم من عموم لفظ الآية ، لأنهم قد وافقونا على أن الفلسفىّ غير مغفور له وليس بمشرك ؛ فإذا أراد بقوله تعالى : ﴿ إِنّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ومن جرى مجرَى المشركين ، قيل لهم : ونحن نقول : إن الزانىَ والقاتل يجريان مجرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين ، فلا تنكروا علينا مالم تنكروه على أنفسكم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ القِصاص فى الآخرة شديدٌ ؛ ليس كما يعهده الناس من عقاب الدّنيا الذى هو ضرب السوط ؛ وغايته أنْ يذوق الإنسان طعم الحديد ؛ وهو معنى قوله : « جرحًا بالمُدى » ، جمع مُدية وهى السّكّين ؛ بل هو شىء آخر عظيم لا يعبّر النطق عن كُنهِه وشدّة نَكاله وألمه .

[فصل فى الآثار الواردة فى شديد عذاب جهنم]

قال الأوزاعىّ فى مواعظه للمنصور : « روِىَ لى عنْ رسول الله صلى الله عليه وسلّم : لو أنّ ثوبا من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهلَ الأرض قاطبة ؛ فكيف بمن يتقمّصه ! ولو أنّ ذَنوبا من حميم جهنم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجَنَّه حتى لا يستطيع مخلوق شربه ، فكيف بمن يتجرّعه ! ولو أن حلْقةً من سلاسل النار وضِعَتْ على جبلٍ لذاب كما يذوب الرصاص ، فكيف بمن يُسلَك فيها ، ويُرَدُّ فضلها على عاتقه !

وروى أبو هُريرة عن النبى صلى الله عليه وآله : « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون ، وأخرج إليهم رجلُ من النار فتنفّس وأصابهم نَفَسُه لأحرق المسجد ومَنْ فيه » .

وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل : مالى لا أرى ميكائيل ضاحكا! قال : إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها .

وعنه صلى الله عليه وآله : « لمّا أسرِيَ بي سمعت هَدّةً[1] ، فسألت جبريل عنها، فقال : حَجر أرسله الله من شَفير جهنم ، فهو يهوِى منذ سبعين خريفا حتى بلغ الآن فيه »

وروى عن النبيّ صل الله عليه وآله فى قوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾[2] . قال : « تتقلّص شفتهُ العليا حتى تبلغَ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السُّفْلَى حتى تضرب سرّته » .

وروى عُبيد بن عمير اللّيْثى عنه عليه السلام : « لَتزفَرَنّ جهنم زفرةً لا يبقى ملَك ولا نبيّ إلّا خرّ مرتعدةً فرائصُه ؛ حتى إنّ إبراهيم الخليل ؛ ليجْثُو على ركبتيه ، فيقول : يارَبّ إنّى لا أسألك إلّا نفسى » .

أبو سعيد الخُدْرِيّ مرفوعا : « لو ضرِبتْ جبال الدنيا بمِقمَع[3] من تلك المقامع الحديد لصارت غُبارا » .

الحسن البصرىّ : قال : الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النّار لأنهم أعجزوا الربّ ، ولـكن إذا أصابهم اللّهب أرسبتهم فى النار — ثم خرّ الحسن صَعِقا ، وقال — ودموعه تتحادَرُ: يابن آدم ، نفسَك نفسَك ! فإنّما هى نفس واحدة إن نجتْ نجوتَ ، وإن هلـكتَ لم ينفعك مَنْ نجا .

طاوس : أيها الناس ، إنّ النار لمّا خلِقَتْ طارت أفئدةُ الملائكة ، فلمّا خلقتم سكنت .

---

(١) الهدة : صوت وقع الحائط أو الصخر أو نحوها .
(٢) سورة المؤمنين ١٠٤ .
(٣) المقمع و المقمعة : العمود من الحديد ؛ أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان .

مطرّف بن الشِّخِّير : إنكم لتذكرون الجنَّة ، وإنّ ذكر النّار قد حال بينى وبين أن أسأل الله الجنة .

منصور بن عمّار : يامن البعوضة تقلقه . والبقّة تسهره ، أمثلك يقوى على وَهَج السّعير ، أو تطيق صفحةُ خدّه لَفْحَ سَمومها ، ورقة أحشائه خشونة ضَرِيعها[١] ، ورطوبة كبده تجرُّع غسّاقها[٢] !

قيل لعطاء السُّلمى : أيسرّك أن يقال لك : قَعْ فى جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبدا لا إليها ولا إلى غيرها ؟ فقال : والله الذى لا إله إلاّ هو ، لو سمعت أن يقال لى ؛ لظننت أنّى أموت فرحا قبل أن يقال لى ذلك .

الحسن : والله ما يقدر العباد قَدْر حرّها ؛ روينا : لو أنّ رجلا كان بالمشرق ، وجهنم بالمغرب ، ثم كُشِف عن غطاء واحد منها لغَلَتْ جمجمته ؛ ولو أنّ دلوا من صديدها صبّ فى الأرض ما بقىَ على وجهها شىء فيه روح إلّا مات .

كان الأحنف يصلى صلاةَ الليل ، ويضع المصباح قريبا منه ، فيضع إصبعَه عليه ، ويقول : يا حُنَيف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! حتى يُصبِح .

* * *

[فصل فى العزلة والاجتماع وما قيل فيهما]

ثم نهاهم عليه السلام عن التفرّق فى دين الله ؛ وهو الاختلاف والفرقة ؛ ثم أمرهم باجتماع الكلمة ، وقال : إنّ الجماعة فى الحقّ المكروه إليكم ، خير لكم من الفرقة فى الباطل المحبوب عندكم ؛ فإنّ الله لم يعطِ أحداً خيراً بالفرقة ؛ لا ممّن مضى ، ولا ممّن بَقِىَ .

---

(١) الضريع : نبات يسمى رطبه سبرقا ، ويابسه ضريعا ؛ لا تقربه دابة لخبثه .

(٢) الغساق : ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه .

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله فى الأمر بلزوم الجماعة ، والنهى عن الاختلاف والفرقة .

ثم أمر عليه السلام بالعزلة ، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة ، ومجانبه الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم .

وقد ورد فى العزلة أخبار آثار كثيرة ؛ واختلف الناس قديما وحديثاً فيها ، ففضّلها قوم على المخالطة ، وفضّل قوم المخالطة عليها .

فممّن فضّــل العزلة سفيان الثورىّ ، وإبرهيم بن أدهم ، وداود الطائىّ ، والفُضيل ابن عياض ، وسليمان الخوّاص ، ويوسف بن أسباط ، وبشر الحافى ، وحُذيفة المرعشىّ ؛ وجمع كثير من الصوفية ، وهو مذهبُ أكثر العارفين ، وقول المتألّهين من الفلاسفـة .

وممن فضّل المخالطـة على العزلة ابن المسيّب ، والشعبىّ ، وابن أبى ليلى ، وهشام ابن عروة ، وابن شبرُمة ، والقاضى شُريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عُيَينة ، وابن المبارك .

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضى عند إمعان النظر فيه أنّ العزلة خيرٌ لقوم ، وأن المخالطةَ خيرٌ لقوم آخرين على حسب أحوال الناس واختلافهم .

وقد احتجّ أرباب المخالطة بقول الله تعالى : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ (٢) ، وهذا ضعيف ، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب فى أصول الدين ، و المراد

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٥ .

بتأليف القلوب ، وبالأخوّة عدم الإحَن والأحقاد بينهم ، بعد استعار نارها فى الجاهليـة ؛ وهذا أمر خارج عن حديث العزلة .

واحتجُّوا بقول النبى صلى الله عليـه وآله : « المؤمن إلفٌ[1] مألوف ؛ ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف » ؛ وهذا أيضاً ضعيف ، لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلُق والأمر بالرفق والبِشْر ؛ فلا يدخل تحته الإنسان الحسَن الخلق الذى لو خولط لألِف وأُلِف ؛ وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السّلامة من الناس .

واحتجُّوا بقوله : « مَنْ شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبقَةَ الإسلام عن عنقه » ؛ وهـذا ضعيف أيضاً لأنه مختصّ بالبغاة والمارقين عن طاعـة الإمام ، فلا يتناول أهلَ العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة ؛ إلاّ أنهم لا يخالطون الناس .

واحتجُّوا بنهيه صلى الله عليه وآله عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث ؛ وهذا ضعيف لأن المراد منه النهى عن الغضب ، واللّجَاج ، وقطع الـكلام والسلام لثوران الغيظ ؛ فهذا أمر خارج عن الباب الذى نحن فيه .

واحتجُّوا بأنّ رجلا أتى جبَلاً يتعبد فيه ؛ فجاء أهله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنهاه ، وقال له : « إنّ صبْر المسلم فى بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خيرٌ له من عبادة أربعين سنة » .

وهذا ضعيف ، لأنه إنما كان ذلك فى ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين .

واحتجُّوا بما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : «الشّيطان ذئب ؛ والنّاس كالغنم يأخذ القاصية والشاذّة ، إياكم والشّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد» . وهذا ضعيف ، لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها .

***

(١) الإلف : العشير المؤانس .

واحتجَّ من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة فى ذلك ؛ نحو قول عمر : خذوا بحظكم من العُزلة .

وقول ابن سيرين : العزلة عبادة .

وقول الفُضيل : كفَى بالله محبوباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ؛ اتخِذ الله صاحباً ، ودع النّاس جانباً .

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائىّ : عِظْنى ، فقال : صُمْ عن الدنيا واجعل فِطْرَك للآخرة ، وفرَّ من الناس فرارَك من الأسد .

وقال الحسن : كلمات أحفظهنّ من التوراة : قنَع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل النّاس فسلِم ، ترَك الشهوات فصار حرًّا ؛ ترَك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتّع طويلا .

وقال وهب بن الورد : بلَغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها الصمْت . والعاشر فى العزُلة عن الناس .

وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ! وكان قد لزم البيت — فقال : كنت وأنا شابٌ أصبِرُ على أشدَّ من هذا ، كنت أجالس النّاس ولا أكلّمهم .

وقال الثورىّ : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت .

وقال بعضهم : كنت فى سفينة ، ومعنا شابٌ علَوىّ ؛ فمكث معنا سبعاً لانسمع له كلاما ، فقلنا له : قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا ! فأنشد :

قليلُ الهمِّ لا ولد يموتُ — وليس بخائف أمراً يفُوتُ
قضى وطَرَ الصِّبا وأفاد علماً — فغايتُه التفرّد والسُّكوتُ

وأكبر هَمِّهِ مما عليه تناجز من ترى خَلْقٌ وقوتُ

قال النَّخَعيّ لصاحب له : تفقه ثم اعتزل .

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز ، ويعودُ المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك ؛ إلى أنْ ترك الجميع . وقال : ليس يتهيّأ للإنسان أن يخبر بكلّ عذر له .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرّغت لنا ! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلّا عند الله تعالى .

وقال الفُضيل بن عياض : إنى لأجد الرّجل عندى يداً ؛ إذا لقينى ألّا يسلّم علىّ ، وإذا مرضت ألّا يعودنى .

وقال الدارانيّ : بينا ابن خُثَيم جالسٌ على باب داره ؛ إذ جاء حجَر فصكّ وجهه ؛ فسجد ، وجعل يمسح الدم ، ويقول : لقد وُعِظْت ياربيع ! ثم قام فدخل الدّار ؛ فاجلس بعد ذلك على بابه حتى مات .

وكان سعدُبن أبى وقّاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما ؛ حتى ماتا بالعقيق .

قال بشر : أقلِلْ من معرفة الناس؛ فإنّك لاتدرى ماتكون يوم القيامة ! فإنْ تكن فضيحة كان مَنْ يعرفك أقلّ .

وأحضر بعضُ الأمراء حاتماً الأصمّ فكلّمه ، ثم قال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، ألّا ترانى ولا أراك !

وقيل للفُضَيل : إنّ ابنَك يقول : لوددْتُ أنى فى مكان أرَى الناس ولا يرونَنِي ! فبكى الفُضَيل ، وقال : ياويح علىّ[1] ، ألّا أتمّها فقال : ولا أراهم !

---

١) على هو ابن الفضيل .

ومن كلام الفُضَيل أيضاً : من سخافة عَقْل الرجل كثرة معارفه .

وقد جاء فى الأحاديث المرفوعة ذكْر العُزْلة وفضلها ، نحو قوله عليه السلام لعبد الله ابن عامر الجُهنىّ ، لمّا سأله عن طريق النجاة ، فقال له : « ليسَعك بيتك ، أمسِكْ عليك دينَك ، وابكِ على خطيئتك » .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أىُّ الناس أفضل ؟ فقال : « رجل معتزل فى شِعْب من الشِّعاب ؛ يعبد ربّه ، ويدع الناس من شرّه » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله يحب التّقىّ النّقىّ الخفِىّ » .

* * *

[ذكر فوائد العزلة]

وفى العزلة فوائد : منها الفراغ للعبادة ، والذِّكْر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلْق ، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدّنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ؛ لأنّ ذلك لا يمكن إلّا بفراغ ، ولا فراغَ مع المخالطة ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله فى ابتداء أمره يتبتّل فى جبل حِراء ، ويعتزل فيه ، حتى أتته النبوّة .

وقيل لبعض الحكماء : ما الذى أرادوا بالخلْوة والعُزْلة ؟ فقال : دوام الفِكْر وثبات العلوم فى قلوبهم ، ليحيَوْا حياة طيّبة ، ويموتوا موتا طيّبا .

وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الوَحْدة ؟ فقال : لست وحدِى ، أنا جليس ربى ، إذا شئت أن يناجيَنى قرأت كتابه ، وإذا شئتُ أن أناجيه صلّيت .

وقال سُفيان بن عيينة : لقيت إبراهيمَ بن أدهم فى بلاد الشام ، فقلت له : ياإبراهيم ،

تركتَ خراسان! فقال : ماتهنّأت بالعيش إلّا هاهنا ؛ أفرّ بدينى من شاهق إلى شاهق ؛ فمن رآنى قال : موسوِس أو حمّال .

وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، هاهنا رجل لم نره قطّ جالسا إلا وحدَه خلف سارية ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبرونى ، فنظروا إليه ذاتَ يوم، فقالوا للحسن — وأشاروا إليه ، فمضى نحوه ، وقال له : ياعبد الله ، لقد حُبِّبت إليك العزلة ، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال : أمرٌ شغَلنى عنهم ، قال : فما يمنعك أن تأتىَ هذا الرّجل الذى يقال له الحسن ، فتجلس إليه ؟ قال: أمرشغلنى عن الناس وعن الحسن ، قال : وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال : إنّى أمسى وأصبح بين نعمة وذنب ، فأشغل نفسى بشكر الله على نِعَمِه ، والاستغفار من الذنب ؛ فقال الحسن : أنت أفقه عندى ياعبد الله من الحسن ، فالزَمْ ماأنت عليه .

وجاء هرِم بن حيّان إلى أوَيْس ، فقال له : ماحاجتُك ؟ قال : جئت لآنس بك ، قال : ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره !

وقال الفُضَيل : إذا رأيتُ اللّيل مقبلًا فرحتُ به ، وقلت : أخلو بربّى، وإذا رأيت الصبحَ أدركنى ، استرجعت كراهيَة لقاء الناس ، وأن يجىء إلىّ من يشغَلنى عن ربّى .

وقال مالك بن دينار : من لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين ، فقد قلّ علمُه ، وعمىَ قلبُه ، وضاع عمره .

وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسيرُ فى بعض بلاد الشام ، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال ، فلما نظر إلىّ تنحّى إلى أصل شجرة ، وتستّر بها : فقلت :سبحان الله! أتبخل علىّ بالنظرِ إليك ؟ فقال : ياهذا ، إنى أقمتُ فى هذا الجبَل دهراً طويلا ، أعالج قلبى فى الصبْر عن الدنيا وأهلها ، فطال فى ذلك تعبى ، وفنِىَ عمرى ، ثم سألت الله تعالى

ألا يحمل حظّى من أيامى فى مجاهدة قلبى فقط، فسكّنه الله عن الاضطراب، وآلفَهُ الوحدة والانفراد ، فلما نظرت إليك وتريدنى خفت أن أقع فى الأمر الأوّل فأعود إلى إلف المخلوقين ، فإليك عنى فإنّى أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب التائبين . ثم صاح : واغمّاه من طول المُكْث فى الدّنيا ! ثم حوّل وجهه عنى ، ثم نفض يده ، وقال : إليكِ عنى يادنيا ، لغيرى فتزيّنى ، وأهلك فغرّى ! ثم قال : سبحان مَنْ أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان ، والحور الحسان؛ فإنّى فى الخلوة آنس بذكر الله ، وأستلذ بالانقطاع إلى الله ، ثم أنشد :

وإنّى لأستَغْشِى وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لعلّ خَيالاً منكِ يَلْقَى خَيالِيا[1]

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلّنى ... أحدّثُ عنكِ النفْسَ فى السرّ خاليا

وقال بعض العلماء : إنّما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس ، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم ، فإذا كانت ذاتُه فاضلة طلب الوحدة ليستعينَ بها على الفكرة ، ويستخرج العلم والحكمة ، وكان يقال : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .

* * *

ومنها التخلّص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرّض الإنسان لها غالبا بالمخالطة، وهى الغيبة، والرّياء ، وترك الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ، وسرقة الطبع بعضَ الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغير .

أمّا الغِيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك إلا الصدّيقون ؛ فإنّ عادةأ كثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه ، والتنقّل بلذة

---

(١) لمجنون ليلى ، من قصيدة له ديوانه ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

ذلك ، فهى أنسهم الذى يستريحون إليه فى الجلوة والمفاوضة ، فإن خالطتهم ووافقت أثمت ، وإن سكتَّ كنت شريكا ، فالمستمع أحد المغتابِينَ ، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المغتاب واغتابوك ؛ فازدادوا إثماً على إثمهم .

فأمّا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فإن من خالط الناس لا يخلُوا عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصَى الله ، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضّرر ؛ وفى العزلة خلاص عن ذلك ، وفى الأمر بالمعروف إثارة للخِصام ، وتحريك لكوامن مافى الصدور . وقال الشاعر :

وكم سُقْتُ فى آثاركمْ من نصيحــــة　　وقد يستفيــــــدُ الظِّنَّةَ المتنصِّحُ

ومن تجرّد للأمر بالمعروف ندِم عليه فى الأكثر ، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمَه وحده ، فيوشك أن يقع عليه ؛ فإذا سقط قال : ياليتنى تركتهُ مائلا ! نعم لو وجدَ الأعوانَ حتى يحكِمَ ذلك الحائط ويدعمه استقام ؛ ولكنك لا تجد القوم أعوانا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فدع النّاس وانجُ بنفسك .

وأمّا الرّياء فلاشبهةَ أنّ مَنْ خالط الناس دَاراهم ، ومَنْ دَاراهم راءاهم ، ومن راءاهم كان منافقا ؛ وأنت تعلم أنك إذا خالطت متعاديَيْن ، ولم تلْق كلَّ واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا ، وإن جاملتَهما كنتَ من شرار النّاس ، وصرت ذا وَجْهين ؛ وأقلّ ما يجب فى مخالطة النــاس إظهارُ الشّوْق والمبالغة فيه ، وليس يخلُو ذلك عن كذب ؛ إمّا فى الأصل وإمّا فى الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، فقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب عن همومه ، نفاق محض .

قال السَّرِىّ السقطىّ : لو دخلَ علىّ أخ فسوّيتُ لحيتى بيدى لدخوله ، خشيتُ أن أُكتب فى جريدة المنافقين .

كان الفُضَيل جالسا وحده فى المسجد ، فجاء إليه أخ له ، فقال : ماجاء بك ؟ قال : المؤانسة ؛ قال : هى والله بالمواحشة أشبه ؛ هل تريد إلّا أن تتزينّ لى وأتزينّ لك ، وتكذِب لى وأكذِب لك ! إمّا أن تقوم عنّى، وإمّا أن أقوم عنك .

وقال بعضُ العلماء : ما أحبّ الله عبداً ألّا أحبّ ألّا يشعر به خلقه .

ودخل طاوس على هِشام بن عبد الملك ، فقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب، وقال: لمَ لمْ تخاطبنى بإمْرة المؤمنين ؟ قال : لأنّ جميع الناس ما اتّفقُوا على خلافتك ، فخشيت أن أكون كاذبا .

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحترازَ ، فليخالط الناس ؛ وإلا فليرضَ بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين إن خالطهم ؛ ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة .

وأما سرقة الطبع من الغير ؛ فالتجربة تشهد بذلك ، لأنّ مَنْ خالط الأشرار اكتسب من شرّهم ؛ وكلما طالت صحبةُ الإنسان لأصحاب الكبائر ، هانت الكبائر عنده وفى المثل : « فإنّ القَرينَ بالمقارن يقتدى[1] » .

ومنها الخلاص من الفِتَن والحروب بين الملوك والأمراء على الدُّنيا .

روى أبو سعيد الخُدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غنيمات يتّبع بهـا شِعاف الجبال ، ومواضع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الفِتن فقال : « إذا رأيتَ الناس قد مَرِجت عهودهم[2] ، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا ــ وشبّك

---

(١) أصله فى قول الشاعر :

عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكلُّ قَرِينٍ بالمقارن يَقْتَدِى

(٢) مرجت عهودهم ، أى اختلطت . أملك عليك لسانك ، أى لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٧ ، ١٠٦ .

بأصابعه ـ فقلت ماتأمرنى ؟ فقال : « الزم بيتك ، واملِكْ عليك لسانك ، وخذ ماتعرف ، ودَعْ ماتنكر ، وعليك بأمرِ الخاصّة ، ودَعْ عنك أمر العامّة » .

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « سيأتى عَلَى الناس زمانٌ لا يسلم لذى دين دينهُ إلاَّ مَنْ فرّ من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ؛ كالثعلب الروّاغ » قيل : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : « إذا لم تُنَل المعيشة إلّا بمعاصى الله سبحانه ، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ؛ فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوْجَتِه وولده ، وإن لم يكن فعلى يدِ قرابته » ، قالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : « يعيّرونه بالفقر وضيق اليد ، فيكلّفونه مالا يطيقه حتى يورِدَه ذلك موارد الهلكة » .

وروى ابنُ مسعود أيضا أنه صلى الله عليه وآله ذكر الفتنة ، فقال : « الهرْج » فقلت : وما الهرْج يارسول الله ؟ قال : « حين لا يأمن المرء جليسَه » ، قلت : فبمَ تأمُرنى يارسول الله ، إن أدركتُ ذلك الزمان ؟ قال : « كفّ نفَسك ويدَك ، وادخل دارك » ، قلت : أرأيتُ إن دُخِل علىّ دارى ! قال : « ادخل بيتَك » ، قلت : إن دُخِل علىّ البيت ، قال : « ادخل مسجدَك ، واصنع هكذا ـ وقبض على الكوع ـ وقل : ربِّىَ الله ، حتى تموت » .

* * *

ومنها الخلاصُ من شرّ الناس ، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة ، وتارة بسوء الظنّ والتهمة وتارة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنّميمة والكذِب مما يروْنَه منك من الأعمال والأقوال مما لاتبلغ عقولهم كنهَه ؛ فيدّخرون ذلك فى نفوسهم عدة ؛ لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر ، ومن يعتزلهم يستغنِ عن التحفُّظ لذلك .

وقال بعض الحكماء لصاحبه : أعلّمك شعرا هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم ! وهو :

اخفضِ الصَّوْتَ إن نطقْتَ بليلٍ والتفتْ بالنَّهار قبل المقالِ
ليس للقول رجعةٌ حين يبدُو بقبيحٍ يكون أو بجمال

ومَنْ خالط الناس لا ينفكّ من حاسد وطاعن ؛ ومَنْ جرّب ذلك عرف .

ومن الكلام المأثور عن علىّ عليه السلام : « أخْبُرْ تَقْلِهْ » قال الشاعر :

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمَدُ
وصار بالوحدة مستأنِساً يوحِشه الأقرب والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبى وقاص : ألا تأتى المدينة ؟ قال : ما بقىَ فيها إلا حاسد نعمة ، أو فرِحٌ بنقمة .

وقال ابن السَّمَّاك : كتب إلينا صاحب لنا : أمّا بعد ؛ فإنّ الناس كانوا دواءً يُتداوَى به ، فصاروا داءً لا دواء لهم ، ففِرّ منهم فِرارك من الأسد .

وكان بعضُ الأعراب يلازم شجرةً ويقول : هذه نديمى ، وهو نديم فيه ثلاث خصال : إن سمِعَ لم ينمّ علىّ ، وإن تفلْتُ فى وجهه احتمل ، وإن عربدتُ عليه لم يغضب ؛ فسمع الرشيد هذا الخبر ، فقال : قد زهّدنى سماعه فى الندماء .

وكان بعضُهم يلازم الدّفاتر والمقابر ، فقيل له فى ذلك ، قال : لم أرَ أسْلَمَ من الوحدة ولا أوْعظ من قبر ، ولا أمتع من دِفْتر .

وقال الحسن مرّة : إنّى أريد الحجّ ، فجاء إلىّ ثابت البُنانىّ ، وقال : بلغنى أنك تريد الحجّ ، فأحببت أن نصطحب ، فقال الحسن : دعْنا نتعاشر بستْرِ الله ؛ إنّى أخاف أن نصطحب فيرَى بعضُنا من بعض ما نتماقتُ عليه .

وقال بعض الصالحين : كان النّاس ورَقاً لا شوكَ فيه ؛ فالنّاس اليوم شوكٌ لا ورَق فيه .

وقال سُفْيان بن عُيَينة : قال لى سفيان الثورىّ : فى اليقظة فى حياته ، وفى المنام بعد

وفاته: أقلِلْ معرفة الناس ؛ فإنّ التخلّص منهم شديد . ولا أحسِبُنى رأيتُ ما أكره إلا ممّن عرفت .

وقال بعضهم : جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلب رابض قريبا منه ، فذهبت أطرده فقال : دعْه فإنه لا يضرّ ولا يؤذى ، وهو خير من الجليس السوء .

وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلاّ أدبروه ولا ظهر جوادٍ إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه .

وقال بعضهم : أقِلّ المعارف ؛ فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخفّ لظهرك ، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك ؛ لأنه كلّما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وعسر القيام بالجميع .

وقال بعضهم : إذا أردتَ النجاة فأنكِرْ من تعرِف ، ولاتتعرّفْ إلى من لاتعرف .

***

ومنها ؛ إنّ فى العُزلة بقاء السّتر على المروءة والخلُق والفقر وسائر العورات ؛ وقد مدح الله تعالى المتسترين فقال : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (١) .

وقال الشاعر :

وَلَا عارَ أنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ... ولـكنّ عاراً أن يزولَ التجمُّلُ

وليس يخلو الإنسان فى دينه ودنياه وأفعاله عن عوْرات يُتّقَيْنَ ويجب سترها ؛ ولا تبقى السلامة مع انكشافها ؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة .

***

ومنها أن ينقطع طمعُ الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس ؛ أما انقطاعُ طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم ؛ فإنّ رضا الخلْق غاية لا تُدرك ؛ لأن أهونَ حقوق الناس

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

وأيسرها حضورُ الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم ؛ والإملاكات[(١)] ؛ وفى ذلك تضييع الأوقات ، والتعرّض للآفات ؛ ثم يعوق عن بعضها العوائق ، وتستثقل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقول لك قائل : إنك قمت بحقّ فلان ، وقصّرت فى حقّى ، ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : إنّ مَنْ لَمْ يَعُد مريضا فى وقت العيادة ، يشتهى موته خيفة من تخجيله إياه إذا برئ من تقصيره ؛ فأما مَنْ يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضوْن كلُّهم عنه ، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب ، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق ؛ مما لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره ، فكيف مَنْ له مهمّ يشغَلُه دينىّ أو دنيوىّ !

ومن كلام بعضهم : كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء[(٢)] .

وقال الشاعر :

عَدُوُّكَ مِنْ صديقِكِ مُسْتَفَادُ   فلا تستكثرنّ من الصِّحَابِ

فإنّ الدّاء أكثر ما تراه   يكونُ من الطّعام أو الشرابِ

وأما انقطاع طمَعك عنهم ؛ ففيه أيضاً فائدة جزيلة ؛ فإنّ مَنْ نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها ، تحرّك حرصُه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ؛ وأكثر الأطماع يتعقّبها الخيبة ؛ فيتأذّى الإنسان بذلك ؛ وإذا اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشتهِ ولم يطمع ؛ ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[(٣)] .

وقال عليه السلام : « انظروا إلى مَنْ دونكم ، ولاتنظروا إلى مَنْ هو فوقكم ؛ فإنه أجدرُ ألا تزدرُوا نعمةَ الله عليكُمْ » .

---

(١) الإملاكات : مجامع التزويج .   (٢) ب : « كثرة » ، وما أثبته من ا ، د .
(٣) سورة الحجر ٨٨ .

وقال عَوْن بن عبد الله : كنتُ أجالس الأغنياء ؛ فلا أزال مغموماً أرى ثوبا أحسن من ثوبى ، ودابّةً أفرَهَ من دابّتى ، فجالست الفقراء فاسترحت .

وخرج المُزَنيّ صاحب الشافعيّ من باب جامع الفُسطاط بمصر ، وكان فقيراً مقلًّا ، فصادف ابنَ عبدالحكم قدأقبل فى موكبه ، فبهره مارأى من حاله ، وحسن هيآته ، فتلاقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [1] ثم قال : نعم أصبر وأرضى .

فالمعتزل عن النّاس فى بيته لا يبتلَى بمثل هذه الفتن ؛ فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا ، إمّا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع مرارة الصّبْر ؛ وهو أمرّ من الصَّبِر ، أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلِك دنيا وآخرة ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى فى أكثر الأوقات يتضمّن الذلّ المعجل ، وأمّا فى الآخرة فلإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله ، والتقرّب إليه ؛ ولذلك قال الشاعر :

إذَا كَانَ بابُ الذّلِّ مِنْ جانبِ الغِنَى ... سموتُ إلى العَلْيـاء مِنْ جانب الفَقْر

أشار إلى أنّ الطمع يوجب فى الحال ذلًّا .

***

ومنها الخلاص مِنْ مشاهدة الثقـلاء والحمقى ومعاناة أخلاقهم ؛ فإنّ رؤية الثقيـل هى العمى الأصغر ؛ قيل للأعمش : بم عمِشتْ عيناك [2] ؟ قال : بالنّظر إلى الثقلاء .

ودخل على أبى حنيفة رحمه الله ، فقال له : رَوَيْنا فى الخبر أنّ منْ سلِب كريمتيـه عوّضه الله ماهو خير منهما ؛ فما الذى عوضك ؟ قال : كفانى رؤية ثقيل مثلك يمازحه .

وقال الشافعيّ رحمه الله : ماجالستُ ثقيلا إلّا وجدت الجانب الذى يليه من بدَنى كأنّه أثقلُ علىّ من الجانب الآخر .

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيويا ؛ إلّا أنها تضرِبُ فى الدين بنصيب ؛ وذلك لأنّ

(١) سورة الفرقان ٢٠ .
(٢) د : « عينك » .

مَنْ تأذّى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلبه ؛ وذلك فساد فى الدين ، وفى العزلة السلامة عن جميع ذلك .

* * *

واعلم أنّ كلامَ أميرِ المؤمنين عليه السلام تختلف مناهجه ، فقد رجّح العزلةَ فى هذا الفصل على المخالطة ، ونهى عن العزلة فى موضع آخر سيأتى ذكره فى الفصل الذى أوّله، « أنه دخل على العلاء بن زياد الحارثىّ عائدا » ؛ ويجب أنْ يحمَل ذلك على أنّ من الناس مَنِ العزلة خيرٌ له من المخالطة ، ومنهم مَنْ هو بالضدّ من ذلك ؛ وقد قال الشافعىّ قريباً من ذلك ، قال ليونس بن عبد الأعلَى صاحِبه : يايونس ، الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة ، والانبساط إليهمْ مجلبة لقرَناء السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط .

فإذا أردْتَ العزلة فينبغى للمعتزل أن ينوىَ بعزلته كفّ شرّه عن الناس أولا ؛ ثم طلبَ السلامة من شرّ الأشرار ثانيـا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيـام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرّد بكنه الهمة بعبادة الله تعالى رابعا، فهذه آداب نيّته . ثم ليكنْ فى خَلوته مواظباً على العِلم والعمل ، والذّكر والفكر ، ليجتنىَ ثمرة العزلة . ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثِروا غشيانه وزيارته ،فيتشوّش وقته ، وأنْ يكفّ نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما الناس مشغولون به ؛ فإنّ كلّ ذلك ينغرس فى القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقتَ الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب ؛ فإنّ وقوع الأخبار فى السمع كوقوع البَذر فى الأرض ، لا بدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه ؛ وإحدى مهمّات المعتزِل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله؛ ولا ريب أنّ الأخبار ينابيع الوساوس وأصولها .

ويجب أنْ يقنَع باليسير من المعيشة ، وإلّا اضطرّه التوسّع إلى النّاس ، واحتاج إلى مخالطتهم .

وليكن صبوراً على مايلقاه من أذى الجيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى مايقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة ، وقَدَح فيه بترك المخالطة ؛ فإنّ ذلك لابدّ أن يؤثر فى القلب ، ولو مدّة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابدّ أن يكون واقفاً عن سيره فى طريق الآخرة، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظَبة على وِرْد أو ذكْر مع حضور قلْب ، وإمّا بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته ، وإمّا بالتأمّل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طرق التخلُّص منها،وكلّ ذلك يستدعِي الفراغ ؛ ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ماذكرناه يشوّش القلب .

ويجب أن يكون للمنزل أهلٌ صالح أو جليس صالح،لتستريح نفسه إليه ساعةً عن كدّ المواظبة،ففى ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات.وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلّا بقطع الطمع عن الدنيا؛وما النّاس منهمكون فيه،ولاينقطع طمعه إلّا بقصَر الأمل،وألّا يقدّر لنفسه عمراً طويلا ، بل يصبح على أنه لايمسى ، ويمسى عَلَى أنّه لايصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولّا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخى أجله ، وليكن كثيرَ الذكْر للموت ووحدة القبر ، مهما ضاق قلبه من الوحدة ، وليتحقّق أن مَنْ لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته مايأنس به ، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأنّ مَنْ أنِس بذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لايزيل أنسه ، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة، بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه،قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١) .

وكلّ من يجرد نفسه فى ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت ، فالمجاهد مَنْ

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠ .

جاهد نفسه وهواه ، كما صرّح به عليه السلام ، وقال لأصحابه : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين ، والجهاد الأكبر جهاد النفس .

وهذا الفصل فى العزلة نقلناه على طوله من كلام أبى حامد الغزالىّ فى إحياء علوم الدين وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه [١] .

(١) كتاب آداب العزلة ؛ من كتاب الإحياء ٢ : ٢٢١ – ٢٤٤ ، وهو الكتاب السادس من ربع العادات .

(١٧٨)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى معنى الحكمين :

فَأَجمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ على أنِ اختارُوا رَجُلَيْنِ ؛ فَأَخَذْنا عَلَيْهِما أنْ يُجَعْجِعا عِندَ القُرْآنِ ، وَلَا يُجاوِزَاهُ ، وَتَكُونَ أَلسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ ، فَتاها عَنْهُ ، وَتَرَكا الحَقَّ وَهُما يُبْصِرانِهِ ، وَكانَ الجَوْرُ هَوَاهُما ، وَالاعْوِجاجُ دَأْبَهُما ؛ وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤُنا عَلَيْهِما فى الحُكْمِ بِالعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما ، وَجَوْرَ حُكْمِهِما ، وَالثِّقَةُ فى أَيْدِينا لِأَنْفُسِنا ، حِينَ خالَفا سَبِيلَ الحَقِّ ، وَأَتَيا بِما لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الحُكْمِ .

* * *

الشَّرحُ :

الملأ : الجماعة . ويجعجعا : يحبسا نفوسهما وآراءهما عند القرآن ، جعجعت ، أى حبست ، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى القرآن ولا يتجاوزاه .

فتاها عنه ، أى عدلا ، وتركا الحق على عِلْمٍ منهما به .

والدأب : العادة ، و « سوء رأيهما » منصوب ، لأنه مفعول « سبق » ، والفاعل « استثناؤنا » .

ثم قال : « والثقة فى أيدينا » ، أى نحن على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بضائر لنا ما فعلاه لأنهما خالفا الحقّ ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم .

وروى الثورىّ ، عن أبى عبيدة ، قال : أمر بلال بن أبى بُرْدة وكان قاضياً ، بتفريقٍ بين رجل وامرأته ، فقال الرجل : يا آل أبى موسى ، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين !

* * *

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر]

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مِصْر ، قد قبضها بالشرْط الذى اشترط على معاوية : « أما بعد ، فإنّ سؤّال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق كثُروا علىّ ، وليس عندى فضل عن أعطِيات الحجاز ، فأعنّى بخراج مصر هذه السنة » .

فكتب عمرو إليه :

معاوىَ إنْ تدرِكْكَ نفسٌ شحيحة ... فما مصر إلّا كالهباءةِ فى التّربِ
وما نلتُها عفواً ولكن شرَطتُها ... وقد دارت الحرب العوَان على قُطْبِ
ولولا دفاعى الأشعرىّ ورهطه ... لَألفيتَها ترغُو كراغية السَّقْبِ (١)

ثم كتب فى ظاهر الكتاب ـ ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزىّ رحمه الله ـ

معاوىَ حظّىَ لا تغفلِ ... وعن سَنَنَ الحقّ لا تعدلِ
أتنسى مخادعتى الأشعرىَّ ... وما كان فى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ!
ألينُ فيطمع فى غِرّتى ... وسهمىَ قد خاض فى المقتلِ
فألمظه عسلا بارداً ... وأخبأ من تحته حَنظَلِي
وأعليته المنبر المشمَخرّ ... كرجع الحسام إلى المِفْصلِ

(١) الرغاء : صوت الإبل ، والسقب : ولد الناقة .

فأضحى لصاحبه خالعاً … كخلع النّعال من الأرجُلِ
وأثبتها فيك موروثةً … ثبوتَ الخواتِم فى الأنمُلِ
وهبت لغيرِىَ وزن الجبالِ … وأعطيتَنى زِنَةَ الخرْدَلِ
وإنّ عليًّا غـدا خصمنا … سيحتجّ بالله والمرسَلِ
وما دَمُ عثمان منجٍ لنا … فليس عن الحقّ من مَزْحَلِ

فلما بلغ الجوابُ إلى معاوية لم يعاوده فى شىء من أمر مصر بعدها .

***

بعث عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى ، إلى زفر بن الحارث الكلابىّ بكلام ، وحذّرهما من كيده ، وخصّ بالتحذير رَوْحاً . فقال : ياأمير المؤمنين، إن أباه كان المخدوع يوم دوْمة الجندل لا أبى ، فعلاَم تخوّفنى الخداع والكيد.

فغضب بلال وضحك عبد الملك .

(١٧٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ ؛ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى .

* * *

الشَّرْحُ :

لا يشغَلهُ أمر ؛ لأنّ الحيّ الذى تشغله الأشياء هو الحيّ العالم بالبعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض ؛ فأمّا من لا يغيب عنه شيء أصلاً ، ولا يعجز عن شيء أصلا ، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره ـ إذا أراد ـ مانع أصلا ؛ فكيف يشغَله شأن !

وكذلك لا يغيّره زمان ؛ لأنّه واجب الوجود ، ولا يحويه مكان ، لأنه ليس بجسم،

ولا يصفه لسان ، لأنَّ كُنهَ ذاته غيرُ معلوم ؛ وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب .

ولا يعزب عنه أمر من الأمور ، أى لا يفوته عِلم شىء أصلا .

والسوافى : التى تَسْفِى التراب ، أى تَذْرُوهُ .

والصفا ، مقصور : الصخر الأملس ؛ ولا وقف عليها ها هنا ؛ لأنَّ المقصور لا يكون فى مقابلة للممدود ، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هى « الظلماء » ، ويكون « الصفا » فى أدراج الكلام أسوة بكلمة من الكلمات . والذَّرّ : صغار النمل .

ويعلم مسافط الأوراق ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾[1] .

وطَرْف الأحداق : مصدر طرَف البصر يطرُف طرْفا ؛ إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر ؛ ولكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقع على الواحد ، فقال عليه السلام : « طَرْف الأحداق » ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾[2] .

وغير معدول به : غير مسوًّى بينه وبين أحد .

والدِّخلة ، بكسر الدال : باطن الأمر ، ويجوز الدُّخلَة بالضمّ .

والمعتام : المختار . والعِيمة بالكسر: خِيارُ المال ؛ اعتام الرجل، إذا أخذَ العِيمة .

فإن قلت : لفظة « معتام » و « مختار » تصلح للفاعل والمفعول ، فماذا يفصل بينهما ؟

قلت : بما يقترن باللفظ من الكلام قبله وبعده .

فإن قلت : فهل يختلفان فى التقدير فى صناعة النحو ، وإن اتفقا فى اللفظ ؟

قلت : نعم ؛ فإنّ عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها ؛ فإن أردت الفاعل فهى مكسورة ، وتقديره « مختير » مثل « مخترِع » ، وإن كان مفعولا فهى مفتوحة ،

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .
(٢) سورة إبراهيم ٤٣ .

وتقديره « مختيَر » مثل « مختَرَع » وعلى كلا التقديرين لا بدّ من انقلاب الياء ألفا ، واللفظ ، واحد ولكن يقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحه للمفعول ، وكذلك القول فى « معتام » و « مضطر » ونحوهما .

وحُكِيَ أنّ بعض المتكلّمين من المجبرة ، قال : أسمّى العبدَ مضطرًا إلى الفعل إذا فعله ، ولا أسمى الله تعالى مضطرًا إليه .

قيل : فكيفَ تقول ؟ قال : « مضطِر » بكسر الطاء ، فضحك أهل المجلس منه .

والعقائل : جمع عقِيلة ، وهى كريمة كلّ شيء من الناس والإبل وغير ذلك ، ويقال للدرّة عقيلة البحر .

وأشراط الهدى : علاماته ، ومنه أشراط الساعة قال تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (١) .

والغِربيب : الأسود الشّديد السواد . ويُجلى به غربيب العمى : تُكشَفُ به ظُلَمَ الضلال ، وتستفير بهدايته . وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢) ، ليس على أنّ الصفة قد تقدّمت على الموصوف ، بل يجعل السود بدلا من الغرابيب .

فإن قلت : الهاء فى « حقائقه » إلى ماذا ترجع ؟

قلت : إلى البارئ سبحانه ، وحقائقه حقائق توحيده وعدله ، فالمضاف محذوف ، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينيّة التى لا تعتريها الشكوك ، ولا تتخالجها الشبه ، وهى أدِلّة أصحابنا المعتزلة التى استنبطوها بعقولهم بعد أنْ دلّهم إليها . ونبّههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنه إمام المتكلّمين الذى لم يعرف علمَ الكلام من أحد قبله .

* * *

(١) سورة محمد ١٨ .
(٢) سورة فاطر ٢٧ .

الأصل :

أيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الدُّنيا تَغُرُّ المُؤَمِّلَ لَهَا ، وَالمُخْلِدَ إِلَيْهَا ، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا .

وَايْمُ اللهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا ؛ لِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ . وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ . وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الجُهْدُ ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ !

***

الشرح :

المُخْلِدِ : المائل إليها ، قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[1] .

ولا تنفس بمن نافس فيها : لا تضنّ به ، أى من نافس فى الدنيا فإنّ الدنيا تهينه ولا تضنّ به ، كما يضنّ بالعلق النفيس .

ثم قال : « وتغلب مَنْ غَلَب عليها » ، أىْ مَنْ غلَب على الدنيا مقاهرة فسوف تغلبه الدنيا وتهلكه :

ثم أقسم إنه ما كان قوم فى غَضّ نعمة أى فى نعمة غضة ؛ أى طريّة ناضرة ، فزالت عنهم

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦ .

إلا بذنوب اجترحوها ، أى اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ؛ ومن قال: إنّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقاً ، فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه ، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به فى الآخرة ، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومه ، بل على الأكثر والأغلب .

ثم قال عليه السلام : لو أنّ الناس عند حلول النقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم ؛ لرفع عنهم النقمة ، وأعاد إليهم النعمة

والوله ، كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد . والشارد : الذاهب

قوله : «وإنّى لأخشى عليكم أن تكونوا فى فترة » ، أى فى أمر جاهليّة لغلبة الضلال والجهل على الأكثرين منهم .

* * *

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان فى أول خلافته عليه السلام ، وقد تقدّم ذكر بعضها ، والأمور التى مالوا فيها عليه : اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشّورى .

وقال : « لئن ردّ عليكم أمركم » أى أحوالكم التى كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ صلاح القلوب والنيّات إنكم سعداء .

والجُهد بالضمّ : الطاقة .

ثم قال : لو أشاء أن أقول لقلت ، أى لو شئت لذكرتُ سبب التحامل علىّ وتأخرى عن غيرى ؛ ولكنى لا أشاء ذلك ، ولا أستصلح ذكره .

ثم قال : « عفا الله عما سلف » لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقَامٍ ﴾[1]

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا فى أنّ ماجرى من عبد الرحمن[2] وغيره فى يوم الشورى ، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل ، فإنه معفوّ عنه مغفور لفاعله ، لأنّه لو كان فسقاً غير مغفور ، لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام : « عفا الله عمّا سلف » .

---

(١) سورة المائدة ٩٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف .

(١٨٠)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله ذِعلب اليمانىّ فقال : هل رأيتَ ربك بأمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام: أفأعبد مالا أرى ! فقال : وكيف تراه ؟ قال:

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ ؛ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ ، قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَامِسٍ ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ ؛ مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ .

لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ .

تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ؛ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الذِّعلب فى الأصل ؛ الناقة السريعة ، وكذلك الذِّعلبة ثم نقل فسمّى به إنسان ، وصار علماً ، كما نقلوا « بكراً » عن فتى الإبل إلى بن بكر وائل .

واليمانِى مخفّف النون ، ولا يجوز تشديدها ؛ جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية ؛ وكذلك فعلوا فى « الشامى » والأصل « يمنىّ و شامىّ » .

وقوله عليه السلام: « أفأعبد مالا أرى ؟ » ، مقام رفيع جدًّا لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام .

ثم ذكر ماهيَّة هذه الرؤية ، قال : إنّها رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر .

ثم شرح ذلك ، فقال : إنّه تعالى قريب من الأشياء ، غير ملامس لها ، لأنه ليس بجسم ، وإنما قُرْبه [1] منها علمُه بها ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [2] .

قوله : « بعيد منها غيرُ مباين » ، لأنه أيضاً ليس بجسم فلا يطلَق عليه البينونة ، وبُعْدُه منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها ، وذلك كما يصدُق على البعيد بالوضع ، يصدق أفضل الصّدق على البعيد بالذّات الذى لا يصحّ الوضع والأيْنُ أصلاً عليه .

قوله : « متكلّم بلا روية » ، الروية : الفكرة يرتئى الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالّة على مقصده ، والبارئ تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار ؛ بل لأنّه إذا أراد تعريف [خلقه [3]] من جهة الحروف والأصوات ؛ وكان فى ذلك مصلحة ولطف لهم ، خلَق الأصوات والحروف فى جسم جَمادىّ ، فيسمعها مَنْ يسمعها ، ويكون ذلك كلامه ، لأنّ المتكلّم فى اللغة العربية فاعل الكلام لا من حَلّه الكلام . وقد شرحنا هذا فى كتبنا الكلاميّة .

قوله : « مريدٌ بلا همّة » ؛ أى بلا عَزْم ، فالعزم عبارة عن إرادةٍ متقدّمة للفعل ، تفعل توطيناً للنفس على الفعل ، وتمهيداً للإرادة المقارنة له ؛ وإنّما يصحّ ذلك على الجسم الذى يتردّد فيها ، تدعوه إليه الدواعى ، فأمّا العالم لذاته ، فلا يصحّ ذلك فيه .

قوله : « صانع لا بجارحة » ، أى لا بعضو ؛ لأنّه ليس بجسم .

قوله : « لطيف لا يوصف بالخفاء » ، لأنّ العرب إذا قالوا لشىء : إنّه لطيف ، أرادوا أنه صغير الحجم ، والبارئ تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين :

---

(١) د : « قربته » .

(٢) سورة المجادلة ٧ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

أحدهما : أنّه لا يُرَى لعدم صحّة رؤية ذاته ؛ فلما شابه اللّطيف من الأجسام فى استحالة رؤيته ، أطلق عليه لفظ « اللطيف » إطلاقاً للفظ السّبب على المسبّب .

وثانيهما : أنّه لطيفٌ بعباده ؛ كما قال فى الكتاب العزيز ، أى يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة ، المبعّدة لهم من القبيح . أو لطيفٌ بهم بمعنى أنّه يرحمهم ويرفُق بهم .

قوله : « كبير لا يوصَفُ بالجفاء » ، لمّا كان لفظ « كبير » إذا استعمِل فى الجسم أفاد تباعد أقطاره ؛ ثم لما وصف البارئ بأنّهُ كبير أراد أن ينزّهه عما يدلّ لفظ « كبير » عليه ، إذا استعمل فى الأجسام ؛ والمراد من وصفه تعالى بأنّه كبير ، عَظَمة شأنه وجلالة سلطانه .

قوله : « بصير لا يوصف بالحاسّة » ؛ لأنّه تعالى يدرِك إمّا لأنّه حىّ لذاته ، أو أن يكون إدراكه هو علمه ؛ ولا جارحةَ له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين .

قوله : « رحيم لا يوصف بالرّقّة » ؛ لأنّ لفظة الرحمة فى صفاته تعالى تطلق مجازا على[1] إنعامه على عباده ، لأنّ الملك إذا رقّ على رعيّته وعطَف ، أصابهم بإنعامه ومعروفه .

قوله : « تعنو الوجوه » ، أى تخضع ، قال تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾[2] .

قوله : « وتَجِبُ القلوب » ، أى تخفِق ، وأصله من وَجَب الحائط : سقط . ويروى : « توْجل القلوب » أى تخاف ، وَجِل : خاف .

وروى : « صانع لا بحاسّة » ؛ وروى « لا تراه العيون بمشاهدة العيان » عوضا عن « لا تدركه » .

---

(١) ب ، د : « عن » .
(٢) سورة طه ١١١

(١٨١)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

أَحْمَدُ اللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ؛ وَعَلَى ٱبْتِلاَئِي بِكُمْ أَيَّتُهَا ٱلْفِرْقَةُ ٱلَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ ؛ وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ .

إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ، وَإِنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ .

لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ ، وَٱلْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ !

ٱلْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي — وَلَيَأْتِيَنِّي — لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ .

لِلهِ أَنْتُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو ٱلْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلاَ عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ — وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ ٱلْإِسْلاَمِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ — إِلَى ٱلْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعَطَاءِ ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ !

إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضاً فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلاَ سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاَقٍ إِلَيَّ ٱلْمَوْتُ .

قَدْ دَارَسْتُكُمُ ٱلْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمُ ٱلْحِجَاجَ ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ ، لَوْ كَانَ ٱلْأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ !

وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ !

***

الشرح :

قضى وقدّر فى هذا الموضع واحد .

ويروى : « على ما ابتلانى » .

وأمهلتم : خُلّيتم وتركتم ، ويروى : « أمهلتم » ، أى أخرتم .

وخرتم : ضعفتم ، والخَوَرُ : الضعف؛ رجل خَوّار ، ورمح خوّار ، وأرض خوّارة ، والجمع خُور . ويجوز أن يكون « خرتم » أى صحتم ، كما يخور الثّور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ [١] . ويروى : « جُرْتُم » أى عدلتم عن الحرب فرارا .

وأجِئتم : أُلجِئتم ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [٢] .

والمشاقّة : المقاطعة والمصارمة

ونكصتم : أحجمتم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ، أى رجع محجِماً ، أى دعيتم إلى كشف القناع مع العدو وجبنتم وهبتموه .

قوله : « لا أبا لغيركم » ، الأفصح « لا أب » ، بحذف الألف ، كما قال الشاعر :

أبى الإسلامُ لا أبَ لِي سواهُ   إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ [٣]

وأما قولهم : « لا أبا لك » ، بإثباته فدون الأوّل فى الفصاحة ؛ كأنهم قصدوا الإضافة ؛ وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة ، كما قالوا : « ياتيمَ تيم عدىّ » ، وهو غريب ؛ لأن حكم

---

(١) سورة طه ٨٨ .

(٢) سورة مريم ٢٣ .

(٣) لنهار بن توسعة اليشكرى ؛ والبيت من شواهد سيبويه .

« لا » أن تعمل فى النكرة فقط ، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة ، والإضافة تعرّف ؛ فاجتمع فيها حكمان متنافيان ، فصار من الشواذّ كالملامح والمذاكير ولدن غدوة[١] .

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله : يجوزُ فيها وجهان آخران . أحدهما أنه أشبع فتحة الباء ، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره ، والثانى أن يكون استعمل « أبًا » على لغة من قالها « أبا » فى جميع أحوالها مثل « عصا » ، ومنه :

* إنّ أباهَا وَأَبَا أَبَاهَا *[٢]

قوله : « الموت أو الذلّ لكم » ، دعاء عليهم بأنْ يصيبَهم أحد الأمرين ، كأنه شرعَ داعيًا عليهم بالفناء الكلىّ ؛ وهو الموت ؛ ثم استدرك فقال : « أو الذلّ » ؛ لأنه نظير الموت فى المعنى ؛ ولكنّه فى الصورة دونه ؛ ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدّعوة الثانية ؛ فإنّ شيعته ذَلُّوا بعدُ فى الأيّام الأمويّة ؛ حتى كانوا كفَقْع قَرْقَرٍ[٣] .

ثم أقسم أنّه إذا جاء يومُه لتكونَنّ مفارقته لهم عن قِلًى ؛ وهو البغض ، وأدخل حَشْوَةً بين أثناء الكلام ، وهى « ليأتيَنّى » وهى حشوة لطيفة ؛ لأنّ لفظة « إنْ » أكثر ما تستعمل لما لا يُعلم حصوله ، ولفظة « إذا » لما يُعلم أو يغلب على الظنّ حصوله ، تقول : إذا طلعت الشمس جئت إليك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئتُ إليك ؛ وتقول : إذا احمرّ البُسْر جئتك ، ولا تقول : إن احمرّ البُسْر جئتك ، فلمّا قال : « لئنْ جاء يومى » ، أتى بلفظة دالّة على أنّ الموضع موضع « إذا » لا موضع « إنْ » ، فقال : « وليأتيَنّى » .

---

(١) أى أنهما لا يستعملان إلا هكذا ، فلا يستعملون « ملمحة » ، ولا يستعملون « مذكارا » ، كما أن « لدن » اختصت « بغدوة » ، وانظر سيبويه ١ : ٣٤٨ .

(٢) بقيته :

* قدْ بَلَغَا فى المجدِ غَايَتَاهَا *

وهو من شواهد النحاة ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٤٦ .

(٣) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة ، والقرقر : المكان المستوى الأملس ؛ ويشبه به الرجل الذليل ؛ فيقال : هو أذل من فقع بقرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

والواو فى قوله : « وأبا لصحبتكم » ، واو الحال ، وكذلك الواو فى قوله : « وبكم غير كثير » ؛ وقوله : « غير كثير » لفظ فصيح ، وقال الشاعر :

لِيَ خَمْسُونَ صَدِيقاً بينَ قاضٍ وأميرِ
لبسوا الوفرَ فلَمْ أَخْلَعْ بهمْ ثوبَ النَّفيرِ
لَكَثِيرٌ هُمْ ولكِنِّى بهمْ غَيْرُ كثيرِ

قوله : « للّه أنتم » للّه ؛ فى موضع رفع ؛ لأنّه خبر عن المبتدأ الذى هو « أنتم » ، ومثله : للّه درّ فلان ! وللّه بلادُ فُلان ! وللّه أبوك ! واللام هاهنا فيها معنى التعجّب ؛ والمراد بقوله : « للّه أنتم » للّه سعيكم ، أو للّه عملكم ، كما قالوا : « للّه درّك ! » ، أى عملك ، فحذف المضاف ، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه .

فإن قلت : أفجاءت هذه اللّام بمعنى التعجّب فى غير لفظ « للّه » ؟

قلت : لا ، كما أنّ تاء القسم لم تأتِ إلّا فى اسم اللّه تعالى .

قوله عليه السلام : « أما دينٌ يجمعكم ! » ارتفاع « دين » على أنّه فاعل فعلٍ مقدّر له ؛ أى أما يجمعكم دين يجمعكم ! اللفظ الثّانى مفسر للأول كما قدرناه بعد « إذا » فى قوله سبحانه : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ويجوز أن يكون « حَمِيّة » مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : أما لكم حميّة ! والحميّة : الأنفة . وشحذتُ النّصل : أحددته .

فإن قلت : كيف قال : إنّ معاوية لم يكن يعطى جنده وأنّه هو عليه السّلام كان يعطيهم ؛ والمشهور أنّ معاوية كان يمدّ أصحابه بالأموال والرغائب !

قلت : إنّ معاوية لم يكن يعطى جنده على وجهِ المُعونة والعطاء ؛ وإنّما كان يعطى رؤساء القبائل من اليمن وساكنى الشام الأموال الجليلة ؛ يستعبدهم بها ، ويدعو أولئك

الرؤساء أتباعَهمْ من العرب فيطيعونهم ؛ فنهم مَنْ يطيعُهم حمية ، ومنهم من يطيعهم لأيادٍ وعوارفَ من أولئك الرؤساء عندهم ، ومنهم مَن يطيعهم دِيناً ، زعموا للطلب بدم عثمان ، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فإنّه كان يقسّم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرّزق ، ولا يرى لشريف على مشروف فضلا ؛ فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممّن ينصره ويقوم بأمره ، وذلك لأنّ الرؤساء من أصحابه كانوا يجدُون فى أنفسهم من ذلك — أعنى المساواةَ بينهم وبين الأتباع — فيخذلونه عليه السلام باطناً ، وإن أظهرُوا له النّصر ، وإذا أحسّ أتباعُهم بتخاذلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضا وتواكلوا أيضا ، ولم يُجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق ، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصوّر وقوعه ، والرؤساء متخاذلون ، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعا .

فإنْ قلت : فأىّ فرق بين المعونة والعطاء ؟

قلت : المعونة إلى الجند شىء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم ، وإصلاح دوابهم ، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهرا فشهرا ، والعطاء المفروض شهرا فشهرا يكون شيئاً له مقدار يصرف فى أثمان الأقوات ، ومؤنة العيال ، وقضاء الديون .

والتَّرِيكَة : بيضة النعام تتركها فى مَجْثِمِها ، يقول : أنتم خلفُ الإسلام وبقيته كالبيْضة التى تتركها النعامة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لا يخرج إليكم من أمرى رضاً فترضَونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه » ؟

قلت : معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئا ، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم ، بل لابدّ لكم من المخالفة والافتراق عنه .

ثم ذكر أنَّ أحبَّ الأشياء إليه أن يلق الموت ، وهـذه الحال التى ذكرها أبو الطيب فقال :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أنْ تَـكُنَّ أمَانِيَا (١)

تمنيتهـــا لمَا تمنَّيْتَ أنْ تَرَى ... صَدِيقًا فأعْيَا ، أو عـــدوًّا مُدَاجِيَا

قوله : « قد دارستُـكم الـكتاب » ، أى درسته عليـكم ، دارستُ الـكُتب وتدارستُها وأدرستُها ، ودرستها ، بمعنى ، وهى من الألفاظ القرآنية(٢) .

وفاتحتُـكم الحِجاج ، أى حاكمتـكم بالمحاجّة والمجادلة ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾(٣) أى احكم ، والفتّاح : الحاكم .

وعرفتـكم ما أنـكرتم : بصّرتـكم ما عَمِيَ عنكم .

وسَوَّغتُكم ما مججتُم ، يقال : مججتُ الشّراب من فَمِي ، أى رميت به ، وشيخٌ ماجّ : يمجُّ ريقه ، ولا يستطيع حبسه من كبره ، وأحمق ماجّ : أى يسيل لعابه ، يقول : ما كانت عقولـكُم وأذهانـكم تنفر عنه من الأمور الدينيّة أوضحتهُ لـكم حتى عرَفتمُوه واعتقدتموه وانطوتْ قلوبـكم عليه .

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم ، لأنّه قال : لو كان الأعمى يلحظ ، والنائم يستيقظ ! أى أنى قد فعلت معـكم ما يقتضى حصولَ الاعتقادات الحقيقية فى أذهانـكم لو أزلتم عن قلوبـكم ما يمنع من حصولها لـكم ، والمانع المشارُ إليه هو الهوى والعصبية والإضرار على اللّجاج ، ومحبّة نصره عقيدة قد سبقت إلى القلب ، وَوَزَعها التعصّب ،

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١ .

(٢) من قوله تعالى فى سورة آل عمران ٧٩ : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

(٣) سورة الأعراف ٨٩ .

ومشقّة مفارقة الأسلاف الّذين قد انغرس فى النفس تعظيمهم ، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظنّ بهم .

ثم قال : « أقرِبْ بقومٍ ! » اى ما أقربهم من الجهل ! كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ ﴾ [1] أى ما أسمعهم وأبصرهم !

فإن قلت : قد كان يجب أن يقول . « وأقرِبْ بقومٍ قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة من الجهل » فلا يحولُ بيْن النَّكرة الموصوفة وصفتها بفاصل غريب ، ولم يقل ذلك ، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ منهما !

قلت : قد جاء كثير من ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [2] فى قول من لم يجعل « مَرَدُوا » صفة أقيمة مقام الموصوف ، لأنه يجعل « مردوا » صفة القوم المحذوفين المقدّرين بعد « الأعراب » وقد حال بين ذلك وبين « مردوا » قوله : « ومن أهل المدينة » .

ونحوه قوله : ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً ﴾ [3] .

فإن « قيّما » حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذى الحال « ولم يجعل له عوجا » والحال كالصفة ؛ ولأنهم قد أجازوا : « مررت برجل ـ أيها الناس ـ طويل » ، والنداء أجنبيّ ؛ على أنّا لا نسلّم أن قوله : « من الجهل » أجنبي ، لأنه متعلق بأقرِبْ ، والأجنبي ما لا تعلّق له بالكلام .

---

(١) سورة الكهف ٢٦ .
(٢) سورة التوبة ١٠١ .
(٣) سورة الكهف ١ ، ٢ .

(١٨٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقَد أَرْسَلَ رَجُلاً من أصحابهِ يَعْلَمْ لَهُ عِلْمَ أحوالِ قَوْمٍ مِن جُنْد الكوفةِ قد هَمُّوا باللحاق بالخوَارِج ، وكانوا على خوْفٍ منه عليهِ السلام ، فلما عاد إليه الرَّجلُ قالَ له : أأَمِنُوا فقَطَنُوا ، أم جبنوا فظَعَنُوا ! فقَالَ الرجلُ : بلْ ظعنُوا يا أمير المؤمنين .

فقال عليه السلام :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هامَاتِهِمْ ؛ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى ما كَانَ مِنْهُمْ .

إنَّ الشَّيطانَ اليَوْمَ قدِ اسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ ، ومُتَخَلٍّ عَنْهُمْ ؛ فَحَسْبُهُمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ .

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا قصّة هؤلاء القوم فيما تقدّم عند شرحنا قصّة مَصْقَلة بن هبيرة الشّيبانيّ .

وقَطَن الرجلُ بالمكان ، يقطُن بالضمّ : أقام به وتوطّنه ؛ فهو قاطن ؛ والجمع قطّان وقاطنة وقطين أيضا ، مثل غازٍ وغزيّ . وعازب للكلأ البعيد وعزيب .

وظعَن صار الرجل ظعْنًا وظعَنا ؛ وقرئ بهما : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾[1] ؛ وأظعنه: سيره ، وانتصب « بُعْدا » على المصدر .

---

(١) سورة النحل ٨٠ .

وثمود ؛ إذا أردت القبيلة غيرُ مصروف ، وإذا أردت الحىّ أو اسم الأب مصروف، ويقال : إنّه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح ، قيل سمّيَتْ ثمود لقلّة مائها ، من الثَّمْدْ وهو الماء القليل ؛ وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرى .

وأشرعتُ الرّمح إلى زيد ؛ أى سدّدته نحوه ، وشرع الرُّمح نفسه وصبّت السيوفُ على هاماتهم : استعارة من صببْتُ الماء ، شبّهَ وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرءوس بصبِّ الماء .

واستفلّهم الشيطانُ : وجدهم مَفلولين ، فاستزلّهم ؛ هكذا فسروه .

ويمكن عندى أن يريد أنه وجدهم فَلًّا ، لَا خير فيهم ، والفلُّ فى الأصل: الأرض لا نبات بها لأنّها لم تمطر ، قال حسّان يصف العُزّى[1] :

وإنّ التى بالجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ومَن دانها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ[2]

أى خالٍ من الخير .

ويروى « استفزّهم » ، أى استخفّهم .

والارتـكاس فى الضلال : الرجوع ؛ كأنه جعلهم فى تردّدهم فى طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلّص منه .

والجماح فى التّيه : الغلوّ والإفراط ، مستعار من جِماح الفرس ؛ وهو أن يعتزّ صاحبه ويغلبَه ، جَمَح فهو جَمُوح .

---

(١) فى الأصل : « الفرّى » ، تصحيف ، وفى الصحاح : « العزى » وهى شجرة كانت تعبد .

(٢) اللسان ١٤ : ٤٧ ، ونسبه إلى عبدالله بن رواحة ، وذكر قبله :

شَهِدْتُ وَلَم أُكْذِبْ بأنّ محمّدًا رسُولُ الذى فوقَ السماواتِ من علُ

(١٨٣)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكَالِيِّ ، قالَ خَطَبَنا بِهٰذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السَّلام بِالْكُوفَةِ ؛ وَهُوَ قائِمٌ على حِجارَةٍ نَصَبَها لَهُ جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيُّ ، وعليه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَحَمائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ من لِيفٍ ؛ وَكَأَنَّ جَبِينَهُ ثَفِنَةُ بَعِيرٍ ، فَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَواقِبُ الأَمْرِ ، نَحْمَدُهُ على عَظِيمِ إِحْسانِهِ ، وَنَيِّرِ بُرْهانِهِ ، وَنَوامِي فَضْلِهِ وَامْتِنانِهِ ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضاءً ، وَلِشُكْرِهِ أَداءً ، وَإِلى ثَوابِهِ مُقَرِّباً ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً ؛ وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ راجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ؛ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ ؛ وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً ، وَأَنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً ، وَلَاذَ بِهِ راغِباً مُجْتَهِداً .

* * *

الشَّرْحُ :

[نَوْفٌ البَكَالِيّ]

قال الجوهريّ في الصّحاح : نَوْف البَكاليّ ، بفتح الباء ، كان حاجبَ عليّ عليه السلام ، ثم قال : وقال ثعلب : هو منسوب إلى بَكالة ، قبيلة[1] .

---

(١) صحاح الجوهري ٣ : ١٦٣٨ .

وقال القطب الراونديّ في شرح " نهج البلاغة " : بَكال وبَكيل شيء واحد ؛ وهو اسم حيّ من هَمْدَان ، وبكيل أكثر ، قال الكُمَيت :

* فَقَدْ شَرَكَتْ فِيهِ بَكيلٌ وأرْحَبُ[(١)] *

والصواب غيرُ ماقالاه ، وإنّما بنو بِكال ، بكسر الباء ، حيٌّ من حِمْيَر ؛ منهم هذا الشخص ؛ هو نَوْف بن فضالة ، صاحب عليّ عليه السلام ؛ والرواية الصحيحة الكسر ، لأنّ نوف بن فضالة بِكاليّ ، بالكسر ، من حِمْير ؛ وقد ذكر ابنُ الكلبيّ نسبَ بني بِكال الحميريّين ، فقال : هو بِكال بن دُعْمِيّ بن غوث بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن زيد ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن ابن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْير .

***

[نسبَ جَعْدة بن هُبيرة]

وأمّا جعدة بن هُبيرة ، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام ، أمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب . وكان جَعدة فارساً شجاعا ، فقيها وولِيَ خُراسان لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو من الصّحابة الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح ، مع أمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب ؛ وهربَ أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى نجران .

---

(١) الصحاح ، وصدره :

* يقُولُونَ بُورِثْ ولولا تُراثُه *

وروَى أهلُ الحديث أنّ أمّ هانئ كانتْ يوم الفتح في بيتها ، فدخل عليها هُبيرة ابن أبي وهب بعلها ، ورجل من بني عمّه هاربَيْن من عليّ عليه السلام ؛ وهو يتبعهما وبيده السّيف ، فقامت أمّ هانئ في وجهه دونهما ، وقالت : ماتريده منهما! ولم تكن رأته من ثماني سنين ، فدفع في صدرها ، فلم تزُل عن موضعها ، وقالت : أتدخلُ ياعليّ بيتي ، وتهتك حرمتي ، وتقتل بَعْلي ، ولا تستحيي منّي بعد ثماني سنين ! فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهْدَر دمهما ، فلا بدّ أن أقتلهما . فقبضت على يده التي فيها السيف، فدخلا بيتا ثم خرجا منه إلى غيره ، ففاتاه ، وجاءت أم هانئ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جَفْنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبها ، فوقفت حتى أخذ ثوبه ، فتوشّح به ، ثم صلّى ثمانيَ ركعات من الضُّحى ، ثم انصرف ، فقال : مرحباً وأهلا بأمّ هانىء ! ماجاء بك ؟ فأخبرته خبر بعلها وابن عمّه ، ودخول عليٍّ عليه السلام بيتها بالسيف . فجاء عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يَضْحك ، فقال له: ماصنعت بأمّ هانئ ؟ فقال : سلْهَا يارسول الله ماصنعت بي ! والّذى بعثك بالحقّ لقد قبضتْ على يدِي وفيها السيف ؛ فما استطعتُ أن أخلّصها إلّا بعد لأى ، وفاتني الرجلان . فقال صلى الله عليه وآله : « لو ولَدَ أبو طالبٍ النّاسَ كلّهم لكانوا شجعاناً ، قد أجَرْنا من أجارتْ أمّ هانئ ، وأمّنا مَنْ أمّنت ، فلا سبيلَ لك عليهما » .

فأمّا هبيرة فلم يرجع ؛ وأمّا الرجل الآخر ، فرجع فلم يعرِض له .

قالوا : وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافرا ، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعرا أوله :

أشاقَتْكَ هندٌ أم أتاكَ سُؤَالُها كَذَاكَ النَّوى أسبابها وانفتالها

يذكر فيه أمّ هانئ وإسلامها ، وأنّه مهاجر لها إذ صَبَتْ إلى الإسلام ، ومن جملته :

فإنْ كنتِ قد تابعتِ دين محمّدٍ ... وقَطَّعَتِ الأرحامَ منك حبالُها [١]
فكونى على أعلى سحوق بهضبةٍ ... ململمة غبراء يُبْسٌ قلالُها [٢]

وقال ابن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب [٣] " :

ولدت أمّ هانئ لهبيرة بن أبى وهب بنين أربعة : جعدة ، وعمرا ، وهانئا، ويوسف، قال : وجعدة الذى يقول :

أبى من بنى مخزومَ إنْ كنتَ سائلا ... ومن هاشمٍ أمّى ، لخيرُ قبيلِ [٤]
فمن ذا الّذى ينأى علىّ بخاله ... كخالى علىٍّ ذى النّدى وعَقيلِ !

* * *

المدرعة : الجبّة ، وتدرّع : لبسها ، وربما قالوا : تمدرع .

وثَفِنة البعير ، واحدة ثفِناته ، وهو مايقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف ، كالركبتين وغيرهما ويقال : ذو الثفِنات الثلاثة لعلىّ بن الحسين، وعلى بن عبد الله بن العباس عليهم السلام ، ولعبد الله بن وهب الراسبىّ ، رئيس الخوارج ، لأنّ طول السجود كان قد أثّر فى ثفِناتهم ، قال دِعْبل :

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٨٢ .
(٢) فى الاستيعاب :

* ممنّعةٍ لا يستطاعُ قلالها *

وبعده :

فإنّى َ مِنْ قومٍ إذا جدّ جَدُّهم ... على أىّ حالٍ أصبحَ القومَ حالُها
وإنّى لأحمى مِنْ وَرَاءِ عشيرتى ... إذا كثرتْ تحتَ العوالى مجالها
وطَارَتْ بأيْدِى القومِ بيضٌ كأنّها ... مخاريقُ وِلْدانٍ ينوسُ ظِلالُها
وَإنّ كلامَ المرءِ فى غيرِ كُنهِهِ ... لنبلٌ تهوى ليسَ فيها نِصالها

(٣) الاستيعاب ص ٨٢ ـ ٩٢ ..
(٤) المصدر السابق .

دِيارُ عَلِيٍّ والحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ ... وَحَمْزَةَ والسَّجاد ذِي الثَّفِنات (١)

ومصائر الأمور : جمع مَصِير ، وهو مصدر « صار » إلى كذا ، ومعناه المرجع، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢) فأما المصدر من « صار الشيء كذا » فصير وصَيْرورة، والقياس فى مصدر « صار إليه » أى رجع « مَصارا » ، كمعاش ، وإنما جمع المصدر هاهنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى فى أحوالٍ مختلفة فى الدنيا وفى الدار الآخرة ، فجمع المصدر ، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير ، لاختلاف وجوهه ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (٣) .

وعواقب الأمر : جمع عاقبة ؛ وهى آخر الشيء .

ثم قسّم الحمد ، فجعله على ثلاثة أقسام :

أحدُها: الحمدعلى عظيم إحسانهوهو أصول نعمه تعالى ؛ كالحياةوالقدْرة والشهوةوغيرها مما لايدخل جنسه تحت مقدور القادر.

وثانيها : الحمد على نيّر برهانه ، وهو مانصبهفى العقول من العلوم البديهية المفضِية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله .

وثالثها : الحمد على أرزاقه النامية ؛ أى الزائدة ومايجرى مجراها من إطالة الأعمار ، وكثرة الأرزاق ، وسائر ضروب الإحسان الداخلة فى هذا القسم .

ثم بالغ فى الحمدحمداً يكون لحقّه قضاء،ولشكره أداء،وذلك لأنّ الحمد والشكر [ولو بلغ]

---

(١) من قصيدته التائية :

مَدارِسُ آياتٍ خلَتْ من تِلاوَةٍ ... وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقفِرُ العَرَصاتِ

وهى فى معجم الأدباء ١١ : ١٠٣ ــ ١١٥ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب ١٠ .

أقصى غاياته لم يصلْ إلى أن يكون قاضيا لحقّ الله تعالى ، ولا مؤدِّيا لشكره ؛ ولكنه قال ذلك على سبيل المبالغة .

ثم قال : « وإلى ثوابه مقرّبا ، ولحسن مزيده موجبا » ؛ وذلك لأنّ الشكر يوجب الثواب والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ،[1] أى « أثبكم » ، وقال: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] .

ثم شرع فى الاستعانة بالله ففصّلها أحسنَ تفصيل ، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله فى الآخرة ، مؤمّل لنفعه فى الدنيا ، واثق بدفعه المضارّ عنه؛ وذلك لأنّه أراد أن يحتوىَ على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله ، فذكر الأمورَ الإيجابيّة ، وأعقبها بالأمور السلبيّة، فالأولى جلب المنافع ، والثانية دفع المضارّ .

والطَّول : الإفضال . والإذعان : الانقياد والطاعة .

وأناب إليه : أقبل وتاب . وخنع : خضع ، والمصدر الخنوع . ولاذ به : لجأ إليه .

* * *

الأصْلُ :

لَمْ يُولَدْ سُبْحانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ موروثاً هالِكاً. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمانٌ ، وَلَمْ يَتَعاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلَا نُقْصانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ . فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمواتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ؛ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ ؛ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ

---

(١) سورة البقرة ١٥٢

(٢) سورة إبراهيم ٧

وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

* * *

الشَّرْحُ :

نفى عليه السلام أن يكون البارئ سبحانه مولوداً فيكون له شريك فى العزّ والإلهيّة؛ وهو أبوه الذى ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر ؛ فإنّ الأكثر أنّ الملِك يكونُ ابنَ ملك قبله ؛ ونفى أن يكون له ولد، جريا أيضا على عادة البشَر، فى أنّ كلّ والدٍ فى الأكثر، فإنّه يهلِك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد ؛ وهذا النمَط من الاحتجاج يسمّى خطابة ؛ وهو نافع فى مواجهة العرَب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارةً تثبت فى نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت فى نفوس العوامّ بالخطابة والجدَل.

ثم نفى أنْ يتقدّمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنّما خالف بين اللفظيْن، وأتى بحرف العطف ؛ كقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

ونفى أن يتعاوره، أى تختلف عليه زيادة أو نقصان ؛ يقال : عاورت زيدا الضَّرب ؛ أى فعلت به من الضَّرْب مثل مافعل بى ؛ واعتوروا الشىء ؛ أى تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعوَّرُوه وتعاوروه، وإنّما ظهرت الواو فى « اعتوروا » ، لأنّه فى معنى « تعاوروا » فبنى عليه ولو لم يكن فى معناه لاعتلّت، كما قالوا : « اجتوروا » لمّا كان فى معنى : « تجاوروا » التى لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها . واعتورت الرّياح رسم الدار : اختلفت عليه .

فإن قلت : هذا يقتضى أن يقول : « ولم يتعاوره زيادة ونقصان » ، لأنّ التعاور يستدعى الضدّين معا، ولا ينبغى أن يقول : « ولا نقصان » ؛ كما لا يجوز أن تقول : لم يختلف زيد ولا عمرو .

قلت : لمّا كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: « لا يعتوره الزيادة »؛ فكذلك القول فى جانب النقصان ؛ وجرى كلٌّ واحد من النوعين مجرَى أشياء متنافية ، تختلف على الموضع الموصوف بها .

قوله عليه السلام : « موطّدات » ؛ أى ممهّدات مثبتات .

والعَمَد : جمع عماد ، نحو إهاب وأَهَب، وإدام وأَدَم ؛ وهو على خلاف القياس؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (٢) . والسَّنَد : ما يستند إليه .

ثم قال : « دعاهنّ فأجبن طائعاتٍ » ؛ هذا من باب المجاز والتوسّع ؛ لأنّ الجماد لا يُدْعى ؛ وأمّا من قال : إنّ السموات أحياء ناطقة، فإنّه لم يجعلهنّ مكلّفات ليقال: ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة لما فعل كذا ؛ بل يقول ذلك على وجهٍ آخر ؛ ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز ، نحو قول الراجز :

امْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... مَهْلا رويداً قَدْ مَلأْتَ بطْنِي (٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٤) .

ومنه قول مكاتَب لبنى مِنقر التميميّين ، كان قد ظلَع (٥) بمكاتبته ، فأتى قبر غالب بن صعصعة ، فاستجار به؛ وأخذ منه حَصَيات فشدّهن فى عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال : إنى قد قلت شعرا ، قال : هاته ، فأنشده :

---

(١) سورة الهمزة ٩ .
(٢) سورة الرعد ٢ .
(٣) اللسان (قطن) من غير نسبة .
(٤) سورة فصلت ١١ .
(٥) يريد أنه ضاق بها .

خشيت الرَّدَى أو أن أردّ على قَسْرِ … بقبر ابنِ ليلَى غالبٍ عـذتُ بعدما
ولم يكُ إلّا غالبـــا ميّتٌ بقِرى … بقبر امرئٍ يَقرِى المئين عظامُـــه
فَـكا كك أن تلقى الفرزدقَ بالمصْرِ … فقال لى استقدمْ أمامك إنّمـــا

فقال : ماأسمك ؟ فقال : لهذم ، قال : يالهذم حكمك مسمّطا ، قال : ناقة كَوْماء (١) سوداء الحـدَقة ، قال : ياجارية اطرحى لنا حبلا ، ثم قال : يالهذم اخرج بنا إلى المِرْبد فألقِه فى عنق ماشئت من إبل الناس . فتخيّر لهذم على عينه ناقةً ، ورمى بالحبل فى عنقها، وجاء صاحبها ، فقال له الفرزدق : اغد علىّ أوَفِّك ثمنها ، فجعل لهذم يقودها ، والفرزدق يسوقها ، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء ، فصاح به الفرزدق : يالهذم ، قبح الله أخسرَنا ! فخبّر الشاعر عن القبر ؛ بقوله : « فقال لى استقدم أمامك » والقبر والميّت الذى فيه لا يخبران ، ولـكن العرب وأهل الحـكمة من العجم يجعلون كلّ دليل قولاً وجوابا ، ألا ترى إلى قول زهير :

* أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تـكلّمِ (٢) *

وإنما كلامها عنده أن تبيّن مايرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها .

ومن كلام بعض الحـكماء : هلاّ وقفت على تلك الجنان والحيطان ، فقلت : أيتها الجنان ، أين مَنْ شقّ أنهارَكِ ، وغرَس أشجارَكِ ، وجنى ثمارَكِ ! فإن لم تجبك حِواراً ، أجابتك اعتبارا !

وقَالَ (٣) النعمان بن المنذر ومعه عدىّ بن زيد ، فى ظلّ شجرات مونقات يشرب ،

---

(١) الـكوماء : الناقة الضخمة .

(٢) ديوانه ، وبقيته :

* بحومانةِ الدّرّاج فالمتثلّم *

(٣) قال ، من القيلولة

فقال عديّ : أبيت اللعن ! وأراد أن يعظه : أتدرى ماتقول هذه الشجرات ؟ قال : ماتقول ؟ قال :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بالماءِ الزُّلَالِ [١]

ثم أضحَوْا عصَفَ الدَّهْرُ بهِمْ وكَذَاكَ الدَّهرُ يودِي بالرجالِ

فتنغّص النعمان يومه ذلك[١] .

والمذعِن : المنقاد المطيع . والمتلكّىء : المتوقف.

والكلم الطيّب : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله رسوله .

والعمل الصالح : أداء الواجبات والنوافل ؛ واللفظات من القرآن[٢] العزيز .

والمَصْعَد : موضع الصعود ، ولاشبهة أنّ السماء أشرف من الأرض على رأى المِلّيّين وعلى رأى الحكماء ، أمّا أهل المِلّة ، فلأنّ السماء مصعد الأعمال الصالحة ، ومحلّ الأنوار ، ومكان الملائكة ، وفيها العرش والكرسيّ ، والكواكب المدبِّرات أمراً ، وأمّا الحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم .

* * *

الأصْلُ :

جَعَلَ نُجُومَها أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِها الْحَيْرانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجاجِ الْأَقْطارِ ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِها ادْلِهمامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا اسْتَطاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنادِسِ أَنْ تَرُدَّ ماشاعَ فى السَّمٰوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نورِ الْقَمَرِ ؛ فَسُبْحانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوادُ

---

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ٢ : ٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) من قوله تعالى فى سورة فاطر ١٠ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

غَسَقٍ دَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ المُتَطَأْطِئَاتِ ؛ وَلَا فِي يَفَاعِ السُّفْعِ المُتَجَاوِرَاتِ ، وما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّماء ، وما تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الغَمَامِ ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُها عَنْ مَسْقَطِها عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّماءِ ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ القَطْرَةِ وَمَقَرَّها ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّها ؛ وَما يَكْفِي البَعُوضَةَ مِنْ قُوتِها ؛ وما تَحْمِلُ مِنَ الأُنْثَى فِي بَطْنِها .

***

الشرح :

أعلاما ، أى يستدلّ بها . والفجاج : جمع فجّ ؛ وهو الطريق فى الجبل .

ثم قال : إنّ ادلهمام سواد الليل - أى شدّة ظلمته - لم يمنع الكواكب من الإضاءة ؛ وكذلك أيضا لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره ؛ وإنّما خصّ القمر بالذِّكر وإن كان من جملة الكواكب ، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه ، وشدّة إضاءته ، فصار كقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) ، وقد روى بعض الرواة «ادلهمامَ» بالنصب ؛ وجعله مفعولا ، «وضوءُ نورها» بالرفع وجعله فاعلا ؛ وهذه الرواية أحسن فى صناعة الكتابة لمكان الازدواج ؛ أى لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظلمة ، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة .

والسُّجف : جمع سِجْف ، وهو السِّتر ، ويجوز فتح السين .

وشاع : تفرّق ، والتلألؤ : اللمعان . والجلابيب : الثياب . والغسق : الظلمة ، والساجى . الساكن . والدّاجى : المظلم ، والمتطأطئ : المنخفض . والسُّفع المتجاورات هاهنا : الجبال ؛ وسماها سُفْعا لأنّ السُّفعة سواد مشرب بحمرة ؛ وكذلك لونها فى الأكثر .

---

(١) سورة الرحمن ٦٨ .

واليَفاع : الأرض المرتفعة . والتّجلجل : صوت الرعد .

وما تلاشت عنه بروق الغمام ؛ هذه الكلمة أهمَل بناءها كثير من أئمة اللغة ؛ وهى صحيحة وقد جاءت ووردت . قال ابنُ الأعرابىّ : لَشَا الرّجُل ؛ إذا اتّضع ، وخَسّ بعد رفعة ، وإذا صَحّ أصلُها صحّ استعمال النّاس ، تلاشى الشىء ، بمعنى اضمحَلّ .

وقال القطب الراوندِىّ : تلاشى مركّب من « لا شىء » ، ولم يقف على أصل الكلمة ؛ وقد ظهر الآن أنّ معنى كلامه عليه السلام أنّه سبحانه يعلم ما يصوت به الرّعد ؛ ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق .

فإن قلت : وهل يقصد الرّعد بجلجلته معنى معقولا ليقال : إنّ البارئ يعلمه ! ثم ما المراد بكونه عالمًا بما يضمحلّ البرق عنه ؟

قلت : قد يكون تعالى يحدِث فى الرّعد جلجلة ، أى صوتا ليهلك به قوما ، أو لينفع به قوما ، فعلمه بمـا تتضمّنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا : يعلم ما يصوّت به الرعد ، ولا ريب أنّ البرْق يلمع فيضىء أقطارا مخصوصة ، ثم يتلاشى عنها ، فالبارئ سبحانه عالم بتلك الأقطار التى يتلاشى البرق عنها .

فإن قلت : هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق ؛ وبما لا يضيئه ؛ فلماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق ؟

قلت : لأنّ علمه بما ليس بمضىء بالبرق أعجب وأغرب ، لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة ، فأراد عليه السلام أنْ يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ؛ ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتمّ وأكمل .

والعواصف : الرّياح الشديدة ، وأضافها إلى الأنواء ؛ لأنّ أكثر مايكون عَصَفَانُها فى الأنواء ؛ وهى جمع نَوْء ، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين فى المغرب

مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلا له من ساعته ؛ ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

قال أبو عبيد : ولم يسمع في النَّوْء أنه المسقوط إلا في هذا الموضع ، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها .

وقال الأصمعيّ : بل إلى الطالع في سلطانه ، فتقول : مُطرنا بنوء كذا وكذا ، ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك ؛ والجمع أنواء ونُوآن أيضاً ؛ مثل بَطْن وبُطْنان وعَبْد وعُبدان ، قال حسان بن ثابت :

وَيَثْرِبُ تعلم أنّا بِهَا إذا قَحَط القطر نُوآنها[1]

والانهطال : الانصباب . ومسقط القطرة من المطر : موضع سقوطها ؛ ومقرّها : موضع قرارها ، ومسحب الذَّرة الصغيرة من النمل ومجرّها : موضع سحبها وجرّها .

وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره ؛ ويتضمّن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه .

* * *

الأصْلُ :

والحَمْدُ لِلهِ الكائِنِ قَبلَ أنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أو عَرْشٌ أوْ سَماءٌ أوْ أرْضٌ أوْ جانٌّ أوْ إنسٌ ، لَا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَلا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ سائِلٌ ، وَلَا يَنقُصُهُ نائِلٌ ، وَلا يَنظُرُ بِعَيْنٍ ، وَلا يُحَدُّ بِأيْنٍ ، وَلَا يُوصَفُ بالأزْواجِ ، وَلَا يُخْلَقُ بِعِلاجٍ ، وَلَا يُدْرَكُ بالحَواسِّ ؛ وَلَا يُقاسُ بِالنَّاسِ .

الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا ، وأرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً ؛ بِلَا جَوارِحَ وَلَا أدَواتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، بَلْ إنْ كُنْتَ صادِقاً أيُّها المُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ؛ فَصِفْ

(١) الصحاح ١ : ٧٩ .

جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَجُنُودَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُرَاتِ القُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الخَالِقِينَ . وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الهَيْئَاتِ والأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالفَنَاءِ . فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ .

* * *

الشرح :

ليس يعنى بالكائن هاهنا مايعنيه الحكماء والمتكلمون ، بل مراده الموجود ، أى هو الموجود قبل أن يكون الكرسىّ والعرش وغيرهما . والأوائل يزعمون أنّ فوق السموات السبع سماء ثامنة ، وسماء تاسعة ، ويقولون : إنّ الثامنة هى الكرسىّ ، وإنّ التاسعة هى العرش .

قوله عليه السلام : « لا يدرَكُ بوهْم » ، الوهم هاهنا [1] : الفكرة والتوهّم .

ولا يقدّر بفهم ، أى لا تستطيع الأفهام أن تقدّره وتحدّه .

ولا يشغَلُه سائل كما يشغل السؤال منّا من يسألونه .

ولا ينقصه العطاء ، كما ينقص العطاء خزائن الملوك .

ولا يبصر بجارحة، ولا يحدّ بأين، ولفظة «أين» فى الأصل مبنيّة على الفتح؛ فإذا نكّرتها صارت اسماً متمكّنا ، كما قال الشاعر :

لَيْتَ شِعْرِى وأينَ منّىَ ليتٌ   إن « ليتاً » وإنّ « لوًّا » عناء

وإن شئت قلت : إنه تكلّم بالاصطلاح الحكمىّ . والأين عندهم ، حصول الجسم فى المكان، وهو أحد المقولات العشر .

---

(١) ساقطة من ب .

قوله عليه السلام : ولا يوصف بالأزواج؛ أى صفات الأزواج ؛ وهى الأصناف، قال سبحانه : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[١] .

قوله : « ولا يَخلق بعلاج » ، أى لا يحتاج فى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة .

قوله : « وكلّم موسى تكليما »[٢] من الألفاظ القرآنية، والمراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبْسٍ عساه يصلح للسامع ؛ فيعتقد أنّه أراد المجاز ؛ وأنه لم يكن كلامٌ على الحقيقة .

قوله: « وأراه من آياته عظيما »؛ ليس يريد به الآيات الخارجة عن التّكليم ؛ كانشقاق البحر ، وقلب العصا ، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله : « تكليما » ، وقوله : « بلاجوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات »، مستهجنا ، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيما من آياته ؛ وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاته الستّ ؛ ليس على حدّ سماع كلام البشر من جهة مخصوصة ؛ وله دوىّ وصلصلة كوقع السّلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ .

فإن قلت : أتقول إنّ الكلام حلّ أجساما مختلفة من الجهات الستّ ؟

قلت : لا وإنّما حلّ الشّجرة فقط ؛ وكان يُسمَع من كلّ جهة ، والدليل على حلوله فى الشّجرة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى ﴾[٣]؛ فلا يخلو إمّا أن يكونَ النداء حلّ الشّجرة؛ أو المنادى حلّها، والثانى باطل ، فثبت الأوّل .

ثم قال عليه السلام لمن يتكلّف أن يصفَ ربّه : إن كنت صادقا؛ أنك قد وصلتَ إلى

---

(١) سورة ق ٧ .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة النساء ١٦٤ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ .

(٣) سورة القصص ٣٠ .

معرفة صِفَته ؛ فصفْ لَنَا الملائـكة ؛ فإنّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه .

وحُجُرات القدس : جمع حُجْرة . ومرجحِنِّين : مائلين إلى جهة « تحت » خضوعا لجلال البارئ سبحانه ؛ ارجحنّ الحجر ، إذا مال هاويا ، متولّهة عقولهم ، أى حائرة .

ثم قال : إنّما يدرَك بالصفات ؛ ويعرف كنه ما كان ذا هيئـة وأداة وجارحة ، وما ينقضى ويفنى ويتطرّق إليه العدم ؛ وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك .

وتحت قوله : « أضاء بنوره كلّ ظلام ... » إلى آخر الفصل ، معنى دقيق وسرٌّ خفىّ ؛ وهو أنّ كلّ رذيلة فى الخلق البشرىّ مع معرفته بالأدلّة البرهانية غير مؤثّرة ولا قادحة فى جلالة المقام الذى قد بلغ إليه ؛ وذلك نحو أن يكون العارف بخيلا أو جبانا ، أو حريصا أو نحو ذلك ؛ وكلّ فضيلةٍ فى الخلق البشرىّ مع الجهل به سبحانه ؛ فليست بفضيلةٍ فى الحقيقـة ولا معتدّ بها ؛ لأنّ نقيصة الجهل به تكسِف تلك الأنوار ، وتمحَقُ فضلها ؛ وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جوادا ، أو شجاعا ، أو عفيفا ، أو نحو ذلك ؛ وهذا يطابق ما يقوله الأوائل ؛ من أنّ العارف المذنب يشقَى بعد الموت قليلا ؛ ثم يعود إلى النعيم السرمدىّ ، وأنّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبّدا ومذهب الخلّص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات ، ويقال : إنّه مذهب أبى حنيفة رحمه الله . ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنْ يقال : كلّ ظلام من المعاصى الصغائر ؛ فإنه ينجلى بضياء معرفته وطاعته ؛ وكلّ طاعة يفعلها المـكلّف مع الـكفر به سبحانه ، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثوابا ، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومه إلى خصوصه .

* * *

الأصلُ :

أوصيكُمْ عِبادَ اللهِ بتقوى اللهِ الّذي ألبَسَكُمُ الرِّياشَ، وأسْبَغَ عليكُمُ المعاشَ؛ فلو أنَّ أحداً يجدُ إلى البقاءِ سُلَّماً، أوْ لدفعِ الموتِ سبيلاً؛ لكانَ ذلكَ سُليمانَ بنَ داودَ عليهِ السلامُ؛ الّذي سُخِّرَ لهُ مُلكُ الجنِّ والإنسِ؛ مع النُّبوَّةِ وعظيمِ الزُّلْفةِ؛ فلمّا استوفَى طُعْمَتَهُ، واستكمَلَ مُدَّتَهُ، رمَتْهُ قِسِيُّ الفناءِ بنِبالِ الموتِ؛ وأصبحتِ الدِّيارُ منهُ خاليةً، والمساكِنُ مُعطَّلةً؛ وورِثَها قومٌ آخَرُونَ.

وإنَّ لكُمْ في القرونِ السّالفةِ لَعِبْرَةً! أينَ العمالقةُ وأبناءُ العمالقةِ! أينَ الفراعنةُ وأبناءُ الفراعنةِ! أينَ أصحابُ مدائنِ الرَّسِّ الّذينَ قتلوا النّبيِّينَ، وأطفَئوا سُنَنَ المُرسَلينَ، وأحيَوْا سُنَنَ الجبّارينَ! أينَ الّذينَ ساروا بالجيوشِ، وهزَموا الألوفَ، وعسكَرُوا العساكِرَ، ومدَّنُوا المدائنَ!

* * *

الشَّرحُ :

الرِّياش : اللِّباس. وأسبغ : أوسع؛ وإنّما ضربَ المثل بسليمان عليه السلام، لأنه كان مَلِكَ الإنس والجنّ، ولم يحصل لغيره ذلك، ومن النّاس مَنْ أنكر هذا؛ لأنّ اليهود والنّصارى يقولون: إنّه لم يتعدّ ملكُه حدود الشام، بل بعض الشام، وينكرون حديث الجنّ والطير والريح، ويحمِلون ماورد من ذلك على وجوهٍ وتأويلاتٍ عقلية معنوية؛ ليس هذا موضع ذكرها.

والزُّلفة : القرب. والطُّعْمة، بضم الطاء : المأكلة؛ يقال: قد جعلت هذه الضَّيْعة طُعمة لزيد.

والقِسِيّ: جمع قَوْس، وأصلها «قووس» على «فعول»، كضرب وضروب؛ إلّا أنهم قدّموا

اللام ، فقالوا « قُسُوّ » على « فلوع » ، ثم قلبت الواو ياء ؛ وكسروا القاف كما كسروا عين « عصيّ » فصارت « قِسِيّ » .

[نسب العمالقة]

والعمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح ؛ كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم ؛ فنهم عملاق بن لاوذ بن سام ؛ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه .

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما ؛ وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ فى طسْم ؛ فلما ملكهم عملاق بن طسم ، بغوا كثر الفساد فى الأرض ؛ حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بَعْلِها ؛ وإن كانت بكرا افتضّها قبل وصولها إلى البعل ؛ ففعل ذلك بامرأة من جَدِيس ؛ يقال لها غفيرة بنت غفار ؛ فخرجت إلى قومها ؛ وهى تقول :

لا أحدٌ أذلّ من جديسِ أهكذا يفعل بالعروسِ !

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار ؛ وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته ، فصنع الأسود طعاما ، ودعا عملاق الملك إليه ، ثم وثب به وبطسْم ، فأتى على رؤسائهم ، ونجا منهم رياح بن مرّ ، فسار إلى ذى جيشان بن تبّع الحميرى ملك اليمن ؛ فاستغاث به ، واستنجده على جَدِيس ، فسار ذو جيشان فى حِمْيَر ، فأتى بلاد جَوّ ، وهى قصبة اليمامة ، فاستأصل جديساً كلّها ، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديسٍ باقية ، ولا لطسْمٍ إلا اليسير منهم .

ثم ملك بعد طسْمٍ وجديس وَبار بن أُمَيم بن لاوذ بن إرم ، فسار بولده وأهله ، فنزل بأرض وبار ، وهى المعروفة الآن برمل عالِج ، فبغوْا فى الأرض حينا حتّى أفناهم الله .

ثم مَلَكَ الأرضَ بعد وبار عبد ضَخْم بن أثَيْف بن لاوذ ، فنزلوا بالطائف حينا ، ثم بادوا .

***

[نسب عاد وثمود]

وممّن يعدّ مع العمالقة عاد وثمود ؛ فأما عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح ؛ كان يعبد القمر ، ويقال : إنه رأى من صُلْبِه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف ؛ وإنه نكح ألف جارية ؛ وكانت بلاده الأحقاف المذكورة فى القرآن ؛ وهى من شِحْر عُمان إلى حَضَرموت ؛ ومن أولاده شدّاد بن عاد ؛ صاحب المدينة المذكورة .

وأمّا ثمود ؛ فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وكانت دياره بين الشّام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة .

***

[نسب الفراعنة]

قوله عليه السلام : « أين الفراعنة ، وأبناء الفراعنة ؛ جمع فِرْعون ؛ وهم ملوك مصر ، فنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مُصْعب فرعون موسى .

ومنهم فرعون بن الأعرج الّذى غزا بنى إسرائيل وأخربَ بيت المقدس .

***

[نسب أصحاب الرّسّ]

قوله عليه السلام : « أين أصحاب مدائن الرسّ ؟ » ، قيل : إنهم أصحابُ شعيب

النبي صلى الله عليه وآله ، وكانوا عَبَدَةَ أصنام ؛ ولهم مواشٍ وآبار يُسْقَوْن منها .

والرس : بئر عظيمة جدًّا انخسفت بهم ؛ وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها ودبارهم . وقيل : الرسّ قرية بفَلْج اليمامة ، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا ، فأهلكوا.

وقيل : قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز ، وكانت العنقاء تختطِف صبيانَهم فتقتلهم ؛ فدعوُا الله أن ينقِذهم منها؛ فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء ، فشارطوه على ذلك فدعا عليها ، فأصابتها الصاعقة ، فلم يفُوا له فقتلوه ؛ فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرسّ ، هو الأخدود . وقيل : الرسّ أرض بأنطاكية قتل فيها حَبيب النجار .

وقيل : بل كذّب أهلها نبيّهم ورسّوه فى بئر ، أى رمَوْه فيها .

وقيل : إن الرسّ نهر فى إقليم الباب، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز ، وينتهى إلى نهر الكرّ ، فيختلط به حتى يصبّ فى بحر الخزر ، كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة ، فأهلكهم الله ببغيهم .

***

الأصْلُ :

منها :

قَدْ لَبِسَ لِلحِكْمَةِ جُنَّتَها ،وَأَخَذَها بِجَمِيعِ أَدَبِهَا ،مِنَ الإِقبالِ عَلَيْها ،وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا ؛فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُها،وَحاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْها،فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلامُ ،وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ،وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرانِهِ ؛ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايَا حُجَّتِهِ ؛خَلِيفَةٌ مِنْ خَلائِفِ أَنْبِيائِهِ .

***

الشرح :

هذا الكلام فسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها ، فالشّيعة الإماميّة ؛ تزعم أنّ المراد به المهدى المنتظر عندهم، والصوفيّة يزعمون أنّه يعنى به ولىّ الله فى الأرض؛ وعندهم أنّ الدّنيا لا تخلو عن الأبدال ؛ وهم أربعون، وعن الأوتاد ، وهم سبعة ، وعن القطب وهو واحد ؛ فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه، وصار أحد الأربعين وتِداً، عوض الوَتِد ، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالًا عوض ذلك البدَل .

وأصحابُنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلِى الأمّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدْل والتوحيد ، وأنّ الإجماع إنّما يكون حجّةً باعتبار أقوال أولئك العلماء ، لكنه لما تعذّرت معرفتهم بأعيانهم ، اعتبر إجماع سائر العلماء ، وإنّما الأصل قول أولئك .

قالوا : وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة ؛ ولكنه يصف حال كلٍّ واحد منهم ؛ فيقول : من صفته كذا ، ومن صفته كذا .

والفلاسفة يزعمون أنّ مرادَه عليه السلام بهذا الكلام العارف ، ولهم فى العرفان وصفات أربابه كلام يعرِفه مَنْ له أنس بأقوالهم . وليس يبعد عندى أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله فى آخر الوقت ، إذا خلقه الله تعالى ؛ وإن لم يكن الآن موجوداً ، فليس فى الكلام ما يدلّ على وجوده الآن ، وقد وقع اتفاق الفِرَق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضى إلا عليه .

قوله عليه السلام : « قد لبس للحكمة جُنّتها » ، الجُنّة : ما يستتر به من السّلاح كالدِّرْع ونحوها ، ولبس جنّة الحِكْمة قمع النفس عن المشتهيات ، وقطع علائق النفس عن

المحسوسات ؛ فإنّ ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى ؛ كما تمنع الدّرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرّماية .

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص ، فقال : « وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها » ؛ أى شدّة الحرص والهمة .

ثم قال : « والمعرفة بها » ، أى والمعرفة بشرَفِها ونفاستها .

ثم قال : « والتفرّغ لها » ؛ لأنّ الذهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد ؛ وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ مامرّ سواها .

قال : « فهىَ عند نفسه ضالّته التى يطلبها » ؛ هذا مثل قوله عليه السلام : « الحكْمة ضالّة المؤمن » ومن كلام الحكماء : لا يمنَعْك من الانتفاع بالحكْمة حقارة مَنْ وجدتَها عنده ؛ كما لا يمنعك خبث تراب المعدِن من التقاط الذّهب .

ووجدت بخط أبى محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله فى تعاليق مسوّدة أبياتا للمطّوِىّ ؛ وهى :

قد رأيْنا الغزَال والغصن والنَّجْمَيْــــن شمس الضحى وبدْر التّمامِ
فوحقّ البيان يعضُــده البُرْ هانُ فى مأقِطٍ شديد الخِصامِ[1]
ما رأينا سوى المليحة شيْئـاً جمع الحسن كلَّه فى نظــامِ
هى تجرى مجرى الأصالة فى الرأ ىِ ومَجْرَى الأرواح فى الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب بخطه تحت « المليحة » : ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكْمة!

قوله عليه السلام : « وحاجته التى يسأل عنها » ؛ هو مثل قوله : « ضالّته التى يطلبها » .

ثم قال : « هو مغترب إذا اغترب الإسلام » ؛ يقول هذا الشخص يُخْفِى نفسَه ويخملها

(١) المأقط : ساحة القتال .

إذا اغترب الإسلام ، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجوْر على الصَّلاح والعدل ؛ قال عليه السلام : « بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ » .

قال : « وضرب بعسيب ذَنَبِه ، وألصق الأرض بِجِرانه » ؛ هذا من تمام قوله : « إذا اغترب الإسلام » ، أى إذا صار الإسلام غريبا مقهورا ؛ وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بعَسِيبه ؛ وهو أصلُ الذَّنَب ، ويلصق جِرانه – وهو صدره – فى الأرض ؛ فلا يكون له تصرّف ولا نهوض .

ثم عاد إلى صفة الشّخص المذكور .

وقال : « بقيّة من بقايا حججه ، خَليفة من خلائف أنبيائه » ، الضمير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه وإنْ لم يجرِ ذكره؛ للعلم به ، كما قال : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[1] ، ويمكن أن يقال : إنّ الضمير راجع إلى مذكور وهو الإسلام ؛ أى من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام .

فإن قلت : ليس للإسلام إلا نبيّ واحد .

قلت : بل له أنبياء كثير ؛ قال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾[3] ، وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى مادعا إليه محمد صلى الله عليه وآله من التوحيد والعدل ، فكلّهم أنبياء للإسلام .

فإن قلت : أليس لفظ « الحجّة » ولفظ « الخليفة » مشعراً بما تقوله الإماميّة ؟

قلت : لا ، فإنّ أهل التصوف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة ؛ وكذلك الفلاسفة ،

---

(١) سورة ص ٣٢ .
(٢) سورة الحج ٧٨ .
(٣) سورة النحل ١٢٣ .

وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كلّ عصر، لأنّهم حجج الله، أي إجماعهم حجّة؛ وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.

وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر.

***

الأصلُ:

ثم قال عليه السلام:

أيُّها النّاسُ؛ إنّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ ٱلْمَوَاعِظَ الّتِي وَعَظَ بِهَا ٱلْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ ٱلْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا.

لِلّٰهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ! أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ ٱللهِ ٱلْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى؛ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ لَا يَفْنَى!

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا ٱلَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا ٱلْيَوْمَ أَحْيَاءً، يُسِيغُونَ ٱلْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ وَٱللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ ٱلْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ!

أَيْنَ إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى ٱلْحَقِّ! أَيْنَ عَمَّارٌ! وَأَيْنَ ٱبْنُ ٱلتَّيِّهَانِ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى ٱلْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى ٱلْفَجَرَةِ!

***

قال: ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده إِلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ ٱلْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ ٱلْبُكَاءَ، ثم قال عليه السلام:

أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ قَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا ٱلْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ!

أَحْيَوُا السُّنَّةَ ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ ؛ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .

ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذا ؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ .

* * *

قالَ نَوْفٌ : وَعقد للحسين عليه السلام فى عَشَرة آلافٍ ، ولقيس بن سعدٍ رحمه الله فى عشرة آلافٍ ، ولأبى أيُّوب الأنصاريّ فى عشرةِ آلاف ، ولغيرِهم على أعدادٍ أُخَر ؛ وهو يريد الرَّجْعةَ إلى صِفّين فما دارت الجمعةُ حتى ضربه الملعون ابنُ الملجم لعنه اللهُ ، فتراجعت العساكر ، فكنا كأغنامٍ فقدت راعيَها ، تختطفها الذئاب من كل مكانٍ !

* * *

الشَّرْحُ :

بثثتُ لكم المواعظ : فرّقتُها ونشرتُها . والأوصياء : الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلٰهية ؛ وقد يمكن ألّا يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية ، فإنّ مرتبتهم أعلَى من مراتب الخلفاء .

وحدوتكم : سقتكم كما تحدَى الإبل . فلم تستوسقوا ، أى لم تجتمعوا ، قال :

* مستوسقاتٍ لم يجِدْن سائقا[1] *

قوله : « يطأ بكم الطريق » ، أى يحملكم على المِنْهاج الشرعيّ ، ويسلك بكم مسلك الحقّ ، كأنّه جعلهم ضالّين عن الطريق التى يطلبونها .

---

(١) اللسان (وسق) ، وقبله :

* إنّ لنَا لَإبِلًا نَقَانِقا *

وقال : أتريدون إماماً غيرى يوقفكم على الطريق التى تطلبونها حتى تطئوها وتسلكوها !

ثم ذكر أنّه قد أدبر من الدّنيا ما كان مقبلاً؛ وهو الهدى والرشاد ، فإنّه كان فى أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه مقبِلا ؛ ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه؛ وأقبل منها ما كان مدبراً ؛ وهو الضلال والفساد ؛ ومعاوية عند أصحابنا مطعون فى دينه ، منسوبٌ إلى الإلحاد ؛ قد طعن فيه صلى الله عليه وآله؛ وروى فيه شيخنا أبو عبدالله البصرىّ فى كتاب '' نقض السُّفيانيّة '' على الجاحظ ؛ وروى عنه أخبارا كثيرة تدلُّ على ذلك ؛ وقد ذكرناها فى كتابنا فى '' مناقضة السفيانيّة '' .

وروى أحمد بن أبى طاهر فى كتاب '' أخبار الملوك '' أنّ معاوية سمع المؤذّن يقول « أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقالها ثلاثا، فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ! فقال: لله أبوك يابن عبد الله ! لقد كنتَ عالىَ الهمّة ؛ مارضيتَ لنفسك إلّا أن يقرَنَ اسمُكَ باسم ربِّ العالمين !

قوله عليه السلام : « وأزمَع التّرحال » أى ثبتَ عزمُهم عليه ؛ يقال : أزمعتُ الأمرَ؛ ولا يقال : أزمعتُ على الأمر ، هكذا يقول الكسائىّ ؛ وأجازه الخليل والفرّاء .

ثم قال عليه السلام : إنّه لم يضرّ إخواننا القتلَى بصِفّين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنّغص والغُصَص .

ويقال : ماء رنْق ، بالتسكين، أى كدر ، رنِق الماء بالكسر ؛ يرنق رنقا فهو رَنْق، وأرنقته ؛ أى كدّرته ، وعيش رَنِق بالكسر ، أى كَدِر .

ثم أقسم إنّهم لَقُوا الله فوفّاهم أجورهم ؛ وهذا يدلّ عَلَى مايذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه .

ثم قال عليه السلام : « أين إخوانِى » ؟ ثم عدّدهم ، فقال : « أين عمار » .

***

[عمار بن ياسر ونسبه ونُبَذ من أخباره]

وهو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسىّ ـ بالنّون ـ المذحِجىّ ؛ يكنى أبا اليقظان ، حليف بنى مخزوم .

ونحن نذكر طرَفا من أمره من كتاب " الاستيعاب [(١)] " ، لأبى عمر بن عبد البرّ المحدّث. قال أبو عمر : كان ياسر والد عمّار عربيًّا قحطانيا،من عَنْس فى مذحِج ؛ إلّا أنّ ابنه عمّارا كان مولًى لبنى مخزوم ؛ لأنّ أباه ياسراً قدِمَ مكّة مع أخوين له ؛ يقال لهما : مالك والحارث ؛ فى طلب أخ لهم رابع ؛ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن،وأقام ياسر بمكّة؛ فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فزوّجه أبو حذيفة أمَةً يقال لها سُمَيّة ، فأولدها عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة ؛ فمن هاهنا كان عمّار مولى بنى مخزوم . وأبوه عربىّ ؛ لا يختلفون فى ذلك ؛ وللحِلْف والوَلاء الّذى بين بنى مخزوم وعمّار وأبيه ياسر كان احتمال بنى مخزوم على عثمان؛ حين نالَ من عمّار غلمان عثمان مانالوا من الضّرب؛حتى انفتق له فَتْقٌ فى بطنه ، زعموا،وكسروا ضِلَعاً من أضلاعه ؛ فاجتمعت بنو مخزوم،فقالوا: والله لئِنْ مات لاقتلنا به أحداً غيرَ عثمان !

قال أبو عمر : كان عمّار بن ياسر ممّن عُذّب فى الله ثم أعطاهم عمّارٌ ماأرادوا بلسانه، واطمأنّ الإيمان بقلبه ؛ فنزل فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[(٢)]، وهذا ممّا أجمع عليه أهل التفسير [(٣)] .

---

(١) الاستيعاب ١ : ٤٢٢ ـ ٤٢٤ .

(٢) سورة النحل ١٠٦ .

(٣) فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ : ١٨٠ « هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر ؛ فى قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه » ، ثم قال : « وأما عمـار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن عادوا فعد » .

وهاجر إلى أرضِ الحبَشة ، وصلى إلى القبلتين ؛ وهو من المهاجرين الأوّلين ، ثم شهِد بدراً والمشاهِدَ كلّها ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم شهِدَ اليمامة ، فأبلَى فيها أيضا يومئذ ، وقطِعَتْ أذُنه .

قال أبو عمر : وقد روى الواقدىّ ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن عمر ؛ قال : رأيتُ عمّاراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح : يا معشرَ المسلمين ، أمِنَ الجنّة تفرّون ؟ أنا عمّار بن ياسر ، هلمُّوا إلىّ ! وأنا أنظُر إلى أذنه قد قطعت ، فهى تذبذب[١] ؛ وهو يقاتل أشدّ القتال .

قال أبو عمر : وكان عمّار آدمَ طُوالًا مضطربا أشهَلَ[٢] العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، ، لا يغيّر شيبه .

قال : وبلَغنا أنّ عمّاراً قال : كنتُ ترِبًا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى سِنّه ، لم يكن أحدٌ أقربَ إليه منّى سنًّا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ : إنه عمار بن ياسر ، ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[٣] إنه أبو جهل بن هشام .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ عمّاراً ملئْ إيمانا إلى مُشاشه »[٤] . ويروى إلى أخمَص[٥] قدميه .

وروَى أبو عمر عن عائشة ، أنها قالت : مامن أحدٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تذبذب : تتحرك .
(٢) الشهل ، محركة : أن يشوب سواد العين زرقة .
(٣) سورة الأنعام ١٢٢ ، وفى تفسير القرطبى عن ابن عباس أيضاً أنهـا نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل . قال : « والصحيح أنها عامة فى كل مؤمن وكافر » .
(٤) المشاشة : رأس العظم .
(٥) الأخمص : من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

أشاء أن أقول فيه إلّا قلت ، إلا عمار بن ياسر ، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ملىء إيمانا إلى أخمص قدميه » .

قال أبو عمر : وقال عبد الرحمن بن أبزَى : شَهِدنا مع علىّ عليه السلام صِفّين ثمانمائة ممّن بايع بيعة الرضوان ، قتل مِنّا ثلاثة وستون ؛ منهم عَمّار بن ياسر .

قال أبو عمر : ومن حديث خالد بن الوليد ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ أبغض عَمّارا أبغضه الله » ؛ فما زلت أحبه من يومئذ .

قال أبو عمر : ومن حديث علىّ بن أبى طالب عليه السلام : إنّ عمّاراً جاء يستأذِنُ عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فعرف صوته ، فقال : « مَرْحَباً بالطيّب المطيَّب - يعنى عَمّارا - ائذنوا له » .

قال أبو عمر : ومن حديث أنَس عن النبى صلى الله عليه وآله : « اشتاقتِ الجنة إلى أربعة : علىّ ، وعمار ، وسلمان ، وبلال » .

قال أبو عمر : وفضائل عمّار كثيرة جدا يطول ذكرها .

قال : وروى الأعمش ، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ ، قال : شهدْنا مع على عليه السلام صِفّين ، فرأيت عمّار بن ياسر لا يأخذ فى ناحية ولا وادٍ من أوْدِية صفّين ، إلاّ رأيتُ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يتبعونه ، كأنه علَم لهم . وسمعتُه يقول يومئذ لهاشم ابن عتبة : يا هاشم ، تقدّم ، الجنة تحت البارقة .

اليَوْمَ أَلْقَى الأَحِبَّهْ مُحَمَّداً وَحِزْبَهْ

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ لعلمنا أنا على الحق ، وأنهم على الباطل ، ثم قال :

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تنزِيلِهِ فَالْيَوْمَ نضربُكُمْ على تأويلِهِ

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويُذهِلُ الخليل عن خليلِهِ
* أو يرجع الحق على سبيلِهِ *

فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قتلوا فى موطن ، ماقتلوا يومئذ .

قال : وقد قال أبو مسعود البدرىّ وطائفة لحُذَيفة حين احتُضِر ، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلَفَ النّاس فيِمن تأمرنا ؟ قال :عليكم بابن سميّة ، فإنّه لن يفارق الحقّ حتى يموت ـ أو قال : فإنه يزول مع الحقّ حيث زال .

قال أبو عمر : وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذيفة مرفوعا .

قال أبو عمر : وروى الشّعبيّ ، عن الأحنف ، أنّ عمّاراً حمل يوم صِفّين ، فحمل عليه ابن جَزْء السَّكْسَكِيّ ، وأبو الغادية الفَزَاريّ ؛ فأمّا أبو الغادية فطعنه ، وأمّا ابن جزء فاحتزّ رأسه .

قلت : هذا الموضع ممّا اختلف فيه قول أبى عمر رحمه الله ، فإنه ذكر فى كتاب الكنى من " الاستيعاب[1] "، أبا الغادية ـ بالغين المعجمة ـ وقال : إنه جُهَنيّ من جُهينة ،وجُهينة من قُضاعة ، وقد نسبه هاهنا فَزاريًا .

وقال فى كتاب الكنى : إنّ اسم أبى الغادية يسار ، وقيل مسلم .

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب " المعارف "، عن أبى الغادية أنه كان يحدّث عن نفسه بقتل عمار ، ويقول : إنّ رجلًا طعنه فانكشف المِغفَر عن رأسه ، فضربت رأسه ، فإذا رأس عمّار قد نَدَر[2] .

وكيفية هذا القتل تخالف الكيفيّة التى رواها ابن عبد البرّ .

قال أبو عمر : وقد روى وَكيع ، عن شعبة ، عن عبد بن مرّة ، عن عبدالله بن سلمة،

---

(١) الاستيعاب ٦٨٠ .
(٢) المعارف ٢٥٧ (طبعة دار الكتب) .

قال : لكأنى أنظر إلى عمّار يوم صِفّين وهو صريع ، فاستسقى ، فأُتِىَ بشربة من لبن فشرب ، فقال :

* اليوم ألقى الأحبّهْ *

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد إلىّ أنّ آخرَ شَرْبة أشرَبُها فى الدّنيا شربة من لبن ، ثم استسقى ثانية فأتته امرأة طويلة اليدين بإناء ، فيه ضَيَاح[1] من لبن ، فقال حين شَرِبه : الحمدُ لله ، الجنّةَ تحت الأسِنّة ، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفاتِ هَجَر لعلمنا أنا على الحقّ ، وأنهم على الباطل ، ثم قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رَوَى حارثة بن المضراب : قرأت كتابَ عمر إلى أهل الكوفة : أمّا بعد ، فإنّى بعثت إليكم عمّاراً أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلّما ووزيرا ، وهما من النُّجباء ، من أصحاب محمّد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، فإنّى قد آثرتكم بعبدِ الله عَلَى نفسى أثَرَةً .

قال أبو عمر : وإنّما قال عمر : هُماَ من النُّجباء ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله . « إنّه لم يكن نبىٌّ إلا أعطِىَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء ، وإنّى قد أعطيتُ أربعةَ عشر : حمزة ، وجعفرا ، وعليًّا ، وحسنا ، وحسينا ، وأبا بكر ، وعمر ، وعبد الله بن مسعود ، وسلْمان ، وعمّارا ، وأبا ذرّ ، وحُذَيفة ، والمقْداد ، وبلالا » .

قال أبو عمر : وتواترتِ الأخبار عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنه قال: « تقتلُ عمّاراً الفئة الباغية » ، وهذا من إخباره بالغيب ، وأعلام نبوّته صلى الله عليه وآله، وهو من أصح الأحاديث .

وكانت صِفّين فى ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ، ودفَنَه علىٌّ عليه السلام فى ثيابه ولم يغسّله .

---

(١) الضياح ، بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .

وروى أهلُ الكوفة أنه صلّى عليه ؛ وهو مذهبهم فى الشّهداء ؛ أنّهم لا يغسّلون ولكن يصلى عليهم .

قال أبو عمر: وكانت سنّ عمّار يوم قُتِل نَيِّفاً وتسعين سنة ؛ وقيل : إحدى وتسعين، وقيل : اثنتين وتسعين ، وقيل : ثلاثا وتسعين .

* * *

[ذكر أبى الهيثم بن التيِّهان وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ابن التَّيِّهان »؛هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان؛ بالياء المنقوطة؛ باثنتين تحتها ؛ المشددة المكسورة؛ وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها؛ واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضا ، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصارى؛ أحدُ النُّقَباء ليلة العقبة. وقيل : إنه لم يكن من أنفسهم ، وإنّه من بَلِيّ بن أبى الحارث بن قُضاعة ، وإنّه حليفٌ لبنى عبد الأشهل ؛ كان أحدَ النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدرا .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " : اختلف فى وقت وفاته ، فذكر خليفة ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ قومَه ، فقالوا : مات فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله [1] .

قال أبو عمر : وهذا لم يتابع عليه قائله .

وقيل : إنّه توفِّىَ سنة عشرين ، أو إحدى وعشرين .

وقيل : إنه أدرَكَ صِفِّين ، وشهدها مع علىّ عليه السلام ؛ وهو الأكثر .

وقيل : إنه قتل بها .

ثم قال أبو عمر : حدّثنا خَلَف بن قاسم ، قال : حدّثنا الحسن بن رشيق ، قال :

---

(١) الاستيعاب ٦٩٦ .

حدّثنا الدُّولابىّ ، قال : حدّثنا أبو بكر الوجيهىّ ، عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه ، قال : وممّن قتِل بصفّين عمّار ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وعبد الله بن بُدَيْل ؛ وجماعةمن البدريّين رحمهم الله .

ثم روى أبو عُمرروايةً أخرى،فقال : حدّثنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالمؤمن، قال : حدّثنا عثمان بن أحمد بن السمّاك ، قال: حدّثنا حنبل بن إسحاق بن علىّ، قال : قال أبو نُعيم : أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، اسمُه مالك ، واسم التَّيِّهان عمرو بن الحارث ، أصيب أبو الهيثم مع علىّ يوم صفين .

قال أبو عمر : هذا قول أبى نعيم وغيره .

قلت : وهذه الرّواية أصحّ من قول ابن قتيبة فى كتاب المعارف [1] ؛ وذكر قوم أنّ أبا الهيثم شهد صِفّين مع على عليه السلام ؛ ولا يعرِفُ ذلك أهلُ العلم ولا يثبِتونه؛ فإنّ تعصُّب ابن قتيبة معلوم ؛ وكيف يقول : لا يعرفه أهل العلم ، وقد قاله أبو نعيم،وقاله صالح ابن الوجيه ، ورواه ابنُ عبد البرّ وهؤلاء شيوخ المحدّثين !

***

[ذكر ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام:« وأين ذو الشّهادتين »؛هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمىّ الأنصارى من بنى خَطْمة [2]، من الأوس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) المعارف ٢٧٠ ، قال : « وليس يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه » .

(٢) بنو خطمة ؛ هم بنو عبدالله بن مالك بن أوس .

شهادته كشهادة رجلين ؛ لقصّة مشهورة(١) ؛ يكنَى أبا عُمارة ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ؛ وكانت رايةُ بنى خَطْمة بيده يوم الفتح .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب(٢) : وشهد صِفّين مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فلما قُتِل عمار قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رُوِى حديثُ مقتله بصفّين من وجوه كثيرة ، ذكرناها فى كتاب " الاستيعاب " عن ولد ولده ، وهو محمد بن عُمارة بن خزيمة ذى الشهادة ؛ وأنه كان يقول فى صِفّين : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « تقتل عمّاراً الفئةُ الباغية » ؛ ثم قاتل حتى قُتِل .

***

قلت : ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبيّة القَبِيحة ، أنّ أبا حيانِ التوحيدىّ قال فى كتاب " البصائر " : إن خُزيمة بن ثابت المقتول مع علىٍّ عليه السلام بصِفّين ؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، بل آخر من الأنصار صحابىّ اسمه خزيمة بن ثابت ؛ وهذا خطأ ، لأنّ كتب الحديث والنّسب تنطق بأنه لم يكن فى الصحابة من الأنصار ، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين ؛ وإنما الهوى لا دواء له ؛ على أنّ الطبرىّ صاحب التاريخ قد سَبَق أبا حيّان بهذا القول ؛ ومن كتابِه نَقَل أبو حيان ؛ والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه ، ثم أىّ حاجة لناصرى أمير المؤمنين أن يتكثَّروا بخُزَيمة ، وأبى الهيثم ، وعمّار وغيرهم ! لو أنصف

---

(١) ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة ، قال : « روى عنه ابنه عمارة أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربى ، فجحده سواء ، فشهد خزيمة بن ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله : « ما حملك على الشهادة ، ولم تكن حاضراً معنا ؟ قال : صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه » .

(٢) الاستيعاب ١٠٧ ، ١٠٨ .

الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة ، لعلموا أنه لو كان وحده ، وحاربه الناسُ كلهم أجمعون ، لكان على الحقّ ، وكانوا على الباطل .

ثم قال عليه السلام : « وأين نظراؤهم من إخوانهم » ! يعني الذين قتِلُوا بصِفّين معه من الصحابة ، كابن بُدَيل ، وهاشم بن عتبة ، وغيرهما ممّن ذكرناه في أخبار صِفّين .

وتعاقدوا على المنيّة : جعلوا بينهم عقدا ، وروى « تعاهدوا » .

وأبرِد برءوسهم إلى الفَجَرة : حمِلت رءوسهم مع البريد إلى الفَسقة للبشارة بها ، والفجرة هاهنا : أمراء عسكر الشام ، تقول : قد أبردت إلى الأمير ، فأنا مبرِد ، والرسول بريد ؛ ويقال للفُرانق[1] البريد ، لأنه ينذر قُدام الأسد .

قوله : « أوْهِ على إخواني » ساكنة الواو مكسورة الهاء ، كلمة شكوى وتوجُّع ، وقال الشاعر :

فأوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتُها ... ومِنْ بُعْدِ أرضٍ دونها وسَماء[2]

وربما قلبوا الواو ألفا ، فقالوا : آهِ من كذا ، آه على كذا ؛ وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء ، فقالوا : أوِّهْ من كذا ، وربما حذفوا الهاء مع التّشديد ، وكسروا الواو ، فقالوا : أوِّ من كذا بلا مدّ ، وقديقولون : آوّهْ ، بالمد والتّشديد وفتح الألف وسكون الهاء ؛ لتطويل الصوت بالشكاية ، وربما أدخلوا فيه الياء تارةً يمدّونه ، وتارة لا يمدونه ، فيقولون : «أوياه » و« آوياه »وقد أوّهَ الرجلُ تأويها ، وتأوه تأوُّها ، إذا قال « أوْهِ » ، والاسم منه « الآهة » بالمدّ ، قال المثقّب العبديّ :

إذَا ما قمت أرْحَلُهَا بليلٍ ... تأوّه آهة الرّجُل الحزينِ[3]

---

(١) ذكره صاحب اللسان ؛ واستشهد بقول امرئ القيس :

وإنّي أذينٌ إن رَجَعْتُ مُملّكاً ... بسيرٍ ترى منه الفرانق أزورا

(٢) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

(٣) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

قوله عليه السلام: « ووثِقُوا بالقائد فاتّبعوه »، يعنى نفسه، أى وثقوا بأنى على الحقّ، وتيقّنوا ذلك، فاتّبعونى فى حرب مَنْ حاربت، وسِلْم مَنْ سالمت.

قوله: « الجهادَ الجهادَ »، منصوب بفعل مقدّر.

وإنّى معسكر فى يومى، أى خارج بالعَسْكر إلى منزل يكونُ لهم معسكرا.

***

[ذكر سعد بن عبادة ونسبه]

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُليم[1] الخزرجيّ صحابىّ، يكنى أبا عبد الملك؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث، وكان طُوالاً جدًّا سِبطا شجاعا، جوادا، وأبوه سعد رئيس الخزرج؛ وهو الذى حاولت الأنصارُ إقامته فى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع، وخرج إلى حَوْران، فماتَ بها، قيل: قتلته الجنّ لأنه بال قائمًا فى الصّحراء ليلا، ورَوَوْا بيتين من شعر؛ قيل إنهما سمعا ليلة قتله، ولم يُرَ قائلهما:

نَحْنُ قتلنا سَيِّد الخز ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبادَهْ
ورميناهُ بِسَهْمَيْـــنِ فلم نُخْطِئْ فؤادَهْ

ويقول قوم: إنّ أمير الشام يومئذ كَمَن له مَنْ رماه ليلا، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين فى ذلك:

يقولونَ سعد شكّت الجنُّ قلبَهُ ... ألا ربما صَحّحْتَ دينك بالغَدْرِ
وما ذنبُ سَعْدٍ أنه بال قائمًا ... ولكنّ سعدا لم يبايع أبا بكرِ
وقد صبرَتْ من لذّة العيش أنفسٌ ... وماصبرتْ عن لذّة النّهى والأمر

---

(١) فى الأصول: « دلهم »، وأثبت ما فى الاستيعاب.

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقائلٌ بمحبّته وولائه ، وشهد معه حروبه كلها ، وكان مع الحسن عليه السلام ، ونقم عليه صلحه معاوية ، وكان طالبيّ الرأى ، مخلصاً فى اعتقاده ووده ؛ وأكّد ذلك عنده فوات الأمر أباه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه ، فوجد من ذلك فى نفسه وأضمره ، حتى تمكّن من إظهاره فى خلافة أمير المؤمنين ، وكما قيل : « عدوّ عدوّك صديق لك » .

* * *

[ذكر أبى أيوب الأنصارى ونسبه]

وأما أبو أيوب الأنصاريّ ، فهو خالد بن زيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجيّ ، من بنى النّجار ، شهد العقَبة وبدْراً وسائر المشاهد وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج عن بنى عمرو بن عوف ، حين قدم المدينة مهاجراً من مكّة ، فلم يزل عنده حتى بَنَى مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إليها ، ويوم المؤاخاة آخى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بينه وبين مُصْعَب بن عمير .

وقال أبو عمر فى كتاب " الاستيعاب[1] " : إنّ أبا أيّوب شهد مع علىّ عليه السلام مشاهده كلّها ، وروى ذلك عن الكلبيّ وابن إسحاق ، قالا : شهد معه يوم الجمل وصِفّين ، وكان مقدّمته يوم النّهروان .

* * *

قوله « تختطفها الذئاب » ، الاختطاف : أخذك الشيء بسرعة ، ويروى « تتخطفها » ، قال تعالى : تخافون أنْ ﴿ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ ﴾[2]

ويقال : إن هذه الخطبة آخرُ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً .

(١) الاستيعاب ٦٢٠ .
(٢) سورة الأنفال ٢٦ .

(١٨٤)

الأَصْلُ :

من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ، خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ؛ وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا؛ وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللّهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ، مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

* * *

الشَّرْحُ :

المنصبة، بالفتح والنَّصَب : التعب، والماضى نصِب بالكسرة، وهمّ ناصب فى قول النابغة :

* كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ [(١)] *

ذو نَصَب، مثل رجل تامر ولابن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «مفعول فيه» لأنه يُنْصَب

(١) ديوانه ٢، وبقيته :

* وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ *

فيه ويُتعب ؛ كقولهم : ليل نائم ، أى يُنام فيه ، ويوم عاصف ؛ أى تعصف فيه الريح .

واستعبدت فلانا : اتخذته عبداً . والضرّاء : الشدّة .

ومعتبر[1] : مصدر بمعنى الاعتبار . ومصاحّها : جمع مصحّة « مفعلة » من الصحّة ، كمضارّ جمع مضرّة . وصفَه سبحانه بأنّه معروف بالأدلّة ؛ لا من طريق الرؤية كما تعرف المرئيات ، وبأنّه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منّا فيما يزاوله ويباشر من أفعاله . خلَق الخلائق بقدرته على خَلْقهم ؛ لا بحركة واعتماد[2] . «وأسبغ النِّعمة عليهم»: أوسعها . واستعبد الّذين يُدْعَوْن فى الدّنيا أرباباً بعزّه وقهره .

وساد كلّ عظيم بسَعة جوده ؛ وأسكن الدنيا خلقه ، كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ إنّى جاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] .

وبعثَ رسلَه إلى الجنّ والإنس ؛ كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِـكُمْ رُسُلٌ مِنـكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْـكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[4] .

قال : « ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا » أى عن عوراتهـا وعيوبها المستورة ؛ وليخوّفوهم من مضرّتها وغرورها المفضِى إلى عذاب الأبد .

وليضربوا لهم أمثالها ، كالأمثالِ الواردة فى الكتاب العزيز ، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ... » الآية[5] .

قوله : « وليهجموا عليهم » ؛ هجمتُ على الرّجل : دخلت عليه بَغْتَةً ؛ يقول: ليدخلوا عليهم بما فى تصاريف الدنيا ؛ من الصحّة والسّقَم ، وما أحلّ وما حرّم على طريق الابتلاء.

---

(١) د : « بمعتبر » .
(٢-٢) هذا اللفظ وشرحه لم يرد فى الخطبة .
(٣) سورة البقرة ٣٠ .
(٤) سورة الأنعام ١٣٠ .
(٥) سورة يونس ٢٤ .

ثم قال : « وما أعدّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة » ، يجوز أن تكون «ما» معطوفة على « عيوبها » ، فيكون موضعها نصباً ، ويجوز أن يكون موضعها جرًّا ، ويكون من تتمّة أقسام ما يُعتَبَر به ، والأوّل أحسن .

ثم قال عليه السلام : إني أحمد الله كما استحمد[1] إلى خلقه ، استحمد[1] إليهم فعلَ ما يوجب عليهم حمده .

ثم قال : إنّه سبحانه جعل لكل شيء من أفعاله قَدْراً ، أي فعله مقدّراً محدود الغرض ، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[2] .

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهي إليه وينقطع عنده ؛ وهو الأجَل .

ولكلّ أجل كتابا ، أي رُقوماً تعرفها الملائكة ، فتعلم انقضاء عمر مَنْ ينقضي عمره ، وعَدَم ما ألطافهُم في معرفة عدمه .

***

الأَصْلُ :

منها في ذكر القرآن :

فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ؛ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ،أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ .

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً ، وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزْجُرُ عَنْهُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

(١) ساقط من ب .
(٢) سورة الرعد ٨ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ .

قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى ، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ؛ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ،قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً ،لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ .

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ،وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ ؛فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ[1] إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ ،عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ،وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ .

* * *

الشَّرْحُ

جعل القرآن آمراً وزاجرا، لما كان خالقه ـ وهو الله سبحانه ـ آمراً زاجرا به ، فأسند الأمر والزجر إليه ؛ كما تقول : سيف قاتل ، وإنما القاتل الضارب به ، وجعله صامتا ناطقا ؛ لأنه ـ من حيث هو حروف وأصوات ـ صامت ، إذ كان العرض يستحيل أن يكون ناطقا

(١) ا : « يسأل » .

لأنّ النطق حركة الأداة بالـكلام، والـكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالـكلام بها ؛ وهو من حيث يتضمّن الإخبار والأمر والنهى والنداء وغير ذلك من أقسام الـكلام، كالناطق ، لأنّ الفهم يقع عنده ، وهذا من باب المجاز كما تقول : هذه الربوع الناطقة ، وأخبرتنى الديار بعد رحيلهم بكذا .

ثم وصفه بأنّه حجّة الله على خلقه ، لأنّه المعجزة الأصليّة .

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقَه ، وارتهن عليه أنفسهم ، لمّا كانَ سبحانه قد قرّر فى عقول المـكلّفين أدلّة التوحيد والعدل ، ومن جملة مسائل العدل النبوّة ، ويثبت نبوّة محمد صلى الله عليه وآله عقلا ، كان سبحانه بذلك كالآخذ ميثاقَ المـكلّفين بتصديق دعوته ، وقبول القرآن الّذى جاء ، وجعل به نفسهم رَهْناً على الوفاء بذلك ، فمن خالف خَسِرَ نفسَه ، وهلك هلاك الأبَد .

هـذا تفسير المحققين ، ومن الناس منْ يقول : المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام ، كما ورد فى الأخبار ، وكما فسّر قوم عليه الآية .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى قَبَض رسوله صلى الله عليه وآله ؛ وقد فرَغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام ، ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1]، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه .

قال : فعظّموا من الله ماعظّم من نفسه ؛ لأنّه سبحانه وصفَ نفسه بالعظمة والجلال فى أكثر القرآن ؛ فالواجب علينا أن نعظّمه على حَسَبِ ماعظّم نفسه سبحانه .

ثم علّل وجوبَ تعظيمه ، وحَسّنَ أمرَه لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخْفِ عنا شيئاً من أمر ديننا ، وذلك لأنّ الشرعيّات مصالح المـكلّفين ، وإذا فعل الحـكيم سبحانه بنا

---

(١) سورة المائدة ٣ .

مافيه صلاحُنا ،فقد أحسنَ إلينا ، ومن جملةصلاحِنا تعريفُنا من الشرعيّات ما فِعله لطفٌ ومفضٍ بنا إلى الثواب ، وهـذا أبلغ مايـكون من الإحسان ، والمحسِنُ يجب تعظيمه وشـكره .

قال : لم يترك شيئا إلّا وجعل له نصًّا ظاهرا يدلّ عليه ، أو عَلَمًا يستدَلّ به عليه،أى إمّا منصوص عليه صريحا ، أو يمكن أن يستنبَط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصليّة ، وحكم العقل .

قوله : « فرضاه فيما بقىَ واحد » معناه أنّ مالم ينصّ عليه صريحًا ، بل هو فى محلّ النّظر ، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه ، فيحلّه بعضُهم ، ويحرّمه بعضهم ؛ بل رضا الله سبحانهأمرٌ واحد ،وكذلك سَخَطه ،فليس يجوزأن يكونَ شىءمن الأشياءيفتِى فيهقوم بالحلّ وقوم بالحرْمة ، وهذا قولٌ منهعليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الـكلام مرارا .

قوله :« واعلموا أنه ليس يرضى عنكم ... »،الـكلام إلى منتهاه،معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف فى الفتاوَى والأحكام ، كما اختلف الأمم من قبلـكم ، فسَخِط اختلافَهم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾(١) .

وكذلك ليس يسخَطُ عليـكم بالاتفاق والاجتماع الّذى رضيَه ممّن كان قبلـكم من القرون .

ويجوز أن يفسّر هذا الـكلام بأنّه لايرضى عنكم بما سَخِطه على الّذِين من قبلـكم من الاعتقادات الفاسدة فى التوحيد والعدل،ولا يسخط عليـكم بماتعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التى رضيَها مِمّن كان قبلـكم فى التّوحيد والعدل ،فيـكون الـكلام مصروفًاإلى الأصول لاإلى الفروع .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

قال : « وإنما تسيرون فى أثر بَيّن » ؛ أى أنّ الأدلّة واضحة ، وليس مراده الأمرَ بالتقليد ، وكذلك قوله « وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم » ، يعنى كلمةَ التوحيد « لا إله إلا الله » ، قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملّة ، لا تقليداً ، بل بالنّظر والدليل ، فقولوها أنتم كذلك !

ثم ذكر أنه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم ؛ قال الحسن البصرىّ : إن الله تعالى كفانا مؤونة دُنيانا ، وحثّنا على القيام بوظائف ديننا ، فليتَه كفانا مؤونة ديننا ، وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا .

قوله : « وافترض من ألسنتكم الذِّكْر » ؛ افترض عليكم أنْ تذكُروه وتشكُروه بألسنتكم ، و« من » متعلّقة بمحذوف دلّ عليه المصدر المتأخّر ؛ تقديره : « وافترض عليكم الذِّكْر من ألسنتكم الذكر » .

ثم ذكر أنّ التقوى المفترَضة هى رضَا الله وحاجته من خَلْقه ، لفظة « حاجته » مجاز ، لأنّ الله تعالى غنىٌّ غير محتاج ؛ ولكنه لما بالغ فى الحثّ والحضّ عليها ، وتوعدّ على تركها جعله كالمحتاج إلى الشىء ، ووجهُ المشاركة أنّ المحتاج يحثّ ويحضّ على حاجته ، وكذلك الآمر المكلّف إذا أكّد الأمر .

قوله : « أنتم بعينه » ؛ أى يعلم أحوالكم ، ونواصيكم بيده ؛ الناصيَة : مقدّم شعر الرأس ؛ أى هو قادر عليكم قاهرٌ لكم ، متمكّن من التصرّف فيكم ، كالإنسان القابض على ناصية غيره .

وتقلّبكم فى قبضته ، أى تصرّفكم تحت حكمه ، لو شاء أن يمنعكم منعكم ؛ فهو كالشىء فى قَبْضَة الإنسان ؛ إن شاء استدام القبض عليه ، وإنْ شاء تركه .

ثم قال : إن أسررتُم أمراً علمه ، وأن أظهرتموه كتَبَه ، ليس على أنّ الكِتَابة غيرُ العلم ، بل هما شىء واحد ؛ ولكنّ اللفظ مختلِف .

ثم ذكر أنّ الملائكة موكّلة بالمكلّف؛ وهذا هو نصّ الكتاب العزيز؛ وقد تقدّم القول في ذلك .

ثم انتقل إلى ذكر الجنّة؛ والكلام يدلّ على أنّها في السماء، وأنّ العرش فوقها .

ومعنى قوله : « اصطنعها لنفسه » إعظامُها وإجلالُها، كما قال لموسى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[١]؛ ولأنه لما تعارفَ النّاس في تعظيم ما يصنعونه؛ أن يقولَ الواحدُ منهم لصاحبه : قد وهبتك هذه الدّار التي اصطنعتُها لنفسي؛ أي أحكمتها، ولم أكن في بنائها متكلّفًا بأن أنبها لغيري، صحّ وحَسُن من البليغ الفصيح أن يستعيرَ مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه؛ وإنّما هو عظيم جليل عنده .

قوله : « ونورها بهجته » ؛ هذا أيضا مستعار، كأنّه لما كان إشراقُ نورها عظيما جدًّا نسبه إلى بهجة البارئ، وليس هناك بهجة على الحقيقة؛ لأنّ البهجة حسن الخلقة؛ قال تعالى : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢]؛ أي من كلّ صنف حسن .

قوله : « وَزُوّارُها ملائكتُه » قد ورد في هذا من الأخبار كثير جدًّا، ورفقاؤها: رسلُه، من قوله تعالى : ﴿وحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٣] .

ويوشِك، بكسر الشين، فعلٌ مستقبَل، ماضيه « أوشك » ؛ أي أسرع .

ورهِقَه الأمر بالكسر : فاجأه .

ويُسَدّ عنهم باب التوبة، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفا فقط؛ لا لقبح القبيح، قال تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[٤] .

---

(١) سورة طه ٤٩ .
(٢) سورة ق ٧ .
(٣) سورة النساء ٦٩ .
(٤) سورة النساء ١٨ .

وإنما قال : فى مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

وبنو سبيل : أرباب طريق مسافرون .

وأوذِنَ فلان بكذا : أُعلِم . وآذنته : أعلمته .

وقد تقدّم لنا كلام بالغ فى التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها .

* * *

[نبذ وأقاويل فى التقوى]

روى المبرّد فى الكامل أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب : اتقِ الله يا أمير المؤمنين ، فقال له رجل : أتألِتُ على أمير المؤمنين ! أى أتنتقِصه (٢) ! ، فقال عمر : دَعْهُ ، فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولُوها ، ولا خيرَ فينا إذا لم تُقَلْ لنا .

وكتب أبو العتاهية إلى سَهْل بن صالح (٣) — وكان مقيما بمكّة : أمّا بعد ، فأنا أوصيك بتقوى الله الذى لا غناء بك عن تقاته ، وأتقدّم إليك عن الله ، وأذكّرك مكرَ الله فيما دبّتْ به إليك ساعات الليل والنهار ، فلا تخدَعَنّ عن دينك ، فإنّ ساعاتك أوقاتك إن ظفرت بذلك منك ، وجدتَ الله فيك أسرعَ مكرا ، وأنفذ فيك أمرا ، ووجدت ما مكرت به فى غير ذات الله غير رادٍّ عنك يدَ الله ، ولا مانع لك من أمر الله ؛ ولعمرى لقد ملأت عينك الفكر واضطربت فى سمعك أصوات العبَر ؛ ورأيت آثار نِعَم الله نسختْها آثارُ نِقَمِه حين استهزِئ بأمره ؛ وجُوهِر بمعاندته . ألا إنّ فى حُكْم الله

(١) سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ . (٢) وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٣٨ .

(٣) د : « صاعد » .

أنه مَنْ أكرمه الله ، فاستهان بأمره ، أهانه الله . السَّعيد مَنْ وُعِظ بغيره ، لا وعظك الله في نفسك ! وجعل عظتك في غيرك ، ولا جعل الدُّنيا عليك حسرة وندامة ، برحمته !

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا كرمَ كالتقوى ، ولا مال أعودَ من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عقل كالتدبير ، ولا قرين كحسْنِ الخُلق ، ولا ميراثَ كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارةَ كالعمل الصالح ولا ربحَ كثواب الله ، ولا وَرَع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزّهد في الحرام ، ولا عِلْم كالتفكّر ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا إيمان كالحياء والصبر ، ولا حَسَب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مظاهرة أوفق من المشورة ؛ فاحفظ الرّأس وما حوَى ، والبطن وما وعَى ، واذكر الموت وطولَ البِلى » .

***

الأصلُ :

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهٰذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ؛ فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ . فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ؛ ضَجِيعَ حَجَرٍ ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ !

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ .

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ ؛ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ !

فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ ،وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا .

أسْهِرُوا عُيُونَكُمْ ، وَأضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أقْدَامَكُمْ ، وَأنْفِقُوا أمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدَامَكُمْ ﴾ (١) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أرَادَ أنْ يَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً .

فَبَادِرُوا بِأعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ، وَأكْرَمَ أسْمَاعَهُمْ أنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أبَداً ، وَصَانَ أجْسَادَهُمْ أنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) .

أقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأنْفُسِكُمْ ؛ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

* * *

الشرح :

الرَّمضاء : الأرض الشديدة الحرارة ، والرَّمَض ، بالتحريك : شدّة وقع الشمس على الرّمل وغيره ، وقد رَمِضَ يومُنا بالكسر ، يرمِض رَمَضاً ؛ اشتدّ حرُّه ، وأرض رَمِضَةُ الحجارة ، ورمِضَتْ قدمُه من الرَّمْضاء : احترقت .

---

(١) سورة محمد ٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٥

(٣) سورة الحديد ٢١ .

والطابَق ، بالفتح : الآجرّة الكبيرة ؛ وهو فارسى معرب .

وضجيع حجَر : يومئ فيه إلى قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[١]، قيل: إنها حجارة الكبريت .

وقرين شيطان : يومئ فيه إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾[٢] .

وحطَم بعضُها بعضاً : كسره أو أكله، والحُطَمة من أسماء النار ؛ لأنها تحطِم ماتلقى، ومنه سُمّىَ الرّجلُ الكثير الأكل : حُطَمة .

واليفَن : الشيخ الكبير . ولهزه : خالطه ، ويقال له حينئذ : مَلْهوز ، ثم أشمط ، ثم أشيب . ولهزتُ القوم : خالطتهم ودخلت بينهم .

والقتير : الشَّيب ؛ وأصله رءوس المسامير فى الدُّرُوع تسمّى قتيرا .

والتحمت أطواق النار بالعظام : التفّتْ عليها ، وانضمّت إليها ، والتصقت بها .

والجوامع : جمع جامعة ، وهى الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

ونَشِبت : علقَتْ . والسواعد : جمع ساعد ، وهو الذراع .

و «فى» من قوله : «فى الصحة قبل السُّقْم» ، متعلقة بالمحذوف الناصب لله، وهو اتقوا، أى اتقوه سبحانه فى زمان صحتكم ، قبل أن ينزِل بكم السّقَم ، وفى فسحة أعماركم قبل أن تبدّل بالضِّيق .

وفَكاك الرّقاب : بفتح الفاء : عتقها قبل أن تغلَق رهائنها ، يقال غَلِقَ الرهن، بالكسر ؛ إذا استحقّه المرتهن بألّا يفُكّه الراهن فى الوقت المشروط ، وكان ذلك من شرع الجاهليّة ، فنهى عنه النبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال : لايغلَق الرهن .

---

(١) سورة البقرة ٢٤ .

(٢) سورة ق ٢٣ .

وخذوا من أجسادكم ، أى أنعبوها بالعبادة حتى تنحل .

والفلّ : القلة . والذل : الذلة .

وحسيس النار : صوتها . واللغوب : النَّصَب .

***

[طرف وأخبار]

ونظير قوله عليه السلام : « استقرضكم وله خزائن السموات والأرض » ، ما رواه المبرد فى " الكامل " عن أبى عثمان المازنىّ ، عن أبى زيد الأنصارىّ ، قال : وقف علينا أعرابىّ فى حلقة يونس [النحوىّ] (١) ، فقال : الحمدُ لله كما هو أهله ، وأعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه ، خرجنا من المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ، ثلاثين رجُلاً ممّن أخرجته الحاجة ، وحُمِل على المكروه ، ولا يمرِّضون مرضاهم (٢) ، ولا يدفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه ؛ والله يا قوم لقد جُعْتُ حتى أكلْتُ النّوى المحرق ، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم ، وحتى خرج من قدمى بَخَص (٣) ولحم كثير ، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ (٤) طريق ، ونِضْوَ سَفَر ! فإنّه لاقليل من الأجر ، ولا غَنَى عن [ثواب] (٥) الله ، ولا عمل بعد الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِى

---

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « مريضهم » .

(٣) قال أبو العباس المبرد : قوله : « بخص » ؛ يريد اللحم الذى يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعى . وقال غيره : هو لحم يخالطه بياض من فساد يحل فيه . ويقال : بخصت عينه – بالصاد – ولا يجوز إلا ذلك ويقال : بخسته حقه ؛ بالسين : إذا ظلمته ونقصته ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ وفى المثل : تحسبها حمقاء وهى باخس .

(٤) قال أبو العباس : الفل فى أكثر كلامهم المنهزم الذاهب ؛ وفى خبر كعب بن معدان الأشقرى : « إنا آثرنا الحد على الفل » .

(٥) من الكامل .

يقرِضُ اللهَ قرْضاً حسَناً ﴾[(١)] ؛ مَلِيٌّ وفيٌّ ماجد واجد ، [جواد][(١)] لا يستقرض من عوَزٍ[(٢)] ؛ ولكنه يبلو[(٣)] الأخيار[(٤)] .

قال المازنيّ : فبلغني أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا .

ومن كلام على بن عبيدة الريحانيّ : الأيام مستودَعات الأعمال ، ونعمْ الأرضون هى لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح !

وخطب الحجّاج ، فقال : أيّها الناس ، إنّكم أغراضُ حِمام وفُرَص هَلَكة . قد أنذركم القرآن ، ونادى برحيلكم الجديدان ! ها إنّ لكم موعداً لا تؤخّر ساعتُه ، ولا تدْفَع هجمتُه ، وكأنْ قد دلَفَت إليكم نازلتُه ، فتعلّق بكم رَيْبُ المَنُون ، وعلقَتْ بكم أمّ اللُّهَيم الحيزبون ؛ فماذا هَيَّأتُمْ للرّحيل ؟ وماذا أعددتم للنّزيل ؟ مَنْ لَمْ يأخذ أهبة الحذَر ، نزل به مرهوب القدَر !

* * *

[خطبة لأبى الشخباء العسقلانىّ]

قلت : وقد شُغِف الناس فى المواعظ بكلام كاتب محدث ؛ يعرف بابن أبى الشخباء

---

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٢) قال أبو العباس : « لا يستقرض من عوز » ؛ فالعوز تعذر المطلوب ؛ يقال : أعوز فلان ؛ فهو معوز ؛ إذا لم يجد .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « ولكن ليبلو الأخيار » ؛ يقال : الله يبلوهم ويبتليهم ويختبرهم فى معنى وتأويله يمتحنهم ؛ وهو العالم عز وجل بما يكون ؛ كعلمه بما كان ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ٤٥١ ــ ٤٥٥ .

العسقلانىّ وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه ، هى أحسن ماوجدتُه له ، ليعلَم الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد :

أيها النّاس ، فُكّوا أنفسكم من حَلَقات الآمال المتعبة، وخفّفوا ظهوركم من الآصار المستحقبة ، ولا تسيمُوا أطماعكم فى رياض الأمانى المتشعّبة ، ولا تُميلوا صَغْوَا كُم إلى زبارج الدنيا المحبّبة ، فتظلّ أجسامكم فى هشائمها عاملة نَصِبَة ! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركّبة ، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة ، ولِمَا ساءهم منتظرة مرتقبة ، فى هَبّتها راجمة متعقّبة! فانضوا رَحِمكم الله ركائبَ الاعتبار مشرّقة ومغرّبة ، وأجْرُوا خيول التفكّر مصعّدة ومصوّبة ؛ هل تجدون إلا قصورا على عروشها خرِبة ، وديارا معطشة من أهلها مجدبة ! أين الأمم السّالفة المتشعّبة ، والجبابرة الماضية المتغلّبة ، والملوك المعظمة المرجّبة، أولو الحفَدَة والحجبة ، والزّخارف المعجبة ، والجيوش الحرّارة اللّجِبة والخيام الفضفاضة المطنّبة ، والجياد الأعوجيّة المجنّبة، والمصاعب الشدقميّة المُصْحَبة ، واللّدان المثقّفة المدرّبة ،والماذيّة الحصينة المنتخبة ،طرقت والله خيامهم غير منتهبة ، وأزارتهم من الأسقام سيوفا مُغْطبة، وسيّرت إليهم الأيامُ من نُوَبها كتائب مكتّبة ، فأصبحت أظفار المنية من مُهَجهم قانية مختضِبة ، وغدت أصوات النادبات عليهم مجلِبة ، وأكلت لحومَهم هوامّ الأرض السّغِبة . ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذرٌ ولا معتبة ، وتجازَى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة ، فسعيدة مقرّبة تجرى من تحتها الأنهار مثوّبة ، وشقية معذّبة فى النار مكبكبة .

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب . وهى كما تراها ظاهرة التكلّف ، بيّنه التوليد، تخطب على نفسها ، وإنّما ذكرتُ هذا ، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من "نهج البلاغة" كلام محدَث ، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة ، وربما عزَوْا بعضه إلى الرضىّ أبى الحسن وغيره ،وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح

وركبوا بُنَيّات[1] الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام ، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما فى هذا الخاطر من الغلط فأقول :

* * *

[رأى المؤلف فى كتاب نهج البلاغة]

لا يخلو إما أن يكون كلّ " نهج البلاغة " مصنوعا منحولاً ، أو بعضه . والأوّل باطل بالضّرورة لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون كلُّهم أو جلّهم ، والمؤرّخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسبُوا إلى غرض فى ذلك . والثانى يدلّ على ما قلناه ؛ لأن مَنْ قد أنِسَ بالكلام والخطَابة ، وشدَا طرَفاً من علم البيان ، وصار له ذوقٌ فى هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد ، وإذا وقَف على كرّاس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط ؛ فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين ، ويميّز بين الطريقتين . ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ، لو تصفّحنا ديوان ابى تمام ؛ فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفنا بالذّوق مبايَنَتها لشعر أبى تمام وَنَفَسه ، وطريقته ومذهبه فى القريض ، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ؛ لمباينتها لمذهبه فى الشعر ، وكذلك حَذَفُوا من شِعْر أبى نُوَاس شيئا كثيرا ؛ لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ، ولا من شعره ، وكذلك غيرُهما من الشعراء ، ولم يعتمدوا فى ذلك إلا عَلَى الذّوْق خاصة .

وأنت إذا تأملت " نهج البلاغة " وجدته كلّه ماء واحداً ، ونَفَساً واحدا ، وأسلوباً واحدا ، كالجسم البَسيط الذى ليس بعضٌ من أبعاضه مخالِفاً لباقى الأبعاض فى الماهيّة ، وكالقرآن العزيز ، أوّله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى

---

(١) يقال : ركب بنيات الطريق ، أى ضل ؛ وأصل البنيات : الطرق الصغار ، ثم أطلقت على الترهات .

للأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقِي الآيات والسُّور ؛ ولو كان بعض '' نهج البلاغة '' منحولاً وبعضه صحيحا، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلالُ مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه مالا قِبَلَ له به ، لأنّا متى فتَحْنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النّحْو ، لم نثِقْ بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعنٍ أن يطعن ويقول : هذا الخبر منحول؛ وهذا الكلام مصنوع، وكذلك مانقِل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخُطب والمواعظ والأدب وغير ذلك ، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستندا له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وآله ، والأئمة الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والشعراء والمترسّلين ، والخطباء ؛ فلناصِرِى أميرِ المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من '' نهج البلاغة '' وغيره ،وهذا واضح .

(١٨٥)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله للبُرج بن مُسْهِرِ الطائىّ ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لاحكمَ إلا الله » ، وكان من الخوارج :

اسْكُتْ قَبَحَكَ[1] اللهُ يا أَثْرَمُ ! فوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ ، نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

* * *

الشَّرْحُ :

البرج بن مُسْهِر — بضم الميم وكسر الهاء — بن الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندَب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طيّ بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . شاعر مشهور من شعراء الخوارج ، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام ، فزجره .

وقَبَحك الله ؛ لفظة معناها كَسَرك ، يقال : قبحْتُ الجوْزة ، أى كسرتها ، وقيل : قبّحه : نحّاه عن الخير . وكان البرجُ ساقطَ الثنيّة ، فأهانه بأن دعاه به ، كما يُهان الأعور بأن يقال له : يا أعور .

والضئيل : الدقيق الحقير ، ضَؤُل الرجل ، بالضمّ ضآلة : نَحُفَ ، وضَؤُل رأيه : صَغُر ، ورجل متضائل ، أى شَخْت ، وكذلك : « ضُؤَلَة » .

---

(١) مخطوطة النهج : « قبحك » بالتشديد .

ونَمر الباطل : صاح ، والمراد أهلُ الباطل ، ونَمَر فلان فى الفتنة : نهض فيها .

ونجَم : طلع ، أى طلع بلا شرف ولا شجاعةٍ ولا قدم ، بل على غفلة ، كما ينبت قرن الماعز . وهذا من باب البديع ؛ وهو أنْ يشبّه الأمر يراد إهانته بالمهين ، ويشبّه الأمر يراد إعظامه بالعظيم ، ولو كان قد تكلّم فى شأن ناجمٍ يريد تعظيمه ، لقال : نجم نجوم الكوكب من تحت الغَمام ، نجومَ نَوْر الربيع من الأكمام ، ونحو ذلك .

(١٨٦)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِى أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّامٌ ، كان رجلاً عابداً ، فقال له: يا أمير المؤمنين : صف لى المُتّقين حتى كأنّى أنظر إليهم ، فتثاقلَ عليه السلام عن جوابِهِ، ثم قال: يا همّامُ اتقِ اللهَ وأحسن: فـ﴿إنّ اللهَ معَ الّذين اتّقَوْا والّذين هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[1].

فلم يقنعْ همّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام :

أمّا بعدُ؛ فإنّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى خلقَ الخلقَ ـ حيثُ خلقَهُمْ ـ غنيّاً عنْ طاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ معْصِيَتِهِمْ ؛ لأنّهُ لا تضرُّهُ معْصِيَةُ مَنْ عصاهُ ، ولا تنفعُهُ طاعَةُ مَنْ أطاعَهُ، فقسمَ بيْنهُمْ معايِشَهُمْ ، ووضعَهُمْ مِنَ الدُّنيا مواضِعَهُمْ ، فالمُتّقونَ فِيها هُمْ أهْلُ الفضائِلِ ، منطِقُهُمُ الصّوابُ ، وملبَسُهُمُ الاقتِصادُ ، ومَشْيُهُمُ التّواضُعُ .

غضّوا أبصارَهُمْ عمّا حرّمَ اللهُ عليْهِمْ ، ووقفوا أسماعَهُمْ على العِلْمِ النّافِعِ لهُمْ . نزلَتْ أنفُسُهُمْ مِنهُمْ فِي البلاءِ ، كالّذِى نزلَتْ فِي الرّخاءِ ، لوْلا الأجلُ الّذِى كتبَ اللهُ لهُمْ لمْ تستقِرّ أرْواحهُمْ فِي أجْسادِهِمْ طرْفةَ عيْنٍ ، شوْقاً إلى الثّوابِ ، وخوْفاً مِنَ العِقابِ .

---

(١) سورة النحل ١٢٨ .

عَظُمَ الخالقُ في أنفسهم فصغُرَ ما دونَه في أعيُنِهم، فهُم والجنّةُ كمن قد رآها، فهُم فيها منعَّمون، وهُم والنارُ كمن قد رآها، فهُم فيها معذَّبون. قلوبُهم محزونة، وشرورُهم مأمونة، وأجسادُهم نحيفة، وحاجاتُهم خفيفة، وأنفسُهم عفيفة.

صبَروا أيّاماً قصيرة، أعقبَتْهم راحةً طويلة. تجارةٌ مُربِحة، يسّرها لهم ربُّهم. أرادَتْهم الدنيا فلم يُريدوها، وأسرَتْهم ففدَوا أنفُسَهم منها.

أمّا الليلَ فصافّون أقدامَهم، تالينَ لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً؛ يحزِّنون به أنفسَهم، ويستثيرون به دواءَ دائِهم؛ فإذا مرّوا بآيةٍ فيها تشويقٌ ركَنوا إليها طمَعاً، وتطلّعتْ نفوسُهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نُصبَ أعيُنِهم؛ وإذا مرّوا بآيةٍ فيها تخويفٌ، أصغَوا إليها مسامعَ قلوبِهم، وظنّوا أنّ زفيرَ جهنّمَ وشهيقَها في أصولِ آذانِهم، فهُم حانونَ على أوساطِهم، مفترِشونَ لجباهِهم وأكفِّهم وركَبِهم، وأطرافِ أقدامِهم، يطلُبون إلى الله تعالى في فكاكِ رقابِهم.

وأمّا النهارَ فحُلَماءُ علَماءُ، أبرارٌ أتقياءُ، قد براهُم الخوفُ بريَ القِداح، ينظُرُ إليهم الناظرُ فيحسَبُهم مرضى، وما بالقومِ من مرضٍ، ويقولُ: لقد خُولِطوا؛ ولقد خالَطَهم أمرٌ عظيمٌ؛ لا يرضَوْن من أعمالِهم القليلَ، ولا يستكثِرون الكثيرَ، فهُم لأنفُسِهم متَّهِمون، ومن أعمالِهم مُشفِقون؛ إذا زُكّيَ أحدٌ منهم خافَ ممّا يُقالُ له فيقولُ: أنا أعلمُ بنفسي من غيري، وربّي أعلمُ بي منّي بنفسي!

اللّهمّ لا تؤاخِذْني بما يقولون، واجعلْني أفضلَ ممّا يظنّون، واغفرْ لي ما لا يعلمون!

* * *

الشرح :

همّام المذكور فى هـذه الخطبة : هو همّام بن شُريح بن يَزِيد بن مرّة بن عمرو بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن كَعْب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذُهْل بن مُرّان بن صيفىّ بن سعدالعشيرة .

وكان همّام هـذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه ، وكان ناسكاً عابدا ، قال له : ياأميرَ المؤمنين ، صِفْ لى المتّقين حتى أصيرَ بوصفك إيّاهم ، كالنّاظر إليهم .

فتثاقل عن جوابه ، أى أبطأ .

فعزم عليه ، أىأقسم عليه ، وتقول لمن يكرّر عليكَ الطّلب والسّؤال : قد عزم علىّ ، أى أصرّ وقطع ، وكذلك تقول فى الأمر تُريد فعلَه وتَقْطَع عليه : عزمت عَزْماً وعَزَماناً وعَزِيمة وعزيماً .

فإن قلت : كيف جازَ له عليه السّلام أن يتثاقَل عن جواب المسترشِد ؟

قلت : يجوز أن يكون تثاقل عن جوابه ؛ لأنه علم أنّ المصلحة فى تأخير الجواب ، ولعلّه كان حضر المجلس مَنْ لايحِبّ أن يجيبَ وهو حاضر ، فلمّا انصرف أجاب ، ولعلّه رأى أنّ تثاقلَه عن الجواب يشدّ تشوّقَ همّام إلى سماعه ، فيكون أنجعَ فى موعظته ، ولعلّه كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة ؛ لامن باب تأخير البيان عَنْ وقت الحاجة ، ولعلّه تثاقَل عن الجواب ليرتّب المعانىَ الّتى خطرت له فى ألفاظ مناسبة لها ، ثم ينطق بها كما يفعلُه المترّوِى فى الخطبة والقريض

فإن قلت : فما معنى إجابته له أولا بقوله : ياهمّام ، اتقِ اللهَ وَأَحْسِنْ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ؟ وأىّ جواب فى هذا عن سؤال همام ؟

قلت : كأنّه لم ير فى بادئ الحال شرح صفات المتقين على التفصيل ، فقال لهمام : ماهيّة التقوى معلومة فى الجملة ، فاتق الله وأحسن ؛ فإنّ الله قد وَعَد فى كتابه أن يكون وليّاً وناصرا لأهل التقوى والإحسان ، وهذا كما يقول لك قائل : ما صفاتُ الله الذى أعْبُده أنا والناس ؟ فتقول له : لا عَلَيْك ألّا تعرف صفاته مُفَصّلة ، بعد أن تعلَم أنه خالق العالم ، وأنّه واحدٌ لا شريك له ! فلما أبى همّام إلّا الخوض فيما سأله على وجه التّفصيل ، قال له : إنّ الله تعالى خَلَق الخلق حين خلقهم ، ويروى : « حيث خلقهم » وهو غَنِيٌّ عن طاعتهم؛ لأنّه ليس بجسم فيستضرّ بأمر أو ينتفع به .

وقَسَم بين الخلق معايشهم ، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

وفى قوله : « وضعهم مواضعهم » معنى قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ (١) ، فكأنّه عليه السلام أخذ الألفاظ ، فألفاها وأتى بمعناها .

فلما فرغ من هذه المقدّمة شَرَع فى ذكر صفات المتقين ، فقال : إنهم أهلُ الفضائل . ثم بَيّن ماهذه الفضائل ، فقال : « منطقهم الصواب » .

فإن قلت : أىّ فائدة فى تقديم تلك المقدّمة ، وهى كون البارئ سبحانه غنياً لا تضرّه المعصية ، ولا تنفعه الطاعة !

قلت : لأنّه لما تضمّنت الخطبة مدحَ الله تعالى المتقين وما أعدّه لهم من الثواب ، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم ، فربّما يتوهم متوهّم أنّ الله تعالى مارغّب فى الطّاعة

---

(١) سورة الزخرف ٣٢ .

هذا الترغيب البالغ ، وخوّف من المعصية هذا التخويف البالغ ، إلّا وهو منتفع بالأولَى ، مستغنٍ بالثانية ، فقدّم عليه السلام تلك المقدّمة نفياً لهذا الوهم .

* * *

[فصل فى فضل الصمت والاقتصاد فى المنطق]

واعلم أنّ القول فى خَطَر الكلام وفضْل الصّمت وفضْل الاقتصار فى المنطق وسيعٌ جدًّا ، وقد ذكرنا منه طرَفاً فيما تقدّم ، ونذكر الآن منه طرفاً آخر .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ صَمَت نجا » .

وقال أيضاً : « الصمت حُكْم وقليل فاعله » .

وقال له صلى الله عليه وآله بعضُ أصحابه : أخبرنى عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحداً بعدك ، فقال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قال : فما أتّقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال له عليه السلام عُقْبة بن عامر : يارسولَ الله ، ما النّجاة ؟ قال : « املِكْ عليكَ لسانك [1] ، وابكِ على خطيئتك ؛ وليسعْك بيتُك » .

وَرَوَى سهل بن سعد الساعديّ ، عنه صلى الله عليه وآله : « من يتوكّلْ لى بما بين لَحْيَيْه ورِجْلَيه أتوكّل له بالجنّة » .

وقال : « مَنْ وُقِيَ شرَّ قبقبِه [2] وَذَبذَبِهِ [3] ولقلقِه [4] فقدْ وُقِيَ » .

وروى سَعِيد بن جُبَير مرفوعا: « إذا أصبح ابنُ آدم أصبحتِ الأعضاء كلّها تشكو

---

(١) املك عليك لسانك ؛ أى لا تحركه إلا بما يكون لك لا عليك .

(٢) القبقب : البطن ؛ من القبقبة ؛ وهى صوت يسمع من البطن فكأنها حكاية ذلك الصوت . النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٢٥ .

(٣) ذبذبه ، أى ذكره . وانظر النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٣ .

(٤) اللقلق : اللسان . النهاية لابن الأثير ٤ : ٦٤ ؛ قال : ومنه حديث عمر : ما لم يكن نقع ولا لقلقة » ؛ أراد الصياح والجلبة عند الموت ؛ وكأنها حكاية الأصوات الكثيرة .

اللّسان ، تقول : أى بنى آدم ، اتق الله فينا ؛ فإنّك إن استَقَمْتَ استقمنا ، وإن اعوجَجْتَ اعوججْنا » .

وقد رُوِى أنّ عمر رأى أبا بكر وهو يمدّ لسانه ، فقال : ماتصنع ؟ قال : هذا الّذى أوردنى الموارِدَ ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « ليس شىء فى الجسد إلّا يشكو إلى الله تعالى اللّسان عَلَى حِدّته » .

وسُمِعَ ابنُ مسعودٍ يُلَبِّى عَلَى الصَّفَا ، ويقول : يالسانُ ، قلْ خيراً تَغْنَمْ ، أواصمت تَسْلَمْ من قبل أن تندَم . فقيل له : يا أبا عبدِ الرّحمن ، أهذا شىء سمعتَه ، أم تقوله مِنْ تلقاءِ نَفْسِك ؟ قال : بل سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « أكثر خطايا ابنِ آدم من لسانه » .

وروى الحسن مرفوعا : « رحم الله عبداً تكلّم فغنِم ، أوسكت فسَلِم » .

وقالت التلامذةُ لعيسى عليه السلام : دلّنا على عملٍ ندخل به الجنة ، قال : لاتنطقوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال . فلا تنطقوا إلّا بخير .

وقال النبىّ صلّى الله عليـه وآله : « إنّ الله عند لسان كلّ قائل ، فاتّقى الله امرؤ علم ما يقول » .

وكان يقول : لاشىء أحقُّ بطولِ سجنٍ من لسان .

وكان يقال : لسانك سَبُع ، إن أطلقتَه أكلك .

فى حكمة آل داود : حقيقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظا للسانه ، مقبلا على شانه .

وكان يقال : مَنْ عَلِم أنّ كلامَه من عمله ، أقلّ كلامَه فيما لاينفعه .

وقال محمد بن واسع : حفظُ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدينار والدرهم .

اجتمع أربعةُ حكماء : من الرّوم ، والفرس ، والهند ، والصين ، فقال أحدهم : أنا أندمُ على ماقلتُ ولا أندم على مالم أقل : وقال الآخر : إذا تكلّمتُ بالكلمة ملكتنى، ولم أملِكها ، وإذا لم أتكلّم ملكتُها ولم تملِكنى . وقال الآخر : عجبتُ للمتكلّم ؛ إن رجعتْ عليه كلمته ضرّته ، وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرّابع : أنا على ردّ مالم أقل أقدَرُ منى على ردّ ماقلت .

* * *

[ذكر الآثار الواردة فى آفات اللسان]

واعلم أنّ آفاتِ اللّسان كثيرة :

فمنها الكلام فيما لايعنيك ؛ وهو أهوَنُ آفاتِ اللّسان ، ومع ذلك فهو عَيبٌ ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مِنْ حُسْن إسلام المرء تركُه مالا يعنيه » .

وروى أنّه عليه السلام مَرّ بشهيد يوم أُحُد ، فقال أصحابه : هنيئا له الجنّة ! قال : وما يدريكم لعلّه كانَ يتكلّم فيما لايعنيه !

وقال ابنُ عباس : خمسٌ هى أحسنُ وأنفعُ من حُمْرِ النَّعم :لاتتكلّمْ فيمالايعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوِزْر . ولا تتكلّم فيما يعنيك حتى تجدَ له موضعا، فربّ متكلّم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فأساء . ولا تُمارِ حليما ولاسفيها ،فإنّ الحليم يَقليكَ، والسفيه يُؤذيك . واذكر أخاك إذا تغيّب عنك بماتحبّ أن يذكرك به ، وأعفه عمّاتحب أن يُعفيَك عنه . واعمل عمل رجلٍ يرَى أنّه مجازًى بالإحسان ، مأخوذ بالجرائم .

* * *

ومنها فضولُ الكلام وكثرته ، وتركُ الاقتصار؛ وكان يقال :فضول المنطق وزيادته نَقْص فى العقل ، وهما ضدّان متنافيان ، كلّما زاد أحدُهما نقص الآخر .

وقال عبدُالله بن مسعود : إيّاكُمْ وفضول الكلام ؛ حَسْبُ امرئٍ مابلغ به حاجتَه.

وكان يقال : مَنْ كثر كلامُه كثر سقطُه .

وقال الحسن : فضولُ الكلام كفضول المال ، كلاهما مهلِك .

* * *

ومنها الخوض فى الباطل ، والحديث فيما لايحلّ ، كحديث النِّساء ومجالس الخمر . ومقامات الفُسّاق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ (١) .

* * *

ومنها المِراء (٢) والجدال ، قال عليه السلام : « دَع المِراء وإن كنت محقًّا » .

وقال مالك بن أنس : المِراء يقسِّى القلب ، ويورّث الضَّغائن .

وقال سُفيان الثورىّ : لو خالفتُ أخى فى رُمّانة فقال : حُلْوة ، وقلت: حامضة ، لَسَعَى بى إلى السلطان .

وكان يقال : صافِ مَنْ شئت ثم أغضِبْه بالجدال والمِراء ؛ فليرمينّك بداهيةٍ تمنعك العيش .

وقيل لميمون بن مِهران : مالك لاتفارق أخا لك عن قِلَى؟ قال : لأنّى لاأشارِيه ، ولا أماريه .

* * *

ومنها التقعّر فى الكلام بالتشدّد ، والتكلّف فى الألفاظ ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله

(١) سورة المدثر ٤٥ .

(٢) المراء ، وفعله مارى يمارى : كثرة المنازعة واللجاجة فى القول

«أبغضكم إليّ، وأبعدُكم منّي مجالسَ يوم القيامة الثرثارون[١] المتفيهقون[٢] المتشدّقون[٣]».

وقال عليه السلام: «هلك المتنطّعون . . .»، ثلاث مرات، والتنطّع: هو التعمق والاستقصاء.

وقال عمر: إن شَقَاشِقَ الكلام من شقاشق الشيطان.

***

ومنها الفُحْش والسبّ والبَذاء[٤] قال النبي صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والفُحْش؛ فإنّ الله لا يحبّ الفحش، ولا يرضى الفُحش».

وقال عليه السلام: «ليس المؤمنُ بالطّعان، ولا باللعان، ولا بالسّبّاب، ولا البذيء».

وقال عليه السلام: «لو كان الفُحْشُ رجلًا لكان رجل سوء».

***

ومنها المُزاح الخارج عن قانون الشريعة، وكان يقال: مَنْ مزح استُخِفَّ به.

وكان يقال: المُزاح فحل لا ينتج إلا الشرّ.

***

ومنها الوعد الكاذب؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: العِدَة دين، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل، فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[٦].

***

(١) الثرثارون: الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق، وأصله من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عين ثرثارة.

(٢) المتفيهقون، أصله من قولهم: «فهق الغدير يفهق، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد».

(٣) المتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز وفي اللسان: وقيل: «أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس، يلوي شدقه بهم وعليهم».

(٤) البذاء، بالفتح: السفه والفحش في المنطق.

(٥) سورة مريم ٥٤.

(٦) سورة المائدة ١.

ومنها الكذب فى القول واليمين ، والأمر فيهما مشهور .

* * *

ومنها الغِيبَة ، وقد تقدّم القول فيها .

* * *

قوله عليه السلام : «وملبسهم الاقتصاد» ؛ أى لبس بالثمين جِدًّا ، ولا بالحقير جدًّا ، كالخِرَق التى تُؤخَذُ من عَلَى المزابل ؛ ولكنه أمرٌ بين أمرين ؛ وكان عليه السلام يلبس الكَرَابيسَ ، وهو الخام الغليظ ؛ وكذلك كان عمرُ رضى الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبَسُ اللَّيِّنَ تارةً ، والخشِنَ أخرى .

قوله عليه السلام : «ومشْيُهم التّواضع» ؛ تقديره : وصِفةُ مشيهم التواضع ، فحذف المضاف ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾[1] .

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشى ، وهو يتبختَرُ ويميس فى مِشْيَتِه ، فصاح به ، فأقبل ، فقال له : وَيلك ! لو عرفتَ نفسك لقصَدْت فى مَشْيك ، أمّا أُمُّك فأمَةٌ ابتعتُها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى الناس من أمثاله !

والأصل فى هذا الباب ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴾[2] .

وقوله : « غَضُّوا أبصارهم » أى خَفَضُوها وغَمَضُوها ، وغضضت طرفى عن كذا : احتملت مكروهه .

وقوله : « وقفوا أسماعهم على العِلم النافع لهم » أى لم يشغَلوا سمعَهم بشىء غير العلوم النافعة ؛ أى لم يشتغلوا بسماع شِعْرٍ ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا .

---

(١) سورة لقمان ١٩ .

(٢) سورة الإسراء ٣٧ .

قوله : « نزلت أنفُسهم منهم فى البَلَاء ؛ كالّذى نزلت فى الرخاء » ، يعنى أنّهم قد طابوا نفسا فى البلاء والشدّة كطيب أنفسهم بأحوالهم فى الرّخاء والنعمة ؛ وذلك لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها ، وتقدير الكلام من جهة الاعراب : نَزَلَتْ أنفسُهم منهم فى حالِ البلاء نزولًا كالنُّزُول الذى نزلته منهم فى حال الرّخاء ، فوضع « كالذى » نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ، والموصول قد حذف العائد إليه ، وهو الهاء فى « نزلته » كقولك : ضربت الذى ضربت ؛ أى ضربت الذى ضربته .

ثم قال عليه السلام : إنّهم من شدّة شوقهم إلى الجنة ، ومن شدة خوفهم من النار ، تكاد أرواحهُم أن تفارق أجسادَهم ، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالا ينتهون إليها .

ثم ذكر أنّ الخالِقَ لمّا عظُم فى أعينهم استصغروا كلّ شىء دونه ، وصاروا لشدّة يقينهم ومكاشفتهم ، كمن رأى الجنّة فهو يتنعّم فيها ، وكمَنْ رأى النار وهو يعذّب فيها ، ولا ريبَ أنّ منْ يشاهد هاتيْن الحالتين ، يكون على قَدَمٍ عظيمة من العبادة والخوف والرجاء ، وهذا مقام جليل ، ومثله قوله عليه السلام فى حقّ نفسه : « لو كُشِفَ الغِطاء ماازددتُ يقينا » . والواو فى « والجنة » واو « مع » ، وقد روى بالعطف بالرفع على أنه معطوف على « هم » ، والأوّل أحسن .

ثم وصفهم بحزن القلوب ، ونحافة الأجسام ، وعفّة الأنفس وخفّة الحوائج ، وأنّ شرورهم مأمونة على الناس ، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيرا أعقبهم نعيما طويلا .

ثم ابتدأهم فقال : تجارة مربحة ، أى تجارتهم تجارة مربحة ، فحذف المبتدا . وروى : « تجارةً مربحةً » ، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل .

قوله : « أمّا الليلَ » بالنصب على الظرفية ، وروى « أمّا اللّيلُ » على الابتداء .

قوله : « تالين » ؛ منصوب على أنّه حال ؛ إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية فى « صافّون » أو من الضّمير المجرور بالاضافة فى : « أقدامهم » .

والترتيل: التبيين والإيضاح؛ وهو ضدّ الإسراع والعَجَل ويروى: «يرتلونه» على أنّ الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أى يستجلبون لها الحُزْن به، ويستثيرون به دواء دائهم؛ إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إنَّ ٱلْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ ... به يشتفى من ظنّ أنْ لاتلاقيَا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ ليلتِكَ الطُّولُ ... فالدَّمْعُ من عينيك مَسْدُولُ
وهو إذا أنتَ تأمّلتَهُ ... حُزْنٌ على الخدّين مَحْلُولُ

ثم ذكر أنهم إذا مرّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنّوا بها، طمعا فى نيله، وتطلّعت أنفسُهم إليها شوْقاً، أى اشرأبّت.

«ونصبَ أعينهم» منصوب على الظرفية، وروى بالرفع؛ على أنه خبر إنّ؛ والظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾(١).

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه. وزفيرُ النّار: صوتها

وقد جاء فى فضل قراءة القرآن شىء كثير، روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أنّ أحداً أوتى أفضلَ ممّا أوتى فقد استصغر ماعظّمه الله».

وقال صلى الله عليه وآله: «لو كان القرآن فى إهاب ماسته النار».

وقال: «أفضلُ عبادة أمّتى قراءة القرآن».

---

(١) سورة المطففين ٤.

وقال : « أهلُ القرآن أهل الله وخاصّته » .

وقال : « إنّ هذه القلوبَ تصْدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : فما جِلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله سبحانه لَأَشدّ أَذَنًا[1] إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قَيْنته » .

وقال الحسن رحمه الله : مادون القرآن من غنًى ، ولا بعد القرآن من فاقة .

* * *

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم ، فقال : « حانُون على أوْسَاطهم » ؛ حَنَيْتُ العُود : عطَفته ، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم فى الصّلاة .

مفترشُون لجباههم : باسطون لها على الأرض .

ثم ذكر الأعضاء السّبعة التى مباشرتُها بالأرضِ فروضٌ فى الصلاة ، وهى : الجبهة ، والكفّان ، والرّكبتان ، والقَدَمان .

قوله عليه السلام : « يطلُبون إلى الله » ، أى يسألونه ، يقال : طلبتُ إليك فى كذا ، أى سألتُك ، والكلام على الحقيقة ، مقدَّرٌ فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ ، أى يطلبون سائلين إلى الله فى فكاك رقابهم ؛ لأنّ « طلب » لا يتعدّى بحرف الجرّ

ثم لما فرغ من ذكر الليل ، قال : « وأمّا النّهار فحلماء ، علماء ، أبرار أتقياء » ، هذه الصّفات هى التى يطلع عليها الناظرون لهم نهارا ، وتلك الصفات المتقدّمة من وظائف الليل .

ثم ذكر ماهمْ عليه من الخوف ، فقال عليه السلام : « إنّ خوفَهُم قد برَاهُمْ برْىَ

---

(١) الأذن : الاستماع .

«القِداح»، وهى السّهام ، واحدها قِدْح ، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ومابهم من مرض ، نظير هذا قول الشاعر[(١)]

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ ... بَيْنَ البُيُوتِ من الحياءِ سَقِيماَ[(٢)]

حتّى إذا رُفِعَ اللّواء رأيته ... تحتَ اللّواءِ على الخميسِ زَعِيما[(٣)]

ويقال للمتقين لشدّة خوفهم : كأنهم مَرْضَى ، ولا مَرَضَ بهم . وتقول العرب لكرام من النّاس ، القليلى المأكل والمشرب ، رافضى اللباس الرفيع ، ذوى[(٤)] الأجسام النحيفة : مِراضٌ من غير مرض ، ويقولون أيضا للمرأة ذات الطرْف الغضيض ٱلْفَاتِرِ ، ذات الكسل : مريضة من غير مرض ، قال الشاعر :

ضعيفة كَرِّ الطرْف تحسبُ أنّها ... حديثةُ عهدٍ بالإفاقةِ مِنْ سُقْمِ

***

---

(١) من أبيات لليلى الأخيلية ، ذكرها أبو تمام فى الحماسة ٤ : ١٦٠٧ — بشرح التبريزى ، أولها :

يَأَيُّهَا ٱلسَّدِمُ الملوّى رَأْسَهُ ... لِيَقُودَ مِنْ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ بَرِيمَا

أتريدُ عَمْرَو بن الخليع ودونَهُ ... كَعْبٌ ، إذًا لَوَجَدْتَهُ مَرْءُومَا

وفى أمالى القالى : ١ : ٢٤٨ : « كان الأصمعى يرويها لحميد بن ثور الهلالى » . وانظر تنبيهات البكرى ٧٨ .

(٢) قال التبريزى : « أى لايبالى كيف كان ثيابه لأنه لايزين نفسه ، إنما يزين حسبه ويصون كرمه ، وقيل : معناه أنه غليظ المناكب ، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قيصه ، وقيل : أرادت أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ، فقميصه منخرق لذلك . وقولها : « من الحياء سقيما » ، تعنى أنه ينتقع لونه من شدة الحياء ، وإنما يستحي من ألا يكون قد بلغ من إكرام القوم ما فى نفسه » .

(٣) الخميس : الجيش؛ لأنه يكون من خمس كتائب ، أو خمسة صفوف : المقدمة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب ، والساقة . وسمى الرئيس زعيما ، لأنه يزعم عن قومه ، أى يقول .

(٤) ب : « ذو » ، وصوابه من د .

[ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار]

واعلم أنّ الخوفَ مقامٌ جليل من مقامات العارفين ، وهو أحد الأركان التى هى أصولُ هذا الفنّ ؛ وهو التَّقْوَى التى حثّ الله تعالى عليها ، وقال : إنّ أكرَم الناس عنده أشدُّهم خوفاً له . وفى هذه الآية وحدها كفاية ، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدتَ أكثره ذكرَ المتقين ، وهم الخائفون ، وقال النبىّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ خافَ الله خافَهُ كلّ شىء ، ومَنْ خاف غيرَ الله خوّفه الله من كلّ شىء » .

وقال عليه السّلام : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدّكم لله خوفاً ، وأحسنُكم فيما أمَرَ به ونهى عنه نظراً » .

وقال يحيى بن مُعاذ : مِسكين ابن آدم ، لو خاف النّار كما يخاف الفقر ، دخل الجنة.

وقال ذُو النّون المصرىّ : ينبغى أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء ؛ فإنّ الرّجاء إذا غلب تشوّش القلب .

وقيل لبعض الصالحين : مَنْ آمنُ الخلقِ غدا ؟ قال : أشدُّهم خوفا اليوم .

وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : إنّك والله لأن تَصْحَبَ قوماً يخوّفونك حتى تدرك الأمْن ، خيرٌ لك من أن تصحَبَ قوما يؤمّنونك حتى يدركك الخوف .

وقيل للنبىّ صلى الله عليه وآله فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (١) : هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ قال : « لا ، بل الرّجل يصوم ويتصدّق ، ويخاف ألّا يُقبل منه » .

---

(١) سورة المؤمنين ٦٠ .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من قَطْرةٍ أحبّ إلى الله تعالى من قَطْرة دمع من خشية الله ، أو قطرةِ دم أريقت فى سبيل الله » .

وقال عليه السلام : « سبعة يظلّهم الله بظلّه يوم لا ظِلّ إلا ظلُّه » ؛ وذكر منهم رجلا ذكر الله فى خَلْوةٍ ، ففاضت عيناه .

***

قوله عليه السلام : « ويقول قدْ خولطُوا » ؛ أى أصابتهم جِنّة .

ثم قال : « ولقد خالطهم أمر عظيم » ، أى مازجهم خوف عظيم تولّهوا لأجْلِه ، فصاروا كالمجانين .

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون فى كثير من أعمالهم ، ولا يرضيهم اجتهادهم ؛ وأنّهم يتّهمون أنفسهم ، وينسبونها إلى التقصير فى العبادة ، وإلى هذا نظر المتنبى ، فقال :

يَسْتَصْغِرُ الخَطَرَ الكَبِيرَ لِنَفْسِهِ … وبطْنَ دِجْلَةَ ليس تَكْفِي شَارِبا[1]

قال : « ومن أعمالهم مشفقون » ؛ أى مشفقون من عباداتهم ألّا تُقبل ، وإلى هذا نظر أبو تمام ، فقال :

يتجنّب الآثام ثم يخافها … فكأنما حسناتُهُ آثامُ

ومثل قوله : « أنا أعلمُ بنفسى من غيرى » . قوله عليه السلام لمن زكّاه نفاقا : « أنا دونَ ما تقول ، وفوقَ ما فى نفسك » .

وقوله : « اللّهمّ لا تؤاخذنى بما يقولون ... » إلى آخر الكلام مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام ؛ أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون فى أمره ، فمنهم الحامِدُ له ، ومنهم الذامّ ، فقال : اللهمّ لا تؤاخذنى . . . » الكلمات إلى آخرها ، ومعناه : اللّهمّ

(١) ديوانه ١ : ١٢٥ .

إن كان ما ينسُبُه الذامّون إليّ من الأفعال الموجبة للذمّ حقًّا ، فلا تؤاخذني بذلك ، واغفر لي مالا يعلمونه من أفعالي ، وإن كان مايقوله الحامدون حقًّا ، فاجعلني أفضَلَ ممّا يظنونه فيّ .

***

الأصْلُ :

فَمِنْ عَلامَةِ أحَدِهِمْ ؛ أنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإيماناً فِي يَقِينٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنًى ،وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ ، وَطَلَباً فِي حَلالٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ، يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ .

يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛ حَذِراً لَمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .

إنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ .
قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لا يَزُولُ ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لا يَبْقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيباً أمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَلُهُ ؛ خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُهُ ، مَنْزُوراً أكْلُهُ ، سَهْلاً أمْرُهُ ، حَرِيزاً دِينُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ .

اَلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ،وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ؛ وَإنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ.

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ.

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

***

قال: فَصَعِقَ همّامٌ صعقةً كانت نفسُه فيها، فقال أميرُ المؤمنين عليه السّلام:

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ.

ثم قال:

هٰكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يا أمير المؤمنين!

فقال عليه السلام:

وَيْحَكَ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ، فَمَهْلاً لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!

الشَّرحُ :

هذه الألفاظ الّتي أولها : « قوّة فى دين » ؛ بعضها يتعلّق حرف الجر فيه بالظّاهر ، فيكون موضعه نصباً بالمفعوليّة ، وبعضها يتعلّق بمحذوف ، فيكون موضعه نصبا أيضاً على الصّفة ، ونحن نفصّلها .

فقوله : « قوة فى دين » حرف الجرّ ها هنا متعلّق بالظاهر ، وهو « قُوّة » ، تقول : فلان قوىّ فى كذا وعلى كذا ، كما تقول : مررتُ بكذا ، وبلغت إلى كذا .

و « وحزما فى لين » ؛ ها هنا لا يتعلّق حرف الجرّ بالظاهر ؛ لأنّه لامعنى له ، ألا ترى أنّك لا تقول : فلان حازم فى اللّين ؛ لأن اللّين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه ، وليس كما تقول : فلان حازمٌ فى رأيه أو فى تدبيره ! فوجبَ أن يكون حرف الجر متعلقا بمحذوف ، تقديره : وحزما كائناً فى لين .

وكذلك قوله : « وإيمانا فى يقين » ، حرف الجرّ متعلّق بمحذوفٍ : أى كائنا فى يقين ، أى مع يقين .

فإن قلت : الإيمان هو اليقينُ فكيف ، قال : « وإيماناً فى يقين » ؟ قلت : الإيمانُ هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل ، واليقين هو سكون القلْب فقط ، فأحدُهما غير الآخر .

قوله : « وحرصاً فى علم » ، حرف الجرّ ها هنا يتعلّق بالظاهر ، و « فى » بمعنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[1] .

قوله : « وقصدا فى غنًى » حرف الجرّ متعلّق بمحذوف ، أى هو مقتصد مع كونه غنيا ، وليس يجوز أن يكون متعلّقا بالظاهر ، لأنه لا معنى لقولك : اقتصِدْ فى الغِنَى ، إنما يقال : اقتصد فى النّفقة ؛ وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغِنَى ومجامع له .

---

(١) سورة طه ٧١ .

قوله : « وخشوعا فى عبادة » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين معا .

قوله : « وتجمّلاً فى فاقة » ، حرف الجر هاهنا متعلّق بمحذوف ، ولا يصحّ تعلّقه بالظّاهر ؛ لأنّه إنما يقال : فلان يتجمّل فى لباسه ومروءته ؛ مع كونه ذا فاقة ؛ ولا يقال : يتجمّل فى الفاقة ؛ على أن يكون التجمّل متعدّيا إلى الفاقة .

قوله : « وصَبْراً فى شدّة » ، حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وطلبا فى حلال » حرف الجر هاهنا يتعلّق بالظّاهر و «فى» بمعنى «اللام»..

قوله : «ونشاطا فى هدًى » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وتحرّجاً عن طمع » ، حرف الجرّ هاهنا يتعلق بالظاهر لا غير .

قوله : « يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل » قدْ تقدّم مثله .

***

قوله : « يمسى وهمّه الشكر » ، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين ، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين فى كتابه فى مواضع كثيرة ، نحو قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1] فقرن الشّكر بالذّكر .

وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[3] .

ولعلوّ مرتبة الشّكر طعن إبليس فى بنى آدم ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[4] ، وقد صدّقه الله تعالى فى هذا القول فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة ١٥٢ .
(٢) سورة النساء ١٤٧ .
(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٤) سورة الأعراف ١٧ .
(٥) سوره سبأ ١٣ .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ ، فقال: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(١) .

واستثنى فى خمسة أمور : وهى الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .
فقال : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٢) .
وقال : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٣) .
وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾(٤) .
وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٥) .
وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾(٦) .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلا ، وهو خُلُق من أخلاق الربوبيّة، قال تعالى فى صفة نفسه : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٧)

وقد جَعَل الله تعالى مفتاحَ كلام أهل الجنّة ، فقال : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، وجعله خاتمة كلامهم أيضا فقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٩) .

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وآله : قد غَفَر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر فلِمَ تقوم الليل ، وتتعِبُ نفسك ؟ قال : أفلا أكونُ عبداً شكورا !

* * *

---

(١) سورة إبراهيم ٧
(٢) سورة التوبة ٢٨ .
(٣) سورة الأنعام ٤١
(٤) سورة الشورى ١٩
(٥) سورة النساء ٤٨
(٦) سورة التوبة ١٥ .
(٧) سورة التغابن ١٧
(٨) سورة الزمر ٧٤ .
(٩) سورة يونس ١٠ .

قوله عليه السلام : « ويصبح وَهَمُّه الذِّكر » ، هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾(١) قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربّي. ففزعوا منه فقال : إذاذكرته ذكرني ، وتلا الآية ، فسكتوا.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾(٢).

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾(٣).

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾(٤).

وقل : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾(٥).

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾(٦).

وقال فى ذمّ المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٧).

وقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾(٨).

وقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٩).

وقال النبيّ صلى الله عليـه وآله : « ذاكرُ الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم ».

وقال صلى الله عليـه واله : « مَنْ أحبّ أن يرتع فى رياض الجنّة ، فليُكثِر من ذكر الله ».

---

(١) سورة البقرة ١٥ق
(٢) سورة الأحزاب ٤١ .
(٣) سورة بقرة ١٩٨
(٤) سورة البقرة ٢٠٠ .
(٥) سورة النساء ١٠٣
(٦) سورة آل عمران ١٩١ .
(٧) سورة النساء ١٤٢
(٨) سورة الأعراف ٢٠٥ .
(٩) سورة العنكبوت ٤٥

وسئل عليه السلام : أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تموتَ ولسانُكَ رطب بذكر الله » .

وقال صلّى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « إذا ذكرَني عبدِي فى نفسه ، ذكرتهُ فى نفسِي ، وإذَا ذكرنى فى ملأٍ ذكرتهُ فى ملأٍ خيرٍ من ملئه ، وإذا تقرّب منى شبراً تقرّبتُ منه ذراعا ، وإذا تقرّبَ منّى ذراعا تقرّبتُ منه باعا ، وإذا مَشَى إلىّ هرولتُ إليه » .

وقال صلى الله عليه وآله : « ماجلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلّا حفَّت بهم الملائكة ، وغشيَتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

* * *

قوله عليه السلام : « يبيت حذِراً ويصبح فرِحاً ، حذراً لما حُذِّرَ من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفَضْل والرحمة » .

وقد تقدّم ذكر الخوف .

وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف ؛ فإنّ فرَح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن ان يحمل على أنّه فرح بمجرد ماأصاب من فضل الله ورحمته . ويمكِنُ أن يحمل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه ؛ لذا استدلّ على وصوله إليه وقوِى ظنّه بظفره به ، بما عَجّل الله تعالى له من الفضل والرحمة فى الدنيا ، ومقامُ الرجاء للعارفين مقام شريف ، وهو فى مقابلة مقام الخوف ، وهو المقام الذى يوجد العارف فيه فرحا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر ٢٩ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « أنا عندَ ظنّ عبدى بى ، فليظنّ بى ماشاء » .

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل من أصحابه ، وهو يجودُ بنفسه ، فقال : كيف تجدك ؟ قال : أجِدُنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربّى . فقال صلى الله عليه وآله : « ماجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلّا أعطاه الله مارجاه ، وأمّنه مما خافه » .

***

قوله عليه السلام : « إن استصعبَتْ عليه نفسُه » ، أى صارت صعبة غير منقادة ؛ يقول : إذا لم تطاوعْه نفسُه إلى ماهى كارهة له لم يعطِها مرادها فيما تحبّه .

قوله عليه السلام : « قرةَ عينه فيما لايزول ، وزهادته فيما لايبقى » ، يقال للفرِح المسرور : إنه لقَرِير العين ، وقرّت عينه تقرّ ، والمراد بردُها ؛ لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة .

وهذا الكلام يحتمل أمرين :

أحدُهما أن يعنِيَ بما لايزول البارئْ سبحانه ، وهذا مقام شريف جدًّا أعظم من سائر المقامات ،وهو حبّ العارف لله سبحانه ، وقدأنكره قومٌ فقالوا:لامعنى لمحبّة البارئْ إلّا المواظبة على طاعته ، ونحوه قول أصحابنا المتكلّمين : إنّ محبّة الله تعالى للعبدهى إرادته لثوابه ، ومحبّة العبد للبارئْ هى إرادته لطاعته ، فليست المحبّة عندهم شيئازائدا على الإرادة ولا يجوز أن تتعلّق بذاتِ الله سبحانه ، لأنّ الإرادة لاتتعلّق إلا بالحدوث،وخالفهم شيخنا أبوالحسن، فقال :إنّ الإرادة يمكن أن تتعلّق بالباق ، ذكرذلك فى الكلام فى الأكوان فى أول التصفّح ، فأمّا إثبات الحبّ فى الجملة فقد نطقَ به القرآن قال سبحانه : ﴿ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله نظر إلى مُصعَب بن عمير مقبلا وعليه إهابُ كبشٍ قد تمنطق به ، فقال : « انظروا إلى الرّجل الذى قد نوّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوَيْن يغذُوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حبّ الله ورسوله إلى ماترون » .

وبقال : إنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلَتْ أبدانهم ، وتغيَّرت ألوانهم ، فقال : ماالذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الخوف من النار ، قال : حقٌّ على الله أن يؤمّن من يخافه ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيّراً ، فقال : ما لذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الشّوق إلى الجنة ، فقال : حقٌّ على الله أن يعطى مَنْ رجاه . ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نحولا ، وعلى وجوههم ، مثل المرائى من النور ، فقال: ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : حبّ الله عزّ وجلّ ، فقال : أنتم المقربون ، ثلاثا .

وقال بعض العارفين :

أحبّكَ حبّين : حبّ الهوى ... وحبًّا لأنك أهـلٌ لذا كا
فأمّا الذى هوَ حبُّ الهوى ... فشُغلى بذكركَ عمّن سوا كا
وأمّا الذى أنتَ أهلٌ له ... فكشفكَ لى الحُجبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ من ذا ولا ذاك لِى ... ولكنْ لكَ الحمدُ فى ذَا وذَا كا

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) سورة البقرة ١٦٥ .
(٣) سورة آل عمران ١٣١ .

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريون من أنها الإبصار بالعين ؛ بل المعرفة التامة ؛ وذلك لأنّ المعارف النظرية يصحّ أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا ، فهذا أحد محمَلي الـكلام .

وثانيهما : أن يريد بما لا يزول ، نعيمَ الجنة ، وهذا أدونُ المقامين ، لأنّ الخلّص من العارفين يحبّونه ويعشقونه سبحانه لذاته ، لا خوفا من النار ، ولا شوقا إلى الجنة ، وقد قال بعضهم : لستُ أرضى لنفسى أن أكون كأجيرِ السوء ، إن دُفِعت إليه الأجرة رضِيَ وفرح ، وإن مُنِعها سخط وحزن ، إنّما أحبهُ لذاته .

وقال بعض شعرائهم شعرا من جملته :

فَهَجْرُهُ أعظمُ من نارِهِ وَوَصْلُه أطيبُ منْ جَنّتِهْ

وقد جاء فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، من هـذا الـكثير ، نحو قوله : « لم أعبدْه خوفا ولا طمعا ، لـكنّى وجدته أهلا للعبادة فعبدته » .

***

قوله عليه السلام : « يمزج الحلم بالعلم » ، أى لا يحلُم إلّا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون .

قوله : « والقول بالعمل » ، أى لا يقتصر على القول ، ومثل هذا قول الأحوص :

وَأَرَاكَ تَفعَلُ ما تَقولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ اللّسانِ يَقولُ ما لا يَفعَلُ

قوله عليه السلام : « تراه قريبا أملُه » ، أى ليست نفسه متعلّقةً بما عظُم من آمال الدنيا ؛ وإنّما قُصارى أمره أن يؤمّل القوتَ والملبس . قليلا زلله : أى خطؤه .

قوله : « منزوراً أكله » ، أى قليلا ، ويحمَد من الإنسان الأكل النزْر ، قال أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ[(١)]

وقال متمم بن نويرة :

لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ ... فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا[(٢)]

قوله عليه السلام : « مكظوما غيظه » كظم الغيظِ من الأخلاق الشريفة ، قال زيد بن عليّ عليه السلام : « ما سرّنى بجرعة غيظٍ أتجرّعها وأصبر عليها حُمر النعم » .

وجاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثىّ ، فقال : يا أبا عبدِ الرحمن ، إنّ فلاناً يغتابُكَ وينالُ منك ، فقال : والله لأغيظنّ مَنْ أمرَه بذلك ، قال الرّجل : ومَنْ أمرَهُ ؟ قال : الشّيطان عدوّ الله ، استغواه ليؤثمه ، وأراد أن يُغضِبَنى عليه فأكافئه ، والله لا أعطيه ما أحبّ من ذلك . غفر الله لنا وله .

وجَهِل[(٣)] إنسان على عمر بن عبد العزيز ، فقال : أظنّك أردت أن يستفزّنى الشيطان بعزّ السلطان ، فأنال منك اليوم ماتناله منّى غدا ! انصرف عافاك الله .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « الغضَبُ يفسِدُ الإيمان ، كما يفسِدُ الصَّبِرُ العسل » .

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصنى ، فقال : « لا تغضب » ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : « لا تغضب » ، فقال : [(٤)]زدنى ، فقال[(٤)] : « لا أجد مزيدا » .

ومن كلام بعضِ الحكماء لا بقى عزُّ الغضب بذلّة الاعتذار .

***

---

(١) من قصيدة له فى ديوان الأعشين ٢٦٨ ، الكامل ٤ : ٦٥ ، ٦٦ ، أمالى المرتضى ١ : ٩٦ الفلذ : قطعة من الكبد ؛ ولا يقال إلا للبعير ، والغمر ـ كصرد ـ القدح الصغير ، والحزة : القطعة الصغيرة ورواية الكامل

* تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كِبْدٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا *

(٢) من قصيدة له فى الكامل ٤ : ٧٢ ـ ٧٤ ، والمفضليات ٢٦٥ ـ ٢٧٠ . والمنهال ، هو ابن عصمة الرياحى ، كفن مالكا فى ثوبه . غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء ، وينتظر الضيفان . الأروع : الذى إذا رأيته راعك بجماله وحسنه .

(٣) الجهل هنا : السفاهة .

(٤ ـ ٤) ساقط من ب .

قوله : « إن كان فى الغافلين » ؛ معناه أنّه لايزال ذاكرَ الله تعالى ، سواء كان جالسا مع الغافلين أو مع الذاكرين ؛ أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه ، وأمّا إذا كان مع الذّاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه .

قوله عليه السلام : « يعفُو عمّن ظَلَمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل مَنْ قطعه » ؛ من كلام المسيح عليه السلام فى الإنجيل : « أحبّوا أعداءكم ، وصِلُوا قاطعيكم ، واعفوا عن ظالميكم ، وباركوا علىّ لأعينكم ؛ لكى تكونوا أبناء أبيكم الّذى فى السماء ، الذى تشرق شمسُه على الصّالحين والفَجَرة ، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثَمة » .

قوله عليه السلام : « بعيدا فُحْشُه » ؛ ليس يعنى به أنّه قد يُفحِش تارة ، ويترك الفحش تارات ، بل لافُحْشَ له أصلا ، فكنى عن العَدم بالبعد ؛ لأنّه قريب منه .

قوله : « ليّناً قوله » ، العارف بسّام طَلْق الوجه ، ليّن القوْل ، وفى صفات النبى صلى الله عليه وآله : « ليس بفَظّ ولا صَخّاب » .

قوله : « فى الزلازل وقور » ؛ أى لاتحرّكه الخطوب الطارقة ، ويقال : إنّ علىّ بن الحسين عليه السلام كان يصلّى ، فوقعتْ عليه حيّة ، فلم يتحرّك لها ، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك إحداهما عن مكانه ، ولا تَغيّر لونه .

قوله : « لايحيفُ على من يبغض » ، هذا من الأخلاق الشريفة النبويّة ، وفى كلام أبى بكر فى صفات مَنْ يصلح للإمامة : إن رضىَ لم يدخِله رضاه فى باطل ، وإن غضب لم يخرِجه غضبهُ عن الحق .

قوله : « يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه » ؛ لأنه إن أنكر ثم شُهد عليه فقد ثبت كذبه ، وإن سكت ثم شهد عليه فقدم أقام نفسَه فى مقام الرِّيبة .

قوله : « ولا ينابز بالألقاب » ؛ هــذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ (١) .

قوله : « ولا يضارّ بالجار » ، فى الحديث المرفوع : « أوصانِى ربِّى بالجار حتى ظننتُ أن يورّثه » .

قوله : « ولا يشمت بالمصائب » ؛ نظير قول الشاعر :

فَلَسْتَ تَرَاهُ شَامِتاً بمصِيبَـةٍ ... وَلَا جَزِعاً من طارِقِ الْحَدَثَان

قوله : « إن صمت لم يغمّه صمته » ؛ أى لا يحزن لفوات الكلام ، لأنه يرى الصّمْت مغنما لا مغرما .

قوله : « وإن ضحك لم يعلُ صوتُه » ؛ هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكثره التبسّم ، وقد يفرّ أحيانا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة .

قول : « وإن بغى عليه صَبَر » ؛ هـذا من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ (٢) .

قوله : « نفسه منه فى عناء لأنه يتعبها بالعبادة ، والناس لا يلقون منه عَنَتاً ولا أذى » فحالهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه .

قوله : « فصعق همام » ، أغمى عليه ومات ، قال الله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة الحجرات ١١ .
(٢) سورة الحج ٦٠ .
(٣) سوره الزمر ٦٨ .

[ذكر بعض أحوال العارفين]

واعلم أنّ الوجدَ أمرٌ شريف ، قداختلف الناس[١] فيه،فقالت الحكماء فيه أقوالا ، وقالت الصوفيّة فيه أقوالا ؛ أمّا الحكماء فقالوا: الوجْد[٢] هو حالة تحدُث للنّفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة ، إذا كان قد وَرَدَ عليها وارد مُشوّق . وقال بعضُهم :الوجد هو اتّصال النفس بمبادئهما المجرّدة عند سماع مايقتضى ذلك الاتّصال .

وأمّا الصُّوفية فقد قال بعضهم : الوجد رفْع الحجاب ، ومشاهدة المحبوب . وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السرّ ؛ وهو فَناؤك من حيث أنت أنت . وقال بعضُهم : الوجدُ سِرّ الله عند العارفين ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ .

والأقوال فيه متقاربة فى المعنى وإن اختلفت[٣] العبارة،وقدمات كثير من الناس بالوجْدِ عند سماع وعظ ،أو صفقة[٤] مطرِب ، والأخبار فى هذا الباب كثيرة جدًّا،وقد رأينانحنُ فى زماننا مَنْ مات بذلك فجأة .

***

قوله : « كانت نفسه فيها » ، أى مات . ونفثَ الشيطان على لسانك ، أى تكلّم بلسانك ، وأصله النفخ بالفم ، وهو أقل من التّفل ؛ وإنّما نهى أمير المؤمنين القائل:«فهلاّ أنت ياأمير المؤمنين ! »لأنه اعترض فى غير موضع الاعتراض، وذلك أنه لايلزم من موت العامىّ عند وعظ العارف أن يموتَ العارف عند وعظ نفسه ، لأنّ انفعال العامىّ ذى الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام

(١) د : « قدامى الناس » (٢) ساقطة من ب (٣) الأصول : اختل .
(٤) صفقة مطرب، من صفقت العود ؛ إذا حركت أوتاره فاصطفق (اللسان) .

نفسه ، أو الفكر فى كلام نفسه ، لأنَّ نفس العارف قوية جدًّا ، والآلة التى يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجَر .

فإن قلتَ : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غيرُ هذا الجواب !

قلتُ : صدقت ، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون ، وتصِلُ أفهامهم إليه ، فخرج معه إلى حديث الآجال ، وأنّها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرْق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مُسْكِتٍ ؛ وهو مع إسكاته الخصْم حقٌّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب ، ويقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السّداد وصحة القول .

(١٨٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَلِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً .

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَدْنَوْنَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصَوْنَ ، وَخَلَعَتْ عليه (١) الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا ، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ .

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً ، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ .

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ . يَمْشُونَ الْخَفَاءَ ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ ؛ حَسَدَةُ الرَّخَاءِ ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ . لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ .

يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ ؛ إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا ، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا .

---

(١) د : « إليه » .

قَدْ أعدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ باطِلاً ، وَلِكُلِّ قائِمٍ مائِلاً ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قاتِلاً ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفتاحاً ، وَلِكُلِّ لَيلٍ مِصْباحاً ، يَتَوَصَّلُونَ إلى الطَّمَعِ بِاليَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أعْلاقَهُمْ ؛ يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأضْلَعُوا المَضِيقَ ؛ فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ ، وَحُمَةُ النِّيرانِ : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [1] .

* * *

الشرح :

الضمير فى « له » وهو الهاء راجعٌ إلى « ما » التى بمعنى « الذى » ، وقيل : بل هو راجع إلى الله سبحانه ، كأنه قال : « نحمده على ماوفّق من طاعته » ، والصحيح هو الأول ، لأنّ « له » فى الفقرة الأولى بإزاء « عنه » فى الفقرة الثانية . والهاء فى « عنه » ليست عائدة إلى « الله » وذاد : طرد ، والمصدر الذِّياد .

وخاض كلَّ غَمْرة ، مثل قولك : ارتكب كلَّ مهلكة ، وتقحّم كلَّ هول .

والغَمْرة : ماازدحم وكثر من الماء ، وكذلك من النّاس ، والجمع غِمار .

والغُصّة : الشّجا ، والجمع غُصَص .

وتلوّن له الأدنَوْن : تغيّر عليه أقاربه ألواناً .

وتألّب عليه الأقصوْن : تجمّع عليه الأبعدون عنه نسباً .

وخلعت إليه العرب أعنّتها ، مثل ، معناه أوْجَفُوا إليه مسرعين لمحاربته ، لأنّ الخيل إذا خلعتْ أعنّتها كان أسْرَع لجريها .

وضربتْ إلى محاربته بطونَ رواحِلها ، كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب ؛

---

(١) سورة المجادلة ١٩ .

لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كانَ أوحى لها ؛ ومراده أنّهم كانوا فرسانا وركبانا .

قوله : « حتى أنزلت بساحته عداوتها » ؛ أى حَرْبها ، فعبّر عنها بالعداوة ؛لأنّ العداوة سببُ الحرب ، فعبّر بالسّبب عن المسبّب ؛ مازلنا نطأ السّماء حتى أتيناك ؛ يعنون المـاء ، لمّا كان اعتقادُهم أنّ السماء سببُ الماء .

وأسحق المزار ،أبعده ؛ مكان سَحِيق ، أى، بعيد ، والسُّحْق بضم السّين : البعد، يقال: «سُحْقا له» ؛ ويجوز ضم الحاء ، كما قالوا : عُسْر وعسُر ، وسَحُق الشىْ، بالضم ،أى بعد، وأسحقه الله أبعده . والمزار : المـكان الذى يُزار منه ، أو المـكان الذى يزار فيه ،والمراد هاهنا هو الأوّل ومن قرأ كتبَ السِّيرة علم مالاقى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذاتِ الله سبحانه من المشقّة ، واستهزاء قريش به فى أوّل الدعوة ، ورميهم إياه بالحجارة ، حتى أدمَوْا عَقِبَيْه ، وصياح الصّبيان به ، وفَرْث الـكرِش على رأسِه ، وفتل الثّوب فى عُنُقه وحَصْره وحَصْر أهله فى شِعْب بنى هاشم سنين عدّة ، محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومنا كحتهم وكلامهم ، حتى كادوا يموتون جوعاً ، لولا أنّ بعضَ مَنْ كان يحنُوا لرَحِم أو لسبب غيره ، فهو يسرق الشىء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلا ، ثم ضرْبهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوَثاق فى الشمس ، وطردهم إيام عن شِعاب مكة ،حتى خرج مَنْ خرج منهم إلى الحبشة ، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف ، وتارة ببنى عامر، وتارة بربيعة الفَرَس ، وبغيرهم . ثم أجمعوا على قتله والفتْك به ليلا ، حتى هرب منهم لائذاً بالأوْس والخزرج ، تاركاً أهله وأولاده ، ولا حوتْه يده ، ناجياً بحُشاشة نفسه، حتى وصل إلى المدينة ؛ فناصبوه الحرْب ورموْه بالمناسر (١) والـكتائب ، وضربوا إليه آباط الإبل ،

---

(١) المنسر : قطعة من الجيش الـكبير .

ولم يزل منهم فى عنـاء شديد ، وحروب متّصلة ، حتى أكرمه الله تعالى ونَصَره ، وأيّد دينَه وأظهره . ومَنْ له أنسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هـذه الأحوال ما يطول شرحه .

سمّى النِّفاق نِفاقاً من النّافقاء ، وهى بيت اليَرْبُوع ، له بابان يدخلُ من أحدهما ، ويخرج من الآخر ، وكذلك الّذى يُظهر ديناً ويبطن غيره .

والضالّون المضِلُّون : الذين يَضِلّون أنفسَهم ويُضِلّون غيرَهم ؛ وكذلك الزالّون المزِلُّون ؛ زلّ فلان عن الأمر ، أى أخطأ ، وأزلّه غيرُه .

قوله : « يفتنُّون » يتشعّبون فنونا ، أى ضروبا .

ويعمِدونكم ، أى يهدّونكم ويفدحونكم ؛ يقال : عَمَده المرض يعمِده ، أى هدّه ، ومنه قولهم للعاشق : عميد القلب .

قوله : « بعادِ » ، أى بأمر فادح وخطب مؤلم ، وأصل العَمْد انشداخُ سَنام البعير ، وماضيه : عمِد السنام بالكسر ، عَمْدا فهو عَمِد .

ويرصدونكم : يعدّون المكايد لكم ، أرصدت : أعددت ، ومنه فى الحديث : « إلا أنْ أرْصُدَه لدينَ علَىّ » .

وقلب دوٍ ، بالتخفيف ، أى فاسد ، من داء أصابه ، وامرأة دوِيَة ؛ فإذا قلت : رجل دوًى ، بالفتح ، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة ، لأنه مصدر فى الأصل ، ومن روى : « دويّة » بالتشديد ، علَى بُعده ، فإنما شدده ليقابل « نقيّة » .

والصِّفَاح : جمع صَفْحة الوجه وهى ظاهره ، يقول : باطنهم عليل ، وظاهرهم صحيح . يمشون الخفاء ، أى فى الخفاء ، ثم حذف الجار فنصب ، وكذلك يدبّون الضَّرَاء ،

والضَّرَاء : شجر الوادى الملتفّ ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه ،يقال : هو يدبّ له الضَّرَاء ويمشى له الخمَر ، وهو جَرْف الوادى .

ثم قال : « وصفهم داء ، وقولهم شفاء ، وفعلُهم الدّاء العَياء » ؛ أى أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين ، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين . والدّاء العَياء : الذى يُعيي الأُساة .

ثم قال : « حَسَدَة الرخاء » يحسُدون عَلَى النعم . « ومؤكّدو البلاء » ،إذا وقع واحد من الناس فى بلاء أكّدوه عليه بالسّعايات والنّمائم ، وإغراء السلطان به ، ولقد أحسن أبو الطيب فى قوله يذمّ البشر :

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فينا بريب الدّ ... هرِ حَتّى أعانه مَنْ أعَانَا[1]

كُلّما أنبت الزمانُ قَنَاةً ... ركّب المرء فى القَنَاةِ سِنَانَا

« ومقنِطُو الرّجاء » ، أى أهل الرجاء ، أى يبدّلون بشرورهم وأذاهم رَجَاء الرّاجى قُنوطا .

قوله : « وإلى كلّ قلب شفيع » ، يصف خلابة ألسنتهم وشدّة ملَقِهم، فقد استحوذُوا عَلَى قلوب الناس بالرّياء والتصنّع .

قوله : « ولكل شجو دموع » ، الشجو : الحزن، أى يبكون تباكياً وتمّلاحقًا، عند أهلِ كلّ حزن ومصاب .

يتقارضون الثناء، أى يثنى زيد عَلَى عمرو ،ليثنىَ عمرٌو عليه فى ذلك المجلس،أو يبلغه فيثنى عليه فى مجلس آخر ، مأخوذ من القَرْض .

ويتراقبون الجزاء : يرتقب كلّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدْحِه لصاحبه جزاء منه

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٤٠ .

إمّا بالمال أو بأمر آخر ، نحو ثناء يثنى عليه ، أو شفاعة يشفع له ، أو نحو ذلك .

والإلحاف فى السؤال : الاستقصاء فيه ، وهو مذموم ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(١) .

قوله : « وإن عَذَلوا كشفوا » ، أى إذا عذلك أحدُهم كشف عيوبك فى ذلك اللوم والعَذَل ، وجبّهك بها ، وربّما لا يستحى أن يذكرَها لك بمحضر ممّن لا تحبّ ذكرَها بحضرته ، وليسوا كالناصحين عَلَى الحقيقة ، الذين يعرّضون عند العتاب بالذّنب تعريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه .

وإن حكموا أسرفُوا ، إذا سألك أحدُهم ففوّضته فى مالك أسرفَ ولم يقنع بشىء ، وأحبّ الاستئصال .

قد أعدُّوا لكلّ حقٍّ باطلا ؛ يقيمون الباطل فى معارضة الحقّ ، والشبهة فى مصادمة الحجّة .

ولكلّ دليلٍ قائم وقول صحيح ثابت ، احتجاجا مائلا مضادًّا لذلك الدليل ، وكلاما مضطرباً لذلك القول .

ولكلّ باب مفتاحا ؛ أى ألسنتهم ذلِقةٌ قادرةٌ عَلَى فَتح المغلَقاتِ ، لِلُطْف توصّلهم ، وظَرْف منطقهم .

ولكل ليل مصباحا ؛ أى كلّ أمرٍ مظلم فقد أعدُّوا له كلاما ينيره ويضيئه ، ويجعله كالمصباح الطاردِ لليل .

يتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عمّا فى أيدى الناس ، وبالزّهد فى الدنيا . وفى الأثر : شرّكم مَنْ أخذ الدنيا بالدين .

ثم قال : إنّما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقَهم ، أى لتنفق سِلْعَتهم .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

والأعلاق : جمع عِلْق ، وهو السلعة الثمينة .

يقولون فيشبّهون ، يوقعون الشُّبَه فى القلوب .

ويصفون فيموّهون ؛ التمويه التزيين ، وأصله أن تطلى الحديدة بذهب يحسّنها .

قد هيّئوا الطريق ، أى الطريق الباطل قد هيئوها لتُسلك بتمويهاتهم .

وأضلعوا المضيق : أمالوه ، وجعلوه ضِلَعًا ، أى معوجًا ، أى جعلوا المسلك الضيق وجًا بكلامهم وتلبيسهم ، فإذا أسلكوه إنسانًا اعوجّ لاعوجاجه .

واللُّمَة : بالتخفيف : الجماعة ، والحُمَة بالتخفيف أيضا : السمّ ، وكنى عن إحراق النار بالحمة للمشابهة فى المضرّة .

(١٨٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ اَلَّذِى أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ ؛ مَا حَيَّرَ مُقَلَ اَلْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ اَلنُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اَللهُ ؛ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ اَلْهُدَى دَارِسَةٌ ، وَمَنَاهِجُ اَلدِّينِ طَامِسَةٌ ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَى اَلرُّشْدِ ؛ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ؛ صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ !

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اَللهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا ؛ عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ؛ فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ ؛ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ .

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ ، لَا يَثْلِمُهُ اَلْعَطَاءُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ اَلْحِبَاءُ ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ ، وَلَا يُجِنُّهُ اَلْبُطُونُ عَنِ اَلظُّهُورِ ، وَلَا يَقْطَعُهُ اَلظُّهُورُ عَنِ اَلْبُطُونِ .

قَرُبَ فَنَأَى ، وَعَلَا فَدَنَا ، وَظَهَرَ فَبَطَنَ ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ .

لَمْ يَذْرَإِ اَلْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ .

أُوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثائِقِها ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِها ، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ؛ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ؛ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ؛ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً ؛ فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ .

***

الشرح

أظهر سبحانه من آثار سلطانه ، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها فى بعض ، كالممِيل الذى يشتمِل على الممائل ، وفلك التدوير وغيرها ؛ ونحو خلق الإنسان وما تدل كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه ؛ ونحو خلق النبات والمعادن ، وترتيب العناصر وعلاماتها ، والآثار العلوية المتجدّدة ، حسب تجدد أسبابها ، ما حيّر عقول هؤلاء ، وأشعر بأنها إذا لم يحِط بتفاصيل تلك الحِكم مع أنها مصنوعة [1] ، فالأولى ألا تحيط بالصانع الذى هو برىء عن المادة وعلائق الحسّ .

والمُقل : جمع مُقْلة ؛ وهى شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ؛ ومقلتُ الشىء : نظرت إليه بمقلتى ؛ وأضاف المقل إلى « العقول » مجازاً ، ومراده البصائر .

وردع : زجر ودفع . وهماهِم النفوس : أفكارها وما يهمهم به عند التمثيل والروِيّة فى الأمر ، وأصل الهمهمة ، صُوَيتٌ يسمع ، لا يفهم محصوله

---

(١) د : « موضوعة »

والعِرْفان : المعرفة ، وكُنْه الشىء : نهايته وأقصاه . والإيقـان : العِلْم القطعىّ ، والإذعان : الانقياد . والأعلام : المنار والجبال يستدلّ بها فى الطرقات .

والمنـاهج : السُّبُل الواضحة والطامسة كالدارسة . وصدَع بالحقّ : بيّن ، وأصـله الشقّ يظهر ماتحته . ويقال . نَصحتُ لزيد ، وهو أفصح من قولك : نصحتُ زيدا .

والقَصْد : العدل .

والعَبَث . مالا غرض فيه ، أو ماليس فيه غرض مثله ، والهَمَل : الإبل بلا راع ؛ وقد أهمَلْتُ الإبل : أرسلتها سدًى .

قوله : « علِم مبلغ نعمه عليـكم ، وأحصى إحسانه إليكم » ، أى هو عالم بكمّيّة إنعامه عليـكم علما مفصَّلا ؛ وكلُّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدّ نقمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه ، بخلاف مَنْ يجهل قدر نعمته على الغير ؛ فإنه لايشتدّ غضبه لأنه لايعلم قدر نعمته المـكفورة .

قوله : « فاستفتحوه » ، أى اطلبوا منه الفَتْح عليـكم والنَّصْر لـكم .

واستنجِحُوه : اطلبوا منه النجاح والظَّفَر .

واطلبوا إليه ، أى اسألوه ، يقال : طلبت إلى زيد كذا وفى كذا .

واستمنِحوه ، بكسر النون : اطلبوا منه المِنْحَة ، وهى العطيّة . ويروى : « واستميحوه » بالياء ، استمحتُ الرّجُل : طلبت عطاءه ، ومحتُ بالرجل : أعطيته .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لاحِجاب يمنَع عنه ، ولادونه باب يُغلق ، وأنه بكلّ مكان موجود ، وفى كلّ حين وأوان ، والمراد بوجوده فى كلّ مكان إحاطة علمه ؛ وهو معنى قوله

تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ (٢) .

قوله : « لا يَثلِمه العطاء » بالكسر : لا ينقص قدرته .

والحِباء : النّوال ولا يستنفذه ، أى لا يفنيه .

ولا يستقصيه : لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عَظُم الجود ، لأنّه قادر على مالا نهاية له .

ولا يلويه شخص عن شخص : لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضا وذهولا عن شخص آخر ؛ بل هو عالم بالجميع ، لا يشغله شأن عن شأن . لوى الرجل وجهه ، أى أعرض وانحرف ، ومثل هذا أراد بقوله : « ولا يلهيه صوت عن صوت » ، ألهاه كذا ، أى شَغَله .

ولا تحجُزه ـ بالضمّ ـ هِبة عن سَلْب ؛ أى لا تمنعه ، أى ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا ؛ فإنّ الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو ، حالمًا يكون مهتمًّا بتلك العطيّة ، لأنّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر .

ومثل هذا قوله : « ولا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تُولِهه رحمة عن عقاب » ، أى لاتحدث الرحمة لمستحقّها عنده ولَهًا ، وهو التحيّر والتردّد ، وتصرفه عن عقاب المستحقّ ؛ وذلك لأنّ الواحد منا إذا رحِمَ إنسانا حدث عنده رقّة ، خصوصا إذا توالت منه الرحمة لقوم متعدّدين ، فإنه تصير الرحمة كالمَلَكة عنده ، فلا يطيق مع تلك الحال أنْ ينتقم ، والبارئ تعالى بخلاف ذلك ؛ لأنه ليس بذى مزاج سبحانه .

ولا يجنّه البطون عن الظهور ، ولا يقطعه الظهور عن البطون ؛ هذه كلّها مصادر ؛ بطَن

---

(١) سورة المجادلة ٧ .
(٢) سورة الحديد ٤

بُطُونا أى خَفِىَ ، وظهرظهورا ، أى تجلّى ، يقول : لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإنْ لم يكن ظاهرا بذاته ، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كُنْهه عن إبصار العقول وإدراكها له . ويقال : اجتننت كذا ، أى سترته ، ومنه الجنين ، والُجنَّة للترس ، وسمّى الجنُّ جنًّا لاستتارهم .

ثم زاد المعنى تأكيدا فقال : « قرُب فنأى » ؛ أى قرب فعلا فنأى ذاتا ، أى أفعاله قد تُعلم ؛ ولكنّ ذاته لا تعلم .

ثم قال : « وعلا فدنا » ؛ أى لمّا علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول ، لأنّها عرفت ذاته ، لكن عرفت أنّه شىء لا يصحّ أن يعرف ، وذلك خاصّته سبحانه ، فإنّ ماهيّته يستحيل أن تتصوّر للعقل لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بخلاف غيره من الممكنات.

ثم أكّد المعنى بعبارة أخرى ، قال : «وظهر فبطَن ، وبطن فعلَن » ، وهذا مثل الأوّل.

ودان : غلب وقَهر ، ولم يُدَنْ : لم يقهر ولم يغلب .

ثم قال : « لم يذرأ الخلق باحتيال » أى لم يخلقهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم ، بل أوجدَهُم على حسب عِلمه بالمصلحة خلقا مخترعا من غير سبب ولا واسطة .

قال : « ولا استعان بهم لكَلاَل » ، أى لإعياء ، أى لم يأمر المكلَّفين بالجهاد لحاجته فى قهر أعدائه ، وجاحدى نعمته إليهم ؛ وليس بكالّ ولا عاجز عن إهلاكهم ، ولكنّ الحكمةَ اقتضتْ ذلك ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[1]، أى لبطل التكليف .

ثم ذكر أنّ التقوى قِوام الطاعات التى تقوم بها ، وزمام العبادات لأنها تمسك وتحصّن ؛ كزمام الناقة المانع لها من الخبْط .

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ .

والوثائق : جمع وثيقة ، وهى مايوثق به . وحقائقها جمع حقيقة ؛ وهى الراية ؛ يقال : فلان حامى الحقيقة .

قوله : « تؤُلْ » بالجزم ، لأنه جواب الأمر ؛ أى ترجع .

والأكنان : جمع كِنّ وهو الستر . والدّعة : الراحة . السّعة : الجِدَة . والمعاقل: جمع مَعْقِل ، وهو الملجأ . والحِرز : الحفظ . وتشخص الأبصار : تبقى مفتوحة لاتطرف .

والأقطار : الجوانب . والصُّروم : جمع صُرْم وصِرْمة ، وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

والعِشار : النّوق أتى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، والواحدة عُشَراء ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [(١)] ، أى تركت مسيّبة مهملة لايلتفت إليها أربابها ، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم .

وتزهق كلّ مهجة : تهلك . وتبكم كلّ لهجة ، أى تخرس ، رجل أبكم وبكيم ، والماضى بكِمَ بالكسر .

والشُّمّ الشوامخ : الجبال العالية ، وذُلّها : تدكدكها ؛ وهى أيضا الصّمّ الرواسخ . فيصير صلدها — وهو الصلب الشديد انصلابه — سرابا ، وهو مايتراءى فى النهار فيظنّ ماء .

والرّقراق : الخفيف . ومعهدها : ماجعل منها منزلا للناس . قاعا : أرضا خالية .

والسّملق : الصفصف المستوى ، ليس بعضه أرفعَ وبعضه أخفض .

---

(١) سورة التكوير ٤ .

(١٨٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، ولا مَنْهَجٌ واضِحٌ .

أوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا ، فإنّها دَارُ شُخُوصٍ ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ ، ساكِنُها ظاعِنٌ ، وقاطِنُها بائِنٌ .

تَمِيدُ بِأَهْلِها مَيَدَانَ السَّفِينَةِ ، تَقْصِفُها العَوَاصِفُ فى لُجَجِ البِحَارِ ، فَمِنْهُمُ الغَرِقُ الوَبِقُ ، وَمِنْهُمُ النَّاجِى على بُطُونِ الأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيالِها ، وَتَحْمِلُهُ على أهْوَالِها ، فَما غَرِقَ مِنْها فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وما نَجَا مِنْها فَإِلَى مَهْلَكٍ .

عِبادَ اللهِ ؛ الآنَ فَاعْلَمُوا ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، والأَعْضاءُ لَدْنَةٌ ، وَالمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، والمَجالُ عَرِيضٌ ؛ قَبْلَ إِرْهاقِ الفَوْتِ ، وَحُلُولِ المَوْتِ ؛ فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

* * *

الشرح :

يقول : بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وآله لمّا لم يبق عَلَمٌ يهتدى به المكلّفون؛ لأنّه كان زمان الفترة وتبدّل المصلحه ، واقتضاء وجوب اللّطف عليه سبحانه تجديداً لبعثته ؛ ليعرّف المبعوثُ المكلّفين الأفعال التى تقرّبهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبّحات الفعلية .

والمنار الساطع : المرتفع . سطع الصُّبحُ سطوعا : ارتفع .

ودارُ شُخوص : دار رحْلة شَخَص عن البلد : رحل عنه .

والظاعن : المسافر . والقاطن : المقيم . والبائن : البعيد . يقول : ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة ، بل هو ظاعن فى المعنى وإن كان فى الصورة ساكناً ، والمقيم بها مفارق ؛ وإن ظَنّ أنه مقيم .

وتميد بأهلها : تتحرّك وتميل . والمَيَدان : حركة واضطراب .

وتصفقها العواصف : تضربها بشدّة ، ضربا بعد ضرب . والعواصف : الرياح القوية. اللجج : جمع لُجّة ، وهى معظم البحر .

الوبِق : الهالك ، وبَق الرجل بالفتح ، يبِقُ وبوقا : هلك ، والموْبِق منه كالموعِد « مفعِل » من وعد يعِد ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾[1] ؛ وفيه لغة أخرى: وَبَقَ الرجل يوْبَق وبَقًا ، وفيه لغة ثالثة : وَبِق الرّجل ، بالكسر يبِق بالكسر أيضا، وأوبقه الله ، أى أهلكه .

وتحفزه الرياح ، تدفعه . ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلا براكبى السّفينة فى البحر، وقد مادَتْ بهم ، فمنهم الهالك على الفور ، ومنهم مَنْ لا يتعجّل هلاكه ، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات ، ثم مآله إلى الهلاك أيضا .

ثم أمَرَ عليه السلام بالعمل وقتَ الإمكان قبل ألّا يمكن العمل ، فكنَى عن ذلك بقوله : والألسن منطلقة ، لأنّ المحتضَر يُعتقل لسانه ، والأبدان صحيحة ، لأنّ المحتضَر سقيم البدن . والأعضاء لدْنة ، أى لينة ، أى قبل الشيخوخة والهرَم ويبس

---

(١) سورة الكهف ٥٢ .

الأعضاء والأعصاب . والمنقلَب فسيح ، والمجال عريض ، أى أيام الشبيبة وفى الوقت والأجل مهلة ، قبل أن يضيق الوقت عليكم .

قبل إرهاق الفوت ، أى قبل أن يحملكم الفوت ـ وهو فوات الأمر وتعذّر استدراكه عليكم ـ مرهَقين ، والمرهَق : الذى أدرك ليقتل ، قال الكميت :

تَنَدَّى أَكُفُّهُمُ وَفِى أَبْيَاتِهِمْ ثِقَةُ الْمُجَاوِرِ والمضافِ المُرْهَقِ (١)

قوله : « فحققوا عليكم نزوله ، ولا تنتظروا قدومه » ، أى اعملوا عمل مَنْ يشاهد الموت حقيقة ، لا عمل مَنْ ينتظره انتظارا ويطاول الأوقات مطاولة ، فإنّ التسويف داعية التقصير .

---

(١) الصحاح واللسان (رهق) .

(١٩٠)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ ، أَنِّى لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ الأَقْدَامُ ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِى ، وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّى ، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِى . وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي ؛ فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ : مَلَأٌ يَهْبِطُ ، وَمَلَأٌ يَعْرُجُ ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّى حَيًّا وَمَيِّتاً !

فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

* * *

الشَّـرْحُ :

يمكن أن يعنى بالمستحفَظين الخلفاء الّذين تقدّموا ؛ لأنهم الّذين استحفِظوا الإسلام ؛ أى جُعِلوا حافظين له ، وحارسين لشريعته ولحوزته ، ويجوز أن يعنى به العلماء والفُضَلاء من الصّحابة ، لأنهم استحفِظوا الكتاب ، أى كُلِّفوا حفظَه وحراسته .

والظاهر أنه يرمز فى قوله عليه السلام : « لم أردَّ على الله ، ولا على رسوله ساعة قطّ » إلى أمور وقعتْ من غيره ، كما جرى يوم الحديبيَة عند سطْر كتاب الصلح ؛ فإنّ بعض الصحابة[(١)] أنكر ذلك ، وقال : يارسولَ الله ، ألسنا المسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوَليسُوا الكافرين ؟ قال : بلى ، قال : فكيف نُعطَى الدنيّة فى ديننا ! فقال صلى الله عليه وآله : « إنّما أعمَل بما أومَر به » فقال قوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة ! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطيناَ الدنيّة فى ديننا ، والله لو أجد أعوانًا لم أعطِ الدنيّة أبدا ، فقال أبو بكر لهذا القائل : ويحك ! الزَمْ غَرْزه[(٢)] ، فوالله إنّه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ الله لا يضيّعه .

ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخلها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلُها. فلما فتح النبيّ صلى الله عليه وآله مكة ، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال : هذا الذى وُعدتم به .

***

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريبَ فيه ، والنّاس كلُّهم روَوْه ، وليس عندى بقبيحٍ ولا مستهجَن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد ، والتماسًا لطُمأنينة النفس ، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[(٣)] . وقد كانت الصّحابة تراجِع رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأمور ، وتسأله عمّا يستبهِم عليها وتقول له : أهذا منك أم من الله ؟ وقال له السّعْدان[(٤)] رحمهما الله يوم الخندق ، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعضِ تمر المدينة : أهذا مِنَ الله أم رأيٌ رأيته من نفسك ؟ قال : بل من نفسى ؛ قالا : لا ، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا فى مقابض سيوفنا !

---

(١) هو عمر بن الخطاب ، وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣١ (طبعة الحلبى) .
(٢) الغرز فى الأصل : ركاب كور الجمل ، والكلام هنا على المجاز ، أى أتبع قوله وفعله .
(٣) سورة البقرة ٢٦١ .
(٤) هما سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة الأنصاريان .

وقالت الأنصار له يوم بدر ، وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه :أنزلتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِيَ إليك ؟ قال : بل عن رأيٍ رأيتُه ، قالوا : إنّه ليس لنا بمنزلٍ ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا .

وأما قول أبي بكر له : « الزم غَرْزَه ، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلّم » فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه ، ولا يدلّ ذلك على الشكّ ، فقد قال الله تعالى لنبيّه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (١) ؛ وكلُّ أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة . وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصّة ، كقوله : دعْني أضرب عُنُقَ أبي سفيان . وقوله : دَعْني أضرب عُنقَ عبد الله بن أُبيّ ، وقوله : دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة . ونَهْى النبيّ صلى الله عليه وآله له عن التسرّع إلى ذلك ، وجذبه ثوبَ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّى ، وقوله : كيف تستغفر لرأس المنافقين ! وليس في ذلك جميعه مايدلّ على وقوع القبيح منه ، وإنما الرّجلُ كان مطبوعاً على الشدّة والشراسة والخشونة ، وكان يقول مايقول على مقتضى السجيّة التي طبِع عليها . وعَلَى أيّ حال كان ، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيرا .

* * *

قوله عليه السلام : « ولقد واسيتُه بنفسي » ؛ يقال : واسيته وآسيته ، وبالهمزة أفصح ، وهذا مما اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع ، ثبت معه يوم أُحُد وفرّ الناس ، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس ، وثبت تحت رايته يوم خَيْبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله .

---

(١) سورة الإسراء ٧٤ .

وروى المحدّثون أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما ارتُثَّ (١) يوم أُحُد، قال الناس: قتِل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلّا أنه حيٌّ، فصمَدتْ له. فقال لعليٍّ عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صَمَدت له كتِيبة أخرى، فقال: ياعليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمَدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول: قال لى جبريل: يامحمد، إنّ هذه للمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو منّى وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما.

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمِعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادى: « لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علىّ » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: « ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل ».

وأما يومُ حنين فثبت معه فى نفرٍ يسير من بنى هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قوما من هوازن بين يديه، حتى ثابتْ إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبَر فقصّته مشهورة.

* * *

قوله عليه السلام: « نجدةً أكرمنى الله سبحانه بها »، النّجْدة: الشجاعة، وانتصابها هاهنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: « لقد قبِض وإنّ رأسَه لعَلَى صدرى، ولقد سالتْ نفسه فى كفّى، فأمررتُها على وجهى »، يقال: إنّ رسول الله

(١) ارتث: حمل من المعركة جريحا وفيه رمق.

صلى الله عليه وآله قاء دمًا يسيرا وقت موته ، وإنّ عليًّا عليه السلام مَسَحَ بذلك الدّم وجهه .

وقد رُوِىَ أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمَه عليه السلام وهو حىّ ، فقال له : إذن لا يجعْ بطنك .

قوله عليه السلام : « فضجّت الدار والأفنيَة » ، أى النازلون فى الدار من الملائكة ؛ أى ارتفع ضَجيجهُم وجلبُهم ، يعنى أنى سمعت ذلك ولم يسمعه غيرى من أهل الدار .

والملأُ : الجماعة ؛ يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم . والعروج : الصعود . والهينمة : الصوْت الخفىّ . والضريح : الشّقّ فى القبر .

***

[ذكر خبر موت الرسول عليه السلام]

وقد روى مِنْ قصّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه عرَضت له الشّكاة التى عرضت ، فى أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة ، فجهّز جيش أسامة بن زيد ، فأمرهم بالمسير إلى البَلْقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليهما السلام من الرّوم ، وخرج فى تلك الليلة إلى البقيع ، وقال : إنّى قد أُمِرْت بالاستغفار عليهم ، فقال عليه السلام : السّلام عليكم ياأهلَ القبور ، ليهنِئكُم ما أصبحتم فيه مِمّا أصبح الناس فيه ، أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم ، يتبع أوّلَها آخرُها . ثم استغفر لأهل البقيع طويلا ، ثم قال لأصحابه : إنّ جبريل كان يعارِضُنى القرآن فى كلّ عام مرّة ، وقد عارضنى به العامَ مرتين ، فلا أراه إلا لحضور أجلى . ثمّ انصرف إلى بيته ، فخطب الناس فى غدِه ، فقال[1] : معاشر الناس ، قد حان منّى خُفُوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندى عِدَة ، فليأتنى أعطه إياها ، ومَنْ كان له علىّ دين ، فليأتنى أقضِه . أيّها الناس ، إنّه ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتيه به خيرا ،

---

(١) ساقطة من ب .

أو يصرف عنه شرًا إلا العمل ، ألا لا يدّعينّ مدّع ولا يتمنّينّ متمنٍّ . والذى بعثنى بالحق لا ينجى إلا عملٌ مع رحمة ، ولو عَصَيْت لهويت . اللهمّ قد بلّغت .

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خَفيفة ، ثم دخل بيت أم سلَمة ، ثمّ انتقل إلى بيت عائشة يعلّله النساء والرجال ، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليها السلام ، وأمّا الرجال فعلىّ عليه السلام والعبّاس والحسن والحسين عليهما السلام ، وكانا غلامَيْن يومئذ ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحيانا إليهم ، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مَرَضِه ، فأوّل ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وآله : « ائتونى بدواة وقرطاس » ، وتلا ذاك حديث التخلّف عن جيش أسامة ، وقول عياش بن أبى ربيعة : أيولّى هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار !

ثم اشتدّ به المرض ، وكان عند خفّة مرضه يصلّى بالناس بنفسه ، فلما اشتدّ به المرض ، أمر أبا بكر أن يصلّىَ بالناس .

وقد اختلف فى صلاته بهم ، فالشّيعة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلّا صلاةً واحدة ، وهى الصّلاة التى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهادَى بين علىّ عليه السلام والفَضْل ، فقام فى المحراب مقامه ، وتأخّر أبو بكر .

والصحيح عندى — وهو الأكثر الأشهر — أنّها لم تكنْ آخرَ صلاة[1] فى حياته صلّى الله عليه وآله بالنّاس جماعة ، وأنّ أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين ، ثم مات صلّى الله عليه وآله ؛ فمن قائل يقول : إنّه توفّىَ لليلتين بقيتَا من صَفَر ، وهو القول الذى تقوله الشّيعة ؛ والأكثرون أنّه توفّىَ فى شهر ربيع الأول بعد مضىّ أيام منه .

وقد اختلفت الرّواية فى موته ، فأنكر عمر ذلك ، وقال : إنّه لم يَمُتْ ، وإنه غاب وسيعود ، فثناه أبو بكر عن هذا القول ، وتلا عليه الآيات المتضمّنة أنه سيموت ، فرجع إلى قوله .

(١) ب : « الصلاة » .

ثم اختلفوا فى موضع دفنه ، فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقطُ رأسه ، وقال مَنْ قال : بل بالمدينة ؛ ندفنه بالبقيع عند شهداء أُحُد . ثم اتفقوا على دفنه فى البيت الذى قبِض فيه ، وصلّوا عليه أرسالًا لا يؤمّهم أحد .

وقيل : إن عليًّا عليه السلام أشار بذلك فقبلوه .

وأنا أعجب من ذلك ؛ لأنّ الصّلاة عليه كانت بعد بيْعة أبى بكر ، فما الذى منع من أن يتقدّم أبو بكر فيصلّى عليه إماما !

وتنازعوا فى تلحيدِه وتضريحِه ، فأرسل العبّاس عمُّه إلى أبى عبيدة بن الجرّاح – وكان يحفِر لأهل مكّة ويضرَح[(١)] على عادتهم – رجلا ، وأرسل علىّ رجلًا إلى أبى طلحة الأنصارىّ – وكان يَلحَد لأهل المدينة على عادتهم – وقال : اللهمّ اخترْ لنبيّك ، فجاء أبو طلحة فلحَده ، وأدخِل فى اللّحد .

وتنازعوا فيمن ينزل معه القبْر ، فمنع علىٌّ عليه السلام النّاس أن ينزلوا معه ، وقال : لا ينزل قبرَه غيرى وغير العبّاس ، ثم أذن فى نزولِ الفضل وأسامة بن زيد مولاهم ، ثم ضجّت الأنصار ، وسألت أن ينزل منها رجل فى قبره . فأنزلوا أوْس بن خولىّ – وكان بدريًّا .

فأما الغسْل فإنّ عليا عليه السلام تولّاه بيده ، وكان الفضل بن العباس يصبّ عليه الماء .

وروى المحدّثون عن علىّ عليه السلام ، أنه قال : ما قَلَبْتُ منه عُضواً إلّا وانقلب ، لا أجدُ له ثِقلاً ، كأنّ معى مَنْ يساعدنى عليه ، وما ذلك إلّا الملائكة .

وأما حديث الهينمة وسماع الصّوت ، فقد رواه خَلْق كثير من المحدّثين ، عن علىّ

---

(١) يضرح : أى يشق ويحفر له ضريحاً .

عليه السلام ، وتروِى الشيعة أنّ علياً عليه السلام عَصَب عَيْنَيِ الفضل بن العباس ، حين صبّ عليه الماء ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك ، وقال : إنه لا يبصر عورتى أحدٌ غيرُك إلا عَمِىَ .

* * *

قوله عليه السلام : « فمن ذا أحقّ به منّى حياً وميتا ! » ، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور فى « به » ، أى أىّ شخص أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّى ؛ ومرادُه من هذا الكلام ، أنه أحقّ بالخلافة بعدَه وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه فى الدنيا ؛ وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور فى « منّى » لأنه لا يحسن أن يقول : أنا أحقّ به إذا كنت حياً من كلّ أحد ، وأحقّ به إذا كنت ميتا من كلّ أحد ، لأنّ الميت لا يوصَف بمثل ذلك ، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقيّة إذا كان حياً إلّا وهى ثابتة له إذا كان ميتا ، وإن كان الميت يوصف بالأحقيّة ، فلا فائدة فى قوله .

« وميتا » على هذا الفرض ، ولا يبقى فى تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة ، وأمّا إذا كان حالا من الضمير فى « به » ، فإنه لا يلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حىّ أن يكونَ أحقَّ بالخلافة بعد وفاته ، أى ليس أحدُهما يلزم الآخر ، فاحتاج إلى أن يبيّن أنه أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحدٍ إن كان الرسول حياً ، وإنْ كان ميتا ، ولم يستهجن أن يقسّم الكلام إلى القسمين المذكورين .

قوله عليه السلام : « فانفذوا إلى بصائركم » ، أى أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التى أنتم عليها ، ولا يدخلنّ الشكّ والرَّيب فى قلوبكم .

قوله عليه السلام : « إنى لعلى جادّة الحق ، وإنهم لعلَى مزلّة الباطل » ؛ كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المعنوية ، لأنّه لا يحسن أن يقول : وإنهم لَعَلَى جادّة الباطل ؛ لأن الباطل لا يوصف بالجادّة ، ولهـذا يقال لمن ضلّ : وقع فى بُنَيّاتِ الطريق[1] ، فتعوّض عنها بلفظ « المزلّة » ، وهى الموضع الذى يزلّ فيه الإنسان ، كالمزلقة : موضع الزَّلَق ، والمغرقة : موضع الغرق ، والمهلكة : موضع الهلاك .

---

(١) بنيات الطريق فى الأصل : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

(١٩١)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ، وَاخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ ، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ دَنَسِ أنفسكم ، وَجِلَاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

العجيج : رفع الصوت ، وكذلك العَجّ ، وفي الحديث : « أفضل الحج العَجّ والثَّجّ » ، أي التلبية وإراقة الدم ، وعجيج ، أي صوت ، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت .

والنِّينان : جمع نُونٍ ، وهو الحوت ، واختلافها هاهنا : هو إصعادها وانحدارها .

ونجيب الله : منتجبه ومختاره .

وسفير وحيه : رسول وحيه ، والجمع سفَراء ، مثل فقيه وفقهاء .

وإليه مرامى مفزعكم : إليه تفزعون وتلجئون ، ويقال : فلان مرمَى قصدى، أى هو للوضع الذى أنحوه وأقصده .

ويروى: « وجلاء عشَى أبصاركم »،بالعين المهملة والألف المقصورة،والجأش : القلب، وتقدير الكلام : وضياء سواد ظلمة عقائدكم ، ولكنه حذف المضاف للعلم به .

***

الأصْلُ :

فَاجْعَلُوا طَاعَةَ ٱللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلِبَتِكُمْ ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ،وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ ، فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ .

فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ؛ وَاحْلَوْلَتْ لَهُ ٱلْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ ٱلْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا . وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا،وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا .

فَاتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ،وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ،وَٱمْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ . فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ .

***

الشرح :

الشِّعار : أقرب إلى الجَسَد من الدِّثار . والدَّخيل : ماخالط باطنَ الجسد، وهو[1] أقرب من الشعار .

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفا بين الأضلاع ، أى فى القلب، وذلك أمسّ بالإنسان من الدخيل ، فقد يكون الدَّخيل فى الجسد وإن لم يخامر القلب .

ثم قال : « وأميرا فوق أموركم » ، أى يحكم على أموركم كما يحكم الأمير فى رعيّته .

والمنهل : الماء يرِده الوارد من الناس وغيرهم .

وقوله : « لحين ورودكم » ، أى لوقت ورودكم .

والطَّلِبة بكسر اللام : ماطلبته من شىء .

قوله : « ومصابيح لبطون قبوركم » ، جاء فى الخبر : إن العمل الصالح يضىء قبرَ صاحبه كما يضىء المصباح الظلمة .

والسَّكن : مايسكن إليه .

قوله : « ونَفَسا لكرب مواطنكم » ؛ أى سعَة ورَوْحا .

ومكتنفة : محيطة . والأُوَار : حرّ النار والشمس .

وعَزَبت : بعُدت . واحلولت : صارت حلوة . وتراكُمها : اجتماعها وتكاثفُها .

وأسهلت : صارت سهلة . بعد إنصابها ، أى بعد إتعابها لكم ؛ أنصبته : أتعبته .

وهطلت : سالت . وقحوطها : قلّتها ووَتاحتها[2] .

وتحدّبت عليه : عطفت وحَنَت .

نضوبها : انقطاعها . كنضوب الماء : ذهابه .

---

(١) ب : « فهو »

(٢) الوتاحة : القلة .

ووبَل المطر : صار وابلا ، وهو أشدّ المطر وأ كثره . وإرذاذها : إتيانها بالرّذاذ وهو ضعيف المطر .

قوله : « فعبِّدوا أنفسكم » ، أى ذللوها . ومنه طريق معبّد .

واخرجوا إليه من حقّ طاعته ، أى أدُّوا المفترَض عليكم من العبادة ، يقال : خرجت إلى فلانٍ من دَيْنه ، أى قضيته إياه .

***

الأَصْلُ :

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الإِسْلَامَ دِينُ اللهِ الَّذِى اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ .

أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ ، وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ ، وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ .

ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ ، وَلَا انْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ؛ وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ ، وَلَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ ، وَلَا عَصَلَ فى عُودِهِ ، وَلَا وَعْثَ لِفَجِّهِ ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ .

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا ، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا ؛ وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَابِيحُ شُبَّتْ نِيرَانُهَا ؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا ، وَأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا .

جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُضِيءُ النِّيرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ .

فَشَرِّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ؛ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ .

***

الشرح :

اصطنعه على عينه ؛ كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به ، تقول للصانع : اصنع لى كذا على عينى ، أى اصنعه صنعة كاملةً كالصنعة التى تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعينى ، قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[1] .

وأصفاه خيرَة خلقه ، أى آثر به خيرَة خلقه ، وهم المسلمون ؛ وياء : «خِيرَة» مفتوحة.

قال : وأقام الله دعائم الإسلام على حبّ الله وطاعته .

والمحادّ : المخالف ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ﴾[2]، أى من يعادِ الله كأنه يكون فى حدّ وجهة، وذلك الإنسان فى حدّ آخر وجهة أخرى ، وكذلك المشاقّ ؛ يكون فى شقّ والآخر فى شق آخر .

وأتأق الحياض : ملأها ، وتَئِقَ السقاء نفسه يتأق تأقا ، وكذلك الرجـل ، إذا امتلأ غضباً .

قوله : « بمواتحه » ، وهى الدّلاء يمتح بها ، أى يستقى بها .

والانفصام :الانكسار . والعفاء: الدُّروس .

والجذّ : القطع ، ويروى بالدال المهملة ؛ وهو القطع أيضاً .

والضّنك : الضيق .

---

(١) سوره طه ٣٩ .
(٢) سوره التوبة ٩ .

والوعوثة : كثرة فى السهولة توجب صعوبة المشى ؛ لأن الأقدام تغيث فى الأرض .

والوضَح : البياض .

والعوَج ، بفتح العين : فيما ينتصب كالنّخلة والرّمح ، والعِوَج بكسرها : فيما لا ينتصب ؛ كالأرض والرأى والدّين .

والعَصَل : الالتواء والاعوجاج ، ناب أعْصَل وشجرة عصلة ، وسهام عُصْل .

والفَجّ : الطريق الواسع بين الجبلين ، يقول : لا وَعث فيه ؛ أى ليس طريق الإسلام بوعث ، وقد ذكرنا أنّ الوعوثة ماهى .

قوله : « فهو دعائم أساخ فى الحق أسناخها » ، الأسْناخ : جمع سِنْخ ، وهو الأصل ، وأساخها فى الأرض : أدخلها فيها ، وساخت قوائم فرسه فى الأرض تسوخُ وتَسِيخ : دخلت وغابت .

والآساس بالمدّ : جمع أسَس ، مثل سَبَب وأسباب ، والأسَس والأُسّ والأساس واحد ، وهو أصل البناء .

وغَزُرت عيونها ، بضم الزاى : كثرت . وشَبّت نيرانها بضم الشين : أوقدت، والمنار : الأعلام فى الفلاة .

قوله : « قصد بها فجاجها » ، أى قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين فى تلك الفجاج ، فأضاف القصد إلى الفِجاج .

وروى : « روّادها » جمع رائد ، وهو الذى يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء .

والذُّرْوة : أعلى السنام والرأس وغيرهما .

قوله : « معوِز المثار » ، أى يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوّته ومتانته .

***

الأصل :

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ ، حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنيَا الانقِطَاعُ ؛ وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلَاعُ ، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا ، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا .

جَعَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ ؛ وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ ، وَفُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ، وَتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لَا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ ، وَأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ .

***

[اختلاف الأقوال فى عمر الدنيا]

الشرح :

قوله عليه السلام : « حين دنا من الدنيا الانقطاع » ، أى أزِفَتِ الآخرة وقَرُب وقتها . وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا شديدا فذهب قوم إلى أنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، قد ذهب بعضها وبقى بعضها .

واختلفوا فى مقدار الذاهب والباقى ، واحتجّوا لقولهم بقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[١] ، قالوا : اليوم هو إشارة إلى الدنيا ، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه ، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه ، وإلى رسله ، قالوا : وليس قول بعض المفسّرين أنه عَنَى يوم القيامة بمستحسَن ، لأنّ يوم القيامة لا يكون للملائكة والرّوح عروج إليه سبحانه ، لانقطاع التكليف ، ولأنّ المؤمنين إمّا أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة ، أو يكون هذا مختصاً بالكافرين فقط ، ويكون قصيراً على المؤمنين ، والأوّل باطل ؛ لأنه أشدّ من عذاب جهنّم ، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقّة ، والثّانى باطل ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الزّمان الواحد طويلا قصيرا بالنّسبة إلى شخصين ، اللهمّ إلّا أن يكون أحدُهما نائما ، أو ممنوّا بعلّة تجرى مجرَى النّوم ، فلا يحسّ بالحركة ، ومعلوم أنّ حال المؤمنين بعد بعثهمْ ، ليست هذه الحال .

قالوا : وليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى ، وهى قولُه تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[٢] ، وذلك لأنّ سياق الكلام يدلّ على أنه أراد به الدّنيا ، وذلك لأنه قد وَرَد فى الخبر أنّ

---

(١) سورة المعارج ٤ .
(٢) سورة السجدة ٥ .

بين الأرضِ والسماء مسيرة خمسمائة عام ، فإذا نزل الملك إلى الأرضِ ، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع فى ذلك اليوم مسيرة ألف عام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، أى ينزل الملك بالوحى والأمر والحكم من السماء إلى الأرض، ثم يعود راجعاً إليه وعارجا صاعدا إلى السماء ، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة.

***

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهانىّ فى كتابه المسمى "تواريخ الأمم" : أنّ اليهود تذهب إلى أنّ عدد السنين من ابتداء التّناسل إلى سنة الهجرة لمحمد صلى الله عليه وآله أربعة آلاف واثنتان وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

والنصارى تذهبُ إلى أنّ عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر .

وأنّ الفرس تذهب إلى أنّ من عهد كيومَرْت والد البشر عندهم إلى هلاك يَزْدَجِرد ابن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعةعشر يوما، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذى جاء به زَرَدُشت ، وهو الكتاب المعروف بأبستا .

فأمّا اليهود والنصارى فيسنِدُون ذلك إلى التوراة ويختلفون فى كيفيّة استنباط المدّة .

وتزعم النّصارى واليهود أن مدّة الدّنيا كلّها سبعة آلاف سنة ، قد ذهب منها ماذَهَب وبقى ما بَقِىَ .

وقيل : إنّ اليهود إنما قصّرت المدّة لأنهم يزعمون أنّ شيخَهم الذى هو منتظرُهم ، يخرج فى أوّل الألف السّابع ، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيّامها لتعجّل افتضاحهم ، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند مَنْ يأتى بعدنا من البشر .

قال حمزة : وأما المنجّمون فقد أتوا بما يغمز هذا كلّه ، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارتْ فيه الكواكب ، من رأس الحمل إلى اليوم الذى خرج فيه المتوكّل ابن معتصم بن الرشيد من سامرّاء إلى دمشق ، ليجعلها دار الملك ، وهو أوّل يوم من المحرّم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة المحمدية ، أربعة آلاف ألف ألف ألف ألف – ثلاث لفظات – وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة ، بسنِى الشمس

قالوا : والذى مضى من الطّوفان إلى صبيحة اليوم الّذى خرج فيه المتوكّل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما .

***

وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتاب ''الآثار الباقية عن القرون الخالية'' : أنّ الفرس والمجوس يزعمون أن عُمْر الدنيا اثنا عشر ألف سنة ، على عدد البروج وعدد الشهور ، وأنّ الماضِيَ منها إلى وقت ظهور زَرَدُشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة ، وبين ابتداء ظهور زَرَدُشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التى كتبنا فيها شرح هذا الفصل – وهى سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبويّة – ألف وخمسمائة وسبعون سنة ، فعلَى هذا يكون الماضى إلى يومنا هذا من أصل اثنى عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمانى عشرة سنة ، فيكون الباق من الدنيا علَى قولهم أكثر من الماضى .

وحكى أبو الريحان عن الهند فى بعض كُتبه ، أنّ مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت فى رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت .

***

فأما الأخباريّون من المسلمين ، فأكثرهم يقولون : إنّ عمر الدّنيا سبعة آلاف سنة

ويقولون إننا فى السابع ، والحقّ أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾(١)، وقال : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾(٢).

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾(٣) وَ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(٤)، و ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٥).

ولا نعلم كمّيّة الماضى ولا كمّيّة الباقى ، ولكنّا نقول كما أُمِرْنا ، ونسمع ونطيع كما أُدِّبنا ، ومن الممكن أن يكون ما بقى قريبا عند الله ، وغير قريب عندنا ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾(٦).

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه .

***

قوله عليه السلام : « وقامت بأهلها على ساقٍ » ، الضمير للدنيا ، والساق الشدّة،أى انكشفت عن شدّة عظيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾(٧) أى التفّت آخر شدّة الدنيا بأول شدّة الآخرة .

والمِهاد : الفراش . وأزِف منها قياد ، أى قرب انقيادُها إلى التقضى والزوال .

وأشراط السّاعة : علاماتها ، وإضافتها إلى الدّنيا لأنّها فى الدّنيا تحدث ، وإن كانت علامات للأخرى . والعَفاء : الدروس .

---

(١) سورة النازعات ٤٢ ــ ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف ٨٧ .
(٣) سورة القمر ١ .
(٤) سورة الأنبياء ١ .
(٥) سورة النحل ١ .
(٦) سورة المعارج ٦ .
(٧) سورة القيامة ٢٩ .

وروى : « من طِوَلها » والطِّوَل : الحبل .

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال : جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته ؛ أى ذا بلاغ ، والبلاغ : التّبليغ ، فحذف المضاف .

ولا تخبو : لا تنطفئ . والفرقان : مايفُرّق به بين الحقّ والباطل .

وأثافىّ الإسلام : جمع أثفيّة ، وهى الأحجار توضع عليها القِدْر ، شكل مثلّث .

والغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئنّ من الأرض .

ولا يَغيضها ، بفتح حرف المضارعة ، غاض الماء وغِضتُه أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى، وروى « لا يُغيضها » بالضمّ على قول من قال : أغضت الماء ، وهى لغة ليست بالمشهورة

والإكام : جمع أكَم ، مثل جِبال جمع جبَل ، والأكَم جمع إكَمة ، مثل عِنب جمع عِنَبة ، والأكَمة :ماعلا من الأرض ، وهى دون الكثيب .

***

الأصْلُ :

جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاء ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاء ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاء ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنْ أْتَمَّ بِهِ ، وَعُذْراً لِمَنِ انتحلَه ، وَبُرْهاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ،وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ،وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى .

***

الشَّرحُ :

الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله رِيًّا لعطش العلماء ، إذا ضلّ العلماء فى أمر والتبس عليهم رجعوا إليه ، فسقاهم كما يسقى الماء العطِش ، وكذا القول فى « ربيعا لقلوب الفقهاء » ، والربيع هاهنا : الجدول ، ويجوز أن يريد المطر فى الربيع ، يقال : رَبِعتِ الأرض فهى مربوعة .

والمحاجّ : جمع محجّة ، وهى جادّة الطريق . والمعقِل : الملجأ .

وسِلْمًا لمن دخله ، أى مأمنا ، وانتحله : دان به ، وجعله نِحْلَته .

والبرهان : الحجّة ، والفَلْج : الظَّفَر والفوز . وحاجّ به : خاصم .

قوله عليه السلام: « وحاملا لمَنْ حَمَله » ؛ أى أنّ القرآن ينجّى يوم القيامة مَنْ كان حافظا له فى الدنيا ، بشرط أن يعمل به .

قوله عليه السلام : « ومطيّة لمن أعمله » ، استعارة ، يقول : كما أنّ المطية تنجّى صاحبَها إذا أعملها وبعثها على النَّجاء ، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه ، ومعنى إعماله ، اتّباع قوانينه والوقوف عند حدوده .

قوله : « وآية لمَنْ توسّم » ، أى لمن تفرّس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1] .

والجُنّة : مايستَتَرُ به : واستلأم : لبس لأمة الحرب ، وهى الدرع .

ووَعَى : حَفِظ .

قوله : « وحديثا لمن روَى » ، قد سمّاه الله تعالى حديثا فقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .

﴿الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾(١) ؛ وأصحابنا يحتجّون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم؛ لأنّ الحديث ضدّ القديم .

وليس للمخالف أن يقول : ليس المراد بقوله : ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ماذكرتم ؛بل المراد أحسنُ القول ، وأحسن الكلام ، لأنّ العرب تسمّي الكلام والقول حديثا ، لأنا نقول : لعمرى، إنه هكذا ، ولكن العرب ماسمّت القول والكلام حديثا إلّا أنه مستحدَث متجدِّد حالا فحالا ، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية : « قد ملَّتُ كلّ شيء إلّا الحديث»، فقال : إنّما يُملّ العتيق ؛ فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثا ، وفطِن لمغزاهم ومقصدهم فى هذه التسمية ، وإذا كُنّا قد كلّفنا أن نجرى على ذاته وصفاته وأفعاله ماأجراه سبحانه فى كتابه ، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفيّة التى أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث ـ وكان القرآن فى عرف اللغة إنما سمّى حديثا لحدوثه وتجدّده ـ فقد ساغ لنا أن نُطلِقَ على كلامه أنه محدَث ومتجدّد؛ وهذا هو المقصود .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ .

(١٩٢)

الأصلُ:

ومن كلام له عليه السلام كان يوصى به أصحابه:

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾(١).

وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ.

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ!

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ؛ وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ؛ مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾(٢).

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾(٣)؛ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ.

---

(١) سورة المدثر ٤٢، ٤٣.
(٢) سورة النور ٣٧.
(٣) سورة طه ١٣٢.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا؛ فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ،وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوِقَايَةً ؛ فَلَا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَاهُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ ، مَغْبُونُ الْأَجْرِ ، ضَالُّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ . ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمٰوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ ،وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ ؛ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ ؛ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا . وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ ، أَوْ عَرْضٍ ، أَوْ قُوَّةٍ ، أَوْ عِزٍّ ، لَامْتَنَعْنَ ؛ وَلٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَ مَاجَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ،وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) .

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، لَطُفَ بِهِ خُبْرًا ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

***

الشرح :

هذه الآية يستدل بها الأصوليون من أصحابنا على أن الكفار يعاقبون فى الآخرة على ترك الواجبات الشرعية ، وعلى فعل القبائح ، لأنها فى الكفار وردت ، ألا ترى إلى قوله: ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ (٢) .فليس يجوز أن يعنى بالمجرمين هاهنا الفاسقين من أهل القبلة،لأنه قال : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *

---

(١) سورة الاحزاب ٧٢ .
(٢) سورة المدثر ٤٢ ـ ٤٧

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾[١].

قالوا: وليس لقائل أن يقول: معنى قوله: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة؛ لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ لأنّ أحد الأمرين هو الآخر، وحَمْل الكلام على مايفيد فائدةً جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة، فقد ثبت بهذا التقرير صحةَ احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة، وأنّها من العبادات المهمّة فى نظر الشارع.

قوله عليه السلام: « وإنّها لتحتُّ الذّنوب »، الحتّ: نثر الورق من الغصن، وانحاتّ، أى تناثر؛ وقد جاء هذا اللفظ فى الخبر النبوىّ بعينه.

والرِّبَق: جمع رِبقة، وهى الحبل، أى تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقّدة، أى تحلّ ماانعقد على المكلَّف من ذنوبه. وهذا من باب الاستعارة.

ويروى: « تعهّدوا أمر الصلاة » بالتضعيف، وهو لغة، يقال: تعاهدت ضَيْعتى وتعهّدتها وهو القيام عليها، وأصله من تجديد العهد بالشىء، والمراد المحافظة عليه؛ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[٢]، أى واجبا، وقيل موقوتا؛ أى منجّما كلّ وقت لصلاة معيّنة؛ وتؤدّى هذه الصلاة فى نجومها.

وقوله: « كتابا » أى فرضا واجبا، كقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[٣] أى أوجب.

والحَمَّة: الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحارّ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح، قال صلى الله عليه وآله: « أيسرّ أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس

(١) سورة المدثر ٤٢ – ٤٧.
(٢) سورة النساء ١٠٣.
(٣) سورة الأنعام ٣

مرات ، فلايبقى عليه من دَرَنِهِ شىء ! قالوا نعم ، قال : فإنَّها الصلوات الخمس » .
والدَّرَن : الوسخ .

والتجارة فى الآية ، إمّا أنْ يراد بها : لايشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكرالله .
ثمّ أفرد البيع بالذكر ، وخصّه وعطفه على التجارة العامة ، لأنه أدخل فى الإلهاء ، لأنّ الربح فى البيع بالكسب معلوم ، والرّبح فى الشراء مظنون ، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقا لاسم الجنس الأعمّ على النوع الأخصّ ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة ، إذا اتّجه له شراء صالح ، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء فى « إقامة » عوض من العين الساقطة للإعلال ، فإنّ أصله « إقوام » مصدر أقام ، كقولك : أعرض إعراضاً ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت التاء .

قوله عليه السلام : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصِباً بالصّلاة ، أى تَعِباً ، قال تعالى : ﴿ ماأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾[1] .

وروى أنه عليه السلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة .

وروى أنه قيل له فى ذلك فقال : « أفلا أكونُ عبدا شكورا ! » .

ويُصبر نفسه : من الصبر ، ويروى : « ويَصْبر عليها نفسه » أى يحبس ؛ قال سبحانه : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾[2] . وقال عنترة يذكر حربا كان فيها :

فَصبَرْتُ عارِفَـةً لذلك حُرَّةً ترْسُو إذانفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ[3]

***

[فصل فى ذكر الآثار الواردة فى الصلاة وفضلها]

واعلم أنّ الصلاة قد جاء فى فضلها الكثير الذى يُعجزنا حصره ، ولو لم يكن

(١) سورة طه ٢ .
(٢) سورة الكهف ٢٨ .
(٣) اللسان (صبر) .

إلا ماورد فى الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والمحافظة عليها ، لكان بعضه كافيا .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « الصَّلاةُ عمودُ الدِّين ، فمن تركها فقد هدم الدين » .

وقال أيضاً عليه السلام : « عَلَمَ الإيمان الصّلاة ، فمن فرَّغ لها قلبه ، وقام بحدودها ؛ فهو المؤمن » .

وقالت أمّ سلمة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه .

وقيل للحسن رحمه الله : مابال المتهجّدين مِنْ أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنّهم خلَوْا بالرّحمن ، فألبسهم نورا من نوره .

وقال عمر : إنّ الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام ماأكمل الله له صلاة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتمّ خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها .

وقال بعض الصالحين : إنّ العبد ليسجُد السّجدة عنده أنه متقرب بها إلى الله ، ولو قُسِم ذنبه فى تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يكون ساجداً وقلبه عند غير الله ، إنما هو مصغٍ إلى هوًى أو دنيا .

صلّى أعرابىّ فى المسجد صلاة خفيفة ، وعمر بن الخطاب يراه ، فلمّا قضاها قال : اللهمّ زَوِّجْنى الحور العين . فقال عمر : ياهذا لقد أسأت النَّقْد ، وأعظمت الخِطْبة !

وقال علىّ عليه السلام : لايزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الخمس ، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه ، وأوقعه فى العظائم .

وروى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « الصلاة إلى الصلاة كفّارة لمابينهما ، ما اجتنبت الكبائر » .

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حزَبَه أمرٌ فزِع إلى الصلاة .

وقال هشام بن عروة : كان أبى يطيل المكتوبة ويقول : هى رأس المال .

قال يونس بن عبيد : مااستخفّ أحد بالنوافل إلّا استخفّ بالفرائض .

يقال : إنّ محمد بن المنكدر جزّأ الليل عليه وعلى أمّه وأخته أثلاثاً ، فماتت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين ، فماتت أمّه فقام الليل كله .

كان مسلم بن يسار لايسمع الحديث إذا قام يصلّى ، ولا يفهمه ، وكان إذا دخل بيته سكت أهلُه فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة ، فيتحدّثون ويلغطون ، فهو لايشعر بهم .

ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة ، فلم يشعر به حتى حرق .

كان خلف بن أيوب لايطردُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو فى الصلاة فى بلاد كثيرة الذّبان ، فقيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغنى أنّ الشّطّار يصبرون تحت السّياط ليقال: فلان صبور ، أفلا أصبر وأنا بين يدى ربّى على أذى ذباب يقع علىّ !

قال ابن مسعود : الصلاة مكيال ، فمن وَفّى وُفّىَ له ، ومن طفّف ،فويلٌ للمطفّفين !

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : يارسول الله ،ادع لى أن يرزقنى الله مرافقتك فى الجنّة ، فقال : « أعنّى على إجابة الدّعوة بكثرة السجود » .

***

قوله عليه السلام : « قربانا لأهل الإسلام » ، القربان : اسم لما يتقرّب به من نَسِيكة أو صدقة .

وروى :« ومن النار حجازا » بالزاى أى مانعا. واللّهَف :الحسرة،ينهى عليه السلام

عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتلهف والتحسّر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إنّ من يفعل ذلك يرجُو بها نَيْل الثّواب ضالّ مضيِّع لماله، غير ظافر بما رجاه من المثوبة.

***

[ذكر الآثار الواردة فى فضل الزكاة والتصدق]

وقد جاء فى فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جدا، ولو لم يكن إلّا أنّ الله تعالى قرنها بالصلاة فى أكثر المواضع التى ذكر فيها الصلاة لكفى.

وروى بريدة الأسلمىّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « ماحَبَس قومٌ الزّكاة إلا حبس الله عنهم القَطْر ».

وجاء فى الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ماجاء فى الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ .. ﴾(١) الآية، قال المفسرون: إنفاقها فى سبيل الله إخراج الزكاة منها.

وروى الأحنف قال: قدمتُ المدينة، فبينا أنا فى حَلْقَة فيها ملأٌ من قريش، إذ جاء رجل خَشِنُ الجسد، خَشِنُ الثياب، فقام عليهم، فقال: بَشِّر الكانزين برَضْف (٢) يحمَى عليها فى نار جهنم، فتوضع على حَلَمة ثدى الرجل حتى تخرج من نُغْض (٣) كتفه، ثم توضع على نُغْض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبوذرّ الغفارىّ، وكان يذكره ويرفعه.

ابن عباس يرفعه: « مَنْ كان عنده ما يزكّى فلم يزكّ، وكان عنده مايحج فلم يحج سأل الرجعة، يعنى قوله: « رب ارجعون ».

---

(١) سورة التوبة ٢٤.

(٢) الرضف: الحجارة المحماة.

(٣) النغض: أعلى الكتف؛ وقيل هو العظم الرقيق الذى على طرفه.

أبو هريرة : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله : أيّ الصدقة أفضل؟ فقال : أن تعطِى وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل ؛ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا[1] .

وقيل للشبليّ : مايجب فى مائتى درهم ؟ قال: أمّا من جهة الشرع فخمسة ، وأمّامن جهة الإخلاص فالكلّ .

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بعضَ نسائه أن تقسِم شاة على الفقراء فقالت: يارسول الله ؛ لم يبق منها غير عُنُقِها ؛ فقال عليه السلام : كلّها بقىَ غير عنقها . أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

يبكى على الذّاهب من مالِهِ   وإنّما يبقى الذى يذهبُ

السائب : كان الرجل من السلف يضع الصدقة ، ويمثُل قائما بين يدى السائل الفقير ويسأله قبولها ؛ حتى يصير هو فى صورة السائل .

وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير ؛ لتكون يدُ الفقير العليا .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله : «ما أحسن عبدٌ الصدقة إلاّ أحسنَ الله إليه فى مخلّفيه»

وعنه صلى الله عليه وآله : « الصدقة تسدّ سبعين بابا من الشرّ » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « أذهبُوا مذمّة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » .

كان النبيّ صلى الله عليه وآله لا يكلُ خصلتين إلى غيره : لا يوضّئه أحد، ولايعطى السائل إلّا بيده .

بعض الصالحين : الصلاة تبلغك نصفَ الطريق ، والصوم يبلِغك باب الملِك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

الشّعبى : من لم يرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصدَقة من الفقير إلى صدقته ،فقد أبطل صدقته ؛ وضرب بها وجهه .

(١) ساقط من ب .

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن ؛ أعطاه زيتا أو سمنا أو نحوهما مما ينتفع به ، فإن لم يكن ، أعطاه كحلا ، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقع بها ما تخرّق من ثوبه .

ووقف مرّة على بابه سائل ليلا ، ولم يكن عنده مايدفعه إليه ، فخرج إليه بقصبة فى رأسها شُعلة ، وقال : خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك .

* * *

قوله عليه السلام : « ثم أداء الأمانة »، هى العقد الذى يلزم الوفاء به ، وأصحّ ماقيل فى تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة المحمل ، لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم ، فهى بالغة من الثقل وصعوبة المحمل مالوا أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها . فأمّا الإنسان فإنه حمَلها وألزم القيام بها . وليس المراد بقولنا : إنهـا عرضت على السموات والأرض أى لو عرضت عليها وهى جمادات ، بل المراد تعظيم شأن الأمانة ، كما تقول : هذا الكلام لا يحمله الجبال ، وقوله :

* امتلأ الحوض وقال قطنى *(١)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أتينا طائعين ﴾(٢) . ومذهب العرب فى هذا الباب . وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع .

---

(١) اللسان (قطن) ، وبقيته :

* مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلَأْتَ بَطْنِي *

(٢) سورة فصلت ١١ .

(١٩٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَٱللهِ مَامُعَاوِيَةُ بِأَدهَى مِنِّي ؛ وَلَـكِنَّهُ يَغدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَـدْرِ لَـكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَـكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ ؛ وَلِـكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . وَٱللهِ مَاأُسْتَغْفَلُ بِالْمَـكِيدَةِ ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

***

الشرح :

الغُدَرَة ، على « فُعَلة » الـكثير الغَدْر ، والفُجَرة والـكُفَرة : الـكثير الفجور والـكفر ، وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل ، فإن سكّنت العين فهو للمفعول ، تقول : رجل ضُحَـكَة أي يَضْحك ، وضُحْـكَة يُضحَك منه ، وسُخَرة يَسْخر ، وسُخْرة يُسخَر به ، يقول عليه السلام : كلّ غادر فاجر ، وكلّ فاجر كافر . ويروى : « ولـكن كلّ غَدْرة فجْرة ، وكلّ فَجْرة كَفْرة » على « فَعْلة » للمرة الواحدة .

وقوله : « لـكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة » ؛ حديث صحيح مروىّ عن النبي صلى الله عليه وآله .

ثم أقسم عليه السلام أنه لا يُستغفَل بالمـكيدة ، أى لا تجوز المـكيدة علىّ ، كما تجوز على ذوى الغَفْلة ، وأنه لا يستغمَز بالشديدة ، أى لا أهين وألين للخطب الشديد .

***

[سياسة علىّ وجريها على سياسة الرسول عليه السلام]

واعلم أنّ قوماً ممّن لم يعرف حقيقة فضلِ أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أنّ عمرَ كان أسوَس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو علىّ بن سينا بذلك فى «الشفاء» فى الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرّض به فى كتاب «الغرر»[1]، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أنّ معاوية كان أسوَس منه وأصحّ تدبيرا، وقد سبق لنا بحث قديم فى هذا الكتاب فى بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحّة تدبيره، ونحن نذكر هاهنا مالم نذكره هناك ممّا يليق بهذا الفصل الذى نحن فى شرحه.

اعلم أنّ السائس لايتمكّن من السياسة البالغة إلّا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته؛ سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل فى السياسة والتدبير بموجب ماقلناه؛ فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيّدا بقيود الشريعة، مدفوعا إلى اتباعها ورفض مايصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقا، فلم تكن قاعدته فى خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ماهو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسانِ والمصالح المرسَلة، ويرى تخصيص عُمومات النصّ بالآراء وبالاستنباط من أصولٍ تقتضى خلاف مايقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسّوط من

---

(١) هو كتاب الغرر لأبى الحسين البصرى، فى أصول الكلام، شرحه المؤلف، وسماه: «شرح مشكلات الغرر»، ذكره صاحب روضات الجنات.

يتقلّب على ظنّه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا مايستحقون به التأديب ، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص والظواهر ، ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة ، ويطبّق أمورَ الدّنيا على أمور الدين ، ويسوق الكلّ مساقا واحدا ؛ ولا يُضيّع ولا يرفع إلّا بالكتاب والنصّ ، فاختلفت طريقتاهما فى الخلافة والسياسة ، وكان عمر مع ذلك شديد الغِلظة والسياسة ، وكان علىّ عليه السلام كثير الحِلْم والصّفح والتجاوز ، فازدادت خلافة ذاك قوّة ، وخلافة هذا لينا ؛ ولم يُمْنَ عمر بما مُنِىَ به علىّ عليه السلام من فتنة عثمان ؛ التى أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم ، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة . ثم تلا ذلك فتنة الجمل ، وفتنة صِفِّين ثم فتنة النّهروان ، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة فى اضطراب أمر الوالى وانحلال معاقد ملكه ، ولم يتّفق لعمر شىء من ذلك ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة !

فإن قلت : فما قولك فى سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره ؟ أليس كان منتظماً سديدا مع أنه كان لا يعمل إلّا بالنصوص والتوقيف من الوحى ! فهلّا كان تدبير علىّ عليه السلام وسياسته كذلك ! إذا قلتم : إنه كان لا يعمل إلّا بالنصّ ، قلت : أما سياسة الرسول لله صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عمّا نحن فيه ؛ لأنه معصوم لا تتطرّق الغفلة إلى أفعاله ، ولا واحدَ من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا . وأيضا فإنّ كثيرا من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذِن للرسول الله صلى الله عليه وآله أن يحكم فى الشرعيات وغيرها برأيه ، وقال له : احكم بما تراه ، فإنّك لا تحكم إلّا بالحق ، وهذا مذهب يونس بن عمران ، وعلى هذا فقد سقط السؤال ، لأنّه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة ، ولا ينتظر الوحىَ . وأيضا فيتقدبر فساد هذا المذهب ؛ أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أنّ الرسول الله صلى الله عليه وآله كان يجوز[1] له أن يجتهدَ فى الأحكام والتدبير ، كما يجتهد

(١) ساقط من ب

الواحد من العلماء ، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله ، واحتجّ بقوله تعالى : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾(١).

والسؤال أيضا ساقط على هذا المذهب ، لأنّ اجتهاد علىّ عليه السلام لا يساوى اجتهادَ النبىّ صلىّ الله عليه وآله ، وبين الاجتهادين كما بين المنزلتين .

***

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسنىّ نقيب البصرة رحمه الله إذا حدّثناه في هذا يقول : إنّه لافرقَ عندَ من قرأ السّيرتين : سيرة للنبىّ صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه أيام حياته ، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيّام حياته ، فكما أنّ عليًّا عليه السلام لم يزلْ أمرُه مضطربًا معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه، وكثرة الفِتَن والحروب ، فكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله لم يزل ممنوًّا بنفاق المنافقين وأذاهم ، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه ، وكثرة الحروب والفتن .

وكان يقول : ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم ، والتألّم من أذاهم له ؛ كما أنّ كلام على عليه السلام مملوء بالشكوى من منافقى أصحابه والتألم من أذاهم له ، والتوبّهم عليه ! وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾(٣) الآية.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

---

(١) سورة النساء ١٠٥ (٢) سورة المجادلة ٨ (٣) سورة المجادلة ١٠ .

لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴾ السورة بأجمعها[١].

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٢].

وقوله تعالى:﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * ﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[٤].

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

---

(١) سورة المنافقين .
(٢) سورة محمد ١٦ .
(٣) سورة محمد ٢٠ .
(٤) سورة محمد ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الفتح ١١ ، ١٢ .

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

قال : وأصحابه هم الذين نازعوا فى الأنفال وطلبوها لأنفسهم ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وهم الذين التووا عليه فى الحرب يوم بدر ، وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم ، وذلك قبل أن تتراءى الفئتان ، وأنزل فيهم : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٤) .

وهم الذين كانوا يتمنون لقاء العير دون لقاء العدو ، حتى إنهم ظفروا برجلين فى الطريق ، فسألوهما عن العير ، فقالا لا علم لنا بها ، وإنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكثيب ، فضربوهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلى ، فلما ذاقا مس الضرب قالا : بل العير أمامكم فاطلبوها ، فلما رفعوا الضرب عنهما ، قالا : والله ما رأينا العير ولا رأينا إلا الخيل والسلاح والجيش ، فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية ، فقالا وهما يضربان : العير أمامكم ، خلوا عنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاة ، وقال : إذا صدقا كم ضربتموهما ، وإذا كذبا كم خليتم عنهما ! دعوهما ؛ فما رأيا إلا جيش أهل مكة ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

---

(١) سورة الفتح ١٥ .
(٢) سورة الحجرات ٤ ، ٥ .
(٣) سورة الأنفال ١ .
(٤) سورة الأنفال ٦ .

دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾[١] . قال المفسّرون : الطّائفتان : العير ذات اللّطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبةَ أبى سفيان بن حرب ، وإليها كان خروج المسلمين ، والأخرى : الجيش ذو الشَّوْكة ، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين ، فكرهوا الحرب ، وأحبُّوا الغنيمة .

قال : وهم الذين فرّوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أحُد ، وأسلموه وأصعدوا فى الجبل ، وتركوه حتى شجّ الأعداء وجهَه ، وكسروا ثنِيّتَه ، وضربوه على بَيْضَتِه ، حتى دخل جماجمه ، ووقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى ، وهو يستصرخ بهم ، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلّا مَنْ كان جارياً مجرى نَفْسِه ، وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾[٢] ، أى ينادى فيسمَع نداءه آخر الهاربين لا أوّلهم ؛ لأن أوّلهم أوْغلُوا فى الفرار ، وبعدوا عن أن يسمعوا صوته ، وكان قصارَى الأمر أن يبلغَ صوتُه واستصراخه مَنْ كان على ساقة الهاربين منهم .

قال : ومنهم الذين عَصَوْا أمره فى ذلك اليوم ، حيث أقامهم على الشِّعْب فى الجبَل ، وهو الموضع الذى خاف أن تكرّ عليه منه خيل العدوّ من ورائه ، وهم أصحاب عبدالله ابن جُبير ، فإنّهم خالفوا أمره وعصوْه فيما تقدّم به إليهم ، ورغِبوا فى الغنيمة ، ففارقوا مركزَهم ؛ حتى دخل الوَهن على الإسلام بطريقهم ، لأنّ خالد بن الوليد كرّ فى عِصابة من الخيل ، فدخل من الشِّعب الذى كانوا يحرسونه ، فما أحسّ المسلمون بهم إلّا وقد غَشُوهم بالسيوف من خلفهم ، فكانت الهزيمة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ

---

(١) سورة الأنفال ٧

(٢) سورة آل عمران ١٥٣ .

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١).

قال : وهمُ الذين عصوا أمرَه فى غزاة تبُوك ، بعد أن أكّد عليهم الأوامر، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه ، فأنزل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين، وفيها أوضح دليل على أنّ أصحابه وأولياءه المصدّقين لدعوته كانوا يعصونه، ويخالفون أمره ؛ وأكّد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٣).

ثم عاتب رسولَ الله صلى الله عليه وآله على كونه أذِنَ لهم فى التخلّف، وإنّما أذِن لهم لعلمه أنهم لايجيبونه فى الخروج ، فرأى أن يجعل المنّة له عليهم فى الإذن لهم ، وإلّا فعدواعنه ولم تصل له المنّة ، فقال له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤) ، أى هلاّ أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبيّن لك قعود مَنْ يقعد ، وخروج مَنْ يخرج ، صادقهم من كاذبهم ! لأنهم كانوا قدوعدوه بالخروج معه كلّهم ، وكان بعضُهم ينوى الغدر ، وبعضهم يعزم على أن يخيس (٥) بذلك الوعد، فلولم يأذن لهم لعلم من يتخلّف ومن لايتخلّف ، فعرف الصادق منهم والكاذب .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .

(٢) سورة التوبة ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة التوبة ٤٢ .

(٤) سورة التوبة ٤٣ .

(٥) يخيس : يغدر .

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الذين يستأذنونه فى التخلُّفِ خارجون من الإيمان، فقال له:
﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (١)

ولا حاجة إلى التّطويل بذكر الآياتِ المفصّلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمَنْ تأمّل الكتاب العزيز علِمَ حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقله الله تعالى إلى جوارِه إلاّ وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف مايضمرون من تصديقه فى جهادٍ شديد ، حتى لقد كاشفوه مراراً ، فقال لهم يوم الحديبيَة : احلقوا وانحروا . . . مرارا ، فلم يحلقوا ولم ينحروا ، ولم يتحرّك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم : « اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل » .

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين : أتأخذُ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفعَه إلى أقاربك من أهل مكّة ! حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم فى مرض موته : « ائتونى بدواة وكَتِفٍ أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعده » ، فعصوْه ولم يأتوه بذلك ، وليتهم اقتصرُوا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا ، وهو يسمع !

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه ، والقليل منه ينبئ عن الكثير ، وكان يقول : إنّ الإسلام ما حلا عندهم ولاثبت فى قلوبهم إلاّ بعد موته ، حين فتِحَتْ عليهم الفتوح ، وجاءتهم الغنائم والأموال ، وكثرت عليهم المكاسب ، وذاقوا طعم الحياة ، وعرفوا لذّة الدّنيا ، ولبسوا الناعم ، وأكلوا الطيّب ، وتمتعوا بنساء الروم ، وملَكوا خزائن كسرى ، وتبدلوا بذلك القَشَف والشّظف والعيش الخشِن وأكل

---

(١) سورة التوبة ٤٤ ـ ٤٥ .

الضِّبَاب والقنافذ واليرابيع ولبْس الصوف والكَرابِيس (١) ، وأ كل اللَّوْزِينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج ، فاستدلّوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم على صحة الدّعوة ، وصدْق الرسالة ، وقد كان صلى الله عليه وآله وعدَهم بأنّه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر ، فلمّا وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظّموه وبجّلوه ، وانقلبت تلك الشّكوك وذاك النّفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصا ، وطاب لهم العيش ، وتمسّكوا بالدين ، لأنه زادهم طريقاً إلى نَيْل الدنيا ، فعظّموا ناموسَه ، وبالغوا فى إجلاله وإجلال الرّسول الذى جاء به ، ثم انقرض الأسلافُ وجاء الأخلاف على عقيدة ممهّدة ، وأمرٍ أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين رُبُّوا فى حجورهم ، ثم انقرض ذلك القرن ، وجاء مَن بعدهم كذلك ، وهلمّ جرّا .

قال : ولولا الفتوح والنّصر والظَّفَر الّذِى منحهم الله تعالى إياه ، والدّولة التى ساقها إليهم ، لانقرض دينُ الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يذكر فى التواريخ ، كما تُذكر الآن نبوّة خالد بن سنان العبسىّ ، حيث ظهر ودعا إلى الدّين . وكانَ النّاس يعجَبُون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجَبُون ويتذاكرون أخبارَ مَنْ نبغ من الرؤساء والملوك والدُّعاة الذين انقرض أمرهم ، وبقيت أخبارهم .

وكان يقول : مَنْ تأمّل حال الرّجلين وجدهما متشابهَيْن فى جميع أمورهما أو فى أ كثرها ؛ وذلك لأنّ حرْب رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين كانَتْ سِجَالاً ، انتصر يوم بدر ، وانتصر المشركون عليه يوم أُحدٍ ، وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء ، لا عليه ولا له ، لأنهم قتلوا رئيسُ الأوْس وهو سعد بن معاذ ، وقتِل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدوَدّ ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التى كانت ، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح ، فكان الظفر له .

وهكذا كانت حروبُ على عليه السلام ، انتصر يوم الجمل ؛ وخرج الأمر بينه وبين

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو الثوب من القطن الأبيض .

معاوية على سواء ، فقتل من أصحابه رؤساء ، ومن أصحاب معاوية رؤساء ، وانصرف كلّ واحدٍ من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ، ثمّ حارب بعد صِفّين أهل النَّهْرَوان، فكان الظَّفَر له .

قال : ومن العَجَبِ أنّ أوّل حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، وأوّل حروب علىّ عليه السلام الجمل ، وكان هو المنصور فيهـا . ثم كان من صحيفة الصُّلح والحكومة يوم صِفّين نظير ما كان من صحيفة الصّلح والمدنة يوم الحديبيَة . ثم دعا معاوية فى آخر أيّام علىٍّ عليه السلام إلى نفسه وتسمّى بالخلافة ، كما أنّ مسيلمة والأسود العنسىّ دَعَوَا إلى أنفسهما فى آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسمّيا بالنبوّة ، واشتدّ على علىّ عليه السلام ذلك ، كما اشتدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله أمرُ الأسود ومُسَيلمة ، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبنى أميّة بعد وفاة علىّ عليه السلام . ولم يحارب رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلا قريش ماعدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا عليه السلام من العرب أحدٌ إلّا قريش ماعدا يوم النّهروان ومات على عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيداً بالسمّ . وهذا لم يتزوّج عَلَى خديجة أمّ أولاده حتى ماتت ، وهذا لم يتزوج على فاطمة أمّ أشرف أولاده حتى ماتت . ومات رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ، ومات علىّ عليه السلام عن مثلها .

وكان يقول : انظروا إلى أخلاقهما وخَصائصهما ، هذا شجاع وهذا شجاع ، وهذا فصيح وهذا فصيح ، وهذا سخىّ جواد وهذا سخىّ جواد ، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلٰهية ، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلٰهية الدقيقة الغامضة ، وهذا زاهد فى الدنيا غير نهِم ولا مستكثر منها ، وهذا زاهد فى الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مُذيب[1] نفسه فى الصّلاة والعبادة ، وهذا مثله. وهذا غير محبَّب إليه شىء من الأمور العاجلة

(١) ا : « مذئب » .

إلا النِّساء وهذا مثله ، وهذا ابن عبد المطّلب بن هاشم، وهذا في قُعْدده[١]، وأبواهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بني عبد المطّلب ؛ وربّى محمد صلى الله عليه وآله في حِجْر والدهذا وهذا أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى أحدِ أولاده . ثمّ لما شبّ صلى الله عليه وآله وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام ، فربّا في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلقان ، وتماثلت السجيتان ، وإذا كان القرين مقتديا بالقرين ، فما ظنّك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل ! فواجب أن تكون أخلاق محمد صلى الله عليه وآله كأخلاق أبي طالب، وتكون أخلاقُ علي عليه السلام كأخلاق أبي طالب أبيه ، ومحمد عليه السلام مربّيه ، وأن يكون الكلّ شيمةً واحدة وسوساً[٢] واحدا ، وطينة مشتركة ، ونفساً غير منقسمة ولا متجزّئة، وألّا يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرْق ولا فضلٌ ، لولا أنّ الله تعالى اختصّ محمداً صلى الله عليه وآله برسالته ، واصطفاه لوحيه ، لما يعلَمُه من مصالح البريّة في ذلك ، ومن أنّ اللطفَ به أكمل ، والنفع بمكانه أتمّ وأعمّ ، فامتاز رسولُ الله صلى الله عليه وآله بذلك عمّن سواه ، وبَقِيَ ماعدا الرسالة على أمر الاتحاد ، وإلى هذا المعنى أشار صلى الله عليه وآله بقوله : «أخصِمُك[٣] بالنبوّة فلا نبوّة بعدي، وتخصِمُ النّاس بسبع»، وقال له أيضا: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»، فأبان نفسه منه بالنبوّة ، وأثبت له ماعداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما .

وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله ، غزير العلم ، صحيح العقل ، منصفاً في الجدال، غيرَ متعصّب للمذهب — وإن كان عَلَوِيًّا — وكان يعترف بفضائل الصّحابة، ويثني على الشّيْخَيْن . ويقول : إنهما مَهّدَا دين الإسلام ، وأرسيا قواعده ؛ ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّما مهّداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما . وكان يقول في عثمان : إنّ الدّولة في أيامه كانت على إقبالها وعلوّ جدّها ، بل كانت الفتوح في أيامه أكثر ، والغنائم أعظم ، لولا أنه لم يراع ناموسَ الشيخَيْن ، ولم يستطع أن يسلك

(١) القعدد : القريب الآباء من الجد الأعلى (٢) أي أصلا واحدا (٣) أخصمك : أغلبك .

مسلكهما ، وكان مضعّفاً فى أصل القاعدة ، مغلوبا عليه ، وكثير الحبّ لأهله ،وأتيح له من مَرْوان وزبر سوء أفسد القلوب عليه ، وحَمَل النّاس على خلعه وقتله .

***

[كلام أبى جعفر الحسنىّ فى الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلىّ]

وكان أبو جعفر رحمه الله لايجحد الفاضل فضله ، والحديث شجون .

قلت له مرّة : ماسبب حبّ الناس لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وعشقهم له ، وتهالكهم فى هواه ؟ ودعْنِى فى الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ، وغير ذلك من الخصائص التى رزقه الله سبحانه الكثير الطيّب منها !

فضحك وقال لى : كم تجمع جراميزك علىّ !

ثم قال : هاهنا مقدّمة ينبغى أن تُعلَم ؛ وهى أنّ أكثر النّاس موتورون من الدنيا؛ أمّا المستحقون فلا ريب فى أنّ أكثرهم محرمون ؛ نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له فى الدنيا ، ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسّعا عليه . وشجاعٍ قد أبلى فى الحرْب ، وانتُفِع بموضعه ، ليس له عطاء يكفيه ، ويقوم بضروراته ، ويرى غيره وهو جبان فشِل ، يفرقُ من ظلّه ، مالكاً لقُطْر عظيم من الدنيا ، وقطعة وافرة من المال والرزق . وعاقلٍ سديد التدبير ، صحيح العقل ، قد قُدِر[1] عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحمق مائقا تدرّ عليه الخيرات ، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق . وذى دين قويم ، وعبادة حَسَنة ، وإخلاص وتوحيد ، وهو محروم ضيّق الرزق ويرى غيره يهودياً أونصرانيا أوزنديقا، كثيرَ المال حَسَنَ الحال؛ حتى إنّ هذه الطّبَقات المستحقّة يحتاجون فى أكثر الوقت إلى الطبَقات التى لااستحقاق

---

(١) قدر عليه رزقه : ضيق .

لها ، وتدعوهم الضرورة إلى الذلّ لهم ، والخضوع بين أيديهم . إمّا لدفع ضرر ، أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطَّبَقات من ذوِى الاستحقاق أيضا ، ما نشاهده عيانًا من نجّار حاذق أو بنّاء عالم ، أو نقّاش بارع ، أو مصوّر لطيف ، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم ، وقعود الوقت بهم ، وقلّة الحيلة لهم ، ويُرَى غيرُهم ممن ليس يجرى مجراهم ، ولا يلحق طبقتهم ؛ مرزوقًا مرغوبا فيه ، كثير المكسب طيّب العيش ، واسعَ الرّزق . فهذا حال ذوى الاستحقاق والاستعداد . وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل ، كحشو العامة ، فإنّهم أيضا لا يخلُون من الحقْد على الدنيا والذمّ لها ، والحَنَق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ، ولا يرى أحدٌ منهم قانعاً بعيشه ، ولا راضياً بحاله ، بل يستزيدو يطلب حالًا فوق حاله .

قال : فإذا عرفت هذه المقدّمة ؛ فمعلوم أنّ عليا عليه السلام كان مستحقًّا محروما ، بل هو أميرُ المستحقّين المحرومين ، وسيّدهم وكبيرهم ، ومعلومٌ أنّ الذين ينالهم الضّيمُ ، وتلحقهم المذلة والهضِيمة ، يتعصّب بعضهم لبعض ، ويكونون إلبًا ويدا واحدة على المرزوقين الذين ظفرُوا بالدنيا ، ونالوا مآربهم منها ، لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم ، وعضّهم ومضّهم ، واشتراكهم فى الأنفة والحميّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم ، وقهرَهُم ، وبلغ من الدّنيا مالم يبلغوه ؛ فإذا كان هؤلاء — أعنى المحرومين — متساوين فى المنزلة والمرتبة ، وتعصّب بعضهم لبعض ، فما ظنُّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القَدْر جليل الخطر كامل الشرف ، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب ، وهو مع ذلك محروم محدود ، وقد جرّعته الدنيا علاقمَها ، وعلّته عَلَلًا بعد نَهَلٍ من صابها وصَبِرها ، ولقى منها بَرْحًا بارحا ، وجهدا جهيدا ، وعلا عليه مَنْ هو دونه ، وحُكّم فيه وفى بنيه وأهله ورهطه مَنْ لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولا دائرًا فى خَلَدِه ، ولا خاطرا بباله ، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . ثمّ كان فى آخر الأمر أن قتِل هذا الرجل الجليل فى

محرابه ، وقتل بنوه بعده ، وسبى حريمه ونساؤه ، وتتبع أهله وبنو عمه بالقتل والطرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم ، وانتفاع الخلق بهم . فهل يمكن ألا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص ! وهل تستطيع القلوب ألا تحبه وتهواه ، وتذوب فيه وتفنى فى عشقه ، انتصارا له ، وحمية من أجله ، وأنفة مما ناله ، وامتعاضا مما جرى عليه ! وهذا أمر مركوز فى الطبائع ، ومخلوق فى الغرائز ، كما يشاهد الناس على الجرف إنسانا قد وقع فى الماء العميق ، وهو لا يحسن السباحة ، فإنهم بالطبع البشرى يرقون عليه رقة شديدة ، وقد يلقى قوم منهم أنفسهم فى الماء نحوه ، يطلبون تخليصه ، لا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمال أو شكر ، ولا ثوابا فى الآخرة ؛ فقد يكون منهم من لا يعتقد أمر الآخرة ، ولكنها رقة بشرية ، وكأن الواحد منهم يتخيل فى نفسه أنه ذلك الغريق ، فكما يطلب خلاص نفسه لو كان هذا الغريق ؛ كذلك يطلب تخليص من هو فى تلك الحال الصعبة ؛ للمشاركة الجنسية . وكذلك لو أن ملكا ظلم أهل بلد من بلاده ظلما عنيفا ، لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض فى الانتصار من ذلك الملك ، والاستعداء عليه ؛ فلو كان من جملتهم رجل عظيم القدر ، جليل الشأن ، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم ، وأخذ أمواله وضياعه ، وقتل أولاده وأهله ، كان لياذهم به ، وانضواؤهم إليه ، واجتماعهم والتفافهم به أعظم وأعظم ، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطرارى ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعا .

وهذا محصول قول النقيب أبى جعفر رحمه الله ، قد حكيته والألفاظ لى والمعنى له ؛ لأنى لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها ، إلا أن هذا هو كان معنى قوله ونحواه ، رحمه الله . وكان لا يعتقد فى الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم ، ويسفه رأى من يذهب فيهم إلى النفاق والتكفير . وكان يقول : حكمهم حكم مسلم مؤمن ، عصى فى بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله ، إن شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

قلت له مرّة : أفتقولُ إنهمامن أهل الجنّة ؟ فقال : إى والله ! أعتقد ذلك ، لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله ، أو بشفاعة علىّ عليه السلام ، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب ، ثم ينقلهما إلى الجنّة ؛ لاأستريب فى ذلك أصلا ، ولا أشكُّ فى إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّةِ عقيدتهما .

فقلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ! وهل كان إلا واحداً منّا ، وغصنا من شجرة عبدمناف ! ولكنّ أهله كدّروه علينا ، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا .

قلت له : فيلزَمُك[1] على ما تراه فى أمرِ هؤلاء أن تجوِّزَ دخولَ معاوية الجنّة ، لأنّه لم تكن منه إلاّ المخالفة وترك امتثال الأمر النبوىّ !

فقال : كلاّ ؛ إنّ معاوية من أهلِ النار ، لا لمخالفته عليًّا ، ولا بمحاربته إيّاه ، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحة ، ولا إيمانَه حقا ، وكان من رءوس المنافقين هو وأبوه ، ولم يسلِمْ قلبُه قطّ ، وإنّما أسلم لسانه ؛ وكان يذكُر مِنْ حديث معاوية ومن فَلَتات قوله ، وماحفِظ عنه من كلامٍ يقتضى فساد العقيدة شيئا كثيرا ، ليس هذا موضعَه فأذكره .

وقال لى مرّة : حاش لله أن يُثبتَ معاوية فى جَرِيدة الشيْخيْن الفاضلين أبى بكر وعمر ! والله ماهما إلاّ كالذّهب الإبريز ، ولا معاوية إلاّ كالدّرهم الزائف — أو قال : كالدرهم القسىّ[2] — ثم قال لى : فما يقول أصحابُكم فيهما ؟ قلت : أمّا الذى استقرّ عليه رأىُ المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم فى التفضيل وغيره ، أنّ عليا عليه السلام أفضلُ الجماعة ، وأنّهم تركوا الأفضلَ لمصلحة رأوْها ؛ وأنه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذر ، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شىء منها صريحَ النّص ، وإنّ عليا عليه السلام نازَع ثم بايع ،

---

(١) ب : « فيلزم لك » .

(٢) درهم قسى ، وتخفف سينه ، أى ردىء .

وجَمَح ثم استجاب . ولو أقام على الامتناع لم نَقلْ بصحّة البيعة ولا بلزومها ، ولو جرّد السيف كما جرّده فى آخِر الأمر لقلنا بفسق كلّ مَنْ خالفه على الإطلاق كائنا مَنْ كان ، ولكنه رضىَ بالبيعة أخيراً ، ودخل فى الطاعة .

وبالجملة ، أصحابنا يقولون : إنّ الأمر كان له ، وكان هو المستحقّ والمتعين، فإن شاء أخذه لنفسه ، وإن شاء ولّاه غيرَه ، فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره ، اتّبعناه ورضِينا بما رضىَ . فقال : قد بَقِىَ بينى وبينكم قليل ؛ أنا أذهب إلى النصّ وأنتم لا تذهبون إليه !

فقلت له : إنّه لم يثبت النصّ عندنا بطريق يوجب العلم ؛ وما تذكرونه أنتم صريحا فأنتم تنفردون بنقله ، وماعدَا ذلك من الأخبار التى نشارككم فيها ، فلها تأويلات معلومة.

فقال لى وهو ضَجِر : يافلان ، لو فتحنا باب التأويلات ، لجاز أن يَتناول قولنا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ دعنى من التأويلات الباردة التى تعلم القلوب والنفوس أنها غيرُ مرادة ، وأنّ المتكلمين تكلفوها وتمسّفوها ، فإنما أنا وأنت فى الدار ولا ثالث لنا ، فيستحيي أحدُنا من صاحبه أو يخافه .

فلما بلغنا إلى هذا الموضع ؛ دخل قوم ممّن كان يخشاه ، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث ، وخضنا فى غيره .

***

[سياسة علىّ ومعاوية وإيرادَ كلام للجاحظ فى ذلك]

فأمّا القولُ فى سياسة معاوية ، وأنّ شَنَأَة علىّ عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خيرٌ من سياسة أمير المؤمنين ، فيكفينا فى الكلام على ذلك ماقاله شيخنا أبو عثمان ، ونحن نحكيه بألفاظه .

قال أبو عثمان : وربّما رأيت بعض مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتّحصيل والفهم والتمييز- وهو من العامّة ويظنّ أنّه من الخاصّة - يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوْراً ، وأصحّ فِكْراً ، وأجود رويّة ، وأبعدَ غاية ، وأدقّ مسلكا ؛ وليس الأمرُ كذلك ، وسأرْمى إليك بجملة تعرف بها موضع غَلَطِه . والمكانَ الذى دخل عليه الخطأ من قِبَله .

كان علىّ عليه السلام لا يستعملُ فى حرْبه إلاّ ما وافق الكِتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلافَ الكتاب والسنة ؛ كما يستعمل الكتاب والسنة ، ويستعمل جميعَ المكايد ، حلالها وحرامها ، ويسير فى الحرب بسيرة مِلك الهند إذا لاقى كِسْرى ، وخاقان إذا لاقى رُتْبيل (١) . وعلىّ عليه السلام يقول : لاتبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم ، ولاتتبعوا مدبراً ، ولا تُجْهزوا عَلَى جريح ، ولا تفتحوا باباً مغلقاً ؛ هذه سيرته فى ذى الكَلاع ، وفى أبى الأعور السُّلَمىّ ، وفى عمرو بن العاص ، وحبيب بن مَسْلَمة ، وفى جميع الرؤساء ، كسيرته فى الحاشيَة والحشوِ والأتباع والسِّفلة. وأصحاب الحروب ، إنْ قَدَرُوا على البيَات بَيّتوا ، وإن قَدَرُوا على رَضْخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك فى طَرْفة عين لم يؤخروه إلى ساعة ، وإن كان الحرْق أعجَل من الغرَق لم يقتصروا على الغرَق ولم يؤخروا الحرْق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدْم لم يتكلفوا الحِصَار ، ولم يدَعوا أن ينصِبُوا المجانيق (٢) ، والعرّادات (٣) ، والنّقب ، والتّسريب ، والدّبابات (٤) ، والكَمين (٥) ، ولم يدَعُوا دسّ السّموم ، ولا التضريب بين الناس بالكذب ، وطرْح

---

(١) رتبيل : صاحب الترك .

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة .

(٣) العرادات : جمع عرادة ؛ وهى من آلات الحرب ؛ ترمى بالحجارة المرمى البعيد ، إلا أنها أصغر من المنجنيق .

(٤) الدبابة : آلة تتخذ فى الحصار ، يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن ؛ فينقبونه وهم فى جوفها ؛ وجمعها دبابات .

(٥) الكمين : القوم يكمنون فى الحرب حيلة ؛ وهو أن يستخفوا فى مكمن ؛ بحيث لا يفطن لهم ثم ينتهزوا غرة العدو فينقضوا عليهم .

الكتب فى عساكرهم بالسّعايات، وتوهيم الأمور، وإيحاش بعض من بعض، وقتلهم بكلّ آلة وحيلة؛ كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر — حفظك الله — من التدبير على ما فى الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويلَ العريضَ مِن التدبير؛ وما لا يتناهى من المكايد. والكذب — حفظك الله — أكثرُ من الصّدق، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال، ولو سمّى إنسانٌ إنسانا باسمه لكان قد صدق، وليس له اسم غيره، ولو قال: هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كلَّ ما خطر على البال، لكان كاذبا فى ذلك، وكذلك الإيمان والكفر، وكذلك الطاعة والمعصية، وكذلك الحقّ والباطل، وكذلك السُّقم والصحّة، وكذلك الخطأ والصواب؛ فعلىّ عليه السلام كان ملجَماً بالوَرَع عن جميع القول إلاّ ما هو لله عزّ وجلّ رضاً، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلا ما هو لله رضاً، ولا يَرى الرِّضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرّضا إلّا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعوِّل عليه أصحابُ الدّهاء والنكراء[1] والمكايد والآراء، فلمّا أبصرت العوامّ كثرة نوادر معاوية فى المكايد، وكثرةَ غرائبه فى الخداع، وما اتفق له وتهيّأ عَلَى يده، ولم يروْ ذلك من علىّ عليه السلام، ظنّوا — بقِصَرِ عقولهم، وقلة علومهم — أنّ ذاك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند علىّ عليه السلام. فانظُر بعدَ هذا كله، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف! ثم انظر هل خَدَع بها إلا مَنْ عصى رأىَ علىٍّ عليه السلام، وخالف أمره!

فإنْ زعمتَ أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس فى هذا اختلفنا، ولا عَنْ غرَارة أصحاب علىّ عليه السلام وعَجَلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا، وإنما كان قولُنا فى التمييز بينهما فى الدّهاء والنكراء وصحة العقل والرأى والبزلاء[2]؛ عَلَى أنا لا نصفُ الصالحين

---

(١) النكراء: الدهاء والفطنة.

(٢) يقال: خطة بزلاء، أى تفصل بين الحق والباطل.

بالدَّهاء والنَّكْراء ؛ لا نقول : ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبى قحافة ! وما كان أنكر عمر بن الخطاب ! ولا يقول أحدٌ عنده شىء من الخير : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم ، وأنكر قريش وأمكر كنانة ؛ لأنَّ هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ فى مديح أصحاب الأرب ومَنْ يتعمّق فى الرأى فى توكيد الدنيا وزِبْرجها وتشديد أركانها ، فأمّا أصحابُ الآخرة الَّذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشَر ، وإنما يصلُحون عَلَى تدبير خالق البَشَر ، فإنَّ هؤلاء لا يُمْدَحون بالدَّهاء والنَّكْراء ، ولم يمنعوا هذا إلاّ ليُعطَوْا أفضلَ منه . ألا ترى أنَّ المغيرة بن شُعبة ـ وكان أحدَ الدهاة ـ حين ردَّ على عمرو بن العاص قوله فى عمر بن الخطاب ـ وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضا : أأنت كنتَ تفعل ، أو توهم عمر شيئاً فيلقّنه عنك ! ما رأيت عمَر مستخلياً بأحد إلاّ رحمته كائناً مَنْ كان ذلك الرجل ، كان عمر والله أعقلَ من أن يُخْدَع ، وأفضلَ من أن يَخْدَع . ولم يذكرْه بالدَّهاء والنَّكْراء ، هذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه ، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التى لا تصلح فى أهل الطهارة ، كان ذلك غير مقبول منه ، فهذا هذا .

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية للجميع : أخرِجُوا إلينا قَتلة عثمان ، ونحن لكم سِلْم . فاجْهَد كلَّ جَهْدِك ، واستعن بمَنْ شايعك إلى أن تتخلّص إلى صواب رأى فى ذلك الوقت أضله علىّ ؛ حتى تعلم أن معاوية خادع ، وأنَّ علياً عليه السلام كان المخدوع .

فإن قلت : فقد بلغ ما أراد ، ونال ما أحبَّ ، فهل رأيت كتابنا وُضِع إلا عَلَى أنَّ عليا كان قد امتُحِن فى أصحابه وفى دهره ، بما لم يمتَحَنْ إمام قبله من الاختلاف والمنازعة ، والتّشاح من الرياسة والتسرّع والعجلة ! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان ! أوَ لسنا قد فرغنا من هذا الأمر ، وقد علمنا أنَّ ثلاثة نفر تواطئوا على قتل ثلاثة نفر ، فانفرد ابنُ مُلْجَم

بالتماس ذلك من علىّ عليه السلام ، وانفرد البَرْك الصريمىّ بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر — وهو عمرو بن بكر التميمىّ — بالتماس ذلك من معاوية ، فكان من الاتفاق أو من الامتحان ، أنْ كان علىّ من بينهم هو المقتول .

وفى قياس مذهبكم أن تزعُموا أنّ سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانتْ بحزْم منهما ، وأنّ قتل علىّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه ، فإذْ قد تبيّن لكم أنّه من الابتلاء والامتحان فى نفسه بخلاف الذى قد شاهدتموه فى عدوّه ، فكلّ شىء سوى ذلك ، فإنّما هو تبعٌ للنفس .

هذا آخر كلام أبى عثمان فى هذا الموضع ، ومَنْ تأمّله بعين الإنصاف ، ولم يتّبع الهوى علم صحّة جميع ما ذكره ، وأنّ أمير المؤمنين دُفِع — من اختلاف أصحابه ، وسوء طاعتهم له ؛ ولزومه سنَن الشّريعة ، ومنهج العدل ، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشّرع فى استمالة الناس إليهم بالرّغبة والرّهبة — إلى مالم يُدْفَع إليه غيره . فلولا أنّه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السّياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة ، حاذقاً فى ذلك ، لم يجتمع عليه إلاّ القليل من النّاس ، وهم أهلُ الآخرة خاصّة ؛ الذين لاميْلَ لهم إلى الدنيا ، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وَلِيَه ؛ واجتمع عليه من العساكر والأتباع مايتجاوز العدّ والحصر ، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم ، فظفِر فى أكثر حروبه ، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء ؛ وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار — علمنا أنّه من معرفةِ تدبير الدول والسلطان بمكان مكين .

* * *

[ذكر أقوال من طعن فى سياسة علىّ والردّ عليها]

وقد تعلّق مَنْ طَعن فى سياسته بأمور :

منها قولُهم : لو كان حين بُويع له بالخلافة فى المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد ، ويبايعه معاويةُ وأهلُ الشام ثم يعزله بعد ذلك ؛ لكان قد كُفِيَ ماجرى بينهمامن الحرب

والجواب : أنّ قرائن الأحوال حينئذ ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لايبايَع له وإن أقرّه على ولاية الشام ، بل كان إقرارُه له على إمْرَةِ الشّار أقوى لحال معاوية ، وآكدَ فى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنّه لايخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول : كان ينبغى أن يطالبَه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام ، فيكون الأمران معاً ، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة . أو يتقدّم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان. فإنْ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاويةُ على أهل الشام تقليده بالإمْرَة ،فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر فى أنفسهم؛لولا أنه أهلٌ لذلك لما اعتمده علىّ عليه السلام معه ، ثم يماطله بالبيعة ، ويحاجزه عنها . وإن كان الثّانى فهو الذى فعله أمير المؤمنين عليه السلام . وإن كان الثّالث فهو كالقسم الأول ؛ بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلاف والعصيان . وكيف يتوهّم مَنْ يعرف السِّيَر أنّ معاوية كان يبايع له ؛ لو أقرّه على الشام وبينه وبينه مالا تبرك الإبلُ عليه ، من التِّرات القديمة، والأحقاد ،وهو الّذِى قتل حنظلةأخاه والوليد خاله، وعتبة جدّه فى مقام واحد ،ثم ماجرى بينهما فى أيّام عثمان ، حتى أغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه ، وحتى تهدّده معاوية ، وقال له : إنّى شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعنى عثمان - والله لئن

انحصّت(١) منه شعرة واحدة لأضربنّك بمائة ألف سيف . وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم .

وأما قول ابن عباس له عليه السلام : ولّه شهراً واعزله دهراً ، وما أشار به المغيرة ابن شعبة ، فإنّهما ما توهّماه ، وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما ، وعلىّ عليه السلام كان أعلمَ بحاله مع معاوية ، وأنّها لا تقبل العلاج والتدّبير . وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكره ودهائه ، وما كان فى نفسه من علىّ عليه السلام مِنْ قَتْل عثمان ومن قَبْل قتل عثمان ، أنّه يقبل إقرار علىّ عليه السلام له على الشام ؛ وينخدع بذلك ، ويبايع ويعطى صَفْقَة(٢) يمينه ! إنّ معاوية لأدهى من أن يُكاد بذلك ، وإن عليًّا عليه السلام لأعرفُ بمعاوية ممن ظنّ أنّه لو استماله باقراره لبايع له ، ولم يكن عند علىّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف ؛ لأن الحال إليه كانت تئول لا محالة ، فجعل الآخر أولا .

وأنا أذكر فى هذا الموضع خبراً رواه الزّبير بن بكار فى " الموفقيّات " ليعلم من يقف عليه ، أنّ معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة علىّ عليه السلام أبداً ، ولا يعطيه البيعة ، وأنّ مضادّته له ، ومباينته إياه كمضادّة السّواد للبياض ، لا يجتمعان أبدا وكمباينة السّلْب للإيجاب ، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً . قال الزبير :

حدّثنى محمد بن محمد بن زكريا بن بسْطام ، قال : حدّثنى محمد بن يعقوب بن أبي الليث ، قال : حدّثنى أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكّىّ ، عن أبيه ، عن جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد ، عن قيس بن عرفجة ، قال : لما حصِر عثمان أبرَد مروان بن الحكم بخبره بريدين : أحدهما إلى الشام ، والآخر إلى اليمن — وبها يومئذ يعلى بن منية — ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب ؛ فيه أنّ بنى أمية فى الناس كالشّامة

---

(١) انحص الشعر : انجرد وتناثر . (٢) الصفقة هنا : المبايعة .

الحمراء ، وأنّ الناس قد قعدوا لهم برأس كلّ محجّة ، وعلى كلّ طريق ، فجعلوهم مرمَى العرّ والعضيهة[1] ، ومقذف القَشْبِ[2] والأفيكة ؛ وقد علمتم أنها لم تأتِ عثمان إلا كرْهاً ، تجبذ من ورائها . وإنّى خائف إن قتِل أن تكون من بنى أمية بمناط الثريّا ، إن لم نَصِرْ كرصيف الأساس المحكم ، ولئن وَهى عمودُ البيت لتتداعَيَنَّ جدرانُه ، والذى عيب عليه إطعامكما الشام واليمن ، ولا شكّ أنكما تابعاه إن لم تحذرا ، وأما أنا فساعفٌ كلّ مستشير ، ومعين كلّ مستصرخ ، ومجيبٌ كل داع ، أتوقّع الفرصة فأثب وثبة الفهْد أبصرَ غفلة مقتنصة ؛ ولولا مخافة عطَب البريد ، وضياع الكتب ، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر ؛ فجدّا فى طلب ما أنتما وليّاه ؛ وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله. وكتب فى آخره :

وَمَا بَلَغَتْ عُثمانَ حَتّى تَخَطّمَتْ رجالٌ ودانَتْ للصَّغار رجالُ
لقد رجعتْ عوْداً على بدء كونها وإن لم تجدّا فالمصيرُ زوالُ
سيبدىْ مكنون الضمائر قولُهم ويظهر منهم بعد ذاك فعالُ
فإنْ تقعُدا لا تطلبا ما وزتما فليس لنا طول الحياة مقالُ
نعيش بدارِ الذلّ فى كلّ بلدةٍ وتظهر منا كأْبَةٌ وهُزالُ

فلمّا ورد الكتاب على معاوية ، أذّن فى الناس : الصّلاة جامعة ! ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ .

وفى أثناء ذلك وَرَد عليه قبل أن يكتب الجواب ، كتابُ مرْوان بقتل عثمان ، وكانت نسخته : وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوّة العزم ، وصلاحَ النيّة ، ومنّ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه ؛ فإنّى كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) العضيهة : الإفك والبهتان .
(٢) القشب من الكلام : الفرى ، وعن ابن الأعرابى : القاشب : الذى يعيب الناس بما فيه .

وأىّ قِتلةٍ قُتِل ! نُحِر كما يُنْحَر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل ، بعد أن نُقِبَتْ صفحتُه بطىّ المراحل وسَيْر الهجير ، وإنى معلِمُك من خبره غير مقصّر ولا مطيل: إنّ القوم استطالوا مدّته ، واستقلّوا ناصرَه ، واستضعفوه فى بدنه ، وأمّلوا بقتلِهِ بَسْطَ أيديهم فيما كان قَبَضَه عنهم،واعصوصبوا[1] عليه ، فظلّ محاصَراً،قد مُنِـع من صلاة الجماعة، وردّ المظالم ، والنّظر فى أمور الرعيّة ، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه . فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوّفهم الله وناشدَهم ، وذكّرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلّم له ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ، ولم ينكروه ، ثم رمَوْه بأباطيلَ اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله ، فوعـدهم التوبة ممّا كرهوا ، ووعدَهم الرّجعة إلى ما أحبّوا . فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا دارَه ، وانتهكوا حرمتَه ، ووثبوا عليه ، فسفكوا دَمه ، وانقشعوا عنه انقشاعَ سحابة قد أفرغَتْ ماءها،منكفئين قِبَل ابنِ أبى طالب،انكفاءَ الجرَاد إذَا أبصر المرعى. فأخلقْ ببنى أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيُّوق إن لم يثأره ثائر ! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكُنْه . والسلام .

فلما ورد الكتاب على معاوية،أمر بجمع الناس،ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون، وقلقل القلوب ، حتى علت الرّنّة ، وارتفع الضّجيج ، وهمّ النساء أن يتسلّحن ، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله،والزبير بن العوّام ، وسعيد بن العاص،وعبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عُقْبة ، ويعلَى بن مُنْية — وهو اسم أمّه — وإنّما اسم أبيه أميّة .

فكان كتاب طلحة : أما بعد،فإنّك أقلّ قريش فى قريش وِتْراً ، مع صباحة وجهك وسماحة كفّك ، وفصاحة لسانك.فأنت بإزاء مَنْ تقدّمك فى السابقة ، وخامس المبشّرين بالجنّة ، ولك يوم أُحُد وشرفه وفضلُه ، فسارع رحمك الله إلى ماتقلّدك الرعيّة من أمرها ممّا لا يسعك التخلّف عنه ، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به ، فقد أحكمتُ لك الأمر

---

١) اعصوصب القوم : اجتمعوا وصاروا عصائب .

قِبَلى ، والزبير فغير متقدّم عليك بفضل ، وأيكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام ، والأمر من بعده للمقدّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لك رشد الموفقين . والسلام .

وكتب إلى الزبير : أمّا بعد،فإنك الزبير بن العوام،ابن أبى خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وسلفه،وصهر أبى بكر ، وفارس المسلمين،وأنت الباذل فى الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان ؛ بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ . بالسيف المنصلت،تخبط خَبْط الجمل الرديع[1] ؛ كلّ ذلك قوة إيمان،وصدق يقين،وسبقت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم البشارة بالجنّة ، وجعلك عمر أحد المستخلَفين على الأمّة . واعلم يا أبا عبد الله ، أنّ الرعية أصبحت كالغنم المتفرّقة لغيبة الراعى،فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولمّ الشعث ، وجَمْع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قَبْل تفاقم الأمر وانتشار الأمّة ، فقد أصبح الناس على شفًا جُرُفٍ هارٍ عمّا قليل ينهار إن لم يُرْأب . فشمّر لتأليف الأمة ، وابتغ إلى ربّك سبيلا ، فقد أحكمتُ الأمر على من قِبَلى لك ولصاحبك على أنّ الأمر للمقدّم ، ثمّ لصاحبه من بعده . جعلك الله من أئمة الهدى ، وبُغاة الخير والتقوى . والسلام .

وكتب إلى مروان بن الحكم :

أمّا بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركِبُوه به، ونالوه منه،جهلاً بالله وجراءة عليه ، واستخفافا بحقّه،ولأمانىّ لوّح الشيطانُ بها فى شَرَك الباطل ليدهدِهَهم[2] فى أهويات الفتن ، ووهَدات الضّلال ، ولعمرى لقد صدق عليهم ظنّه ، ولقد اقتنصهم بأنشوطة فخّه.فعلى رِسْلك أبا عبد الله ، يمشى الهوينَى ويكون أولا، فإذا قرأت كتابى هذا فكنْ كالفَهْد لا يصطاد إلّا غِيلةً ، ولا يتشازر[3] إلا عن حيلة ،

---

(١) الرديع ، أى المردوع ؛ من ردعه ؛ إذا كفه .

(٢) أى « ليرديهم » .

(٣) تشازر : نظر بمؤخر العين .

وكالثعلب لايفلِتُ إلّا رَوَغَانا ، وأخفِ نفسَك منهم إخفاء القنفذ رأسَه عند لمس الأكف ، وامتهن نفسَك امتهان مَنْ ييأس القوم من نصره وانتصاره ، وابحثْ عن أمورهم بحثَ الدّجاجة عن حَبّ الدّخن عند فقاسها ، وأنغِل (١) الحجاز فإنى منغل الشام . والسلام .

وكتب إلى سعيد بن العاص :

أما بعد ، فإنّ كتاب مَرْوان ورد علىّ من ساعة وقعت النازلة ، تَقُبل به البرُد بسير المطىّ الوجِيف (٢) ، تتوجّس توجُّس الحيّة الذَّكر خوف ضربة الفأس ، وقبضة الحاوى (٣) ، ومروان الرائد لا يكذِبُ أهلَه ، فعلام الإفكاك يابن العاص ، ولات حينَ مَناص ! ذلك أنكم يابنى أميّة عمّا قليلٍ تَسألون أدنى العيشِ من أبعد المسافة ، فينكركم مَنْ كان منكم عارفا ، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً ، متفرّقين فى الشعاب تتمنوْن لمظة (٤) المعاش . إنّ أمير المؤمنين عُتِب عليه فيكم ، وقتِل فى سبيلكم ، ففيمَ القُعود عن نصرته ، والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلّاب ثأره ! أصبحتم متمسّكين بشظَف معاشٍ زهيد ، عمّا قليل يُنزع منكم عند التّخاذُل وضعف القوى . فإذا قرأتَ كتابى هذا فدبّ دبيب البُرْء فى الجسَد النحيف ، وسرْ سَيْر النجوم تحت الغمَام ، واحشد حشد الذرّة (٥) فى الصيف لانجحارها فى الصّرْد ، فقد أيّدتكم بأسد وتَيْم . وكتب فى الكتاب :

تالله لا يذهبُ شَيْخِى باطِلاً حتى أُبيرَ مالكاً وكاهِلا (٦)

---

(١) أنغلهم ، أى أحملهم على الضغن .
(٢) الوجيف : السير السريع .
(٣) الحاوى : الذى يرقى الحية .
(٤) اللمظة فى الأصل : اليسير من السمن ؛ تأخذه بإصبعك ؛ يقال : عنده لمظة من سمن ، ثم أطلق على كل شئ قليل .
(٥) الذر : صغار النمل .
(٦) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٤ . أبير : أهلك . ومالك وكاهل من بنى أسد .

القاتِلِين الملك الحُلاحِـلا (١)   خـيرَ معدٍّ حسباً ونائلا (٢)

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

أمّا بعد ، فإنّ المنبرَ مركبٌ ذلول ، سهل الرّياضة ، لاينازعك اللّجام. وهيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب . وكأنّى بكم يابنى أميّة شَعَارِيرُ (٣) كالأوارك ، تقودها الحُداة ، أو كرَخَم الخندمة (٤) تذرق (٥) خوف العُقاب ، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشرِىَ الفساد ونَدْب (٦) السّوط جديد ، والجرح لمّا يندمل ؛ ومن قبل استضراء الأسَد، والتقاء لحيَيْه على فريسته. وساوِر الأمرَ مساورة الذئب الأطلس كسيرةَ القطيع . ونازل الرأىَ ، وانصب الشَّرَك ، وارم عن تمكّن ، وضع الهناء مواضعَ النُّقَبَ (٧) ، واجعل أكبر عدّتك الحذر ، وأحدّ سلاحك التحريض . واغض عن العوراء ، وسامح اللّجُوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشْوَس ، وقوّ عزم المريد، وبادر العَقَبة ، وازحف زَحْفَ الحيّة . واسبق قبل أن تُسبَق ، وقمْ قبل أن يقام لك . واعلم أنك غير متروك ولا مهمَل ، فإنّى لكم ناصح أمين . والسّلام .

وكتب فى أسفل الكتاب :

---

(١) الحلاحل : السيد الشريف ؛ يعنى أباه .

(٢) قال شارح ديوانه : قوله : « خير معد » ؛ هو راجع إلى قوله : « مالكا وكاهلا » ؛ لأن بنى أسد من معد ؛ وإنما يريد : حتى أهلك أشرف معد وخيرهم ؛ انتصارا لأبى . النائل : العطاء .

(٣) شعارير : متفرقون . والأوراك : جمع أركة ، وهى الناقة التى تلزم الأراك وترعاه ، وشأنها التفرق لتتبع الأراك .

(٤) الخندمة : موضع .

(٥) ذرق الطائر : سلح .

(٦) ندب السوط : أثره .

(٧) هنأ البعير : طلاه بالهناء ؛ وهو القطران ، والنقب جمع نقبة ؛ وهى أول مايبدو من الجرب ، وأصله قول دريد بن الصمة :

متبذِّلاً تَبْدُو محاسنُهُ   يضعُ الهناء مواضع النُّقْبِ

وانظر اللسان (نقب) .

عَلَيكَ سَلامُ اللهَ قيسَ بن عاصمٍ ورحمتُه ما شاء أنْ يترحّما (١)
تحيةَ مَنْ أهـــدى السلام لأهلِهِ إذا شَطَّ دارا عن مزارك سلّما
فما كان قيسٌ هُلْكه هُلْكَ واحدٍ ولـكنّه بنيان قـــوم تهدّما

وكتب إلى الوليد بن عقبة :

يابن عقبة ، كنّ الجيش ، وطيب العيش أطيب من سَفْع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس فى أفقها ؛ إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسكِ ظلاً تستكنّ به ؛ إنى أراك على التراب رَقُوداً ؛ وكيف بالرقاد بك ! لارقاد لك ؛ فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ألفِيت كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ؛ وعن قليل تشرب الرّنق ، وتستشعر الخوف . أراك فسيح الصّدر ، مسترخِيَ اللّبَبِ ، رِخْو الحزام ، قليل الاكتراث ؛ وعن قليل يُجتثّ أصلك . والسلام .

وكتب فى آخر الـكتاب :

أخترت نومك أنْ هبّت شآميةٌ عند الهجير وشرباً بالعشيّاتِ
على طلابك ثأراً من بنى حكَمٍ هَيْهاتَ مِنْ راقِدٍ طلاّبِ ثاراتِ

وكتب إلى يعلى بن أُميّة :

حاطك الله بكلاءته ، وأيّدك بتوفيقه . كتبتُ إليك صبيحة وردعلىّ كتاب مروان بخبرِ قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه . وإنّ أميرَ المؤمنين طال به العمرُ حتى نقصتْ قواه ، وثقلتْ نهضتهُ ، وظهرت الرّعشة فى أعضائه ، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعا للإمامة والأمانة وتقليد الولاية ، وثبوا به ، وألّبُوا عليه ؛ فـكان أعظم ما نقَموا عليه وعابوه به ، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها . ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال ،

---

(١) لعبدة بن الطبيب يرثى قيس بن عاصم ، الشعر والشعراء ٧٠٢ .

حتى ذبحوه ذبحَ النَّطيحه[1] مبادراً بها الفَوْت ، وهو مع ذلك صائم معانِقٌ المصحف ، يتلُو كتابَ الله . فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرّسول ، والإمام المقتول . على غير جُرْم سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم أنَّ بيعته فى أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خيرَ فى دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ ، ولا فى إمْرة توردُنا النار . وإن الله جلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير فى دينه ، فشمِّر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتُك أهلها ، وأحكمتُ أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكّة ، حتى يجتمع رأيُكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق ، ويسهل لكم حُزونة عِقابها[2] .

واعلم يا بن أميّة أن القوم قاصدُوك بادئ بدء لاستنطاف ماحوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبِه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

ظلّ الخليفة محصوراً يناشدُهُمْ ... بالله طوراً ، وبالقرآن أحياناَ
وقد تألّف أقــوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ وقالوا فيه بُهْتَاناَ
فقام يُذكرهم وعدَ الرّسولِ له ... وقوله فيه إسراراً وإعـــلاناَ
فقال كُفّوا فإنى معتب لكمُ ... وصارف عنكم يَعْلَى ومَرْواناَ
فكذّبوا ذاك منه ثمّ ساوَرهُ ... من حاض لبتّه ظلما وعدوانا

قال : فكتب إليه مروان جوابا عن كتابه :

أما بعد ، فقد وصل كتابُك ، فنعمَ كتابُ زعيم العشِيرة ، وحامى الذّمار ! وأخبرُك

---

(١) النطيحة : الشاه المنطوحة .

(٢) العقاب ، بالكسر : جمع عقبة ، وهى فى الأصل : المرقى الصعب من الجبال .

أن القوم على سَنَنِ استقامةٍ إلّا شظاياشعب ،شَتَّتَ بينهم مِقوَلى على غير مجابهة،حسب ماتقدّم من أمرك ؛ وإنما كان ذلك رسيس(١) العُصاة ، ورمى أخذر من أغصان الدوحة ؛ ولقد طويتُ أديمَهم على نَغَل يحلَمُ(٢) منه الجلد . كذبتْ نفس الظانّ بنا تركَ المظلمة ، وحبَّ المجوع ؛ إلّا تَهويمة الراكب العَجِل ، حتى تجذّ جماجم وجماجم ؛ جذَّ العراجين المهدّلة حين إيناعها ، وأنا على صحة نيتى ، وقوّة عزيمتى وتحريك الرّحِم لى ، وغَلَيان الدم منّى ؛ غيرُ سابقك بقول ، ولا متقدّمك بفعل ، وأنت ابن حرب ، طلّاب التِّرات ، وآبى الضيم .

وكتابى إليك وأنا كحِرْباء السَّبْسَب فى الهَجِير ترقب عين الغَزَالة(٣) ، وكالسَّبُع المفلِت من الشَّرَك يَفرَق من صوت نفسه؛ منتظرًا لما تصحّ به عزيمتك ؛ ويرِدُ به أمرك ؛ فيكون العمل به ، والمحتذَى عليه .

وكتب فى أسفل الكتاب :

أيُقتَلُ عثمانٌ وتَرْقَا دموعُنا ... ونَرقُدُ هـذا الليلَ لانتفزّعُ !
ونشرب بَرْدَ الماء رِيًّا وقد مَضَى ... على ظمأ يتلو القُرآنَ ويركعُ
فإنّى ومَنْ حَجّ الملبُّون بيتَه ... وطافوا به سعيًا،وذو العرش يسمَعُ
سأمنعُ نفسى كلّ ما فيه لذّةٌ ... من العَيْش حتّى لا يُرى فيه مطمعُ
وأقتلُ بالمظلوم مَنْ كان ظالمًا ... وذلك حكمُ الله ماعنه مَدْفَعُ

وكتب إليه عبد الله بن عامر :

---

(١) الرسيس : الشىء الثابت ، يريد أن ذلك دأبهم وعادتهم .
(٢) حلم الجلد ، إذا فسد .
(٣) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والهجير : شدة الحر ، والغزالة : الشمس .

أمّا بعـد ، فإنّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوى إليها فراخها تحتها ، فلما أقْصَده[1] السهم صِرْنا كالنَّعام الشارد . ولقد كنت مشترك الفكر ، ضالَّ الفهم ، ألتمس دريئة أستجنّ بها من خطأ الحوادث ، حتّى وقع[2] إلىّ كتابُك ، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادى ، فأنا كواجد المحجّة كان إلى جانبها حائرا ، وكأنى أعاين ما وصفتَ من تصرّف الأحوال .

والذى أخبرك به أنّ الناس فى هذا الأمر ، تسعة لك وواحـد عليك . ووالله لَلموتُ فى طلب العزّ أحسنُ من الحياة فى الذلّة ، وأنت ابنُ حَرْب فتَى الحروب ، ونُضـار[3] بنى عبد شمس ، والهمم بك منوطةٌ وأنت مُنهِضها ، فإذا نهضتَ فليس حينَ قعود ؛ وأنا اليوم على خلاف ما كانتْ عليه عزيمتى من طلب العافية ، وحبّ السلامة قبل قَرْعك سويداء القلب بسوط الملام ، ولنعم مؤدّب العشيرة أنت ! وإنّا لنرجوك بعد عثمان ، وها أنا متوقّع ما يكون منك لأمتثله ، وأعمل عليه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لاخيرَ فى العيشِ فى ذلٍّ ومنقصةٍ ... والموتُ أحسنُ من ضَيْمٍ ومِنْ عارِ
إنّا بنُو عبدِ شمس معشرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحاجِحَةٌ طُلّابُ أوتارِ
واللهِ لو كانَ ذمّيًّا مجاورُنا ... ليطلب العزّ لم نقعدْ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدْفَنْ بمزْبلةٍ ... على القُمامة مطروحاً بهـا عارِ !
فازحف إلىّ فإنّى زاحفٌ لهمُ ... بكلّ أبيضَ ماضى الحدّ بتّارِ

وكتب إليه الوليد بن عُقْبة :

أما بعد ، فإنّك أسدُّ قريش عقلا ، وأحسنُهم فهماً ، وأصوبهم رأيا ؛ معك حسن

---

(١) أقصده : أصابه . (٢) د : « دفع » . (٣) ب : « نصار »

السياسة ، وأنت موضع الرّياسة ، توردُ بمعرفة ، وتُصْدِر عن منهل روىّ . مُنَاوِئك كالمنقلب من العيُّوق[1] يَهْوِى به عاصف الشّمال إلى لُجّة البحر .

كتبتَ إلىّ تذكرُ طيب الخيش ، ولين العيش ، فمَلْءُ بطنى علىّ حرام إلّا مُسْكَة الرّمَق[2] حتى أفرِىَ[3] أوْداج قَتَلة عثمان فَرْىَ الأهُب[4] بشَبَاة الشّفار . وأما اللّين فهيهات إلّا خِيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب ، إنّا على مُداجاة ، ولمّا تبدُ صَفَحَاتُنا بعدُ ؛ وليس دون الدم بالدم مزْحَل . إنّ العار منقصة ، والضّعف ذل . أيخبط قَتَلة عثمان زَهْرة الحياة الدنيا ، ويسقَوْن بَرْد المعين ، ولمّا يمتطُوا الخوف ، ويستحلسوا الحذَر ، بعد مسافة الطّرْد وامتطاء العقبة الكئود فى الرحلة ! لا دعيتُ لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حرباً تضع الحوامل لها أطفالها ! قد ألوتْ بنا المسافة ، ووردنا حياض المنايا ، وقد عقلتُ نفسى على الموت عَقْلَ البعير ، واحتسبت أنى ثانى عثمان أو أقتل قاتله ! فعجّل علىّ مايكون من رأيك ، فإنّا مَنُوطون بك ، متبعون عَقِبَك ، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية ؛ لما أخافه من إحكام القوْم أمرَهم !

وكتب فى أسفل الكتاب :

نومى علىّ محـــرّمٌ إن لم أقم	بدم ابن أمّى مِنْ بَنِى العَلّاتِ
قامت علىّ ــ إذا قعدت ولم أُقِمْ	بطِلاب ذاك ــ مناحةُ الأمْوَاتِ
عَذُبَتْ حياضُ الموت عندى بعدما	كانتْ كريهة مَوْرِدِ النَّهِلاتِ

وكتب إليه يعلَى بن أميّة :

---

(١) العيوق : نجم أحمر مضئ فى طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا ، لا يتقدمها ، يضرب مثلا للبعد .

(٢) الرمق : بقية الروح .

(٣) فرى الجلد : شقه .

(٤) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد ما لم يدبغ .

إنّا وأنتم يابنى أميّة كالحجَر لا يُبنَى بغير مَدَر ، وكالسَّيف لا يَقطع إلاّ بضاربه .

وصل كتابُك بخبَر القوم وحالهم ، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النَّطيحة بُودِرَ بها الموت لَيُنْحَرَنَّ ذابحُه نحرَ البدَنة وافَى بها المدَى الأجَل ! ثكلتْنى مَنْ أنا ابنُها إن نمت عن طلب وِتر عثمان ، أو يقال : لم يبق فيه رَمَق ! إنّى أرى العيش بعد قَتل عثمان مرًّا ، إن أدلج القوم فإنّى مدلجٌ . وأما قصدهم ماحوته يدِى من المال ، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان ، وإن أبوْا ذلك أنفقنا المال على قتالهم ، وإنّ لنا ولهم لمعركةً نتناحر فيها نحرَ القُدار النقائع[1] ، عن قليل تصل لحومها .

وكتبَ فى أسفل الكتاب :

لمثل هذَا اليوم أوصى النّاس   لا تعط ضيما أو يخرّ الراسُ

***

قال : فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرّضونه ، ويُغرونه ، ويحرّكونه ، ويَهيجونه ، إلّا سعيد بن العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ؛ كان كتابه :

أما بعدُ ؛ فإنّ الحزْمَ فى التثبّتْ ، والخطأ فى العجلة ، والشؤم فى البِدَار ؛ والسهمُ سهمك مالم ينبضْ به الوتَر ، ولن يردّ الحالبُ فى الضَرع اللبن . ذكرتَ حقّ أمير المؤمنين علينا ، وقرابتَهُ منه ، وأنه قُتِل فينا . فخصلتان ذكرُهما نقص ، والثالثة تكذِب ، وأمرتَنا بطلب دم عثمان ، فأىّ جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! رُدِمت الفِجاَج ، وأحكِم الأمرُ عليك ، وولى زمامَه غيرُك ، فدعْ مناوأةَ مَنْ لو كان افترش فراشَه صَدْر الأمر لم يعدَل به غيره . وقلت : كأنّا عن قليل لا نتعارف ، فهل نحن إلّا حىٌّ من قريش ، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنّا الحقّ ، إنها خلافة مَنافية ، وبالله أقسم قسما مبروراً ؛ لئن صحّت عزيمتُك على

---

(١) القدار : الجزار ، والنقائع : جمع نقيعة ؛ وهى ما نحر من إبل النهب .

ماورد به كِتابك، لألفينّك بين الحالَين؛ طليحاً. وهبنى إخالك بعد خَوْض الدماء تنال الظَّفر، هل فى ذلك عوَض من ركوب المأثم ونقص الدّين!

أمّا أنا فلا عَلَىّ بنى أميّة ولا لهم، أجعل الحزم دارِى، والبيت سجنى، وأتوسّد الإسلام، وأستشعر العافيـة. فاعدِل أبا عبد الرحمن زمامَ راحلتِك إلى محجّة الحق، واستوهب العافية لأهلك، واستعطف الناس على قومِك، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفجِّر مَرْوانُ ينابيعَ الفِتَن تأجّج فى البلاد، وكأنّى بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقَدَر، ولبئس العاقبة الندامة! وعمّا قليلٍ يَضِحُ لك الأمر. والسلام.

هـذا آخرُ ماتـكاتب القوم به، ومَنْوقف عليه علم أنّ الحال لم يـكن حالا يقبل العلاج والتدبير، وأنه لم يكن بدٌّ من السيف، وأنّ عليا عليـه السلام كان أعرَف بما عَمِل.

وقد أجاب ابن سنان فى كتابه الذى سمّاه «العادل» عن هذا السؤال، فقال: قدعلم النّاس كافّة أنه عليه السلام فى قصّة الشورى عرض عليه عبدُ الرحمن بن عوف، أن يعقد له الخِلافة على أن يعمَل بكتاب الله وسنّة رسوله وسِيرة أبى بكر وعمر، فلم يستجب إلى ذلك، وقال: بل عَلَىّ أنْ أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله، وأجتهد رأيى.

وقداختلَف النّاسُ فى ذلك، فقالت الشّيعة: إنّما لم يدخل تحت الشَّرْط، لأنه لم يستصوب سيرتَهما. وقال غيرهم: إنّما امتنع لأنّه مجتهد، والمجتهد لايقلّد المجتهد، فأيّهما أقرب على القولين جميعا إثماً، وأيسر وزرا! أن يقرّ معاوية على ولاية الشام مدّة إلى أن تتوطّد خلافته، مع ماظهر من جَوْر معاوية وعداوته، ومدّ يَدِه إلى الأموال والدّماء أيامَ سلطانه، أو أن يعاهِد عبدَ الرحمن على العمل بسيرة أبى بكر وعمر، ثم يخالف بعضَ أحكامِها إذا استقرّ الأمر له، ووقع العقد! ولا رَيْبَ أنّ أحداً لايخفى عليـه فضلُ مابين

الموضعيْن ، وفصلُ مابيْن الإثمين ، فن لايجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمّح بلفظة يتلفّظ بها ، يجوز أن يتأوّلها أو يورّى فيها ، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر ، وتقوية يده مع تمكينه فى سُلطانه ، لتحصُل له طاعة أهل الشام واستضافة طرَفٍ من الأطراف ! وكأنّ معنى قولِ القائل : هلّا أقرّ معاوية على الشّام ؛ هو هلّا كان عليه السلام متهاونًا بأمرِ الدّين راغبًا فى تشديد أمرِ الدّنيا !

والجواب عن هذا ظاهر ، وجهل السائل عنه واضحٌ .

واعلم أنّ حقيقة الجواب هو أنّ عليًا عليه السلام ، كان لايرى مخالفة الشّرع ، لأجل السياسة ، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيويّة ، أما الدنيويّة فنحو أن يتوهّم الإمام فى إنسان أنه يرومُ فسادَ خلافته من غير أنْ يثبتَ ذلك عليه يقينًا ، فإنّ عليًا عليه السلام لم يكن يستحِلّ قتله ، ولا حبْسه ، ولا يعمل بالتوهّم وبالقول غير المحقّق ، وأما الدينيّة فنحو ضرب المتّهم بالسّرِقة ، فإنّه أيضا لم يكن يعمل به ، بل يقول : إن يثبت عليه بإقرار أو بيّنة ، أقمت عليه الحدّ ، وإلا لمْ أعترضه . وغيرُ علىٍّ عليه السلام قد كان منهم مَنْ يرَى خلاف هذا الرّأى ، ومذهب مالك بن أنس العملُ على المصالح المرسَلة ، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمّة لإصلاح الثلثين ، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأى وبغالب الظنّ ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ماقلناه ، وكان معاوية عنده فاسقا ، وقد سبق عنده مقدّمة أخرى يقينية ، هى أنّ استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممّن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة ، فقد تعين مجاهرته بالعزْل ، وإنْ أفضى ذلك إلى الحرب .

* * *

فهذا هو الجواب الحقيقىّ ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقىّ ، لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القولَ فى عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن ، كالقول فى عدوله عن إقرار معاوية على الشّام ، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليطه فى أحد الموضعيْن ، له أن يذهب إلى تغليطه فى الموضع الآخر.

قال ابن سنان : وجواب آخر ، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التى نقِمت على عثمان . وأفضت بالمسلمين إلى حِصاره وقتله ، تَوْليةُ معاوية الشّام ، مع ماظهر من جَوْره وعُدوانه ، ومخالفة أحكام الدين فى سلطانه ، وقد خوطب عثمان فى ذلك ، فاعتذر بأنّ عمر ولّاه قبله ، فلم يقبل المسلمون عذرَه ، ولا قنعوا منه إلّا بعزله ، حتى أفضى الأمرُ إلى ماأفضى ، وكان علىّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهيَة ، وأعرفهم بما فيه من الفَسَاد فى الدّين .

فلو أنّه عليه السلام افتتح عقْد الخلافة له بتوليته معاوية الشام ، وإقراره فيه ، أليس كان يبتدئ فى أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان فى آخره ، فأفضى إلى خلعه وقتله ! ولو كان ذلك فى حكم الشريعة سائغاً ، والوِزْر فيه مأمونا ، لكان غلطاً قبيحا فى السياسة ، وسبباً قوياً للعصيان والمخالفة ، ولم يكن يمكِنُه عليه السلام أن يقولَ للمسلمين : إنّ حقيقةَ رأيِى عزلُ معاوية عند استقرار الأمر ، وطاعة الجمهور لى ، وإنّ قصدى بإقراره على الولاية مخادعته ، وتعجيل طاعته ، ومبايعة الأجناد الذين قَبَله ، ثم استأنف بعد ذلك فيه مايستحقّه من العزل ، وأعمل فيه بموجب العدْل ، لأنّ إظهارَه عليه السلام لهذا العزْم كان يتّصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذى شرع فيه وينتقض الرأى الذى عوّل عليه .

* * *

ومنها قولهم : إنّه ترك طلحةَ والزّبير حتى خرجا إلى مكّة ، وأذِنَ لهما فى العُمْرة ، وذهب عنه الرأى فى ارتباطهما قبَله ، ومنعهما من البعد عنه .

والجواب عنه ؛ أنه قد اختلفت الرّواة فى خروج طلحة والزبير من المدينة : هل كان يإذن علىّ عليه السلام أم لا ! فمنْ قال : إنهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه ، فسؤاله ساقطٌ ، ومن قال : إنهما استأذناه فى العُمرة ، وأذِنَ لهما ، فقد روى أنه قال : والله ماتريدان العُمرة ، وإنّما تريدان الغَدْرة ! وخوّفهما بالله من التسرّع إلى الفتنة . وما كان يجوز له فى الشّرع أن يحبسهما ، ولا فى السياسة . أما فى الشّرع فلأنّه محظور أن يعاقَب الإنسان بما لم يفعَل ، وعلى مايُظَنُّ منه ، ويجوز ألّا يقع . وأمّا فى السياسة فلأنّه لو أظهر التّهمة لهما — وهما من أفاضل السابقين ، وجِلّة المهاجرين — لكان فى ذلك من التنفير عنه مالا يخفى ، ومن الطّعن عليه ماهو معلوم ، بأن يقال : إنّه ليس من إمامته على ثقة ، فلذلك يتّهم الرؤساء ، ولا يأمن الفضلاء ، لاسيّما وطلحة كانَ أوّلَ مَنْ بايعه ، والزبير لم يزلْ مشتهرا بنصرته ؛ فلو حبسهما ، وأظهر الشّكّ فيهما لم يسكن أحدٌ إلى جهته ، ولَنفَر النّاس كلُّهم عن طاعته .

فإن قالوا : فهلّا استصلحهما وولّاهما ، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما ؟

قيل لهم : فحوى هذا أنكم تطلُبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون فى الإمامة مغلوبا على رأيه ، مفتاتا عليه فى تدبيره ، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصبا ، ويولّى طلحة والزبير مِصر والعراق كرْها ؛ وهذا شىء مادخَلَ تحته أحد ممن قبله ، ولا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم ، ومن الخلافة اللفظ ؛ ولقد حورب عثمان وحُصِر على أن يعْزِل بعض ولاته فلم يجِب إلى ذلك ، فكيف تسومُون عليّا عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة ! وهذا ظاهر .

* * *

ومنها تملّقهم بتولية أميرِ المؤمنين عليه السلام محمدَ بن أبى بكر مِصْر ، وعزله قيسَ ابن سعد عنها ؛ حتى قتِل محمد بها ؛ واستولى معاوية عليها .

والجواب أنه ليس يمكن أن يقال : إنَّ محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر؛ لأنه كان شجاعا زاهدا فاضلا ، صحيح العقل والرأى ؛ وكان مع ذلك من المخلصين فى محبّة أمير المؤمنين عليه السلام، والمجتهدين فى طاعته ؛ وممن لا يتّهم عليه ، ولا يُرتاب بنصحه، وهو ربيبُه وخرِّيجه ، ويجرى مجرى أحدِ أولاده عليه السلام ، لتربيته له ، وإشفاقه عليه .

ثمّ كان المصريون على غاية المحبة له ، والإيثار لولايته ، ولما حاصروا عثمانَ وطالبوه بعزل عبدالله بن سعد بن أبى سرْح عنهم؛ اقترحوا تأميرَ محمد بن أبى بكر عليهم. فكتب له عثمان بالعهد على مِصر وصار مع المصريين حتى تعقّبه كتابُ عثمان إلى عبدالله بن سَعْد فى أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادُوا جميعا، وكان منْ قتل عثمان ما كان؛ فلم يكن ظاهرُ الرأى ووجهُ التّدبير إلّا توليةَ محمد بن أبى بكر على مصر، لما ظهرَ من ميل المصريين إليه ، وإيثارهم له ؛ واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه ؛ فكان الظنّ قويّاً باتفاق الرعيّة على طاعته ، وانقيادهم إلى نصرته ، واجتماعهم على محبّته ، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان ، وليس ذلك بعيب على أمير المؤمنين عليه السلام ،فإنّ الأمور إنما يعتمدها الإمامُ على حسب ما يظنّ فيها من المصلحة ، ولا يعلم الغيبَ إلّا الله تعالى. وقد تولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى مؤتة جعفرا فقتِل ،وولّى زيدا فقتِل ، وولّى عبدَالله ابن رواحة فقتل ، وهزم الجيش، وعاد مَنْ عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال ، فهل لأحدٍ أن يعيبَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بهذا ، ويطعن فى تدبيره !

***

ومنها قولهم : إنّ جماعةً من أصحابه عليه السلام فارقوه ؛وصاروا إلى معاوية ، كعقيل ابن أبى طالب أخيه، والنّجاشىّ شاعره ، ورقَبة بن مَصْقَلة أحد الوجوه من أصحابه؛ ولولا أنّه

كان يُوحشهم ولا يستميلُهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوّه ، وهذا يخالِفُ حكَمَ السياسة، وما يجب من تألُّف قلوب الأصحاب والرعيَّة .

والجواب : إنّا أولا لا ننكر أنْ يكون كلّ من رَغب فى حطام الدّنيا وزخرفها ، وأحبّ العاجل من ملاذّها وزينتها يميل إلى معاوية الذى يبذُل منها كلّ مطلوب ، ويسمَحُ بكلّ مأمول ، ويطعِم خراج مصر عمرو بن العاص ، ويضمَن لذى الكَلاع وحبيب ابن مسلمة ما يوفى على الرجاء والاقتراح ، وعلىّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملّة ، حتى يقول خالد بن معمر السدوسى لعلباء ابن الهيثم ، وهو يحمله على مفارقة علىٍّ عليه السلام ، واللحاق بمعاوية : اتقِ الله ياعلباء فى عشيرتك ، وانظر لنفسك ولرَحِمك ؛ ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيدَ فى عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بهـــا ظلَف عيشهما ، فأبى وغضب فلم يفعل .

فأما عَقِيل ، فالصحيح الذى اجتمع ثقاتُ الرُّواة عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنه لازم المدينة ، ولم يحضر حرب الجمل وصِفّين ، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد كتب عَقِيل إليه بعد الحكمين يستأذنه فى القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله ، فأمره عليه السلام بالمقام ، وقد رُوى فى خبر مشهورٍ ، أنّ معاوية وبّخ سعيد بن العاص على تأخيره عنه فى صِفّين ، فقال سعيد: لو دعوتَنى لوجدتَنى قريبا ، ولكنى جلست مجلس عَقِيل وغيره من بنى هاشم، ولو أوعبنا لأوعَبُوا[1] .

وأما النجاشىّ ، فإنه شرِبَ الخمر فى شهر رمضان ، فأقام علىٌّ عليه السلام الحدّ عليه ،

---

(١) أوعب القوم ؛ إذا خرجوا جميعهم للغزو .

وزاده عشرين جَلْدة فقال النَّجاشيّ : ماهذه العِلاَوة (١) ؟ قال : لجرأتك على الله فى شهر رمضان . فهرب النجاشيّ إلى معاوية .

وأمّا رَقَبة بن مَصْقَلة ، فإنه ابتاع سَبْيَ بنى ناجية وأعتقهم ، وألطّ بالمال (٢) وهرب إلى معاوية ، فقال عليه السلام: فَعل فِعْل السادة،وأبق إباق العبيد ؛ وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى ، والتلزّم بالدين ، ولا يُظَنُّ بعليّ عليه السلام التساهل والتسامح فى صغير من ذلك ولا كبير .

***

ومنها شبهة الخوارج وهى التحكيم،وقد يحتجّ به على أنه اعتمد مالايجوز فى الشرع، وقد يحتجّ به على أنه اعتمد ماليس بصواب فى تدبير الأمر . أما الأول فقولهم : إنه حكّم الرّجال فى دين الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (٣) وأما الثانى فقولهم: إنه كان قد لاحَ له النّصر ، وظهرت أمارات الظّفر بمعاوية ، ولم يبق إلّا أن يأخذ برقبته فترك التّصميم على ذلك ، وأخلد إلى التَّحكيم . وربما قالوا : إنّ تحكيمه يدلُّ على شكٍّ منه فى أمره ، وربّما قالوا : كيف رضىَ بحكومةِ أبى موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه فى حرب البَصرة ؟ وكيف رضىَ بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب : أمّا تحكيم الرجال فى الدّين فليس بمحظور،فقد أمر الله تعالى بالتّحكيم بين المرأة وزوْجها ، فقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا

---

(١) العلاوة ، بالكسر : ما زاد على الشئ .
(٢) ألط بالمال ، أى أخذه وجحده .
(٣) سورة الأنعام ٥٧ .

مِنْ أَهْلِهَا ﴾[1] . وقال فى جزاء الصَّيد : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[2] .

وأمّا قولُهم : كيف ترك التّصميم بعد ظهور أمارات النصر ؟ فقد تواتر الخبرُ بأنّ أصحابه لما رفَع أهلُ الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم ، ومشارفة هلاك معاوية وأصحابه ، انخدعوا برفع المصاحف ، وقالوا : لايحلّ لنا التّصميم على حربهم ، ولايجوز لنا إلّا وضع السّلاح ورفع الحرب والرّجوع إلى المصاحف وحكمها . فقال لهم : إنّها خديعة ، وإنّها كلمة حقّ يُراد بها باطل ، وأمرهم بالصّبر ولو ساعةً واحدة ، فأبوْا ذلك ، وقالوا : أرسلْ إلى الأشتر فليعُدْ ، فأرسل إليه ، فقال : كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر ! فقالوا له : ابعث إليه مرّةً أخرى ، فبعث إليه ، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُمهل ساعةً من النهار ، فقالوا : إنّ بينك وبينه وصيّة ألاّ يقبل ، فإن لم تبعث إليه مَنْ يعيدُه ، وإلّا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان ، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرّسول إلى الأشتر ، فقال : أتحبّ أن تظفر أنت هاهنا وتكسر جنود الشام ، ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام فى مَضْرَبه ! قال : أو قَدْ فعلوها ! لا بارك الله فيهم ! أبعد أن أخذت بمخنَق[3] معاوية ، ورأى الموتَ عيانا أرجع ! ثم عاد فشتم أهلَ العراق وسبّهم ، وقال لهم وقالوا له ، ماهو منقول مشهور ، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم .

فإذا كانت الحال وقعت هكذا ، فأىّ تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام ! وهل ينسَب المغلوب على أمره ، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير !

وبهذا نجيب عن قولهم : إنّ التحكيم يدلّ على الشكّ فى أمره ، لأنه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به ؛ فأمّا إذا دعاه إلى ذلك غيرُه ، واستجاب إليه أصحابُه ، فمنعهم وأمرهم

---

(١) سورة النساء ٣٥ .

(٢) سورة المائدة ٩٥ .

(٣) المخنق : موضع الخنق من العنق .

أن يمرّوا على وتيرتهم وشأنهم ، فلم يفعلوا ، وبين لهم أنهـا مكيدة فلم يتبيّنُوا ، وخاف أن يقتَلَ أو يسْلَم إلى عدوّه ، فإنه لا يدلّ تحـكيمهُ على شكّه ؛ بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيما عن نفسه ، ورجا أن يحكم الحـكمان بالـكتاب ؛ فتزولَ الشبهة عمّن طلب التحكيم من أصحابه .

وأمّا تحكيمه عمرًا مع ظهور فسقه ، فإنّه لم يرض به ، وإنما رضِيَ به مخالفهُ ؛ وكرهه هو فلم يقبل منه . وقد قيل : إنه أجابَ ابن عباس رحمه الله عن هذا ، فقال للخوارج : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا حَـكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَـكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [1] ! أرأيتم لو كانت المرأة يهوديّة فبعثتْ حـكماً من أهلها ، أكنّا نسخط ذلك !

وأما أبو موسى فقد كَرِهه أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وأراد أن يجعلَ بدله عبد الله ابن عبّاس ، فقال أصحابه : لا يكون الحـكمان من مُضَر ، فقال : فالأشتر . فقالوا : وهل أضرم النّار إلّا الأشتر ! وهل جرّ ما ترى إلاّ حكومة الأشتر ! ولـكن أبا موسى ، فأباه فلم يقبلوا منه ، وأثنوْا عليه ، وقالوا : لا نرضى إلاّ به ؛ فحكّمه على مضض .

* * *

ومنها قولُهم : ترك الرأى لمّا دعاه العبّاس وقتَ وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة ، وقال له : امْدُدْ يدَكَ أبايعْك ، فيقول النّاس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بايعَ ابنَ عمّه ، فلا يختلف عليك اثنان ؛ فلم يفعل ، وقال : وهل يطمع فيها طامع غيرى ! فما راعه إلا الضّوضاء واللّغط فى باب الدار ، يقولون : قد بويع أبو بكر ابن أبى قُحافة .

الجواب : إنّ صوابَ الرأى وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة ، يستندانِ إلى

---

(١) سورة النساء ٣٥ .

ما قد كان غَلب على الظنّ ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلِبْ على ظنّه أنّ أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهّدها له رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وما توهّم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجَه من البيت وحضوره ، ولعلّه قد كان يخطر له أنه إمّا أن يكون هو الخليفة أو يشاوَر في الخلافة إلى مَنْ يفوض . وما كان يتوهّم أنّه يجرى الأمر على ما جرى من الفلتة عند ثوران تلك الفتنة ، ولا يشاوَر هو ولا العبّاس ولا أحدٌ من بنى هاشم ، وإنما كان يكون تدبيره فاسداً لو كان يحاذِرُ خروجَ الأمر عنه ، ويتوهّم ذلك ، ويغلِب على ظنّه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجّلة في الدار من وراء الأبواب والأغلاق ، وإلاّ فاته ، ثم يهمل ذلك ولا يفعله . وقد صرح هو بما عنده ، فقال : وهل يطمع فيها طامعٌ غيرى ! ثم قال : إنى أكره البيعة ها هنا وأحبّ أن أصْحِرَ[1] بها ؛ فبين أنه يستهجن أن يبايع سرًّا خلف الحجُب والجدران ، ويحب أن يبايع جَهْرةً بمحضرٍ من الناس كما قال ، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم في داره ، فقال : لا ، بل في المسجد ، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيّام ، وما يُحدث الوقتُ من وقوع ما لايتوهّم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه .

* * *

ومنها قولهم : إنّه قصّر في طلب الخلافة عند بيعة أبى بكر ، وقد كان اجتمع له من بنى هاشم وبنى أميّة وغيرهم من أفناء الناس مَنْ يتمكّن بهم من المنازعة وطلب الخلافة ، فقصّر عن ذلك ، لا جبناً ، لأنه كان أشجع البشر ، ولكن قصور تدبير وضعف رأى ، ولهذا أكفرته الكاملية[2] وأكفرت الصحابة ، فقالوا : كفرت الصحابة لتركهم بيعته ، وكفر هو بترك المنازعة لهم !

---

(١) أصحر بالأمر : أظهره .

(٢) الكاملية : أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبى كامل ؛ وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة على ، وكفر على بتركه قتالهم ؛ وكان يلزمه قتالهم كما لزم قتال أصحاب صفين . الفرق بين الفرق ٣٩ .

والجواب : أمّا على مذهبنا ، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوصاً عليه ، وإنّما كان يدّعيها بالأفضلية والقَرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص ، فلمّا وقعت بيعةُ أبى بكر رأى هو علىّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام تركُ النّزاع ، وأنّه يخاف من النّزاع حدوثَ فتنة تحلّ معاقد المِلّة وتزعزع أركانها ، فحضر وبايع طوعاً ، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمن رضىَ هو عليه السلام ، ونطيع مَنْ أطاعه ، لأنّه القدوة ، وأفضل مَنْ تركه صلّى الله عليه وآله بعده .

وأما الإمامية ، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم .

***

ومنها قولهم : إنّه قصّر فى الرأى حيث دخل فى الشُّورى ، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخمسة ، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم ، فوهن بذلك قدرُه ، وطأطأ من جلالته ، ألا ترى أنّه يُستهجن ويقبُح من أبى حنيفة والشافعىّ رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدا[1] طرفاً من الفقه ، ويستهجَن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسَهما بمن يعلم أبوابا يسيرة من النحو !

الجواب : أنّه عليه السلام وإن كان أفضلَ مِنْ أصحاب الشورى ، فإنه كان يظنّ أنّ وَلِىَ الأمر أحدهم بعد عمر ، لا يسير سيرة صالحة ، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام ، وقد كان يثنى على سيرة عمر ويحمَدها ، فواجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه ، توقّعاً لأن يفضىَ الأمرُ إليه ، فيعمل بالكتاب والسنّة ، ويحيى معالمَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس اعتماد مايقتضيه الشرع ممّا يوجب نقصاً فى الرأى ، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع .

***

ومنها قولهم : إنه ما أصاب حيث أقامَ بالمدينة وعثمان محصور ، وقد كان يجب في الرأى أن يخرج عنها بحيث لا تتوط بنو أميّة به دمَ عثمان ، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لـكان من قذفِهِمْ إياه بذلك أبعدَ ، وعنه أنزَه .

والجواب : أنّه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان ، أنّ أهل الفساد من بنى أمية يرمونه بأمره ، والغيب لا يعلمه إلّا الله ، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على المحاصرين له ، فقد حضر هو بنفسه مرارا ، وطرد الناس عنه ، وأنفذ إليه ولديه وابنَ أخيه عبد الله ، ولولا حضور علىّ عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة ، وما تراخى أمره وتأخره قتله ، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له ، ويحامى عنه .

* * *

ومنها قولهم : كان يجب فى مقتضى الرأى حيث قتِل عثمان ، أن يغلق بابه ، ويمنع النّاس من الدخول إليه ، فإنّ العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تثول إليه ، لأنه تعيّن للأمر بحكم الحال الحاضرة . فلم يفعل ، وفتح بابه ، وترشّح للأمر ، وبسط له يده ؛ فلذلك انتقضَتْ عليه العرب من أقطارها .

والجواب : إنه عليه السلام كان يرى أنّ القيام بالأمر يومئذ فرضٌ عليه لا يجوز له الإخلال به ، لعدم مَنْ يصلح فى ظنّه للخلافة ، فما كان يجوز له أن يغلِق بابه ويمتنع . وما الذى كان يومئذ أن يبايع الناسُ طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلا للأمر فقد كان عبدُ الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور . وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة ، وله من بنى أميّة شيعة وأصحاب ، بشبهة أنه ابنُ عمّ عثمان ، وأنّه كان يدبر أمر الخلافة على عهده . وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة ، لأنّه من بنى أميّة وابن عمّ عثمان ، وأمير الشام عشرين سنة ، وقد كان قومٌ من بنى أميّة يتعصّبون لأولاد عثمان المقتول ، ويرومون إعادة الخلافة فيهم

وما كان يسوغ لعلىّ عليه السلام فى الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها ، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء ، فلذلك فتح بابه ، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم ما فى قلوب الناس ؛ هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا ! فلمّا رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه ؛ وقد قال فى خطبته : « لولا حضورُ الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر . . . لألقيتُ حبلَها على غاربها ، ولسقيت آخرَها بكأس أولها[1] » ؛ وهذا تصريح بما قلناه .

***

ومنها قولهم : هلا إذْ ملك شريعة الفُرات على معاوية ، بعد أنْ كان معاوية ملكها عليه ، ومنعه وأهلَ العراق منها ، مَنَع معاوية وأهل الشام منها ؛ فكان يأخذهم قبضاً بالأيدى ! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء ، بل فسح لهم فى الورود ؛ وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب .

الجواب ، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعَطَش ؛ فإن الله تعالى ما أمر فى أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك ؛ ولا فسح فيه فى نحو القصاص أو حد الزانى المحصن أو قتل قاطع الطريق ، أو قتال البغاة والخوارج ، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حكمَ الله وشريعتَه ، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغَلَبة والقهر والظفَر بالعدوّ ، ولذلك لم يكن يستحلّ البيات[2] ولا الغدْر ولا النكث . وأيضا فمن الجائز أنْ يكونَ عليه السلام غلب على ظنّه أنَّ أهلَ الشام إن مُنعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكَرة على عسكره ، وأن يضعوا فيهم السيوف ، فيأتوا عليهم ويكسِرُوهم بشدّة حَنَقِهم وقوّة داعيهم إلى ورود الماء ، فإنّ ذلك من أشدّ الدّواعى إلى أن يستميت القوم ويستقتلوا . ومَنِ الذى يقف بين يدىْ جيش عظيم عَرَمرم حَنِقٍ قد اشتدّ بهم العطش ، وهم يروْن الماء كبطون الحيّات ، لا يحول بينهم وبينه

(١) من الخطبة الشقشقية ؛ وقد تقدمت فى الجزء الأول ص ١٥١ — ٢٠٣

(٢) يقال : بيت العدو ؛ إذا أوقع به ليلا .

إلا قوم مثلهم ، بل أقل منهم عِدّة وأضعف عُدّة ، ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال : لأمنعنّهم وروده فأقتلهم بشِفار الظمأ ، قال له عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ، فليسوا ممّن يرى الماء ويصبر عنه . فقال : لا والله لا أخلّى لهم عنه . فسفّه رأيه وقال : أتظنّ أنّ ابن أبى طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشا ، والماء بمَعقد الأُزُر ، وسيوفهم فى أيديهم ! فلجّ معاوية ، وقال : لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا . فلما مسّ أهلَ العراق العطش ، أشار علىّ عليه السلام إلى الأشعث أن احمِل ، وإلى الأشتر أن احملْ ، فحملا بمنْ معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد ، وفرّ معاوية ومَنْ رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنمُ خالطتْها السِّباع ، وكان قصارَى أمره ، ومنتهى همّته أن يحفظ رأسه ، وينجوَ بنفسه . وملك أهلُ العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه ، فصارُوا فى البرّ القفْر ، وصار علىّ عليه السلام وأصحابه على شريعةِ الفرات ، مالكين لها ، فما الذى كان يؤمِّنُ عليًّا عليه السلام لو أعطش القومَ أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم ! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان ! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما !

***

ومنها قولهم : أخطأ حيثُ محا اسمه بالخلافة من صحيفةِ الحكومة ، فإنّ ذلك مما وهّنه عند أهل العراق ، وقوّى الشبهة فى نفوس أهل الشام .

والجواب ، أنه عليه السلام احتذى فى ذلك - لمّا دعى إليه واقترحه الخصم عليه - فعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى صحيفة الحديبية ، حيث محا اسمه من النبوّة لما قال له سهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربْناك ، ولا منعناك عن البيت ، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة : ستدعَى إلى مثلها فتجيب . وهذا من أعلام نبوّته صلوات الله عليه ، ومن دلائل صدقه ، ومثله جرى له حَذْو القُذّة بالقذّة .

***

ومنها قولهم : إنه كان غيرَ مصيب فى ترك الاحتراس ، فقد كان يعلم كثرة أعدائه ، ولم يكن يحترس منهم ؛ وكان يخرج ليلًا فى قميص ورداء وحده ؛ حتى كَمن له ابن مُلجم فى المسجد فقتله ، ولو كان احترس وحفِظَ نفسَه ولم يخرج إلّا فى جماعة . ولو خرج ليلًا كانت معه أضواء وشُرْطة ، لم يوصل إليه .

والجواب ، أنّ هذا إن كان قادحا فى السياسة والتدبير ، فليكن قادحا فى تدبير عمر وسياسته ؛ وهو عند الناس فى الطبقة العليا فى السّياسة وصحّة التدبير ، وليكن قادحا فى تدبير معاوية ، فقد ضربه الخارجىّ بالسّيف ليلةَ ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفسه ، ومعاوية عند هؤلاء سديدُ التدبير ؛ وليكن قادحًا فى صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقد كان يخرج وحده فى المدينة ليلا ونهارا مع كثرة أعدائه ؛ وقد كان يأكل ما دُعِيَ إليه ولا يحترس ؛ حتى أكل من يهودية شاة مشويّةً قد سمّته فيها فمرض ، وخِيف عليه التلف ، ولما برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته : إنّى ميت من تلك الأكْلة ، ولم تكن العرب فى ذلك الزمان تحترس ، ولا تعرف الغِيلة والفَتْك ، وكان ذلك عندهم قبيحًا يعيَّر به فاعله ؛ لأن الشجاعة غير ذلك ، والغِيلة فعل العَجَزة من الرجال ؛ ولأنّ عليا عليه السلام كانت هيبته قد تمكّنت فى صدور الناس ، فلم يكن يظنّ أنّ أحدا يقدِم عليه غيلة أو مبارزة فى حرب ، فقد كان بلغ من الذّكر بالشجاعة مبلغا عظيماً لم يبلغه أحد من الناس ، لا مَنْ تقدّم ولا مَنْ تأخر ، حتى كانت أبطال العرب تفزعُ باسمه ؛ ألا ترى إلى عمر بن معد يكرب وهو شجاع العرب ، الذى تُضرب به الأمثال ، كتب إليه عمر بن الخطاب فى أمرٍ أنكره عليه ، وغدر تخوفه منه : أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه ، لأبعثنّ إليك رجلا تستصغرُ معه نفسَك ، يضع سيفَه على هامَتِك فيخرجه من بين فخذيك ! فقال عمرو لما وقف على الكتاب : هدّدنى بعلىّ والله ! ولهذا قال شبيب بن بجرة لابن مُلجم ، لما رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدره : ويلك ! ما تريد

أن تصنع! قال: أقتل عليا، قال هَبِلتك الهبُول، لقدجئت شيئا إدًّا! كيف تقدِر على ذلك! فاستبعد أن يتم لابن مُلجم ما عزم عليه، ورآه مراماً وعرا. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غَلَبات الظُّنون، فمن غلبت على ظنه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس؛ وإنما يجب الاحتراس على مَنْ يغلب على ظنه العطب إن لم يحترس.

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال: إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنه أصح الناس تدبيرا وأحسنهم سياسة، وإنما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما!

(١٩٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فقالَ سُبْحَانَهُ : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ !

* * *

الشرح :

الاستيحاش : ضدّ الاستئناس ، وكثيرا مايحدِثه التوحّد وعدم الرفيق ؛ فنهى عليه السلام عن الاستيحاش فى طريق الهدى لأجل قلّة أهله ، فإنّ المهتدىَ ينبغى أن يأنس بالهداية ، فلا وحشة مع الحقّ .

وعَنَى بالمائدة : الدّنيا ، لذّتها قليلة، ونغصتها كثيرة ، والوجود فيها زمان قصير جدًّا ، والعدم عنها زمان طويل جدا .

ثم قال : ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجُرْم بعينه ، بل لمن اجترمه ومَنْ رضى به ، وإن لم يباشره بنفسه ، فإنّ عاقِر ناقة صالح إنّما كان إنسانا واحدا ، فعمّ الله ثمودَ بالسخط

لما كانوا راضين بذلك الفعل كلّهم ، واسم « كان » مضمَر فيها ، أى ما كان الانتقام منهم إلّا كذا .

وخارتْ أرضهم بالخسْفة : صوّتت كما يخور الثور ، وشبّه عليه السلام ذلك بصوت السّكّة المحمَاة فى الأرض الخوّارة ، وهى اللّيّنة ،وإنّما جعلها محمَاة لتكون أبلغَ فى ذهابها فى الأرض . ومن كلامه عليه السلام يوم خيبر ، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد بعثه بالرّاية : أكون فى أمرِك كالسّكّة المحمَاة فى الأرض،أم الشاهد يرى مالا يرى الغائب ؟ فقال له : بل يرى الشّاهد مالا يرى الغائب .

وقال له أيضا هذه اللفظة لمّا بعثه فى شأن مارية القبطية ، وما كانت اتُّهِمت به من أمر الأسود القبطىّ ، ولهذا علّة فى العلم الطبيعى ، وذلك أنّ السّكّة المحمَاة تخرق الأرض بشيئين : أحدهما تحدُّد رأسها ، والثانى حرارته ، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتُمِد عليه فى الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحليلها ماتلاقى من صلابة الأرض ، لأنّ شأن الحرارة التحليل ، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد فى الأرض أوحى وأسهل .

والتّيه : المفازة يتحيّر سالكها .

***

[قصة صالح وثمود]

قال المفسّرون : إن عاداً لما أهلكت عَمَرتْ ثمودُ بلادها ، وخلَفُوهم فى الأرض ، وكثروا وعُمِّروا أعماراً طوالا ، حتى إنّ الرّجُل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته ، فنحتوا البيوت فى الجبال ، وكانوا فى سَعة ورخاء من العيش فعتوْا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ،فبعث الله إليهم صالحا ، وكانوا قوماً عربا ،وصالح من أوسطهم

نسبا ، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا ــ فى يوم معلوم لهم من السَّنة ــ فتدعُو إلهك وندعو إلهنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتّبعتَنا.

قال : نعم ، فخرج معهم ، ودعوا أوثانهم ، وسألوها الاستجابة فلم تجبْ ،فقال سيدُهم جندع بن عمرو ــ وأشار إلى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يسمونها الكاثبة : أخرِج لنا فى هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء ــ والمخترجة : التى شاكلت البُخْت[1] ــ . فإن فعلت صدّقناك وأجبناك .

فأخذ عليهم المواثيق ؛ لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنّ ولتصدّقُنّ ؟ قالوا : نعم ،فصلّى ودعا ربّه ، فتمخّضت الصخرة تمخُّضَ النَّتُوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عُشَراء[2] جوْفاء وبْراء كما وصفوا ،لا يعلم مابين جنبيها إلا الله ، وعظماؤهم ينظرون . ثم نُتِجت ولداً مثلها فى العِظم ، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه ، ومنع أعقابَهم ناس من رءوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقةمع ولدها ترعَى الشّجر وتشرب الماء،وكانت تردُ غِبًّا ؛فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر ، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ثم تتفجّح ؛ فيحتلبون ماشاءوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدّخرون ، فإذا وقع الحرّ تصيفَّتْ بظهر الوادى ، فتهرُب منها أنعامهم ، فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشقّ ذلك عليهم ؛ وزيّنَتْ عَقْرها لهم امرأتان: عنيزة أم غَنْم وصدقة بنت المختار؛ لما أضرّت به من مواشيهما ، وكانتا كثيرتى المواشى ، فعقروها ؛ ؛عَقَرَها قدار الأحمر ، واقتسموا لحمها وطبخوه .

---

(١) البخت : الإبل الخراسانية .
(٢) العشراء من النوق : التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، وجمعها عشار ، بكسر العين .

فانطلق سَقْبها[1] حتى رقَى جبلا اسمه قارة ، فرغا ثلاثا ؛ وكان صالح قال لهم : أدركوا الفَصِيل عسى أن يُرْفَع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه ؛ وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبِحون غدا ووجوهكم مصفرّة ، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة ؛ ثم يغشاكم العذاب .

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين ، فلمّا كان اليوم الرابع ، وارتفعت الضحوة ، تحنّطوا بالصَّبِر ، وتكفّنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال ، فتقطعت قلوبهم فهلكوا .

وقد جاء فى الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بالحِجْر فى غزوة تبُوك ، فقال لأصحابه : لا يدخلنّ أحدٌ منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وروى المحدّثون أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قال لعلىّ عليه السلام : أتدرى مَنْ أشقى الأولين ؟ قال : نعم ، عاقر ناقة صالح ، قال : أفتدرى مَنْ أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : مَنْ يضربك على هذه ، حتى تخضب هذه .

---

(١) السقب : ولد الناقة ؛ خاص بالذكر .

(١٩٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

روى عنه أنه قاله عند دفن سيِّدة النساء فاطمة عليها السلام ، كالمناجى به رسول الله صلى الله عليه وسلّم عند قبره .

السَّلَامُ عَلَيْكَ يارَسُولَ اللهِ عَنِّى ، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ ! قَلَّ يارَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِى ، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِى ، إلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّى لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ . فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِى وَصَدْرِى نَفْسُكَ ؛ فَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ !

أَمَّا حُزْنِى فَسَرْمَدٌ ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ . وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِها . فَأَحْفِها السُّؤَالَ ، وَاسْتَخْبِرْها الحالَ ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُما سَلَامَ مُوَدِّعٍ ، لَا قالٍ وَلَا سَئِمٍ ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ !

***

الشَّرْحُ

أما قول الرضى رحمه الله : « عند دفن سيدة النساء » ، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « فاطمة سيدة نساء العالمين » إمّا هذا اللفظ بعينه ، أو لفظ يؤدّى هذا

المنى ، روى أنه قال وقد رآها تبكى عند موته: « ألا ترضَيْن أن تكونى سيّدة نساء هذه الأمة ! ». وروى أنه قال: « سادات نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

قوله عليه السلام: « وسريعة اللّحاق بك » جاء فى الحديث: أنه . آها تبكى عند موته فأسرّ إليها : « أنتِ أسرع أهلى لُحوقا بى » ، فضحكت .

قوله : « عن صفيّتك » أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول : « عن ابنتك » ، فقال : « صفيّتك »، وهذا من لطيف عبارته، ومحاسن كنايته ، يقول عليه السلام: ضَعُفَ جلدى وصَبْرى عن فراقها ؛ لكنى أتأسّى بفراق لك فأقول : كلُّ عظيم بعد فراقك جَلَل، وكلُّ خطب بعد موتك يسير .

ثم ذكر حاله معه وقتَ انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه ، فقال : لقد وسَّدْتُك فى ملحودة قبرك ، أى فى الجهة المشقوقة من قبرك ، واللّحد : الشّقّ فى جانب القبر، وجاء بضمّ اللّام فى لغة غير مشهورة .

قال : « وفاضت بين نحرى وصدرى نفْسك » ، يروى أنه صلى الله عليه وآله قذف دماً يسيرا وقت موته . ومَنْ قال بهذا القول زعم أنّ مرضه كان ذات الجنْب ، وأنّ القُرحة التى كانت فى الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت فى تلك الحال ، وكانت فيها نفسُه صلّى الله عليه وآله . وذهبَ قومٌ إلى أنّ مرضه إنّما كان الحمّى والسّرسام الحارّ ، وأنّ أهل داره ظنوا أنّ به ذاتَ الجنب فلدُّوه وهو مغمًى عليه ، وكانت العرب تداوى باللّدود[1] مَنْ به ذات الجنب ، فلما أفاق علم أنهم قد لدُّوه ، فقال : « لم يكن الله ليسلّطها علىّ ، لُدّوا كلّ من فى الدار » ، فجعل بعضهم يَلُدّ بعضا .

---

(١) فى اللسان عن الفراء : « اللدأن يؤخذ بلسان الصبى فيمد الى أحد شقيه ، ويوجر فى الآخر الدواء فى الصدف . بين اللسان وبين الشدق ؛ وفى الحديث أنه لد فى مرضه » .

واحتجَّ الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روى من انتصابه وتعذّر الاضطجاع والنوم عليه ، قال سلمان الفارسيّ : دخلتُ عليه صبيحةَ يوم قبل اليوم الذى مات فيه ، فقال لى : يا سلمان ، ألا تسألُ عمّا كابدتُه الليلةَ من الألم والسهر أنا وعليّ ! فقلت : يا رسول الله ، ألا أسهرُ الليلة معك بدَلَه ؟ فقال : لا هو أحقّ بذلك منك .

* * *

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التى أكلها عليه السلام ، واحتجُّوا بقوله صلى الله عليه وآله : « ما زالت أكلة خَيْبر تعاودنى ؛ فهذا أوانُ قطعت أبهَرى » [1] .

ومَنْ لم يذهبْ إلى ذات الجنْب ، فأوّلوا قولَ عليّ عليه السلام : « فاضت بين نحرى وصدرى نفسُك » فقالوا : أراد بذلك آخر الأنفاس التى يخرجها الميّت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها ، ولا بدّ لكل ميّت من نفخةٍ تكون آخر حركاته .

ويقول قوم : إنَّها الروح ، وعبّر عليّ عليه السلام عنها بالنفس ، لمّا كانت العرب لا ترى بين الرّوح والنفس فرْقاً .

واعلم أن الأخبار مختلفة فى هذا المعنى ، فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنها قالت : توفّىَ رسول الله صلى الله عليه وآله بين سَحْرِى [2] ونحرى .

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن عليّ عليه السلام ، أنه قال عن نفسه ، وقال فى رواية أخرى : «ففاضت نفسُه فى يدى ، فأمررتها على وجهى » .

---

(١) الأبهر : عرق إذا انقطع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم يتشعب منهما سائر الشرايين
(٢) السحر هنا : الرئة .

والله أعلم بحقيقة هذه الحال ، ولا يبعد عندى أن يصدُق الخبرانِ معاً ، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الوفاة مستندا إلى علىّ وعائشة جميعا ، فقد وقع الاتفاق عَلَى أنه مات وهو حاضر لموته ، وهو الذى كان يقلّبه بعد موته ، وهو الذى كان يعلّله ليالىَ مرضه ، فيجوز أن يكون مستندا إلى زوجته وابن عمّه ، ومثل هذا لا يبعد وقوعه فى زماننا هذا ، فكيف فى ذلك الزمان الذى كان النساء فيه والرجال مختلطين ، لا يستتر البعض عن البعض .

فإن قلت . فكيف تعمل بآية الحجاب ، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله عن الناس بعد نزولها ؟

قلت : قد وقع اتفاق المحدثين كلّهم على أنّ العباس كان ملازما للرسول صلى الله عليه وآله أيامَ مرضه فى بيت عائشة ، وهذا لا ينكره أحدٌ ، فعلى القاعدة التى كان العباس ملازمه صلى الله عليه وآله كان علىّ عليه السلام ملازمه ، وذلك يكون بأحد الأمرين : إمّا بأن نساءه لا يستترن من العبّاس وعلىّ لكونهما أهلَ الرجل وجزءاً منه ، أو لعلّ النساء كن يختمرن بأخمرتهنّ ، ويخالطن الرجال فلا يرونَ وجوههنّ ، وما كانت عائشة وحدَها فى البيت عند موته ، بل كان نساؤه كلّهن فى البيت ، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وآله .

فأما حديثُ مرضه صلوات الله عليه ووفاته ، فقد ذكرناه فيما تقدم .

قوله : « إنا لله » إلى آخره ؛ أى عبيده ، كما تقول : هذا الشيء لزيد ، أى يملكه . ثم عقّب الاعترافَ بالملكيّة بالإقرار بالرّجْعة والبعث ، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة ، كما أدّب الله تعالى خَلْقه وعباده .

والوديعة والرهينة ، عبارة عن فاطمة ، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابة الكاتب قوله عن قَطْر النّدى بنت خارويه بن أحمد بن طولون ، لما حمِلَتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن

طلحة بن المتوكل : « وقد وصلت الوديعة سالمة ، والله المحمود ، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يحضّ القلب على حفظ سروره » !

وأخذ الصابى هذه اللفظة أيضا ، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه ، إلى عدّة الدّولة أبي تَغْلِب بن حمدان ، وقد نقل إليه ابنته : « قد وجّهت الوديعة ياسيّدى ، وإنما تقلب من وطن إلى سكن ، ومن مغرس إلى مغرس ، ومن مأوى برّ وانعطاف ، إلى مثوى كرامة وألطاف » .

فأما الرّهينة فهى المرتهَنة ، يقال للمذكّر : هذا رهين عندى على كذا ، وللأنثى : هذه رهينة عندى على كذا ، كأنها عليها السلام كانتْ عنده عوَضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما تكونُ الرهينة عوَضاً عن الأمر الذى أخذت رهينةً عليه .

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائمٌ ، وأنه يسهر ليله ولاينام إلى أن يلتحِقَ برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره فى الدار الآخرة ، وهذا من باب المبالغة ، كما يبالغ الخطباء والكتاب والشعراء فى المعانى ، لأنه عليه السلام ماسهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام، وإنما سهر ليلة أوشهرا أوسنة ، ثم استمرّ مريرُه ، وارعوى رسنُه، فأمّا الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة ، هكذا وردت الرواية عنه .

قوله عليه السلام : « وستنبئك ابنتُك » ، أى ستعلمك .

فأحفها السؤال ، أى استقصِ فى مسألتها، واستخبرها الحال، أحفيت إحفاء فى السؤال: استقصيت ،وكذلك فى الحجاج والمنازعة، قال الحارث بن حِلّزة :

إنّ إخواننا الأراقم يَغْلُو ... ن علينا فى قِيلهمْ إحفاء[1]

ورجل حفِىّ ، أى مستقصٍ فى السؤال .

---

(١) المعلقات بشرح التبريزى ٢٤٥ . يغلون ؛ أى يرتفعون . والإحفاء : الاستقصاء .

واستخبِرْها الحال ؛ أى عن الحال ، فحذف الجار ، كقولك : اخترت الرجال زيداً أى من الرجال ، أى سَلْها عمّا جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا ولا يدلّ هذا على وجود النصّ ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألّم من اطّراحهم وترك إدخالهم فى المشاورة ، فإنّ ذلك مما تكرهه النفوس وتتألّم منه ، وهجا الشاعر قوماً ، فقال :

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ[1]

قوله : « هذا ولم يَطُل العهد ، ولم يَخْلُق الذّكر » ، أى لم ينس .

فإن قلت : فما هذا الأمر الذى لم ينسَ ولم يخلُق ، إن لم يكن هناك نصّ ؟

قلت : قوله صلى الله عليه وآله : « إنّى مخلّف فيكم الثّقلين » ، وقوله : « اللّهمّ أدِرِ الحقّ معه حيث دار » ، وأمثال ذلك من النصوص الدالّة على تعظيمه وتبجيله ومنزلته فى الإسلام ، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخّر عَقْد البيعة إلى أن يحضر ويُستشار ، ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العَقْد لواحدٍ من المسلمين بموجبه ، إمّا له أو لأبى بكر ،أو لغيرهما ، ولم يكن ليليقَ أن يبرم الأمروهو غير حاضر له ، مع جلالته فى الإسلام،وعظيم أثره، وما ورد فى حقّه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله،فهذا هو الذى كان ينقِم عليه السلام ، ومنه كان يتألّم ويُطِيل الشّكوى ،وكان ذلك فى موضعه. وما أنكر إلّا منكَراً . فأمّا النصّ فإنّه لم يذكره عليه السلام ، ولا احتجّ به ، ولما طال الزمان صَفَح عن ذلك الاستبداد الّذى وقع منهم ، وحضر عندهم فبايعهم ، وزال ما كان فى نفسه .

---

(١) لجرير ، من قصيدة له فى ديوانه ١٦٠ ـ ١٦٦ ، يهجو فيها التيم ، قبيل عمر بن لجأ . وشهود ، أى حاضرون .

فإن قلت : فهل كان يسوغُ لأبي بكر ، وقد رأى وثوبَ الأنصار على الأمر أن يؤخّره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة ؟

قلت : إنّه لم يلم أبا بكر بعينه ، وإنّما تألّم من استبداد الصّحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته . ويجوز أن يكون أكثر تألّمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد ، والتغلّب .

* * *

[ما رواه أبو حيان فى حديث السقيفة]

وروى القاضى أبو حامد أحمد بن بشير المروروذىّ العامرىّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التوحيدىّ ، قال أبو حيّان : سمرنا عند القاضى أبي حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان ، فى شارع الماذيان ، فتصرّف الحديث بنا كلّ متصرّف ، وكان والله مِعنًّا[1] مِزْيلًا مِخْلطًا[2] عزيز[3] الرواية ، لطيف الدّراية [له] فى كلّ جو متنفَّس ، وفى كل نار مقتبَس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فركب كلٌّ منًّا فنًّا ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ونزع إلى مذهب ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفَظ رسالة أبي بكر إلى علىّ ، وجواب علىّ له ومبايعته إياه عَقِيب تلك الرسالة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من دُرَر الحِقاق المصونة[4] ، ومخبّآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ماروَيتُها إلّا للمهلّبى[5] فى وزارته ، فكتبها عنّى فى خَلْوة بيده ، وقال : لا أعرف فى الأرض رسالةً

---

(١) المعن : الخطيب المتصرف .

(٢) يقال : رجل مزيل مخلط : أى فائق رائق .

(٣) فى صبح الأعشى : « غزير » .

(٤) صبح الأعشى : « من بنات الحقائق » . والحقائق : جمع حق ، بالضم ؛ وهو الوعاء .

(٥) صبح الأعشى : « لأبي محمد المهلبي » .

أعقل منها ، ولا أبين ، وإنّها لتدلّ على عِلم وحُـكْم ، وفصاحة وفقاهة ، فى دين ودهاء وبعد غَوْر ، وشدّة غَوْص .

فقال له واحدٌ من القوم : أيها القاضى ، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناه عنك ؛ فنحنُ أوْعَى لها من المهاَبيّ ؛ وأوجب ذِماماً عليك !

فقال [١] : هـذه الرسالة رواها عيسى بن دأب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه عُروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح [١] .

قال أبو عبيدة : لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الوقار والهيبة ـ بعد هَنَة [٢] كادَ الشّيطان بها بُسَرّ فدفع الله شرّها ، وأدحض عسرها : فركد كَيْدها ، وتيسّر خيرها، وقصَم ظهر النفاق والفسق بين أهلها ـ بلَغَ أبا بكر عن علىّ عليه السلام تلكّؤ وشماس ، وتهمْهُم [٣] ونِفَاس ،فكرِه أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة ، وتنفرج [٤] ذاتُ البين ، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهل مغرور ، أو عاقل ذى دَهاء ، أو صاحب سلامة ضعيف القلب ، خوّار المنان ؛ دعانى فى خلوة لحضرته ، وعنده عمر وحدَه ـ وكان عمر قبساً له وظهيراً معه ، يستضىء بناره ، ويستملى من لسانه ـ فقال لى :

ياأبا عبيدة ، ما أيْمَنَ ناصيتك ، وأبيَن الخيرَ بين عارضَيْك ! لقد كنتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحلّ المغبُوط ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود: « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، وطالما أعزّ الله الإسلام بك ، وأصلح ثَلْمه على يديك ، ولم تزلْ للدّين ناصرا وللمؤمنين رَوْحا ، ولأهلك ركنـا ، ولإخوانكَ مَردًا ! قد أردتُك

(١ ـ ١) فى صبح الأعشى : « حدثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى ميسرة ، قال : حدثنا محمد بن أبى فليح ، عن عيسى بن دأب الناح ، قال : سمعت مولاى أبا عبيد يقول : » .

(٢) صبح الأعشى : « بعد فتنة » .

(٣) همهم الرجل : تكلم كلاماً خفيا ، والنفاس : مصدر نافس ؛ أى رغب فى الشيء . وفى نهاية الأرب وصبح الأعشى : « تهمم » .

(٤) نهاية الأرب : « وتفرق » .

لأمر لَهُ مابعده ؛ خطرُه (١) مخوف ، وصلاحه معروف ،ولئن لم يندمِل جرحُه بمسبارك (٢) ورِفقِك ، ولم تُجَبَّ حيته (٣) بُرقيتك ، لقد وقع اليأس ،وأعضل البأس ،واحتيج بعدك إلى ماهو أمرّ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامَه بك ، ونظامه على يدك (٤) . فتأتّ (٥) له ياأبا عبيدة ، وتلطَّف فيه ،وانصح لله ولرسوله ؛ ولهذه العِصابة ، غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ حمداً ؛ والله كالئك وناصرك ، وهاديك ومبصِّرك .

امض إلى عليّ ، واخفض جناحَك له ، واغضُض من صوتك عنده ؛ واعلم أنه سُلالة أبي طالب ؛ ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبرّ مفرقة ، والجوّ أكْلَف ، والليل أغْلَف ،والسماء جلواء ،والأرض صلعاء ،والصَّعود متعذِّر ،والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطوف رءوف ، والباطل نَسوف عصوف ؛ والعُجْب مقدَحة الشرّ ، والضِّغن رائد البوار ، والتّعريض شِجار (٦) الفتنة ، والقِحة مفتاح العداوة ، والشيطان متّكئ على شماله ، باسط ليمينه ، نافجٌ (٧) حِضْنَيه لأهله : ينتظر الشَّتات والفرقة ،ويدبّ بين الأمة بالشّحناء والعداوة ، (٨ عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوِسُ بالفُجور ٨) ؛ ويدلِي بالغرور ، ويمنّى أهلَ الشرور ، ويوحى إلى أوليائه بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا

---

(١) د : « خطر مخوف » . صبح الأعشى : « لأمر خطر مخوف » .

(٢) المسبار : الميل الذى يسبر به الجرح . وفى صبح الأعشى : « بيسارك » .

(٣) الجب : القطع عامة .

(٤) صبح الأعشى : « بيديك » .

(٥) تأت : تهيأ للأمر برفق وحسن حيلة . ، وفى ب : « تأن » .

(٦) الشجار : مركب أصغر من الهودج ، ضربه مثلا .

(٧) فى اللسان : « كل ما ارتفع فقد نفج وانتفج وتنفج ، ونفجه هو . . . ونفجت الشىء فانتفج ، أى رفعته وعظمته ... وفى حديث على : « نافجا حضنيه » كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء . والحضن : الجنب ؛ وهما حضنان .

(٨ — ٨) صبح الأعشى : « عنادا لله عز وجل أولا ، ولآدم ثانيا ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالثا ؛ يوسوس بالفجور » .

آدم ، وعادة منه منذ أهانه الله فى سالف الدّهر ؛ لا يُنْجَى [١] منه إلا بعضّ الناجذ على الحقّ ، وغضّ الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدوّ الله والدّين ؛ بالأشدّ فالأشدّ ، والأجدّ فالأجدّ ، وإسلام النّفس لله فيما حاز رضاه ، وجنّب سخطه .

ولا بدّ من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت وخيف غِبُّه ، ولقد أرشدك من أفاء ضالّتك ، وصافاك مَنْ أحيا مودّته لك بعتابك ، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البُقْيا معك .

ما هـذا الذى تسوّل لك نفسُك ، ويَدْوَى [٢] به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ، ويتخاوص [٣] دونه طرفك ، ويستشرى به ضغنك ، ويترادُ معه نَفَسُك ، وتـكثر لأجله صُعَداؤك ، ولا يفيض به لسانُك ! أعجمة بعد إفصاح ؛ ألَبْساً بعد إيضاح أديناً غير دين الله ! أخُلُقا غير خُلُق القرآن ؛ أهَدْيا غير هدى محمد ! أمثلى يُمشى له الضَّراء ويدبّ له الخمَر [٤] ! أم مِثلُك يَغَصّ عليـه الفضاء ، ويـكسَف فى عينه القمر ! ماهـذه القَعْقعة بالشِّنان [٥] ، والوَعْوعة باللِّسان ! إنك لجدّ عارف [٦] باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبتنا ، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه ، فى زمان أنت منه فى كِنّ الصِّبا وخِدْر الغَرارة غافل ، تَشِبّ وتُربَّب . لا تعِى مايُشاد ويراد ، ولا تحصِّل مايساق ويقـاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشـكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التى إليها أجريت [٧] ، وعندها حُطَّ رحلك ، غير مجهولِ القَدْر

---

(١) صبح الأعشى : « لا منجى » .

(٢) دوى الصدر يدوى ؛ من باب علم : ضغن .

(٣) تخاوص : غض بصره عن الأمر شيئا .

(٤) مثل يضرب للرجل يختل صاحبه ويمكر به . ويقال : ما واراك من أرض فهو الضراء ، وماواراك من شجر فهو الخمر .

(٥) يقال فلان لايقعقع له بالشنان ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع.

(٦) صبح الأعشى : « إنك والله » .

(٧) صبح الأعشى : « التى إليها عدل بك » .

ولا مجحود الفضل ، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالًا تزيلُ الرواسي ، ونقاسي أهوالًا تُشيب النواصي؛ خائضين غمارَها ، راكبين تيّارها ، نتجرّع صابها ، ونُشرِجُ[(١)] عِيابها، ونُحكِم آساسها ، ونبرم أمراسَها ، والعيون تحدّج[(٢)] بالحسد ، والأنوف تعطس بالكِبْر، والصُّدُور تستَعِر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والأسنة[(٣)] تشحَذ بالمكْر، والأرض تميدُ بالخوف ، لا ننتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع في نحْرِ أمر إلّا بعد أن نحسُوَ الموت دونه ، ولا نبلغ إلى شيء إلّا بعد تجرّع العذاب قبله ، ولا نقوِّم منآداً إلّا بعد اليأس من الحياة عنده ، فادِين في كلّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ ، والخال والعمّ ، والمال والنَّشب، والسَّبَد[(٤)] واللّبَد ، والهِلّة والبِلّة[(٥)]، بطيب أنفُس وقُرّة أعين ، ورُحب أعطان، وثبَات عزائم ، وصحّة عُقول ، وطلاقة أوْجُه، وذلاقة ألْسن.

هذا إلى خبيئات أسرار ، ومكنونات أخبار؛ كنت عنها غافلًا ، ولولا سنُّك لم تكُ عن شيء منها نا كلا . كيف وفؤادك مشْهُوم[(٦)] وعودك معجوم ، وغيبك مخبور ، والخير منك كثير ! فالآن قد بلغ الله بك ، وأرهصَ[(٧)] الخيرَ لك ، [وجعل مرادك بين يديك][(٨)] ، فاسمع ما أقول لك[(٩)] ، واقبل مايعودُ قبوله عليك[(١٠)] ، ودع التحبّس ، والتعبّس[(١١)]

---

(١) أشرج العيبة : شد عراها . (٢) تحدج : تحدق .

(٣) صبح الأعشى : « والشفار » .

(٤) في اللسان : « السبد الوبر ، وقيل : الشعر ؛ والعرب تقول : « ماله سبد ولا لبد » ، أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد؛ يكنى بهما عن الإبل والغنم ، وقيل : يكنى به عن المعز والضأن ... وقال الأصمعى: ماله سبد ولا لبد ، أى ماله قليل ولا كثير » .

(٥) في اللسان : « ما جاء بهلة ولا بلة ؛ الهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة : أدنى بلل من الخير ، وحكاهما كراع جميعا بالفتح . ويقال : ما أصاب عنده هلة ولا بلة ، أى شيئا » .

(٦) مشهوم ، أى ذكى متوقد .

(٧) أرهص الخير لك : هيأه ، وجعله دانيا منك .

(٨) من صبح الأعشى .

(٩) في صبح الأعشى : « وعن علم أقول ما تسمع » .

(١٠) في صبح الأعشى : « فارتقب زمانك ، وقلص أردانك » .

(١١) نهاية الأرب : « التقاعس » .

لمن لا يضلع[١] لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غضّ ، وفى النفوس مَضّ ، وأنت أديمُ هذه الأمّة فلا تَحلَمْ[٢] لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تَحُلْ أجاجا ، والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا لمن هو ؟ فقال هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يجاحش[٣] عليه ، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمَخ اليه ، وهو لمن يقال له : هو لك ، لا لمن يقول : هولى .

ولقد شاورنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الصّهر ، فذكر فتيانا من قريش ،فقلت له . أين أنت من علىّ ! فقال: إنّى لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه[٤] ، وحِدّة سنّه . فقلت : متى كنفته يدُك ، ورعته عينُك ، حفّتْ بهما البركة ، وأُسبِغت عليهما النّعمة ؛ مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك ، وما كنتُ عرفت منك فى ذلك حوْجاء ولا لوْجاء[٥] ؛ ولكنى قلت ماقلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنتُ لك إذْ ذاك خيراً منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فقد كنّى عن غيرك[٦] ، وإن قال فيك ، فما سكت عن سواك ، وإن اختلج فى نفسك شىء ، فهلمّ فالحكم مرضىّ ، والصواب مسموع ، والحق مُطاع .

ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ماعند الله[٧] وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَدِب ، يسرّه ماسرّها ، ويكيده ما كادها ، ويُرضيه ما أرضاها ، ويسخطه

---

(١) الضلع : الاعوجاج ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب : « يظلع » .
(٢) لا تحلم ، لا تفسد ، وأصله فى الجلد .
(٣) يجاحش ، أى يدفع الناس عنه ليختص به لنفسه .
(٤) ميعة الشباب : أوله .
(٥) فى اللسان : « الحوجاء : الحاجة ، ويقال : ما فى صدرى به حوجاء ولالوجاء ، ولا شك ولامرية بمعنى واحد » .
(٦) صبح الأعشى ونهاية الأرب : « فلم يكن معرضا عن غيرك » .
(٧) صبح الأعشى : « إلى الله عز وجل » .

ما أسخطها . ألم تعلم[1] أنه لم يَدَعْ أحـداً من أصحابه وخُلطائه ، وأقاربه وسُجَرائه[2] ؛ إلاّ أبانَهُ بفضيلة ، وخصّهُ بمزيّة ، وأفرده بحالة ، لو أصفقت الأمة عليه لأجْلِها لـكان عنده إيالتها وكَفالتها .

أتظنّ أنه عليـه السلام تركَ الأمة سُدًى[3] بَدَداً ، عِداً[4] مباهلَ عباهلَ[5] طلاحَى[6] مفتونة بالباطل ، ملويّة[7] عن الحقّ ؛ لاذائد ولا رائد ، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط ، ولاساقيَ ولا واقٍ ، ولاحاديَ ولاهادي ، كلاّ والله مااشتاق إلى ربّه ، ولاسأله المصير إلى رضوانه ، إلّا بعد أن أقام الصُّوى ، وأوضح الهدى ، وأمّن المهالك[8] ، وحَمَى المطارح والمبارك . وإلّا بعدأن شَدَخَ يافوخ الشِّرْك بإذن الله ، وشرم وجه النّفاق لوجه الله ، وجدَع أنف الفتنة فى دين الله ، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله ؛ وصدع بملء فيه ويده بأمر الله .

وبعد ؛ فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة جامعة ، ودار واحدة ، إن استقادوا لك[9] وأشاروا بك ، فأنا واضع يدى فى يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ؛ وإن تـكن الأخرى ، فادخل فى صالح مادخل فيه المسلمون ، وكن العونَ على مصالحهم ، والفاتح لمغالِقهم ، والمرشدَ لضالّهم ، والرادع لغاويهم ؛ فقد أمر الله بالتعاون على البرّ ، وأهاب إلى التناصر على الحقّ . ودعنا نقضِ هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضِّغْن .

---

(١) صبح الأعشى : « أما تعلم » .

(٢) السجراء : جمع سجير ، وهو الصديق .

(٣) سدى : مهملون .

(٤) بددا : متفرقون ، وعدا : متباعدون .

(٥) عباهل مباهل : مهملون أيضا .

(٦) الطلاحى : الإبل التى تشكو بطوناً من أكل الطلح ؛ أراد بها هنا القوم الذين لاراعى لهم يصدهم عما يضرهم .

(٧) صبح الأعشى : « مغبونة » .

(٨) صبح الأعشى : « وأمن المسالك » .

(٩) صبح الأعشى : « إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك » .

وإنما النَّاس[1] ثُمَامة[2] فارفُق بهم ، واحنُ عليهم ، ولِنْ لهم ، ولا تسوّل لك نفسُك فرقتَهم ، واختلاف كلمتهم ؛ واترك ناجمَ الشرّ حصيدا ، وطائر الحِقْد واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، لا قال ولا قيل ، ولا لومَ ولا تعنيف ، ولا عتاب ولا تثريب ، والله على ما أقول وكيل ؛ وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تهيّأتُ للنهوض ، قال لى عمر : كنْ على الباب هنيهةً فلى معك ذَرْوٌ[3] من الكلام . فوقفت وما أدرى ما كان بعدى ، إلّا أنه لحقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا ، وقال لى : قل لعلىّ : الرّقاد محلمة ، واللجاج ملحمة ، والهوى مقحمة ، وما منّا أحدٌ إلا له مقام معلوم ، وحقٌّ مشاع أو مقسوم ، وبناء ظاهر أو مكتوم ؛ وإنّ أكْيَس الكيْسَى مَنْ منح الشارد تألّفا ، وقارب البعيد تلطّفا ، ووزَن كلَّ أمرٍ بميزانه ، ولم يجعل خبره كعِيانه ، ولا قاس فتره بشبره ؛ دينًا كان أو دنيا ، وضلالا كان أو هدى ، ولا خير فى علم معتمل[4] فى جهل ، ولا فى معرفة مشوبة بنكر .

ولسنا كجلدة رُفْغِ البعير بين العِجانِ وبين الذّنبْ[5]

وكلّ صالٍ فبناره يصلَى ؛ وكلّ سيل فإلى قراره يجرى . وما كان سكوت هذه العِصابة إلى هذه الغاية لعىّ وحَصَر ، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر ، فقد جدع الله بمحمد عليه السلام أنفَ كلّ متكبّر ، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار ، وسلّ لسان كلّ كذوب ؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال ! ماهذه الخُنْزُوانة[6] التى فى فَراش رأسك ؟ وماهذا الشّجا المعترض فى مدارج أنفاسك ، وماهذه الوَحَرة[7] التى أكلت شَرَاسيفَك[8] ، والقَذَاة التى أعشَتْ ناظرك ؟ وماهذا الدّخْس[9]

---

(١) صبح الأعشى : « وبعد فإنما الناس » .

(٢) الثمامة : واحد الثمام ، نبت ضعيف ، يضرب به المثل لما هو هين .

(٣) ذرو من الكلام : طرف منه ، وفى صبح الأعشى : « دور » تحريف .

(٤) صبح الأعشى ونهاية الأرب : « مستعمل » .

(٥) الرفغ : أصول الفخذين من باطن .

(٦) الخنزوانة : الكبر .

(٧) الوحرة : العداوة ؛ وأصلها دويبة يشبه بها .

(٨) الشراسيف فى الأصل : جمع شرسوف ، وهو غضروف معلق بكل ضلع ، مثل غضروف الكتف .

(٩) الدحس : التدسيس فى الأمر .

والدّس اللذان يدلّان على ضيق الباع ، وخوَر الطباع ! وما هـذا الذى لَبِسْتَ بسببه جِلْدَ النَمِر ، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر الشدّ ما استسعيت لها ، وسريت سُرَى ابن أنقد[1] إليها؛ إنّ العَوان لا تعلّم[2] الخِمْرة . ما أحوج الفرعاء إلى فالية ، وما أفقر الصلعاء إلى حالية ، ولقد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبَّد[3] مخيّسٌ ، ليس لأحدٍ فيه ملمس ، لم يستَبِر فيك قولا ، ولم يستنزل لك قرآنا ، ولم يجزم فى شأنك حكما ؛ لسنا فى كسروية كِسْرى ، ولا قيصرية قيصر ؛ [تأمّل إخوان فارس وأبنـاء الأصفر ، قد جعلهم الله جَزَرا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ! بل][4] . نحن فى نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة وأثر رحمة ؛ وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرّتق والفتق ؛ لها من الله تعالى قلب أبىّ ، وساعد قوىّ ، ويد ناصرة ؛ وعين ناظرة .

أتظن ّظنًّا أنّ أبا بكر وثب َعلى هذا الأمر مُفتاتا على الأمة ؛ خادِعا لها ، ومتسلّطا عليها ! أتراه امتلخ أحلامها[5] ، وأزاغ أبصارها ، وحلّ عقودها ، وأحال عقولها ، واستلّ من صدورها حميّتها ، وانتكث رشاءها ، وانتضب َماءها ، وأضلّها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادا ، وصلاحها فسادا ! إن كان هكذا ، إنّ سحره لمبين ، وإن كيده لمتينٌ . كلاّ والله ، بأىّ خيل ورجْل ، وبأىّ سنان ونصل ، وبأىّ مُنّة وقوّة ، وبأىّ مال وعُدّة ؛ وبأىّ أيدٍ وشدّة وبأى عشيرة وأسرة ، وبأىّ قدرة ومُكْنَة ، وبأى تدرّع وبسطة ! لقد أصبح بماوسمته منيع الرّقبة ، رفيع العتبة . لا والله لـكن سَلَا عنها فولهتْ نحوه ، وتطامن لها فالتفّت به ، ومال عنها ، فمالت إليه ، واشمأز[6] دونها فاشتملت عليه ؛ حبوةٌ حباه الله بها ، وغايةٌ بلّغه الله إليها ، ونعمة سربله جمالها ، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها ، وأمة نظر الله به

---

(١) ابن أنقد : القنفذ

(٢) إن العوان لا تعلم الخمرة ، مثل ، والعوان : المرأة التى أسنت والا تهرم .

(٣) المعبد : المذلل ؛ ومثله المخيس .

(٤) تـكملة من صبح الأعشى .

(٥) امتلخ أحلامها : اجتذبها ؛ يريد أمال عقولها نحوه .

(٦) اشمأز : انقبض .

لها[١] . وطالما حلقت فوقه في أيام النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفتَها ، ولا يرتصد وقتها؛ والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ؛ ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم، ومنحك من الفقه في الدين ؛ هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها، وفضائلَ اشتملت عليها ؛ ولكن لك[٢] مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنكبك ، وقُربى أمسّ مِنْ قرباك ، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيْبة أروع من شيبتك ، [٣]وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية ،[٣] ومواقف ليس لك فيها جَمَل ولا ناقة ، ولا تذكر فيها في مقدّمة ولا ساقة، ولا تضرِبُ فيها بذراعٍ ولا إصبع ، ولا تعدُّ[٤] منها ببازل ولا هُبَع[٥] .

إن أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعِلاقة[٦] هَمّه ، وعيبة سرّه ومثوى حزنه ، وراحة باله ، ومرمَق طرفه[٧] ؛ شهرته مغنية عن الدلالة عليه[٨] .

ولعمرى إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنّه أقرب منك قُرْبة ، والقرابة لحم ودم، والقُرْبة روح ونفس ، وهذا فَرْقٌ يعرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون .

ومهما شككتَ فلا تشكّ في أنّ يدَ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا ، والفِظْ مِن فيك ما هو متعلّق[٩] بلهاتك ، وانفُث

---

(١) صبح الأعشى : « إليها » .
(٢) في الأصول : « كل » ، وأثبت ما في صبح الأعشى .
(٣–٣) صبح الأعشى : « وسيادة لها أصل في الجاهلية وفرع في الإسلام » .
(٤) صبح الأعشى : « ولا تخرج منها » .
(٥) البازل من الإبل : ما دخل في التاسعة . والهبع : البعير ينتج في الصيف ؛ يريد : ليس لك فيها شيء .
(٦) صبح الأعشى : « علاقة نفسه » .
(٧) بعدها في صبح الأعشى : « وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار » .
(٨) صبح الأعشى : « الدليل » .
(٩) صبح الأعشى : « يعلق » .

سَخِيمة صدرك ، فإن يكن فى الأمد طُول ، وفى الأجل فسحة ، فستأ كله مريئاً أو غير مرى ، وستشرب به هنيئاً أو غير هنى ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا مَنْ كان طامعا فيك ، حين يمضّ إهابَك ، ويفرِى أديمَك ، ويزرِى على هَدْيك ، هناك تَقْرَع السنّ من ندم ، وتشرب الماء ممزوجا بدم ، حين [1] تأسى على ما مضَى من عمرك ، وانقضى وانقرض من دارِج قومك؛ وتودّ أن لو سُقِيت بالكأس التى سقيتَها غيرك ، ورُدِدت إلى الحال التى كنت تكرهها فى أمسِك ، ولله فينا وفيك أمر هو بالغه ، وعاقبة هو المرجّو لسرّائها وضرّائها ، وهو الولىّ الحميد الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فمشيت إلى علىّ متبِّطا متباطئا ، كأنما أخطو على أمّ رأسى فَرَقاً من الفتنة ، وإشفاقا على الأمّة ، وحذرا من الفرقة؛ حتى وصلت إليه فى خلاء فأبثثته بثى كلّه ، وبرئت إليه منه ، ودفعته له . فلما سمعها ووعاها ، وسرَت فى أوصالِه حُمَيّاها قال : حلّت معلوّطة ، وولت مخروّطة [2] ، ثم قال :

إحْدَى لياليكِ فهِيسِى هِيسِى لَا تَنْعَمِى اللَّيْلَةَ بالتَّعْرِيسِ [3]

يا أبا عبيدة ، أهذا كلّه فى أنفس القوم يستنبطونه [4] ويضطغنون عليه ! فقلت : لا جواب عندى ، إنّما جئتُك قاضيا حقّ الدين ، وراتقاً فتق الإسلام [5] ، وسادًّا ثُلْمة الأمة ؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان [6] قلبى ، وقرارة نفسى .

---

(١) صبح الأعشى : « حينئذ » .

(٢) المعلوطة : من الاعلواط ؛ وهو ركوب الرأس ، والتقحم على الأمور من غير روية ، والمخروطة : السريعة .

(٣) فى اللسان ٨ : ١٣٩ : « الهيس : السير ؛ أى ضرب كان ، وهاس يهيس هيسا : سار أى سير كان ؛ حكاه أبو عبيدة » ، وروى البيت .

(٤) صبح الأعشى : « ويحسون به » .

(٥) صبح الأعشى : « المسلمين » .

(٦) الجلجلان : حبة القلب .

فقال : ما كان قعودى فى كِسْر هـذا البيت قصداً لخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زراية على مُسلم ، بل لما وَقَذَنِى به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من فراقه ، وأودعنى من الحزن لفقده ، فإنّى لم أشهد بعده مشهدا إلا جدّد علىّ حزنا ، وذكّرنى شَجَنا ؛ وإنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق منه ؛ رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه ؛ على أنّى أعلم أنّ التظاهر علىّ واقع ، ولى عن الحق الذى سيق إلىّ دافع ، وإذ قد أُفْعِمَ الوادى لى ، وحُشِدَ النادى علىّ ؛ فلا مرحبا بما ساء أحداً من المسلمين ؛ وفى النّفس كلام لولا سابق قولٍ ، وسالف عهد ، لشفيتُ غيظى بخنصرى وبنصرى ، وخُضْتُ لُجّته بأخمصى ومَفْرَق ، ولكنّى ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى ، عنـده أحتسب ما نزل بى ، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ؛ وصابر على ماساءنى وسرّكم ، ليقضىَ الله أمرا كان مفعولا ، وكان الله على كل شىء شهيدا .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبى بكر وعمر ، فقصصتُ القولَ على غَرّه ، ولم أترك شيئا من حلوه ومُرّه ، ذكرت [1] غُدُوّه إلى المسجد ؛ فلما كان صباح يومئذ [2] وافى علىّ يخرق الجماعة إلى أبى بكر وبايعه [2] ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زُمَيْتاً [3] ، واستأذن للقيام ونهض ، فتبعه عمر إكراماً له ، وإجلالاً لموضعه ، واستنباطا [4] لما فى نفسه ، وقام أبو بكر إليـه فأخذ بيده ، وقال : إنّ عِصابة أنت منها ياأبا الحسن لمعصومة ، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزا علينا ، كريما لدينا ، نخاف الله إن سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أنى شُدِهت لما أجبت إلى مادعيت إليـه ، ولـكنى خفت

---

(١) صبح الأعشى ، : « وبكرت » .

(٢ــ٢) صبح الأعشى : « وإذا على يخترق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فبايعه » .

(٣) صبح الأعشى : « زميتا » ، أى حليما وقورا .

(٤) صبح الأعشى : « مستأثرا لما عنده » .

الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر عَلَى قريش ، وأعجِلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك ، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلى به ، وما أسعد [1] من ينظر الله إليه بالكفاية ! وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهَدْيك فى جميع الأحوال راغبون ، وعَلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر .

فالتفت علىّ إلى عمر فقال : ياأبا حفص ، والله ماقعدت عن صاحبك جزعا على ماصار إليه ، ولا أتيته خائفا منه ، ولا أقول ما أقول بعلّة [2] ، وإنى لأعرف مَسْمَى طرْفى ومَخْطَى [3] قدمىّ ، ومنزع قوسى ، وموقع سهمى ؛ ولكنى تخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذى جعله لى رسول الله ؛ وأتيت فبايعت ، حفظا للدّين ،وخوفا من انتشار أمر الله .

فقال له عمر: ياأبا الحسن ، كَفْكِفْ من غرْبك، ونَهْنِه [4] من شرّتك، ودع العصا بلحائها ، والدلو برشائها ، فإنّا مِنْ خَلْفها وورائها .إن قدَحْنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قرَحْنا أدمينا ، وقد سمعت أمثالك التى ألغزت بها صادرة عن صدر دَوٍ ، وقلب جَوٍ . زعمت أنك قعدت فى كِسرْ بيتك لِمَا وَقَذَك به فراق رسول الله . أفراق رسول الله صلى الله عليه ، وَقَذَك وحدك ولم يقِذْ سواك ! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك ، وإنّ من حقّ مصابه ألّا تَصدع شَمْل الجماعة بكلمة لاعصام لها ، فإنك لَترَى الأعراب حولَ المدينة لو تَداعَتْ علينا فى صبح يوم لم نَلْتقِ فى ممساه . وزعمت أنّ الشّوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، فمن الشّوق إليه نصرة دينه ، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه .

---

(١) كذا فى د ، وفى ب : « أسد » .

(٢) صبح الأعشى : « تعلة » .

(٣) صبح الأعشى : « منتهى طرف ومحط قدمى » .

(٤) صبح الأعشى : « واستوقف من سربك » .

وزعمتَ أنّك مكبٌّ على عهد الله تجمع مانفرّق منه ، فمن العكوف على عهده النّصيحة لعباده ، والرأفة على خلقه ، وأن تبذل من نفسك مايصلُحون به ويجتمعون عليه.

وزعمتَ أنّ التظاهر عليك واقع ؛ أيّ تظاهر وقع عليك ! وأيّ حقٍ استُؤثر به دونك ! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهرا ، وما تقلّبَتْ عليه ظهرا وبطنا ، فهل ذكرتك أو أشارت بك ، أو طلبت رضاها من عندك ! وهؤلاء المهاجرون ؛ مَن الّذى قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر ، أوأومأ إليك ، أوهمهم بك فى نفسه ! أنظنّ أنّ الناس ضلّوا من أجلك ، أو عادوا كُفّاراً زهدا فيك ، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضاً لك ! (١ ولقد جاءنى قوم من الأنصار ، فقالوا : إنّ عليًّا ينتظر الإمامة١) ، ويزعم أنّه أولَى بها من أبى بكر ، فأنكرتُ عليهم ورددتُ القول فى نحورهم ، حتى قالوا : إنّه ينتظر الوحىَ ويتوكّف (٢) مناجاة الملك ! فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد محمّد عليه السلام.

ومن أعجب شأنك قولك : « لولا سابق قول لشفيت غيظى بخنصرى وبنصرى » ! وهل ترك الدّين لأحدٍ أن يشفىَ غيظه بيده أو لسانه ! تلك جاهليّة استأصل الله شأفتها، واقتلع جرثومتها ، ونوّر ليلها ، وغوّر سيلها ، وأبدل منها الرّوح والريحان ؛ والهدى والبرهان !

وزعمت أنّك ملجَم ، فلعمرى إنّ من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ماعنده، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ، وغلب عقلُه ودينه على هواه .

وأما قولُك : « إنّى لأعرف منزَع قوسى » ، فإذا عرفتَ مَنْزَع قوسِك عرف غيرُك مضرَب سيفه ، ومطعَن رمحه . وأمّا ماتزعمه من الأمر الذى جعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم لك ، فتخلّفت إعذاراً إلى الله ، وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون

(١ـ١) صبح الأعشى : « لقد جاءنى عقيل بن زياد الخزرجى فى نفر من أصحابه ، ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجى ، وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة » . (٢) يتوكف : ينتظر .

لجنحُوا إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمَعهم على العَمى ، ولا ليضرِبَهم بالصبا بعد الهدى ، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ؛ فرأى اجتماع أمّته على أبى بكر ، لما سفّه آراءهم ، ولا ضلّل أحلامهم ، ولا آثرك عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولأمَرَك باتّباعهم ، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم .

فقال علىّ : مهلا أبا حفص أرشدك الله ! خفّض عليك ، مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد عنه حِوَلًا ، وإن أخسرَ النّاس صفقة عند الله مَنْ استبطن النفاق ، واحتضن الشّقاق ، وفى الله خَلف عن كلّ فائت ، وعِوَضٌ من كلّ ذاهب ، وسلْوة عن كلّ حادث ، وعليه التوكّل فى جميع الحوادث . ارجع أبا حفصٍ إلى مجلسك ناقعَ القلب ، مبرود الغليل ، فصيح اللسان ، رحب الصّدر ، متهلّل الوجه ، فليس وراء ماسمعته منّى إلّا مايشدّ الأزْر ، ويحبط الوِزْر ، ويضع الإصْر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، إن شاء الله .

فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلسا كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس [1] .

***

قلت : الذى يغلب على ظنّى أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوع موضوع ، وأنّهُ من كلام أبى حيان التوحيدىّ ، لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبَه ، وقد حفظنا كلامَ عمر ورسائله ، وكلام أبى بكر وخُطبه ، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ، ولا يسلكان هذا السبيل فى كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ! ومَنْ تأمّل كلامَ أبى حيّان عرف أنّ

(١) الخبر فى صبح الأعشى ١ : ٢٣٧ – ٢٤٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣ – ٢٢٩ ، ومحاضرة الأبرار ٢ : ١٠٢ – ١١٥ ، ونشره إبراهيم الكيلانى مع رسالتين لأبى حيان فى دمشق ١٩٥١ .

هذا الكلام من ذلك المعدِن خرج ؛ ويدلّ عليه أنه أسنده إلى القاضى أبى حامد المروَرّوذى[(١)]؛وهذه عادته فى كتاب " البصائر " يسند إلى القاضى أبى حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه ، وإنما ذكرناه نحن فى هذا الكتاب ، لأنه وإن كان عندنا موضوعا منحولا ، فإنّه صورة ماجرت عليه حال القوم ، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال ، فقد نطقوا به بلسان الحال .

ومما يوضّح لك أنه مصنوع ، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعريّة وأصحاب الحديث ، وكلّ مَنْ صنّف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية ، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللّفظة الشاذّة ، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام ، فى معرض التألّم والتظلّم ، فيحتجّ بها ، ويعتمِد عليها ، نحو قوله : « مازلت مظلوما مذ قبِض رسول الله حتّى يوم الناس هذا » .

وقوله : « لقد ظُلِمتُ عَدَد الحجر والمَدَر » .

وقوله : « إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه ، وإن نُمنعْه نركبْ أعجازَ الإبل ، وإن طال السُّرى » .

وقوله : « فصبرتُ وفى الحلق شجاً ، وفى العين قذًى » .

وقوله : « اللهمّ إنى أستعديك على قريش فإنّهم ظلمونى حقّى ، وغصبونى إرثى » .

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه ، فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه ، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث! وهلاذُكِر فى كتاب " الشافى فى الإمامة "

---

(١) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المروروذى ؛ أحد فقهاء الشافعية ؛ ترجم له ابن خلكان ١ : ١٨ ، ١٩ توفى سنة ٣٦٢ .

كلام أمير المؤمنين عليه السلام هـذا ، وكذلك من قبله من الإماميّة كابن النعمان ، وبنى نُوبخت ، وبنى بابويه وغيرهم ، وكذلك مَنْ جاء بعده متأخّرى متكلّمى الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا ! وأين كانَ أصحابُنا عن كلام أبى بكر وعمرله عليه السلام ! وهلّا ذكره قاضى القضاة فى '' المغنى '' مع احتوائه على كلّ ماجـرى بينهم ، حتى إنّه يمـكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد فى أخبار السقيفة ! وهلاّ ذكره مَنْ كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَنْ جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا ! وكذلك القول فى متكلّمى الأشعريّة وأصحاب الحديث كابن الباقلانىّ وغيره ، وكان ابنُ الباقلانىّ شديداً على الشّيعة ، عظيم العصبيّة عَلَى أمير المؤمنين عليـه السلام ، فلو ظفرَ بكلمة من كلام أبى بـكر وعمر فى هـذا الحديث لملأَ الـكتب والتصانيف بهـا ، وجـعلهـا هِجّيراه ودَأْبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هـذه القصّة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ، ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر ، وأقلّ أنس بالتواريخ .

* * *

قوله عليـه السلام : « مودّع لا قالٍ ولا مبغض ولا سئم » ، أى لا ملول ، سئمت من الشىء أسأم سأما وسآما وسآمة ، سئمته إذا مللته ، ورجل سؤوم .

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى ، فقال : « إن انصرفتُ فلا عن ملالة ، وإن أقمت فلا عن سوء ظنّ بمـا وعد الله الصابرين » ، أى ليست إقامتى عَلَى قبرِك وجزعى عليك، إنـكاراً منى لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّى والتأسّى ، وما وعد الله به الصـابرين من الثواب ، بل أنا عالم بذلك ، ولـكن يغلبنى بالطّبع البشرىّ .

وروى أن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن

ابن الحسن عليه السلام سنة ، فلما انقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها ، فسمعت هاتفا يقول : هل بلغوا ماطلبوا ! فأجابه هاتف آخر ، بل يئسوا فانصرفوا .

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه " الكامل " أنّ عليه السلام تمثّل عند قبر فاطمة :

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأنّنى ... بردّ الهموم الماضيات وكيلُ[1]

لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ ... وكلّ الذى دُون الفراق قليلُ

وإن افتقادى واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ عَلَى ألاّ يدوم خليلُ

والناس يرونه :

* وإن افتقادى فاطما بعد أحمدٍ *

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الحادى عشر

---

(١) الكامل ٤ : ٣٠ (طبعة نهضة مصر) ، ولم يذكر هناك البيت الأول .

فهرس الخطب *

	الصفحة
١٧٥ ـ ومن كلام له عليه السلام فى معنى طلحة بن عبيد الله	٣
١٧٦ ـ من خطبة له عليه السلام فى ذم الغافلين	١٠
١٧٧ ـ من خطبة له عليه السلام يحذر فيها من متابعة الهوى ، ثم يبيّن منزلة القرآن ويطلب متابعته، ثم يحث على الطاعة وحفظ اللسان	١٦ ـ ٣٣
١٧٨ ـ من كلام له عليه السلام فى معنى الحكمين	٥٥
ـ من خطبة له عايه السلام يمجّد فيها الله ثم يحذّر من الدنيا ، ويذكر أن زوال النعم من سوء الفعال	٥٨ ـ ٦١
١٨ ـ من كلام له عليه السلام فى تنزيه الله سبحانه ، وقد سأله ذعلب اليمانى : هل رأيت ربك ؟	٦٤
١٨١ ـ من كلام له عليه السلام فى ذمّ أصحابه	٦٧
١٨٢ ـ من كلام له عليه السلام فى ذمّ قوم نزعوا اللّحاق بالخوارج	٧٤
١٨٣ ـ من خطبة له فى تنزيه الله وذكر آثار قدرته ، ثم التذكير بما نزل بالسابقين ، ثم أظهر أسفه على إخوانه الذين قتلو بصفين مع ذكر بعض أوصافهم	٧٦ ـ ١٠٦
١٨٤ ـ من خطبة له عليه السلام فى تعظيم الله وتمجيده ، وذكر القرآن وما احتوى عليه ، ثم بيان منزلة الإنسان فى الدنيا والتخويف من عذاب الآخرة	١١٣ ـ ١٢٣

* وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

*

الصفحة

١٨٥ ــ من كلام له عليه السلام فى ذم البرج بن مسهر الطائى	١٣٠
١٨٦ ــ من كلام له عليه السلام فى وصف المتقين	١٣٢ ــ ١٤٩
١٨٧ ــ من خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين	١٦٣ ، ١٦٤
١٨٨ ــ من خطبة له عليه السلام فى تمجيد الله وذكر بعض صفاته	١٧٠ ، ١٧١
١٨٩ ــ من خطبة له عليه السلام يعظ فيها الناس ويحث على العمل الصالح قبل فوات الأوان	١٧٦
١٩٠ ــ من خطبة له عليه السلام يذكر فيها مواقفه من الرسول صلى الله عليه وسلم	١٧٩
١٩١ ــ من خطبة له عليه السلام ، فيها تمجيد لله وتعظيم له ، وحث الناس على التقوى ، ووصف للإسلام وحال الناس قبل البعثة	١٨٨ ــ ١٩٩
١٩٢ ــ من كلام له عليه السلام يوصى أصحابه	٢٠٢ ، ٢٠٣
١٩٣ ــ من كلام له عليه السلام فى شأن معاوية	٢١١
١٩٤ ــ من كلام له عليه السلام فى الوعظ ، وفيه استطراد لقصة صالح عليه السلام	٢٦١
١٩٥ ــ من كلام له عليه السلام عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام	٢٦٥

فهرس الموضوعات *

	صفحة
فصل فى ذكر بعض أقوال الغلاة فى علىّ عليه السلام	١٠ ، ١١
جملة من أخبار علىّ بالأمور الغيبية	١٣ — ١٥
فصل فى القرآن وذكر الآثار التى وردت بفضله	٢٠ — ٢٤
فصل فى الآثار الواردة فى شديد عذاب جهنم	٣٥ — ٣٧
فصل فى العزلة والاجتماع وماقيل فيهما	٣٧ — ٤٢
فوائد العزلة	٤٢ — ٥٤
كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر	٥٦ ، ٥٧
نوف البكالى	٧٦ ، ٧٧
نسب جعدة بن هبيرة	٧٧ — ٧٩
نسب العمالقة	٩٣ ، ٩٤
نسب عاد وثمود	٩٤
نسب الفراعنة	٩٤ —
نسب أصحاب الرسّ	٩٤ ، ٩٥
عمار بن ياسر ونبذ من أخباره	١٠٢ — ١٠٧
ذكر أبى الهيثم بن التيهان وطرف من أخباره	١٠٧ ، ١٠٨
ترجمة ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت	١٠٨ ، ١٠٩

* وهى الموضوعات الواردة أثناء الشرح .

صفحة

ذكر سعد بن عبادة ونسبه	١١١ ، ١١٢
ذكر أبي أيوب الأنصاريّ ونسبه	١١٢
نبذ وأقاويل فى التقوى	١٢١ ، ١٢٢
طرف وأخبار	١٢٥ ، ١٢٦
خطبة لأبي الشخباء العسقلانى	١٢٦ ، ١٢٧
رأى للمؤلف فى كتاب نهج البلاغة	١٢٨ ، ١٢٩
فصل فى فضل الصمت والاقتصاد فى المنطق	١٣٦ ، ١٣٨
ذكر الآثار الواردة فى آفات اللسان	١٣٨ ـ ١٤١
ذكر الخوف من الله وما ورد فيه من الآثار	١٤٦ ، ١٤٧
ذكر بعض أحوال العارفين	١٦١
ذكر خبر موت الرسول عليه السلام	١٨٣ ـ ١٨٦
فصل فى ذكر الآثار الواردة فى الصلاة وفضلها	٢٠٥ ـ ٢٠٨
ذكر الآثار الواردة فى فضل الزكاة والتصدّق	٢٠٨ ـ ٢١٠
سياسة علىّ وجريها على سياسة الرسول عليه السلام	٢١٢ ، ٢١٣
كلام أبي جعفر الحسنى فى الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلى عليه السلام	٢٢٣ ـ ٢٢٧
سياسة علىّ وإيراد كلام للجاحظ فى ذلك	٢٢٧ ـ ٢٣١
ذكر أقوال مَنْ طعن فى سياسة علىّ والردّ عليها	٢٣٣ ـ ٢٦٠
قصة صالح وثمود	٢٦٢ ـ ٢٦٤
ما رواه أبو حيان التوحيدىّ فى قصة السقيفة	٢٧١ ـ ٢٨٨

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY